مِن وَحْيِ «حَضَارة الأسْلَام» «١»

هَكذا يُعَلِّمُ الرَّبَّانِيُّون

الأسْتَاذ الدّكتور
محمّد أديب الصّالح
أسْتَاذ ورَئيس قِسْم القرآن والسُّنّة
بجَامِعَة دِمَشق سَابقًا
رَئيس تحرير مجلّة «حَضَارَة الإسْلَام»

المكتب الاسلامي

الطبعة الأولى

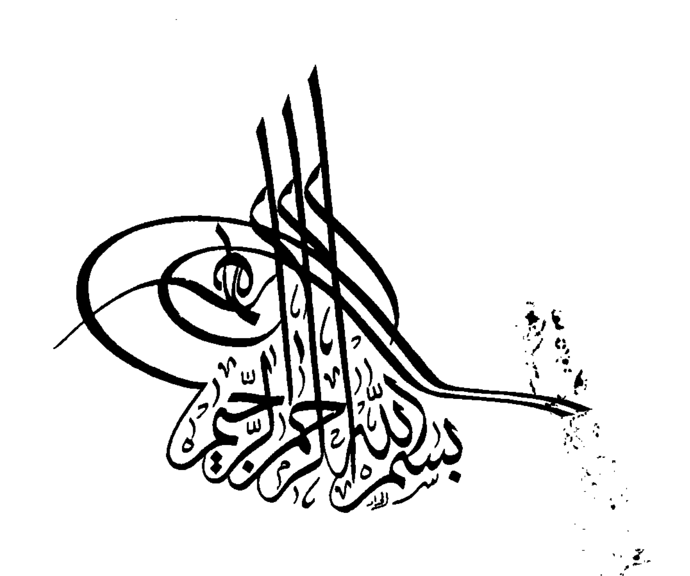
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

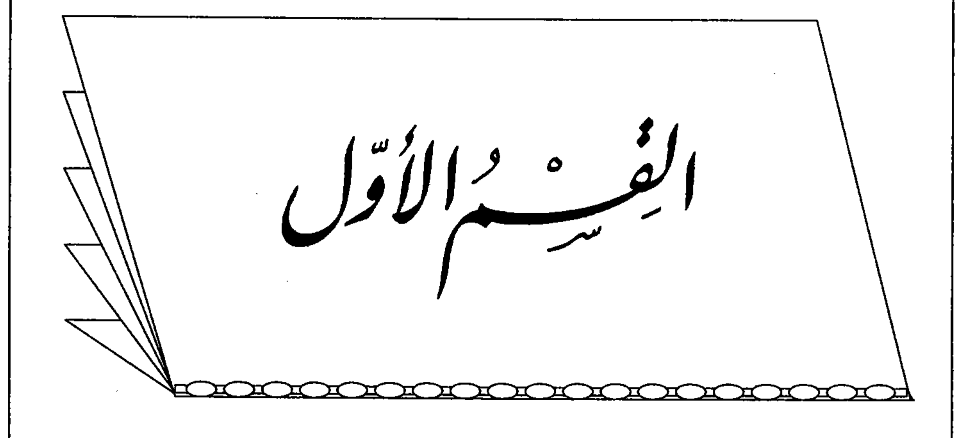


المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

هَكذا يُعلِّمُ الرَّبانِيُّون


بسم الله الرحمن الرحيم


القسم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الذي لا ربّ غيره ولا خير إلا خيره، له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه سبحانه يعلم القول في السماء والأرض، ويوفق من شاء إلىٰ صالح القول والعمل وهو السميع العليم.

أحمده حمداً يليق بجلاله وكماله، كما يريد وفوق ما نريد، له العتبىٰ حتىٰ يرضىٰ، ومنه الخير وإليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ولا ندَّ له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفوته من خلقه أرسله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره المغضوب عليهم الظالمون، ومن ورائهم الضالون المكذبون.

والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان علىٰ صفوة الله من خلقه، ومصطفاه من رسله، إمام الهدىٰ ومعلم الناس الخير سيدنا محمد بن عبد الله، الذي ابتعثه في الأميين رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغرّ الميامين والأوفياء المجاهدين، ومن تبعهم بإحسان وجاهد في سبيل الله إلىٰ يوم الدين.

وَبَعـْـد: فهذه صفحات تتحدث عن صفوة من أحباب الله الربانيين الذين علموا وعلَّموا وعملوا، واجتهدوا في إيصال الخير إلىٰ الآخرين علىٰ بيِّنة من ربهم في نور هداية الإسلام، وهو حديث يصحبه شيء من الدراسة والتحليل،

قدر المستطاع بغية الوصول إلىٰ ما يمكن من تيسير الانتفاع لنفسي وللأخ القارئ بمواقف الواحد منهم، وكلماته ومواعظه وسلوكه علماً وعملاً، درساً وتدريساً وجلباً للخير إلىٰ المسلمين، ناهيك عن الزهادة والتألُّه والعبادة، والجهاد في سبيل الله، علماً بأن النسب متصل بين سلوك الربانيين في رسالة العلم والعمل والدرس والتدريس والإصلاح، وبين طبيعة الرسالة المحمدية ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. الأمر الذي يذكر بالقاعدة المباركة التي يقوم عليها بناء الربانية وهي التي يغمرنا فضلها المنوّر بقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران] والصفحات المومىٰ إليها، كنت في ماضٍ يربو علىٰ ثلاثين عاماً أكتبها لركنٍ في مجلة «حضارة الإسلام» الدمشقية التي أشرف برئاسة تحريرها عنوانه: «هكذا يعلم الربانيون» وكنت أسعد بكتابتها، كما أسعد بحسن تلقي القراء الكرام مع الثناء وطلب المزيد. وقد تمّ النشر في المجلة المذكورة ـ حضارة الإسلام ـ ذات التميز والقبول ـ والحمد لله ـ خلال عدد من السنين وكانت الكلمات عن أولئك الرجال تلقىٰ ما تلقىٰ من القبول الحسن عند القراء، وطلب الاستزادة من هذا النوع من الترجمة والدراسة والبحث.

وأنشرها اليوم، وبناء علىٰ رغبة الكثيرين ممن لا ملك لي بمخالفتهم، وزوَّدت ما كتبت بقدر كاف من التوثيق، وقدرٍ لا بأس به من الزيادة والتنقيح والتحرير، كما حرصت على إثبات تاريخ النشر بالسَّنة والشهر في الحاشية، لما لذلك من فائدة كبيرة للقارئ إن شاء الله. راجياً من الله تبارك وتعالىٰ أن يجد قرّاؤنا الكرام من خلال صلتهم بهذا الكتاب ما يأملون من الفائدة المرجوة والنفع الذي يصبون إليه.

وهنا لا بدّ من التذكير بتكريم الله للربانيين وثقل الأمانة التي حملوها بأن «الرباني» هو المنسوب للرب تبارك وتعالىٰ ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ والألف والنون للمبالغة. ويمكن القول بأن الرباني هو الذي يقوم في نفسه علىٰ العلم

والعمل والإخلاص، وفي علاقته بالآخرين علىٰ طاعة الله بمخاطبة القلوب والعقول بكلمة الإسلام. ولا يألو أحدهم جهداً في إيصال الخير للآخرين، وتربية الناس علىٰ ما يخاطبهم به من هدي الكتاب والسنّة، وهي تربية بالكلمة والقدوة. ومن أخلاق الربانيين: قال عبد الله بن عمران: سمعت مجاهداً يقول: «صحبت ابن عمر ﷺ وأنا أريد أن أخدمه، فكان هو الذي يخدمني».

والحق الذي لا مرية فيه: هو أن هؤلاء الربانيين يمثلون الوجود العملي في حياة المسلمين لما يهدف إليه المنهج القرآني من تربية المسلم علىٰ العلم والعمل، والإخلاص في عبادة الله وطاعته، وملاحظة التقوىٰ في النية والعمل والسلوك، لما أن ذلك هو المعتصم ـ بحول الله ـ من أن تزيغ بهذا المسلم ـ ذكراً كان أو أنثىٰ ـ الأهواء وتتقاذفه الفتن، أو يباعد حب الدنيا والذلة لشهواتها ورغباتها بينه وبين تحقيق الغاية المثلىٰ وهي العبودية الخالصة لله ﷻ، وأن يكون علىٰ كل أحواله في مرضاته سبحانه، الأمر الذي يعقب ـ بفضل الله ـ النجاة يوم الحساب والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

ولنذكر أنه كلما ازداد طغيان المادة علىٰ النفوس، وتفاقم التماع الوارد المعادي للقيم الخيِّرة والأفكار المنبثقة عن حقائق الإسلام ومنهجه في السلوك: ازدادت الحاجة إلىٰ التعرف علىٰ هؤلاء البررة والانتفاع بسلوكهم ماضيَ الأمة وحاضرها، والخير كلُّ الخير في الوقوف تربية وتعليماً وإعداداً عند الذي رسمته الهدايةُ الربانية. . .

وما دام الأمر كذلك: فلنقدر تلك الصفات التي يتحلىٰ بها من تفضل الله عليهم بأن يكونوا المتحققين بما عناه قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

من هنا كان من الأمور التي هي موضع الإعجاب والغبطة ما يشهده المرء، حين يرجع البصر في سلوك أولئك الرجال الذين نسبهم ربنا تبارك وتعالىٰ لنفسه ـ أولئك الذين تسعد بهم الأمة ويشرف بسلوكهم التاريخ ـ من تكامل في البنية التربوية حيث لا تنمو قضية جوهرية علىٰ حساب قضية جوهرية أخرىٰ، فتراهم يستبقون الخيرات متحلّين بكريم الخلائق في كل ميدان يقوَوْن فيه علىٰ السباق في مضماره، ولا يتخلفون عن مكرمة يشهدها مَن همُّهم نصرة

دين الله في أنفسهم، وفي المجتمع، بل والأمة علىٰ حدّ سواء، الأمر الذي يذكر بما كشفت عنه الكلمة الهادية في القرآن؛ من تنوُّع وتعدُّد في المسالك التي تصل أصحابها بمرضاة الله ﷻ، وتضمن لهم إن أحسنوا اصطحابها الجزاء الموفور في الدنيا والآخرة؛ كالذي نرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة].

والذي يستوقفك وأنت تتبصّر في سلوك هؤلاء العلماء الحكماء المجاهدين: أنك إذا تجاوزت الحيز النظري في الكلام المحدد عن واحد منهم، وتحوّلت إلىٰ الواقع العملي رأيت الكثرة الكاثرة التي تتحلىٰ بالعلم النافع والعمل الصالح ـ ومن ذلك الجهاد في سبيل الله ـ واستوقفك ارتياد شتىٰ ميادين الصلاح والإصلاح، بدءاً من الدرس والتدريس والتعليم، إلىٰ التعاون المثمر في سبيل الصلاح والإصلاح، وصدق الوجهة في التألُّه والتنسُّك والتربية بالكلمة والقدوة، والتجرُّد عن كل ما يتنافىٰ مع الإخلاص من رياء أو غيره والعياذ بالله.

وهذا ما تؤكده المصادر التي حملت إلينا أسماء الكثيرين من حملة الأمانة في تاريخنا علىٰ أنهم ربانيُّون.

وحرصاً علىٰ عدم الإطالة، سأكتفي ببعض ما نقلت إلينا المصادر من مقولات الإمام الذهبي في هذا الميدان، ها هو ذا يقول عبد الله بن مسعود: الإمام الرباني الحبر فقيه الأمة رضي الله عنه. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: العالم البحر العابد العالم الرباني رضي الله عنهما، وكان رسول الله ﷺ يفضله علىٰ أبيه. ونقل إلينا قول ابن الحنفية يوم مات ابن عباس قوله: اليوم مات ربانيُّ هذه الأمة. ويقول عن أبي القاسم الزيدي الحرّاني علي بن أحمد الحسيني الحنبلي: قلت: وكان رجلاً صالحاً ربانياً. أما عن حاتم الأصم فيقول:

الزاهد القدوة الرباني، ويقول عن واحد من أصحابه: أحمد بن خضرويه: الزاهد الكبير الرباني، وعن أبي عبد الرحمٰن الأنصاري الخزرجي يقول: العالم الرباني. أما عن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ فيقول: وكان أبو موسىٰ صواماً قواماً ربانياً زاهداً عابداً... إلخ. وعن عبد الرحمٰن بن شريح يقول: الإمام القدوة الرباني أبو شريح المعافري الإسكندراني العابد. وها هو ذا يقول في ترجمة حفص بن ميسرة وهو الإمام المحدث الثقة، وكان ناسكاً ربانياً. أما عن علي بن الفضيل فيقول رحمه الله: وكان علي قانتاً لله، خاشعاً، وجلاً، ربانياً كبير الشأن. ولا يدع أن يقول عن عبد الرحمٰن بن أبي نُعم: الإمام الحجة القدوة الرباني أبو الحكم البجلي الكوفي. وينقل عن أبي بكر بن عياش أن الضحاك بن مزاحم دخل الكوفة فرأىٰ جنازة أبي إسحاق السبيعي وكثرة من فيها من الأخيار فقال: كأن هذا فيهم رباني. أما عن بشر بن الحارث (الحافي) فيقول: الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة شيخ الإسلام. وعن الإمام المحدث شجاع بن الوليد يقول الذهبي: الإمام المحدث العابد الصادق أبو بدر السكوني الكوفي نزيل بغداد، وكان إماماً ربانياً من العلماء العاملين حديثه في دواوين الإسلام، وقع لنا جملة صالحة من عواليه. أما عن محمد بن أسلم الطوسي: فيقول: وسمعت أبا إسحاق المزكي، سمعت ابن خزيمة يقول: حدثنا ربانيُّ هذه الأمة محمد بن أسلم الطوسي. وفي الكلام علىٰ أبي عمر المقدسي: قال الإمام الذهبي: قلت: كان قدوة صالحاً عابداً قانتاً لله ربانياً خاشعاً مخلصاً. وها هو ذا يقول عن أحد العارفين العالم المجاهد محمد بن واسع: الإمام الرباني القدوة.. أحد الأعلام. ويقول عن العلاء بن زياد: وكان ربانياً قانتاً لله، بكَّاءً من خشية الله. وفي شأن محمد بن أسلم يقول الذهبي رحمه الله: كان زنجويه بن محمد إذا حدّث عن محمد بن أسلم يقول: حدثنا الزاهد الرباني. وعند الكلام علىٰ منصور بن عمار يذكرنا بأنه الواعظ البليغ الفصيح الرباني.

وبعد هذا: كم هو رائع حقاً أن نستذكر أن خشية الله عند هؤلاء العلماء الربانيين مضموماً إليها الإخلاص الذي تبعث عليه الخشية: من العوامل الأصيلة فيما وضع الله لهم من العقول، وفيما وعدهم به مولاهم من حسن

العاقبة يوم الدين، ويرحم الله ابن عطاء السكندراني إذ يقول في «الحكم»: ٤٩: «العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه، وينكشف به عن القلب قناعه»، ويقول: «خير العلم ما كانت الخشية معه» ومن الخير أن لا يغفل عن التكامل الواضح في تحرك هؤلاء الكرام؛ فقد جاء عن الرباني شقيق البلخي أنه مع تألهه وزهده كان من رؤوس الغزاة كما جاء في «السير»: ٩/ ٣١٤ ومثله كثير كعبد الله بن المبارك ومحمد بن واسع وآخرين.

ولعلّ من الخير أن نشير هنا إلىٰ صورة من هذا التكامل في حركة العالم الرباني: كالذي نرىٰ عند سيد التابعين وإمام الربانيين في عصره، البحر القدوة: الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ. فقد جاء في «السير» ٤/ ٥٧٩: وقال أبو سعيد بن الأعرابي في «طبقات النساك»: كان عامة من ذكرنا من النساك يأتون الحسن، ويسمعون كلامه، ويذعنون له بالفقه، في هذه المعاني خاصة؛ وكان عمرو بن عبيد، وعبد الواحد بن زيد من الملازمين له، وكان له مجلس خاص في منزله، لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك وعلوم الباطن، فإن سأله إنسان غيرها، تبرم به وقال: إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر. فأما حلقته في المسجد فكان يمر فيها الحديث، والفقه، وعلم القرآن، واللغة، وسائر العلوم، وكان ربما يسأل عن التصوف فيجيب وكان منهم من يصحبه للحديث، ومنهم من يصحبه للقرآن والبيان، ومنهم من يصحبه للبلاغة، ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص، كعمرو بن عبيد، وأبي جَهِير، وعبد الواحد بن زيد، وصالح المُرِّي، وشميط، وأبي عبيدة الناجي؛ وكل واحد من هؤلاء اشتهر بحال ـ يعني في العبادة ـ.

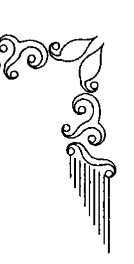
وهذا ـ أو بعضه ـ جدير بأن يذكر بما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية من أن الثناء الحسن علىٰ الميت يجيز الشهادة له بالجنة، وضرب مثلاً بالعديد من هؤلاء الكبار من أئمة الربانيين. قال رَحِمَهُ اللهُ: وقال طائفة: بل من استفاض من بين الناس إيمانه وتقواه، واتفق المسلمون علىٰ الثناء عليه، كعمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، وعبد الله بن المبارك رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وغيرهم، شهدنا له بالجنة، لأن في

«الصحيح»: أن النبي ﷺ مُرّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال: **«وجبت، وجبت»**، ومُرّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً. فقال: **«وجبت، وجبت»**. قالوا: يا رسول الله ما قولك: وجبت، وجبت؟. قال: **«هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً، فقلت: وجبت لها الجنة، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً، فقلت: وجبت لها النار»**، قيل: بِمَ يا رسول الله؟! قال: **«بالثناء الحسن والثناء السيّئ»**.

«مجموع الفتاوىٰ»: ١٨/ ٣١٤.

وصلّىٰ الله وسلم وبارك علىٰ خيرته من خلقه ومصطفاه من رسله سيدنا محمد بن عبد الله معلّم الناس الخير وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغُرِّ الميامين، وجزىٰ ربانيي هذه الأمة خير الجزاء إنه البر الجواد الكريم.





بين يدي الكتاب

الربانيون... والأمة[1]

كلما أمعنت النظر في حياة رجل من ربانيي أمتنا، أهل الرضا والاستقامة علىٰ الطريقة: ازددت يقيناً علىٰ يقين بأن من الخير اصطحاب من يتيسَّر اصطحابه منهم، بالتعرُّف إلىٰ أخباره، وألوان من عطائه، علىٰ مستوىٰ العلم النافع والعمل الصالح، والسلوك المنضبط بضوابط الشرعة المباركة، ناهيك عن التألُّه والتنسُّك والزهادة، وما يكون من الجهاد في سبيل الله، والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم؛ أقول هذا: لما يترتب علىٰ ذلك الأمر الجلل من الانتفاع بنهجهم التربوي السويِّ الذي يجمع بين الكلمة والقدوة؛ وحاجةُ الأمة ـ في مختلف عصورها ـ قائمة لهذا الانتفاع والحرص عليه.

وها نحن ـ في تصور سليم إن شاء الله ـ لأهميَّة هذه الحاجة وأبعادها: علىٰ موعد مع اصطحاب عدد من هؤلاء الأعلام الربانيين، علىٰ نهج أرجو أن يفيَ بالغرض قدر المستطاع.. دونما تطويل مُمِل أو اختصار مُخِل، والله المستعان.

وأنت واجد أن البررة الربانيين ـ وهم علىٰ ما هم عليه من نورانية السلوك ـ يقفون في حياتهم وشؤونهم ـ علىٰ اختلاف مراتبهم ـ مواقف العبودية الخالصة لله ﷻ، بما يجمعون بين العلم والعمل، وتقويم ما يأخذ الواحد منهم أو يذر بمقاييس الهدي الرباني في كتاب الله وسنّة النبي عليه الصلاة والسلام. وكم يُغبطون علىٰ تلك الحياة المزدانة بخشية الله وطاعته، ومراقبته ـ جلّ شأنه ـ في السر والعلن، مضموماً ذلك إلىٰ تلبية نداء الجهاد إذا عزم

---

(١) «حضارة الإسلام» السنة الثانية عشرة، العددان (٥، ٦)، رجب وشعبان ١٣٩١هـ، تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٧١م.

الأمر، ومخالطة المجتمع المسلم ـ عند الأكثرية ـ في سعي حثيث إلىٰ إيصال الخير للآخرين ذكوراً وإناثاً، من طريق الدرس والتعليم، والتوجيه المنوَّر بهداية الإسلام، الأمور التي تثمر في المجتمع ـ فضلاً عن الفرد والأسرة ـ ما تثمر من الخير الذي لا يقتصر علىٰ جانب دون آخر، والارتقاء به دائماً إلىٰ ما هو الأصلح والأقوم، في مواجهة ما يمكن أن يقع من نزوع إلىٰ الباطل وما هو منه بسبيل!!

وإذا كان الأمر كذلك: فلعل من الخير أن أشير إلىٰ مدىٰ الارتباط بين السلوك الأمثل عند هؤلاء الربانيين وبين ما يضيء به قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران] وهو ارتباط ينمُّ عن علاقة أصيلة تتسع للفهم والتطبيق العملي جميعاً.

ومما يزيد هذه العلاقة وضوحاً: ما دلَّ عليه سبب النزول ـ كما روىٰ محمد بن إسحاق والطبري وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ من أن أبا رافع القرظي قال حين اجتمعت اليهود والنصارىٰ من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلىٰ الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارىٰ عيسىٰ بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له: الرِّبِّيس ـ أو الرئيس ـ: أوَذاك تريد منا يا محمد؟ وإليه تدعونا! أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: **«معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني»** أو كما قال؛ فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ . . .﴾ الآية، إلىٰ قوله: ﴿[ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٩٧﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ] بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[1] [آل عمران].

---

(١) وينظر: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» لشيخ المفسرين أبي جعفر الطبري: ٦/ ٥٣٩، «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: ٢/ ٥٤، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ص١٤ ـ ١٥.

من هنا يمكن القول بأن هذه المقابلة بين المقولتين في الآيتين الكريمتين قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران]، كما جاءت في الأسلوب القرآني المعجز: بالغة الدلالة علىٰ عِظَم موقع الربانيين في ذوات أنفسهم كما أُريدَ للرباني أن يكون في تكوينه وسلوكه وفي إصلاح شؤون الأمة بتعليم الكتاب والدرس والتدريس، ورفعة قدرهم عند ربّ العالمين، وعند من آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، وسيِّدُهم وإمامُهم وخاتمهم نبينا محمد صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

ذلك بأن العالم الرباني ـ كما يقول الإمام ابن قيم الجوزية ـ: «هو الذي لا زيادة علىٰ فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه ربانيٌّ وصفُه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنع وصفَه بما خالفها»[1].

ومهما يكن من أمر: فإن في هذا التنصيص ـ كما يلاحظ ـ علىٰ العلم والتعليم، والدرس والتدريس للكتاب، وبيان أن الرباني ـ وهو المنسوب إلىٰ الرب تبارك وتعالىٰ ـ إنما يكون ربانياً بهذا السبب المكين ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: توكيداً لوجوب العمل بالعلم، وطاعة الله تعالىٰ في درسه وتربية الناس علىٰ حقائقه الهادية إلىٰ ما فيه خير الدنيا والدين، والنجاة من عذاب الله يوم يقوم الأشهاد، والفوز بجنة الخلد التي وُعد المتقون.

وهذا يقودنا في الوقت نفسه إلىٰ كلمات ثمينة حقاً علىٰ صعيد المرحلية في التربية والتعليم، سواء فيما يتعلق بالمتعلم أو فيما يتعلق بالمعلومات؛ ذلكم قول البخاري في باب «العلم قبل القول والعمل» من «كتاب العلم» في «الجامع الصحيح»: «ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[2]. قال الحافظ: «والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله،

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم: ١/ ٤٠٥.

(٢) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ١/ ١٥٩ ـ ١٦٠ رقم (١٠)، «فتح الباري»: ١/ ١٢.

وبكباره: ما دق منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده»[1].

ولقد وعىٰ سلفنا الصالح هذه الحقائق، فاستنارت بها عقولهم وقلوبهم، وأخذوا أنفسهم بها علىٰ الصعيد العملي عند التطبيق؛ من هنا لم يكن عجباً من العجب أن نُكبرَ ما يُرىٰ من فقه التابعي الجليل محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه المشهور بـ«محمد بن الحنفية» لأبعاد ما يوحي به قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ومعرفته بأقدار الرجال الذين هم صورة عملية لما جاء في القرآن حول هذا الأمر الجلل وهو «الربانيَّة» ذلكم حين قال قولته العظيمة يوم وافت المنية حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «مات اليوم ربانيُّ هذه الأمة» لقد عرف رحمه الله كلَّ المعرفة الصفات التي بها كان البحر عبد الله بن عباس ربانيَّ هذه الأمة ألم ترَ إلىٰ ما أوتي رضي الله عنه من سعة العلم ووفرة العقل، وصدق اللهجة، ونور العبادة والتنسُّك، ناهيك عما كان من حرصه الشديد علىٰ نشر العلم النافع والتربية عليه، والإسهام المتميز في الأخذ بالأسباب التي تضمن سلامة الفرد والجماعة، بل بقاء التمكين للأمة وتدبير شؤونها علىٰ نهج الهدي الرباني، الذي يجلب لها الخير في دينها ودنياها؟!!

ومما يجدر ذكره هنا: أن هنالك من يرىٰ أن «الرباني» الذي هو مفرد «الربانيين» سمي كذلك لأنه منسوب إلىٰ الرب تبارك وتعالىٰ، والأصل ربّي، ولكن زيدت الألف والنون عند النسب: للمبالغة، وهو ما ذهب إليه الكثيرون، كما يقال لكثير الشعر: «شعراني» بزيادة الألف والنون؛ فإذا أريدت النسبة من غير مبالغة قيل: شعْريّ.

وهذه المبالغة في النسب إلىٰ الرب سبحانه؛ تعني أن الرباني علىٰ حال من السمو في العلم والعمل بصدق وإخلاص نية، والاستمساك بطاعة الله فيما يأخذ وفيما يذر، في نور مراقبة الله وخشيته وتقواه، أضف إلىٰ ذلك حرص هذا الرباني علىٰ تعليم الناس والإسهام في تربيتهم علىٰ ما فيه خيرهم

---

(١) وينظر: «الكشاف» للزمخشري: ١/١٩٨، «الربانيون. .» للمؤلف: ص١٩.

وصلاحهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم[1].

وقد جنح إلىٰ ذلك صاحب «الكشاف» حيث قال: «والرباني منسوب إلىٰ الرب بزيادة الألف والنون، كما يقال: رقباني ولحياني. وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته، وعن محمد بن الحنفية أنه قال حين مات ابن عباس: «اليوم مات رباني هذه الأمة»».

وفي كشف عما يميز الرباني من صفات أعطته هذه المكرمة بنسبته إلىٰ الرب تبارك وتعالىٰ: قال الزمخشري: «وفيه أن من علم ودرس العلم، ولم يعمل به، فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع، حيث لم يُثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته»[2] وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنىٰ الكلام: ليكن هديكم ونيتكم في التعليم هدي العلماء والحكماء؛ لأن العالم يستحق هذا الاسم إذا عمل بعلمه»[3].

هذا: ومن خلال القول بأن «الرباني» منسوب إلىٰ الرب سبحانه وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة في هذه النسبة، نقع علىٰ اتجاه يرىٰ بأن النسبة كائنة لعلم الرب ﷻ. يقول السمين الحلبي: «وقال سيبويه: زادوا ألفاً ونوناً في الرباني أرادوا تخصيصاً بعلم الرب دون غيره من العلوم، وهذا كما قالوا: شعراني، ولحياني، ورقباني»[4] وفسَّر ذلك ابن القيم بقوله: «معنىٰ قول سيبويه: أن هذا العالم لما نسب إلىٰ علم الرب تعالىٰ الذي بعث به رسوله وتخصّص به: نُسب إليه دون سائر من علم علماً»[5].

وجميل ما ذهب إليه الواحدي في الجمع بين القولين في كتابه «التفسير الوسيط» حيث قال: «فالرباني علىٰ قوله ـ يعني سيبويه ـ منسوب إلىٰ الرب

---

(١) ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي: ١/ ٤٠٥، «مفتاح دار السعادة» لابن القيم: ١/ ٤٠٥ فما بعد.

(٢) «الكشاف»: ١/ ٩٨.

(٣) وانظر: «زاد المسير» لابن الجوزي: ١/ ٤١٤.

(٤) «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» للسمين الحلبي: ٣/ ٢٧٦.

(٥) وانظر: «مفتاح دار السعادة»: ١/ ٤١٠.

علىٰ معنىٰ التخصيص بعلم الرب تبارك وتعالىٰ»[1].

ولا نعدم أن نجد قولاً آخر في تفسير «الرباني» يقوم علىٰ أن الربانيَّ منسوب إلىٰ (الربِّ) الذي هو المصدر بمعنىٰ التربية. قال العلامة أحمد بن يوسف الحلبي الشافعي المعروف بـ«السمين»: «والربانيون جمع رباني منسوب إلىٰ لفظ الربِّ بمعنىٰ التربية، وذلك أن العلماء يربُّون العلم، أي يصلحونه ويتعلمونه، ثم يربون الناس به، فيعلِّمونهم كما تعلموا، ويصلحونهم كما صلحوا هم به، وهم الذين يربون بصغار العلم قبل كبارها، فهو من لفظ التربية ومعناها»[2].

وقد سبق أبو جعفر الطبري إلىٰ القول: «بأن الربانيَّ ـ وهو مفرد الربانيين ـ: المنسوب إلىٰ الربَّان الذي يربُّ الناس، وهو الذي يصلح أمورهم، ويربُّها ويقوم بها. . . يقال منه: ربَّ فلان أمري يربُّه وهو رابُّه. فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل: هو ربَّان»[3].

وصفوة القول: إنه مهما اختلفت الآراء وتعددت في تفسير (الربانيين) الذين يقومون بما يؤهلهم لهذا الوصف الكبير: فالمؤدىٰ ـ علىٰ الأعم الأغلب ـ واحد. يقول شيخ المفسرين: ـ وهذا من عيون كلامه يرحمه الله ـ: «. . فإذا كان الأمر علىٰ ما وصفنا = وكان «الربَّان» ما ذكرنا، و«الربّاني» هو المنسوب إلىٰ من كان بالصفة التي وصفت = وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين يرُبُّ أمور الناس، بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلىٰ ما فيه مصلحتهم = وكان كذلك الحكيم التقيُّ لله، والوالي الذي يلي أمور الناس علىٰ المنهاج الذي وليَه المقسطون من المصلحين أمورَ الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدةُ النفع عليهم في دينهم، ودنياهم = كانوا جميعاً يستحقون أن يكونوا ممن دخل في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

---

(١) «التفسير الوسيط» للواحدي: ١/٤٥٦.
(٢) «عمدة الحفاظ» للسمين الحلبي: ص١٩٢.
(٣) «جامع البيان»: ٦/٥٤٣.

فـ«الربانيون» إذاً هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار» لأن الأحبار هم العلماء، و«الرباني» الجامع إلىٰ العلم والفقه، البصر بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يُصلحهم في دنياهم ودينهم»[1].

وإنها لمنقَبة أيُّ منقبَة ميمونة الحركة في حياة الأمة: أن تطبع رسالة الرجل الرباني، بهذا الطابع الشمولي طاعةً لله ﷻ؛ فهو مع ما تزدان به حياته من العلم، والتألُّه والزهادة؛ لا يعيش لنفسه، ولكنه يدأب ـ ما استطاع ـ علىٰ الصلة بالمجتمع، ومخالطة المسلمين من حوله، ويطيع الله تعالىٰ ويتقيه: بأن يحمل إليهم ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ـ أيّاً كان الثغر الذي أقامه الله عليه ـ مبتغياً بذلك مرضاته سبحانه؛ وكل أولئك علىٰ قاعدة من الأخوة في الله، والتكامل المعرفيّ، والجمع بين العلم والعمل، والتربية والسلوك، كما تقرر ذلك حقائق الإسلام.

وهذا ـ بجملته ـ يذكِّر بما روىٰ ميمون بن مهران أبو عبد الله ـ وهو من ربانيي هذه الأمة ـ عن الرجل الرباني الضحاك بن مزاحم أبا محمد قال: «حقٌّ علىٰ كل من تعلَّم القرآن أن يكون فقيهاً، وتلا قول الله جلّ شأنه: ﴿.. وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2] [آل عمران]» ولنذكر أن هذا العَلَم أبا محمد نفسه، المتوفىٰ سنة اثنتين ومئة، كان إلىٰ علمه وجهوده في تعليم القرآن لثلاثة آلاف صبي من أبناء المسلمين... غزّاءً لا يقعد أبداً عن الجهاد في سبيل الله إذا دعا داعي الجهاد؛ حدث زهير بن معاوية، عن بشير أبي إسماعيل، عن الضحاك قال: «كنت ابن ثمانين سنة جَلْداً غزّاءً»[3].

وكم هو عظيم حقاً أن يكون العاملون في حقول العلم والتربية والسلوك: علىٰ ذكر من أن الرجل الرباني ذي الطابع الشمولي، لا بدّ أن تتوافر مقومات وجوده علىٰ هذه الشاكلة؛ عن طريق التربية الجادة، والتثقيف

---

(١) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للطبري: ٣/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤.

(٢) وانظر: «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٦٠٠. (٣) المصدر السابق: ٤/ ٦٠٠.

بثقافة الإسلام المستنيرة بهدي الكتاب والسنّة ثم فهوم أئمة الهدىٰ، إلىٰ معرفة بالواقع وتطور العلاقة بالآخرين.

ولقد أحسن ابن القيم يرحمه الله، فيما كان من نصحه للأجيال في كلامه النفيس عن جهاد النفس، وأنه إذا تحقق علىٰ الوجه الذي ينبغي يسمو بصاحبه إلىٰ مرتبة من الخيرية والقدرة علىٰ العطاء المكين، تجعله ـ بفضل الله وتوفيقه ـ في عداد أولئك البررة الربانيين الذين أنزل الله فيهم قرآناً يحثُّ علىٰ وجودهم وينبئ عن كونه ـ جلّ شأنه ـ أراد أن يكونوا بالعلم والتعليم والدرس والتدريس، عنوان الحق الذي يقذف به علىٰ الباطل فإذا هو زاهق، ولأهل الأوثان الويل مما يصفون. . ذلكم قوله تعالىٰ ـ كما رأينا من قبل ـ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران] وهذا بيان ما ذهب إليه ابن القيم في جهاد النفس؛ فقد جعل مراتب هذا الجهاد أربعاً، ثم أتىٰ علىٰ تفصيلها فقال:

«**إحداها**: أن يجاهدها علىٰ تعلُّم الهدىٰ، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتىٰ فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها علىٰ العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّد العلم بلا عمل: إن لم يضرَّها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها علىٰ الدعوة إليه، وتعليمِه من لا يعلمُه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدىٰ والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها علىٰ الصبر علىٰ مشاقِّ الدعوة إلىٰ الله، وأذىٰ الخلق، ويتحمَّل ذلك كلَّه لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع: **صار من الربَّانيين؛ فإن السلف مجمعون علىٰ أن العالم لا يستحق** أن يسمىٰ ربانياً حتىٰ يعرف الحق، ويعمل

به، ويعلِّمه؛ فمن علم وعمل وعلَّم ـ لله تعالىٰ ـ فذاك يدعىٰ عظيماً في ملكوت السماوات»[1].

والإخلاص في ذلك كله: من بدهيات الأمور المعلومة عن القبول بالضرورة؛ فلا بد أن يكون العمل خالصاً لله وحده، بعيداً عن الرياء، أو أي غرض آخر من أغراض الدنيا، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة] وقال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر] وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ولا إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم**» أخرجه مسلم[2] من رواية أبي هريرة ﷺ. وعن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» متفق عليه[3].

وذلكم العمل من أعمال القلوب وهو الإخلاص والبعد عن الرياء: هو المحور الجوهري للسلوك عند الربانيين في تعاملهم مع الله تعالىٰ، وتعاملهم مع عباد الله، مهما اعترض سبيلهم من معوقات. حدث أبو الأحوص قال: بينما ابن مسعود يحدث أصحابه ذات يوم إذ قال: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين! قال: فقال رجل: يا أبا عبد الرحمٰن إن إبراهيم كان أمة قانتاً، وظن الرجل أن ابن مسعود أوهم، فقال ابن مسعود ـ وقلبه منوَّر بالإخلاص في تعليم الآخرين ـ: هل تدرون ما الأمة؟ قالوا: ما الأمة؟ قال: الذي يعلم الناس الخير، ثم قال: هل تدرون ما القانت؟ قالوا: لا، قال: القانت، المطيع لله[4]. أرأيت إلىٰ حرص أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن مسعود علىٰ تعليم الناس الخير، وسعة صدره رغبةً في تحقيق ذلك، وكيف أن سؤال السائل الذي ظنه قد أوهم ـ وهم ـ لم يحل دونه ودون البيان كاملاً وهو

---

(١) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية: ٣/ ١٠.
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٥٦٤).
(٣) «البخاري» رقم (١٢٣ و٢٨١٠)، «مسلم» رقم (١٩٠٤) واللفظ لمسلم.
(٤) انظر: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٢/ ٣٤٩.

يُعلِّم ويربي طاعة لله وابتغاء مرضاته فلا رياء، ولا أيَّ أثارة من تصرُّف يكون سبيله الرياء والعياذ بالله، وذلكم من عيون أخلاقه ﷺ وهو من سادة الربانيين.

والحق أنه ليس عجباً من العجب أن يبلغ الرباني من منازل القرب عند الله ما يبلغ، وهو يسلك هذه الطريق الصاعدة في نزوع دائم إلىٰ التوحيد الخالص والعمل الخالص ـ علىٰ تشعُّب ذلك العمل في نفسه وفي إيصال الخير للآخرين ـ بعيداً كل البعد عن الاستسلام لغمرات الدنيا وزخارفها التي من شباكها؛ الرياء والتطلع إلىٰ ما هو من الرياء بسبب. وكم كان أبو بكر ﷺ حصيفاً غيوراً علىٰ الأمة أن يقع أبناؤها في غمرات الدنيا ـ بشتىٰ ألوانها ـ فتصرفهم عن الحق الذي يسلك بهم تلك الطريق الصاعدة ـ علىٰ مشقتها ـ إلىٰ القرب من الله شأنَ الكرام الربانيين. يقول ﷺ: «لأن يقدَّم أحدكم فتُضربَ عنقه خيرٌ له من أن يخوض غمرات الدنيا، يا هادي الطريق جُرت، إنما هو الفجر أو البجر» البَجَر بفتح الباء وضمها: الداهية والأمر العظيم؛ يقول: إن انتظرتَ حتىٰ يضيء لك الفجر أبصرت الطريق ـ أو أبصرت قصدك ـ وإن خبطت الظلماء، وركبت العشواء: هجما بك علىٰ المكروه. قالوا: ويروىٰ «البحر» بالحاء، يضرب الفجر والبحر مثلاً لغمرات الدنيا، شبهها بالبحر لتحيُّر أهلها بها[1].

من هنا كان من الأمور التي اشتدت عناية المخلصين بها في تزكية النفس: حملُها دائماً علىٰ الصدق، وإبعادها عن الرياء والعجب؛ لأنهم كانوا يخافون من مداخلة الرياء حبوط العمل، وما يكون من الشرك الخفي والعياذ بالله، والله تبارك وتعالىٰ أغنىٰ الأغنياء عن الشرك، قال مالك بن دينار المتوفىٰ سنة سبع وعشرين ومائة رحمه الله: «قولوا لمن لم يكن صادقاً: لا تتعب»[2] وهي كلمة لها حسابها في ميزان الربانيين أهل القرب من الله ﷻ؛ فهذا المرائي لن

---

(١) وانظر: «تاج العروس شرح القاموس» للزبيدي: ١٠/١٠٦ و١٣/٣٠٣، «لسان العرب» لابن منظور: ٥/٤٨.

(٢) «صفة الصفوة» وفي طبعة دائرة المعارف العثمانية: ٣/٢٠٤: قولوا لمن لا يكون صادقاً: لا يتعنَّىٰ.

يكون عمله إلا وبالاً عليه، ولسوف يُضرب في وجهه يوم القيامة، ويسقط به من عين الله.

لذا كان هؤلاء البررة الربانيون حريصين الحرصَ كلَّه علىٰ البعد عن أي مظهر من المظاهر التي قد تؤدي بهم إلىٰ عدم القبول؛ لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً؛ فتراهم يحملون النفس علىٰ المركب الخشن من التأديب الدائم والتذكير المستمر، يبصِّرونها عيوبَها، ويذكِّرونها الله واليوم الآخر، ويعملون علىٰ مخالفتها فيما تشتهي، مخالفةً لا تعارض أدب الإسلام، حتىٰ وصل الأمر بالكثير من الصالحين إلىٰ أن يستروا أعمالهم حذراً عليها من الحبوط والضياع، وأن يكون ثمة باب إلىٰ التلبيس، وللنفس باب إلىٰ التعالي والظهور، وتعظيم الخلق ونسيان الخالق؛ فقد روي عن ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ «أنه كان يضحك بالنهار ويبكي بالليل»[1] فهو يضحك بالنهار أمام الناس، ولكن وراء الضحك قلباً يتحرق خشية من الله ﷻ يحمله علىٰ البكاء في الليل حيث خلوة المحبين ومناجاة الخالق الذي يسمع ويرىٰ، والخلق نيام، لا يخشىٰ ابن سيرين عيونهم التي قد تؤدي به إلىٰ المهالك. ومثل ذلك ما يروىٰ عن إبراهيم بن أدهم المتوفىٰ سنة ١٦٢هـ «أنه كان إذا مرض يُرىٰ عنده ما يأكله الأصحاءُ»[2]؛ كان ذلك لئلا يقع في شرك الظهور بأنه مبتلىً صابر فيدخل عليه الشيطان من هذه الطريق.

والحق أن هذا السمو في الأدب مع الله، وهذه المرتبة من السيطرة علىٰ النفس والهوىٰ، والقدرة علىٰ سدّ منافذ الشيطان تذكرنا بقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وصلة السلف الصالح بمعاني هذا الكتاب، واقتفاؤهم الصادق لطريقة النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه كان خير عون لهم علىٰ طريقهم الصاعدة التي أثمرت ما أثمرت من الخير الذي لم يقتصر علىٰ صاحب العمل الذي زكّىٰ نفسه وحاول تخليصها من الشوائب،

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني: ٢/ ٢٧٢.

(٢) وينظر: «الحلية»: ٨/ ٢٣، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٦/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥، «طبقات الصوفية» للسلمي: ص٣٦ ـ ٣٧.

وإنما عاد علىٰ الجماعة أيضاً. وآثار ذلك واضحة في تاريخنا العريق بالسمو الخلقي ـ والحمد لله ـ ولولا ذلك لما رأينا تلك القاعدة الصلبة التي حملت الأمانة بإخلاص، وتجاوزت كل العقبات مرفوعة الرأس متصلة بأسباب السماء، فكانت موضع نظر الله وعونه ورعايته.

رویٰ هبيرة بن الأشعث عن أبي عبيدة العنبري قال: لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحُقٍّ معه فدفعه إلىٰ صاحب الأقباض، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله عندنا ولا يقاربه، فقال له: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا: من أنت؟ قال: والله لا أخبركم لتحمدوني ولا أغريكم لتقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضىٰ بثوابه، فأتبعوه رجلاً حتىٰ انتهىٰ إلىٰ أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس[1][2].

وما من شك في أن المنبع الذي استعذب سقياه عامر هذا وأضرابه هو ما كان من توجيهات المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه في هذا الباب، حين أخذ أمته بأدب القرآن، فجعل الأعمال بالنيات، ودفعها إلىٰ ساحات الجهاد

---

(١) «تاريخ الطبري»: ٢/ ٤٦٥، «الحلية»: ٢/ ٨٧ ـ ٨٨، «صفة الصفوة»: ٣/ ٢١١، وفي الطبعة الهندية: ٣/ ١٣٣، والتصويب لـ«عبد قيس» منها.

(٢) وصاحب هذه القصة المنوَّرة بالإخلاص والبعد عن الرياء وعن كل ما قد يكون وسيلة له: هو عامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس العنبري القدوة الولي الزاهد أبو عبد الله، من خيار التابعين من بني العنبر وأول من عرف بالنسك من عُباد التابعين بالبصرة، هاجر إليها وتلقىٰ القرآن من أبي موسىٰ الأشعري، وتخرَّج عليه في النسك والتعبُّد، رآه كعب الأحبار فقال: هذا راهب هذه الأمة، وكان ثقة يعلم الناس ويقرئهم وهو من أقران أويس القرني وأبي مسلم الخولاني، حدّث محمد بن واسع أن عامراً كان يأخذ عطاءه فيجعله في طرف ثوبه، فلا يلقىٰ مسكيناً إلا أعطاه، فإذا دخل بيته، رمىٰ به إليهم، فيعدونها فيجدونها كما أُعطيها، وهذا دليل زهده وإكرام الله له، وقال قتادة: لما احتضر عامر بكىٰ، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعاً من الموت، ولا حرصاً علىٰ الدنيا، ولكن أبكي علىٰ ظمأ الهواجر، وقيام الليل، وفي رواية: ولكن لبعد سفري وقلة زادي، وأني أمسيت في صعود وهبوط، جنة أو نار، فلا أدري إلىٰ أيهما أصير، توفي عامر نحو ٥٥هـ في خلافة معاوية.
«الحلية»: ٢/ ٨٨، «السير»: ٤/ ١٧، «الأعلام»: ١/ ٢٥٢.

والعلم والعمل خالصة مخلصة لا تبتغي إلا وجه الله الكريم، ولا تعمل إلا لتكون كلمة الله هي العليا، ومن شذّ عن ذلك فليس من أدب الإسلام والمعاني الإسلامية في شيء والنار موعده ولبئس المصير؛ فقد جاء في الحديث الصحيح فيما روىٰ مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأُتي به فعرّفه نِعَمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت. قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء. فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار. ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نِعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلّمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار. ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ فقال: ما تركت من سبيلٍ تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد. فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه ثم أُلقي في النار»**[1].

وفي ظل هذا التوجيه النبوي الكريم نذكر ما روىٰ أبو حاتم الرازي قال: سمعت عبدة بن سليمان يقول: كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم فصادفنا العدو فلما التقىٰ الصفان، خرج رجل من العدو فدعا إلىٰ البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله ثم آخر فقتله ثم آخر فطعنه فقتله، ثم دعا إلىٰ البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله ثم آخر فقتله ثم آخر فطعنه فقتله، ثم دعا إلىٰ البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه الرجل فقتله، فازدحم الناس عليه فكنت فيمن ازدحم عليه فإذا هو ملثم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو عبد الله بن المبارك فقال: «وأنت يا أبا عمرو تشنع علينا»[2].

---

(١) «صحيح مسلم»: ٣/ ١٥١٣ رقم (١٩٠٥).

(٢) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي: ١٠/ ١٦٧ رقم (٥٣٠٦)، «السير»: ٨/ ٣٤٩، ٣٥٠ رقم (١١٢). وينظر: «الجرح والتعديل» للرازي: ٥/ ١٧٩.

رحم الله ابن المبارك[1] لقد خاف علىٰ إخلاصه برؤية الناس له وهو يقتحم حصون الشهادة في سبيل الله فلثَّم وجهه.

اللهمّ إنّا ضعفاء فقوِّ في رضاك ضعفنا، وخذ إلىٰ الخير بناصيتنا، وأكرمنا بسترك وعفوك، وألحقنا بعبادك الصالحين الذين أكرمتهم فجعلتهم مصابيح الدجىٰ في حياة الأمة، والذين هم ـ في هذه الدار ـ أهل الآخرة وجنود الرحمٰن ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].



(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح أبو عبد الرحمٰن الحافظ المجاهد التاجر الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه وأمير الربانيين الأتقياء في وقته، صاحب التصانيف الثمينة والرحلات، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً، يضع دنياه في خدمة الإسلام والمسلمين، ولد سنة ثمان ومائة، له كتاب في الجهاد وهو أول من صنّف فيه، توفي لعشر مضين من رمضان سنة إحدىٰ وثمانين ومائة ودفن بهيت. وهذه قصة أخرىٰ تزيد الأمر وضوحاً في حرصه علىٰ الجهاد والبعد عن الرياء فيه، كما يكون الأمر بينه وبين مولاه ﷻ، وهذا طريق القبول. حدّث عبد الله بن سنان قال: كنت مع ابن المبارك ومعتمر بن سليمان بطرسوس، فصاح الناس: النفير، فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطف الجمعان، خرج رومي فطلب البراز، فخرج إليه رجل، فشدَّ عليه العلج فقتله، حتىٰ قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين، يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إليَّ ابن المبارك فقال: يا فلان، إن قُتلت فافعل كذا وكذا، ثم حرك دابته، وبرز للعلج، فعالج معه ساعة، فقتل العلج، وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر قتله، حتىٰ قتل ستة علوج، وطلب للبراز، فكأنهم كاعوا ـ جمعوا وانهزموا ـ عنه فضرب دابته، وطرد بين الصفين، ثم غاب فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله لئن حدثت بهذا أحداً وأنا حيٌّ، فذكر كلمة.اهـ.

وانظر: «السير»: ٨/٣٣٦، ٣٦١، «الأعلام»: ٤/١١٥.



رضي الله عنهم ورضوا عنه[1]

شيء وراء المعرفة تميّز به أصحاب النبي ﷺ، فلم يكونوا يتلقون عنه ﷺ المعلومات وكفىٰ، ولكن كانت هنالك تزكية النفس، وحملها إلىٰ حيث خشية الله، والوقوف عند حدوده، ومراقبته في السر والعلن، عملاً بتلك القاعدة النورانية: من الحديث الصحيح في بيان الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

يعظهم الرسول ﷺ فتذرف لموعظته العيون، وتَجِلُ لها القلوب، وتفيض آثارها علىٰ جوارحهم وسلوكهم، فتراهم يمشون علىٰ الأرض بطهر الملائكة، ويتصلون بالسماء بممارساتهم اليومية لشؤون الحياة لأنها كلها لله وفي سبيل الله.

وحين أضاءت الحياة بلمساتهم.. وأشرقت بنظراتهم.. وتحول جدب الأرض التي فتحوها إلىٰ ربيع يزهر ويثمر.. حين حصل ذلك كله يوم انساحوا في دنيا الناس فاتحين معلمين، لم يكن ذلك بالمعرفة فقط، ولكن كان بالمعرفة وشيء وراءها، فكان الصدق في المواطن ومراقبة الله في السر والعلن، وملاحظة أن ما كان لله فهو المقبول... وما كان لغيره فهو المردود، وأن لكل درجات مما عملوا أحصاه الله ونسوه..

لقد تحركوا ونور الخشية يضيء لهم الطريق.. وعلموا الناس وكان مع التعليم ندىٰ اليقين باليوم الآخر وأن الكل معروض عليه سبحانه.. وحملوا إلىٰ الناس معالم الخير.. وكل واحد منهم بإيمانه وسلوكه صورة حية عن هذا الذي يدعو إليه ويعلمه الناس. وبهذه النورانية التي تستعصي علىٰ الحديد

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة عشرة، العدد (٩)، ذو القعدة ١٣٩٤هـ، كانون الأول ١٩٧٤م.

صدقوا في أن يكونوا كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران] مرضاة الله.. الصراط.. الميزان.. وعذاب القبر.. والمسؤولية، ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس] كل أولئك لم يكن في حياتهم دروساً تلقىٰ علىٰ الناس من أجل غرض من أغراض الدنيا.. ولكن كان اليد الحانية التي فجّرت ينابيع الفطرة في الناس.. وكشفت عن معادن الخير فيهم.. لأن كل رائد منهم كان الدعوة العملية.. لما يعلم الآخرين من مبادئ وأحكام.. حتىٰ قالت عائشة: كان عمر قرآناً ناطقاً. ففي الكلمة التي ينطقون حياتها.. وفي الدعوة التي يدعون.. وجودها.. ولعلّ هذا من بعض أسرار ما كان من الانسياح السريع لأنهم لم يعطوا الناس كلمات جامدات لا حياة فيها، ولكن قدموا لهم الحياة بالكلمات التي قدّموها لما كان من الصورة الواقعية للإسلام، سلوكاً وحبّاً لله ولرسوله، وصدق وجهة في الحركة أيّاً كانت منزلة الواحد منهم، وكائنة ما كانت وظيفته.

ولقد كان مما منّ الله به علىٰ هذه الأمة أن جعل حملة رسالة نبيها إليها من هذا الطراز. فهم أولاً نقلة الرسالة إلىٰ الناس عن نبيهم عليه الصلاة والسلام، والصورة العملية لها.. وهم ثانياً قريبو عهد بالجاهلية مما يكشف عن هذا الذي صنعه الإسلام حين أشرقت علىٰ بطحاء مكة رسالة السماء.. وإذا رأيت الذي كانت تصنعه، آي الكتاب فيهم، وموعظة الرسول عليه الصلاة والسلام، رأيت أيَّ معجزة قامت علىٰ الأرض وأيقظت حركة التاريخ، وكشفت عن أهلية الإنسان للسمو حين تلامس قلبه هدايةُ الإسلام: «**الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[1] فقهوا.. علىٰ إطلاقها دون تحديد بمصطلحات جاءت فيما بعد.

أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما

---

(١) من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الأنبياء من «الجامع الصحيح». «فتح الباري» مع «الجامع الصحيح»: ٦/ ٤١٤، ٤١٧ رقم (٣٣٧٤، ٣٣٨٣)، ومسلم في كتاب الفضائل من «الصحيح» باب «من فضائل يوسف عليه السلام»: ٤/ ١٨٤٦ رقم (٢٣٧٨).

سمعت مثلها قط فقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»، فغطّىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين. وفي رواية: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال: «**عرضت عليّ الجنة والنار فلم أرَ كاليوم في الخير والشر، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»، فما أتىٰ علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، غطّوا رؤوسهم ولهم خنين[1].

تلك هي الصياغة.. نفوس امتدت إليها يد محمد ﷺ الصَّنَّاع تذكيراً بالآخرة، ودفعاً حازماً إلىٰ ميادين الجد والجهاد.. وإيقاظاً لعزائم الرجال المنوط بهم حمل تلك الرسالة المحمدية.. أن يكونوا علىٰ مستوىٰ المسؤولية تجاوزاً للمحقرات.. وارتفاعاً فوق التوافه والركام.. وقدرة علىٰ مجاهدة النفوس أن تتقاعس عن المعالي وجهاد العدو... ولسوف تبقىٰ تلك النماذج برهان الأرض لأهل الأرض علىٰ امتداد الزمن.

إن الإسلام رسالة الحياة للإنسان.. وحجة علينا نحن الذين نزعم واهمين ـ في جو من الانهزام الداخلي وطلب العافية ـ أن الإسلام تجريد لا يقوىٰ علىٰ حمله الإنسان.. إن شيئاً وراء المعرفة كما أسلفنا نلمسه في هؤلاء الروّاد الذين تلقوا عن رسول الله.. وقبلوا عن رسول الله.. إنه الندىٰ الذي يعطي المعرفة حياتها ووجودها.. ويجعل من الإنسان جندياً قادراً علىٰ حمل العبء وأداء الرسالة.. مهما غلا الثمن علىٰ طريق أوله الاستجابة لدعوة الحياة.. وآخره الشهادة في سبيل الله.

أما إنه ليس بدعاً بعد ذلك أن نرىٰ في أعمالهم، وتربيتهم، وسلوكهم ما هو صورة صادقة لميراث النبوة... والزرع الذي أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوىٰ علىٰ سوقه.. والحجة بهم قائمة إلىٰ يوم الدين، بما كان من حرصهم علىٰ الصياغة نفسها التي كانت ذروة منهجه عليه الصلاة والسلام.

أخرج الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» عن جعفر بن برقان قال: بلغني

---

(١) «صحيح البخاري»: ص٦٣٤ رقم (٤٦٢١)، «صحيح مسلم»: ٤/ ١٨٣٢ رقم (٢٣٥٩). و(الخنين): ضرب من البكاء دون الانتحاب، وأصل الخنين خروج الصوت من الأنف، كالحنين من الفم.اهـ. «نهاية».

أن عمر بن الخطاب ﷺ كتب إلىٰ بعض عمّاله فكان في آخر كتابه: «أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة، عاد مرجعه إلىٰ الرضاء والغبطة، ومن ألهته حياته وشغله هواه، عاد مرجعه إلىٰ الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به لكي تنتهي عما تنهىٰ عنه»[١].

وعلىٰ هذه الطريق من الفقه الحقيقي لهذا الدين الذي أكمل الله به نعمته علىٰ الناس، روي عن علي ﷺ فيما أخرجه أبو نعيم قال: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله، ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنباً فهو متدارك ذلك بتوبته، أو رجل يسارع في الخيرات.. ولا يقلُّ عمل في تقوىٰ.. وكيف يقل ما يُتقبل»!![٢].

حتىٰ في ساحة الجهاد.. بين الصفين.. حيث يبتسم المؤمن للموت.. ويتطلع إلىٰ الشهادة.. ويعيش لحظات هي إلىٰ الآخرة أقرب منها إلىٰ الدنيا... لا ينسىٰ قائد كأبي عبيدة أن يذكر المقاتلين في سبيل الله ما يمكن أن يعتبر من الأوليات والأبجديات... ذلك لأنه يرىٰ من النصح لهم وهم علىٰ عتبة أن يغادروا هذه الحياة.. أنهم قادمون علىٰ ربهم حيث توزن الحسنات والسيئات.. وأن إكرام النفس بحملها علىٰ ما يقربها من الله.. وأن إهانتها فيما يكون غير ذلك..

أخرج أبو نعيم أن أبا عبيدة ﷺ كان يسير في العسكر فيقول: «ألا رُب مبيضٍ ثيابه مدنسٍ لدينه، ألا رب مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين، ادرؤوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أنَّ أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتىٰ تقهرهنَّ»[٣].

وانظر إلىٰ هذه الكلمات الجوامع من عبد الله بن مسعود التي تقرأ في

---

(١) انظر: «مختصر تاريخ ابن عساكر» لابن منظور: ١٩/١٧.

(٢) «حلية الأولياء»: ١/٧٥. (٣) المصدر السابق: ١/١٠٢.

ثناياها ما يشعرك بأنها من إرث النبوة. قال ﷺ: «ما منكم إلا ضيف، وماله عارية، والضيف مرتحل والعارية مؤداة إلىٰ أهلها»[1]. وقال لرجل سأله أن يعلمه كلمات جوامع نوافع: اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وزل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً[2].

وجاء في بعض كلامه ﷺ: «وايم الله لو مرضت قلوبكم وصحّت أجسامكم لكنتم أهون علىٰ الله من الجعلان»[3].

أولئك هم الربانيون الذين حملوا هذا الدين بقوة وإخلاص وعملوا علىٰ تبليغه للعالمين. لقد كانوا أشداء علىٰ الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً.. نعم ولقد كانوا في متقلبهم ومثواهم علىٰ طريق مرضاة الله.. يحبهم ويحبونه.. ويوم القيامة يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه.. ذلك لمن خشي ربه.

وفي خاتمة المطاف هذا بعض مما أشرقت به آي الكتاب الكريم من صفات أولئك البررة قادة ربانيي هذه الأمة عليهم الرحمة والرضوان!!

• قال الله جلّ جلاله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب] قلت: «من» في ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانية وليست للتبعيض.

• وقال تباركت أسماؤه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

وفي فهم عميق للحكمة الربانية في اصطفاء هؤلاء البررة لحمل دين الإسلام بقوة وأمانة، يصحبهما العلم والعمل وإخلاص الوجهة لله الكريم

---

(١) «الحلية»: ١/ ١٣٤.
(٢) «الحلية»: ١/ ١٣٤.
(٣) «الحلية»: ١/ ١٣٥.

المنّان، ولا يعوزهما صدق المحبة للرسول ﷺ الإنسان، وهو الذي جعل ربنا جلّ شأنه طاعته من طاعته.. أقول: في فهم عميق لهذه الحكمة العظيمة، وفقهٍ لرسالة الإسلام وعظمة رسولها صلوات الله وسلامه عليه، تطالعنا لكلٍّ من الصحابيَين الجليليْن ـ وهما من خيار ربانيي أمة الإسلام ـ كلمات نيِّرات هي من إرث النبوة بمكان. وهذه كلمات أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن مسعود.

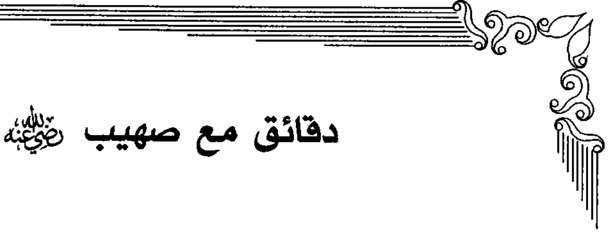
قال رضي الله عنه ـ كما روىٰ أحمد في «المسند» ـ: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون علىٰ دينه؛ فما رأىٰ المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ»[1].

ويقول ابن عمر رضي الله عنهما: «من كان مستناً فليسْتَنَّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خير هذه الأمة، أبرَّها قلوباً، وأعمقها علماً وأقلَّها تكلفاً؛ قوم اختارهم الله لِصُحبة نبيه ﷺ، ونقل دينه؛ فتشبّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ، كانوا علىٰ الهدي المستقيم والله رب الكعبة، يا ابن آدم صاحب الدنيا ببدنك، وفارقها بقلبك وهمِّك؛ فإنك موقوف علىٰ عملك، فخذ مما في يديك لما بين يديك عند الموت يأتك الخير»[2].



(١) «المسند»: ٦/ ٨٤ رقم (٣٦٠٠)، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ص١٢٨.

(٢) «الحلية»: ١/ ٣٠٥، ٣٠٦، «المعرفة والتاريخ» للفسوي: ١/ ٤٩٠ فما بعد، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ص٣٤١.



دقائق مع صهيب رضي الله عنه

دراسة الأعلام الربانيين في التاريخ أمر ذو أهمية بالغة الأثر في تكامل الثقافة والإعداد من أجل أن يأخذ الفرد دوره البانيَ الفعَّال في حياة الجماعة وبناء المجتمع، ونحن أمة أكرمنا الله بأن كان أعلامنا صورة حية واقعية للمبادئ التي حملوها، ولم يبخلوا بالعطاء في سبيلها؛ فإذا قرأت سيرة واحد من هؤلاء وقعت علىٰ الأنموذج الذي تعتبر حياته ـ بما يتَّسم به من علم وتعليم وتربيةٍ بالكلمة والقدوة والسلوك ـ إعلاناً أيَّ إعلان ينادي في الناس أن الإسلام وطاقات الإنسان علىٰ سبيل سواء، وأن أولئك الرجال الذين احتضنهم التاريخ واستودع أيامهم صفحاته، إنما بلغوا ما بلغوا، بحرصهم علىٰ الوفاء بموثقهم من الإسلام، وإقدامهم حيث يتعين الإقدام، وصبرهم علىٰ مستلزمات العقيدة حيث لا يصبر إلا أقوياء الإيمان الصادقون، فلا المال ولا الولد ولا حب الحياة بصارفٍ عن هذا الذي هو إقدام، ولا بمثبط عن ذاك الذي هو صبر وعطاء.

والحقيقة التي لا يسع منصفاً جهلُها أو تجاهلها، أن المسلمين الأوائل كانوا أقدر علىٰ نشر الإسلام في الجزيرة العربية، ثم في غيرها من بقاع العالم بذلك السلوك الفريد الذي كان ترجمان القرآن الذي حملوه إلىٰ الناس، وكان التعبير الفطري الميسَّر عن دقة وبساطة منهجهم في التفكير والطريقة التي تحكم سلوكهم تجاه أنفسهم وتجاه من يدعونهم إلىٰ الإسلام، أو من يدعونهم إلىٰ حسن الالتزام به.

وما أحسب أن واقعة من الوقائع التي يصنعها المرء بسلوكه وعطائه يمكن أن تبتلعها الأيام فلا تعطي عطاءها علىٰ ساحة البناء، أو يندرس أثرها في التاريخ فلا تحفر أخاديدها في صناعة الحياة والأحياء.

فالأجيال المتلاحقة تفيد ـ وما تزال بحاجة لأن تفيد أكثر وأكثر ـ من

العمل القدوة الذي يصنعه المؤمن الإنسان بوصفه إنساناً، ويأخذ أبعاده بعمق وشمول متَّسِقَين مع العقيدة التي يحملها، والفكرِ الذي يدعو إليه.

واليوم وقد كَثُرت المعوقات والمثبطات، تبدو ضرورةً ملحةً دراسة تلك النماذج بأصالة وعمق، من أجل أن يكون ذلك عوناً للفرد علىٰ الإسهام الإيجابي النافع في كل ما هو خير لمجتمعه وأمته.

وعلىٰ هذه الطريق المشرقة النيِّرة، وبعد الذي أشرنا إليه قريباً من ربانية الصحابة: نحن علىٰ موعد مبارك رحْبِ الجنَبات مع قبسات من حياة واحد من أصحاب رسول الله ﷺ؛ ذلكم هو «صهيب بن سنان الرومي». ويقال: خالد بن عمرو بن عُقيل، وأمه من بني مالك بن عمرو بن تميم. وقد ثبت للعلماء أنه ليس بر‌ومي، ولكن قيل له ذلك: لأن الروم سبوه صغيراً، رحمه الله ورضي عنه[1]؛ ذلك بأن أباه أو عمه كان من أشراف الجاهليين، ولّاه كسرىٰ علىٰ الأُبُلَّة ـ وهي قريبة من البصرة، وكانت منازلهم علىٰ دجلة من جهة الموصل ـ أو بأرض الموصل ـ ويقال: ـ كما يرىٰ ابن سعد ـ أنهم كانوا في قرية علىٰ شط الفرات مما يلي الجزيرة والموصل، فأغارت الروم علىٰ ناحيتهم، فسبوا صهيباً وهو غلام صغير، فقال عمه: أنشد الله الغلام النمريَّ دجّ وأهلي بالثنيِّ، وهي القرية التي كان أهله بها، فنشأ صهيب بالروم فصار أَلْكَنَ، ثم اشتراه رجل من كلْب فباعَه بمكة، فاشتراه عبد الله بن جدعان التميمي، ثم أعتقه فأقام بمكة يحترف التجارة[2]، علىٰ أنه هو كما جاء في «الإصابة» لابن حجر قال في حديث له مع عمر ﵁ كشفاً عن لكنة لسانه مع كونه عربياً: وأما انتمائي إلىٰ العرب، فإن الروم سبتني صغيراً، فأخذت لسانهم، ذكر ذلك الحافظ من رواية البغوي من طريق زيد بن أسلم عن أبيه[3].

ولقد كان صهيب من السابقين إلىٰ الإسلام والإيمان بمحمد عليه الصلاة السلام، فهو واحد من سبعة، هم أول من أظهر إسلامه؛ وهم: رسول الله ﷺ

---

(١) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٣/ ٢٢٦، «السير»: ٢/ ١٧ ـ ١٨.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ»: ٣/ ٢٢٦.

(٣) وانظر: «الطبقات الكبرىٰ»: ٣/ ٢٢٧، «أسد الغابة» لابن الأثير: ٣/ ٣٦، ٣٧، «الإصابة»: ٢/ ١٩٥.

وأبو بكر وبلال وخباب بن الأرت وصهيب وعمار وسمية أم عمار زوجة ياسر بن عمار[(١)]، ولم تمرّ قضية إسلامه دون أن يدفع ثمنها غالياً، ولكن ما عند الله خير وأبقىٰ لأولئك الذين صبروا علىٰ ظلم قريش وأذاها عندما آووا إلىٰ دعوة الإسلام. جاء في «صحيح الأخبار»[(٢)] أن عمار بن ياسر كان يُعذَّب حتىٰ لا يدري ما يقول، وكذا صهيب، وعامر بن فهيرة وقوم، وفيهم نزل قوله تعالىٰ في سورة النحل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل].

أجل: لقد كان صهيب من المستضعفين ممن يعذّب في الله، فما غيَّر ولا بدّل، بل صدق ما عاهد الله عليه، وصبر وصابر، وقد هاجر إلىٰ المدينة مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر من هاجر في تلك السنة، فَقَدِما في نصف ربيع الأول، وشهد بدراً والمشاهد بعدها[(٣)].

ومن كريم مواقفه في البذل، والشجاعة في مواجهة الباطل وأهله، ما روي[(٤)] أنه لما هاجر، تبعه نفر من المشركين، فسئل فقال: يا معشر قريش، إني من أرماكم، ولا تَصلون إليّ حتىٰ أرميَكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي، فإن كنتم تريدون مالي، دللتكم عليه، فرضوا، فعاهدهم ودلَّهم، فرجعوا فأخذوا ماله، فلما جاء إلىٰ النبي ﷺ قال له: «**يا أبا يحيىٰ، ربح البيع**»! ثلاثاً. وفي رواية: «**ربح البيع أبا يحيىٰ**» ونزل قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة].

لقد كان رحمه الله شجاعاً صادق التوكل حين لم يُخِفْهُ تهديد هؤلاء النفر من المشركين ووعيدهم، بل هدّدهم بأن يستنفدَ ما في وسعه في قتالهم.

---

(١) «الاستيعاب» لابن عبد البر: ٢/ ٧٢٦، «أسد الغابة» لابن الأثير: ٣/ ٣٨، «السير»: ٢/ ٢٠، «الوسائل لمعرفة الأوائل» للسيوطي: ص١٤٣.

(٢) وينظر: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٣/ ٢٤٨، «السير»: ٢/ ٢١.

(٣) «أسد الغابة»: ٣/ ٣٩، «الإصابة»: ٢/ ١٩٥.

(٤) «الطبقات الكبرىٰ»: ٣/ ٢٢٨، «الإصابة»: ٢/ ١٩٥، «أسد الغابة»: ٣/ ٣٩، «السير»: ٢/ ٢٢، ٢٣، «البداية والنهاية»: ١٠/ ٦٧٠، «تفسير البغوي ـ معالم التنزيل»: ١/ ٢٣٩.

وكان شجاعاً صادق التوكل أيضاً حين نزل عن كل ما يملك من المال في سبيل أن يَسْلَم له دينه، وتمَّ له هجرته.

وفي غمرة ذلك كله كان مثال الوفاء حين عاهدهم ودلّهم ـ وهم المشركون ـ فرجعوا بكل جشعهم وخيلائهم وأخذوا ماله.

ولكن الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة، أنزل فيه وفي أمثاله قرآناً يتلىٰ حتىٰ يرث اللهُ الأرض ومن عليها، فرسول الله ﷺ يثني علىٰ صنيع صهيب فيما بذل من الدنيا ابتغاء الآخرة، وطلباً لرضوان الله، الذي هو الرضوان يزفّ إليه تلك البشرىٰ العظيمة فيقول له: «**يا أبا يحيىٰ، ربح البيع**» ثلاثاً. وفي رواية: «**ربح صهيب، ربح صهيب**» ونزل قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البقرة] لتظلَّ عنوان الكرامة والقبول، وسبحان المنعم المتفضل ولي المؤمنين الصابرين.

ولقد كان هذا الصحابي الجليل ـ والحمد لله ـ جديراً بهذه المكرمة، فقد ثبَتَ علىٰ طريق الحق وأسهم أيَّما إسهام في بناء المجتمع الذي اتسم بالإيمان والتكافل والنظام، ولم يتخلف يوماً واحداً عن كل ما هو بذل وعطاء في ساحة المكرمات. قال رضي الله عنه: لم يشهد رسول الله مشهداً قط إلا كنت حاضرَه، ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرَها، ولم يسير سرية قط إلا كنت حاضرَها، ولا غزا غزاة قط إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم وما جعلت رسول الله ﷺ بيني وبين العدو قط حتىٰ توفي[1].

مات صهيب بالمدينة في شوال سنة ثمان وثلاثين عن سبعين أو ثلاث وسبعين سنة. له نحو من ثلاثين حديثاً روىٰ له مسلم منها ثلاثة أحاديث منها: حديث أصحاب الأخدود[2]. رضي الله عن أبي يحيىٰ وأعلىٰ مقامه في

---

(١) وانظر: «الحلية» لأبي نعيم: ١/١٥١ وقد استفتح رحمه الله كلامه عن صهيب بها.

(٢) انظر: «السير»: ٢/٢٦، والحواشي ١، ٢، ٣، والأحاديث عند مسلم أولها برقم (١٨١) في «الإيمان ولفظه»، والثاني برقم (٢٩٩٩) في «الزهد والرقائق»، والثالث برقم (٣٠٠٥) في «الزهد والرقائق» أيضاً، وهو حديث طويل يذكر فيه قصة أصحاب الأخدود.

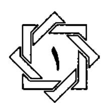
الآخرين ورزقنا حسن التأسي، فنحن اليوم أحوج ما نكون إلىٰ حسن التأسي بهؤلاء الرجال؛ الذين أضاءوا جنبات التاريخ بما قدموا من البذل في سبيل الله وبما قاموا به من التعليم بالقدوة حيث الأجيال المتلاحقة أشدُّ احتياجاً إلىٰ مثل هذه الدروس التي هي من أوائل مهمات الربانيين، والحمد لله ربّ العالمين.





الباقية.. لا الفانية(١)

ومصعب بن عمير رضي الله عنه(٢)



كان من حوافز الجهاد وحب الاستشهاد في سبيل الله عند البررة الأخيار من أبناء أمتنا ـ بجانب رسوخ الإيمان واليقين بما وعد الله ورسوله ـ زهادتهم في الدنيا، ووضع متاعها ـ إن وجد ـ موضعه الطبيعي في حياة المؤمن، وسيلة لا غاية، وفي الأكف لا في القلوب.. وعلىٰ محور السلوك أخذت هذه القضية أبعادها وانعكاساتها.

ولقد كانوا في ذلك ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ علىٰ قدم إمام الأنبياء وسيد المجاهدين والربانيين محمد عليه الصلاة والسلام، فلقد بيّن بقوله وفعله

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الحادية والعشرون، العدد (٣)، جمادىٰ الأولىٰ ١٤٠٠هـ، نيسان ١٩٨٠م.

(٢) هو الصحابي الرباني مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب، السيد الشهيد السابق البدريُّ القرشيُّ العبدريُّ من عيون شباب الصحابة، أسلم رضي الله عنه مبكراً والنبي ﷺ في دار الأرقم، واستشهد في معركة أُحد بعد أن عمل بإيمانه وإخلاصه وتفانيه ـ مضموماً إلىٰ ذلك أسلوبه الحكيم وحسن تأتّيه ـ نعم بعد أن عمل مع إخوانه علىٰ إدخال الإسلام إلىٰ الأعم الأغلب من بيوت المدينة. قال البراء بن عازب: أول من قدم علينا من المهاجرين: مصعب بن عمير، فقلنا له: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقال: هو مكانه، وأصحابه علىٰ أثري، ثم أتانا بعده عبد الله بن أم مكتوم أخو بني فهر الأعمىٰ، رواه ابن أبي شيبة. وينظر: «فتح الباري»: ٧/ ٢٦٠. وعند البخاري رقم (٣٩٢٤، ٣٩٢٥) يقول أبو إسحاق: سمعت البراء بن عازب رضي الله عنه يقول: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم وكانوا يقرئون الناس.. الحديث.
وينظر: «سير أعلام النبلاء»: ١/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

وكريم تقريره وإرشاده هوان الدنيا علىٰ الله، وإنها للمؤمن وسيلة إلىٰ الآخرة، وما هي ـ علىٰ الحقيقة ـ إلا متاع الغرور.

فالدنيا فانية والآخرة خير وأبقىٰ، وأين الفانية من الباقية!! روىٰ مسلم عن المستورد بن شداد أن رسول الله ﷺ قال: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه** ـ وأشار يحيىٰ بالسبابة ـ **في اليم، فلينظر بم يرجع؟**»(١).

وروىٰ مسلم أيضاً عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق والناس كَنَفَتَيه ـ أي: عن جانبيه ـ فمر بجدي أسكَّ ـ صغير الأذن ـ ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حياً، كان عيباً إنه أسك، فكيف وهو ميت!! فقال: «**والله للدنيا أهون علىٰ الله من هذا عليكم**»(٢).

ومما لا ريب فيه أن هذا وأمثاله من رسول الله ﷺ يشرق في ظل آيات كثيرة في هذا الباب منها قوله تعالىٰ في سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد].

من أجل هذا شهدت الإنسانية في واحد من أبهىٰ معالم الحق في تاريخها ما روىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ علىٰ حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه، قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء؟! فقال: «**ما لي وللدنيا!! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح(٣).

---

(١) «صحيح مسلم»: ٤/ ٢١٩٣ رقم (٢٨٥٨).

(٢) «صحيح مسلم»: ٤/ ٢٢٧٢ رقم (٢٩٥٧) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) «سنن الترمذي ـ الجامع الصحيح»: ٤/ ٥٨٨ تحقيق الشيخ أحمد شاكر رقم (٢٣٧٧).

وعلىٰ هدي هذا المنهج النبوي في السلوك، شهد تاريخ هذه الأمة المحمدية وهي تبني حضارة الإسلام ـ فيما شهد ـ شاباً ناعماً، رُبِّي علىٰ الرفاه في لذيذ المطعم، ولين الملبس، ونشِّئ علىٰ ما يزهو به الشباب الناعم في الجاهلية ويصبو إليه، وهو مصعب بن عمير رضي الله عنه. . . شهد تاريخُ الأمة هذا الشاب يترك كل هذا بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه، ويتجاوزه إلىٰ الانصراف إلىٰ الدعوة، والجهاد في سبيل الله، والرضا بما يُتبلغ به من القوت والملبس؛ لأنه بات في شغل شاغل بما هو أعلىٰ وأغلىٰ من تلك الملذات ورغد العيش.

ولقي مصعبٌ ـ جزاه الله عن أمة الإسلام والبشرية كل خير ـ لقي ربه شهيداً يوم «أُحد» فكان إخوانه لا يجدون ما يكفي لتغطية جسده كله. . أجل لم يجدوا ما يكفي لتغطية هذ الجسد الذي ما عرف قبل الإسلام إلا نعومة العيش في المطعم والملبس في ظل تلك القيم الفانية. وأين حمأة الجاهلية ولذائذها المشوبة بالأكدار من جنة عرضُها السماوات والأرض، خاتمةً للبذل الصادق والعطاء في سبيل الله.

روىٰ البخاري ومسلم عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله تعالىٰ، فوقع أجرنا علىٰ الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره ـ يعني: في الدنيا ـ شيئاً، منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، قتل يوم أُحد، وترك نمرة[١]، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه، ونجعل علىٰ رجليه شيئاً من الإذخر، ومنّا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها»[٢].

هكذا استطاع هؤلاء الرجال حين تخففوا من حب الدنيا وكراهية الموت، وصدقوا في طلب الآخرة، أن يتقدموا إلىٰ ميادين الشهادة، باسمة

---

(١) النمِرة: كساء ملون من صوف. يهدبها: يقطفها.

(٢) «الجامع الصحيح» للبخاري رقم (١٢٧٦) كتاب الجنائز، «صحيح مسلم» رقم (٩٤٠) في الجنائز، ورواه الترمذي رقم (٣٨٥٢)، وأبو داود رقم (٢٨٧٦) في الوصايا، والنسائي رقم (١٩٠٥) الجنائز. وانظر: «السير»: ١/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

شفاههم مرفوعة رؤوسهم خفّاقة بالشوق إلىٰ لقاء الله قلوبهم، يجدون عند أرض المعركة ريح الجنة التي وعد المتقون، ويتنسمون عبير الحياة التي كتبت للشهداء وهم أحياء عند ربهم يرزقون.

وهذا ما جعلهم عند اللقاء وبعد المعركة، علىٰ ذُكر دائم من الأخوة الإيمانية وأنها هي الحقيقة لا أخوة النسب التي نأىٰ صاحبها عن الحق، وهذا ما كان من مصعب مع أخيه أبي عزيز الذي كان في أسرىٰ المشركين(١).

ومصعب بن عمير ـ رضي الله عنه وأكرم نزله ـ أنموذج لأولئك الذين صدقوا الله فصدقهم، وتخففوا من الدنيا والانغماس بمتاعها ولذتها، وثبتوا علىٰ الالتزام بقيم الإسلام وكل ما هو حق فيه، فكانوا أقدر علىٰ المسارعة إلىٰ جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، وفازوا بمرضاة الله التي هي السعادة!!

لقد اختصروا المسافة بينهم وبين الشهادة بهذا السلوك الذي كانوا فيه علىٰ إرث من منهج المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام. ومن لم يرزق الشهادة منهم عاش سعيداً، بنفس مطمئنة، وحظي عند الله بما لا يكاد يوصف من الخير: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

وأخيراً: وهذا ما أذكّر به نفسي قبل الإخوة القرّاء راجياً من الله عونه وتسديده:

لقد أتىٰ علىٰ بعض أبناء الأمة حين من الدهر، حسبوا فيه أن الزهادة في الدنيا، وصدق الوجهة إلىٰ الآخرة بالتقوىٰ والتبتل بين يدي الله ﷻ من الأمور الخاصة التي يتصف بها أفراد، لا يقدم سلوكهم ولا يؤخر في بنية المجتمع،

---

(١) روىٰ ابن إسحاق من حديث أبي عزيز بن عمير أخي مصعب قال: «مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شدَّ يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك! وزاد ابن هشام علىٰ هذه الرواية فقال: فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليسر ـ وهو الذي أسره ـ ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك». ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام: ٢/٣٤٩.

ولا ينعكس علىٰ مسيرة الأمة، والواقع أن هذا تصور خاطئ مرفوض لأن السلوك الذي نلمح إليه عندما يكون استمراراً لصنيع أصحاب النبي ﷺ من أمثال مصعب وغيره، فذلكم هو الصنيع، لا صنيع أولئك الذين يثقلهم عن العمل والجهاد حب الدنيا وكراهية الموت، وهما أمران متلازمان. نسأل الله تعالىٰ مغفرته وعونه.

وذلكم أيضاً هو الصدق في بعض صوره المشرقة المؤثرة في سلامة بناء المجتمع، وحفظ كيان الأمة في عقيدتها وثقافتها وأرضها ووجودها الذاتي، وذلك علىٰ أيدي المجاهدين البررة، الذين ينفون عن طريقها الخبث، فيواجهون التحديات بإيمان لا يتزعزع، وقلوب هي علىٰ النسب المتصل بما كان عليه مصعب وإخوانه، ويغسلون بدمائهم الزكية النقية التي ترىٰ يوم القيامة لونها لون الدم وريحها ريح المسك.. يغسلون بهذه الدماء ما يعلق علىٰ أرض المسيرة من أوضار.. ويا سعادة من يتابعون الطريق(١)..

ولكم جنت الأمة وتجني وحصدت وتحصد من الداء العضال الذي هو حب الدنيا وكراهية الموت.. ولكن لكل أجل كتاب ورضي الله عن مصعب وإخوانه في الخالدين.



---

(١) وينظر: «سير أعلام النبلاء»: ١/ ١٤٥ فما بعد، «جوامع السيرة» للإمام ابن حزم: ص٧٢ ـ ٧٣ فما بعد.



مصعب بن عمير رضي الله عنه (1)

كلمات أخر



حاجة الأمة إلىٰ التبصُّر في سيرة من صنعوا تاريخها، حاجة لا يذهب بها اختلاف الأحوال صعوداً إلىٰ القمة أو هبوطاً إلىٰ القاع، خصوصاً أولئك الذين شاء الله لهم أن يشهدوا تنزل الوحي وأن يرتادوا الطريق. وإذا ذكر هؤلاء الرجال ذكر مصعب بن عمير رضي الله عنه... صحيح أن الحقبة الزمنية التي أمضاها الرجل المجاهد الداعية في العمل تحت راية الدعوة كانت قصيرة بعض الشيء، لما أنه قد استشهد ـ أكرم الله مثواه ورحمه ـ في «أُحد»، ولكنها كانت عظيمة، عظيمة متسعة الأرجاء عطاءً وعمق دلالة في صناعة تاريخ الإسلام، والتمهيد للدعوة أن تأخذ مكانها الطبيعي في قيادة المجتمع الأمثل وإعداد الفرد المسلم القادر علىٰ مواجهة الحياة بالعقيدة الصافية والسلوك المستقيم.

هذا وقد سعدنا بالحديث عن هذا الصحابي الجليل الشاب في واحد من الأعداد الماضية، ولكن مآثره رضي الله عنه أغزر من أن تتسع لها صفحة أو صفحات.

* * *

لقد كان أبو عبد الله فتىٰ مكة شباباً وجمالاً وسنّاً، وكان أبواه يحبانه غاية الحب، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون الثياب، وكان أعطر أهل مكة. وروىٰ بعض أصحاب السير أن رسول الله كان يذكره فيقول: **«ما رأيت**

---

(1) «حضارة الإسلام»، السنة الثانية والعشرون، العدد (2)، ربيع الآخر 1401هـ، شباط 1981م، ونشرت الكلمات الأولىٰ في العدد (3) من السنة الحادية والعشرين.

بمكة أحسن لمّة ولا أرق حلّة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير»(١) فلما أسلم أصابه من الشدة وحمل هموم الدعوة في مواجهة المشركين، ما غيّر لونه، وأذهب لحمه، وأنهك جسمه، حتىٰ كان رسول الله ﷺ ـ كما ذكر السهيلي ـ ينظر إليه وعليه فروة قد رفعها فيبكي لما كان يعرف من نعمته(٢).

هذا وكان رضي الله عنه ممن هاجر إلىٰ الحبشة ثم عاد، وبعد أن بايع رسول الله ﷺ الأنصار بيعة العقبة الأولىٰ، وحان انصراف القوم إلىٰ المدينة أرسل معهم مصعب بن عمير يعلِّم من أسلم منهم القرآن والشرائع وسمي لهذا رضي الله عنه بـ«المقرئ»(٣).

وانظر أيَّ مقرئ هذا الرجل الذي تولىٰ شؤون تعليم القرآن والشرائع، وهي مهمة لا نقدرها حق قدرها إلا إذا كنا علىٰ تصور تام لطبيعة المجتمع هناك وسلطان يهود وما كان من رواسب الجاهلية، ولكن مصعباً كان قوياً بقوة الله، وقام بالمهمة خير قيام وهو أهل لما قام به؛ كيف لا وقد اختاره رسول الله ﷺ ليقوم بهذا الفتح العظيم. وقد جمَّع بالمسلمين ـ كما في بعض الروايات ـ أول جمعة في المدينة وكانوا أربعين رجلاً.

ولا ننسىٰ أن هذا المقرئ العظيم كان لواء رسول الله ﷺ الأعظم لواء المهاجرين يوم بدر معه رضي الله عنه وأرضاه(٤).

غير أن أبا عبد الله لم يقف عند حد تعليم القرآن والشرائع، بل أدرك أن واجباً عليه أن يفتح القلوب بكلمة التوحيد، وأن يفسح للقرآن والشرائع في تلك القلوب والعقول، فاستنفد الطاقة في الدعوة إلىٰ الله مستعلياً علىٰ حطام الدنيا غير آبه بما قد يفوته من زخرفها بعد أن أكرمه الله فذاق حلاوة الإيمان،

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ١/١١٦ ـ ١١٧، «أسد الغابة» لابن الأثير: ٥/١٨٢، «المستدرك» للحاكم: ٣/٦٢٨، «سنن الترمذي ـ الجامع الصحيح» رقم (٢٤٧٦).

(٢) «الروض الأنف» للسهيلي: ١/٢٦٩ وينظر ما سبق.

(٣) انظر: «الطبقات الكبرىٰ»: ١/١١٧ ـ ١١٨، «السيرة النبوية» لابن هشام مع «الروض الأنف»: ١/٢٦٩.

(٤) «الطبقات الكبرىٰ»: ١/١٢٠.

ووقف على المحجة، وشرع يرتاد للأمة الطريق داعياً إلى الله، والدعوةُ إلى الله إرث من إرث النبوة ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]. وبأسلوبه الحكيم وصدقه مع الله، واستعلائه على حطام الدنيا، أسلم على يده خلق كثير من الأنصار، فأسلم في جملتهم سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد الرجال والنساء، يقول ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما نعلمه تأخر عن الإسلام أحد منهم، حاشا الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن قيس، فإنه تأخّر إسلامه إلى «أُحد» فأسلم، فاستشهد ولم يسجد لله قط سجدة، وأخبره رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة، ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة، كانوا كلهم مخلصين رضوان الله عليهم»[1]. وكم لمصعب من الأجر والمثوبة عند الله ثمرة الدلالة على الخير والدعوة إلى الله.

وهكذا لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها مسلمون رجالاً ونساءً، حاشا بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف وتلك أوس الله وهم من الأوس بن حارثة.. على تفصيل للعلماء في شأنهم[2].

إن هذا الذي صنعه أبو عبد الله مصعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمر له ثقله في ميزان الدعوة وتاريخ الإسلام، فالمدينة التي استقبلت رسول الله ﷺ وأحلته من القلوب والنفوس ما هو معلوم ـ والحمد لله ـ كانت تتجه بأبنائها ومن يرد عليهم من إخوانهم المهاجرين صوب المفهوم الجديد للتاريخ، بل صوب تغيير خريطة العالم، واستبدال المفاهيم الجاهلية، والمصطلحات المغلوطة بمفاهيم ومصطلحات بدأ المسلمون من خلالها يملون على التاريخ ما يريدون. ولقد كلفهم ذلك ألواناً من العطاء، ليس أقلّها بذل الأموال والأنفس في ساحات الجهاد تحت راية الدعوة، يوم حملوا للإنسانية مقومات وجودها الذاتي، وقدموا لها أسمى حضارة عرفها الإنسان.

(١) «جوامع السيرة» لابن حزم: ص٧٣.

(٢) المصدر السابق: ص٧٢ ـ ٧٣. وانظر: «الطبقات الكبرى»: ٣/ ١١٧ ـ ١١٨، «السيرة النبوية» لابن هشام: ٢/ ٨٠.

وإذا ذكرت ذلك كله فلا بد أن تذكر مصعباً رضي الله عنه وأرضاه، وجعل من هجرته إلىٰ الجنة وتعليمه القرآن والشرائع، وصبره علىٰ الدعوة واستشهاده تحت رايتها في «أُحد» مناراً يهدي الأمة إلىٰ السبيل الأقوم فيما تنشده من عودة ظافرة إلىٰ أن تكون لها ذاتيتها وأصالتها في العالمين. وثمنُ ذلك إخلاص يحركه الإيمان وبذل لا يعصف به الرغَب والرهَب.



الربانيُّ الزاهد.. حجة الله علىٰ الدعاة

الصحابي عمير بن سعد

نسيج وحده[1]

نحن اليوم مع رجل من رجال تاريخنا العملي العظام: الصحابي عُمير بن سعد بن شُهَيْد بن قيس الأنصاري، حدّث عن رسول الله ﷺ بحديث عند كلٍّ من الترمذي والنسائي، ولأبيه صحبة. لم يشهد شيئاً من المشاهد، لكن شهد فتح دمشق، وولي علىٰ حمص ودمشق في خلافة عمر بن الخطاب، وكان من الزهّاد.

قال أبو نعيم في «الحلية»: «ومنهم عمير بن سعد، الحافظ للعهد، الوافي بالوعد، اللَّقِن الحفيظ، الخشن الغليظ، جمال الولاة، وحجة الله علىٰ الدعاة، يقال له: نسيج وحده»[2].

وسنرىٰ فيما يأتي أن عمر رضي الله عنه صاحب كلمة «نسيج وحده» له رضي الله عنه لشدة إعجابه به، ثم استفاضت علىٰ الألسن[3].

قال عبد الرحمٰن بن عمير بن سعد: قال لي ابن عمر: «ما كان من المسلمين رجل من أصحاب النبي ﷺ أفضل من أبيك»[4]. وقال المفضَّل الغَلابي: زهّاد الأنصار ثلاثة: أبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعمير بن سعد»[5].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة عشرة، العدد (٤)، جمادىٰ الآخرة ١٣٩٥هـ، حزيران ١٩٧٥م.

(٢) ١/٢٤٧. وينظر: «تهذيب التهذيب» رقم (٢٥٨).

(٣) وانظر: «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ٣٧٥ (٤٥١٣).

(٤) «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ٣٧٥. وانظر: «تهذيب التهذيب»: ٨/ ١٤٥.

(٥) «سير أعلام النبلاء»: ٢/ ١٥٠.

حتىٰ إن معاوية ﷺ ذكره بخير عندما تولىٰ دمشق بعده؛ فقد جاء في «مختصر ابن عساكر» لابن منظور: عن سليم بن عامر: قال:

خطب معاوية علىٰ منبر حمص ـ وهو أمير عليها وعلىٰ الشام كلِّها ـ فقال: «والله ما علمت يا أهل حمص أن الله تبارك وتعالىٰ يُسعدكم الأمراء الصالحين ـ أي الذي علمت ـ؛ أول من ولّىٰ عليكم عياض بن غَنْم، وكان خيراً مني، ثم ولي عليكم سعيد بن عامر بن حُذَيم، وكان خيراً مني، ثم ولي عليكم عمير بن سعد، ولنِعم العمير، وكان ثم هنا، وإذ قد وليتكم فستعلمون»[1].

ومن ثمين كلامه رضي الله عنه وأرضاه: أنه كان يقول وهو وال علىٰ حمص: «ألا إن الإسلام حائط منيع، وباب وثيق؛ فحائط الإسلام العدل، وبابه الحقُّ؛ فإذا نُقض الحائط وحطم الباب، استُفتح الإسلام، فلا يزال منيعاً ما اشتد السلطان، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف، ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاءً بالحق، وأخذاً بالعدل»[2].

وهذا ما كان ديدنه وهو والٍ مؤتمن علىٰ مصالح المسلمين، وتاريخ ولايته في حمص والشام زاخر بالقضاء بالحق والأخذ بالعدل، مع زهادة في الدنيا، واستعلاءٍ علىٰ حطامها، وحرص علىٰ إنسانية المسلم وكرامته وحريته، لما في ذلك من إسْهام في تحقيق الوجود الذاتي للأمة علىٰ الوجه المطلوب.

فأيام كان عمير بن سعد هذا أحدَ ولاة عمر بن الخطاب ﷺ علىٰ (حمص) مكث حولاً لا يأتي خبره عمر، فقال عمر لكاتبه: «اكتب إلىٰ عمير: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل بما جبيت من فيء المسلمين»[3].

وأخذ عمير جرابه فجعل فيه زاده وقصعته وعلق إداوته[4] وأخذ

---

(١) ١٩/ ٣٣١. وينظر: «تهذيب التهذيب» رقم (٢٥٨)، «سير أعلام النبلاء»: ٢/ ٥٥٩.

(٢) «الطبقات الكبرى»: ٤/ ٣٧٥، «الإصابة» لابن حجر: ٣/ ٣٢ رقم (٦٠٣٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء»: ٢/ ٥٦١.

(٤) الإداوة: إناء صغير يحمل فيه الماء.

عنزته[1]، ثم أقبل يمشي من (حمص) حتىٰ دخل المدينة. قال: فقدم وقد شحب لونه، وأغبر وجهه، وطال شعره، فدخل علىٰ عمر وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال عمر: ما شأنك؟! قال عمير: ما ترىٰ من شأني: ألست تراني صحيح البدن، معي الدنيا أجرها بقرنها. قال: وما معك؟ فظن عمر أنه جاء بمال، فقال: معي جرابي أجعل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثيابي، وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، وعنزتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن عرض، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي. قال عمر: فجئت تمشي؟! قال: نعم! قال: أما كان لك أحد يتبرع لك بدابة تركبها؟! قال: ما فعلوا وما سألتهم ذلك، فقال عمر: بئس المسلمون خرجت من عندهم، فقال عمير: اتق الله يا عمر قد نهاك الله عن الغيبة، وقد رأيتهم يصلون صلاة الغداة. قال عمر: فأين بعثتك؟ وأي شيء صنعت؟ قال: وما سؤالك يا أمير المؤمنين؟! فقال عمر: سبحان الله! فقال عمير: أما لولا أني أخشىٰ أن أغمك ما أخبرتك، بعثتني حتىٰ أتيت البلد، فجمعت صلحاء أهلها، فوليتهم جباية فيئهم، حتىٰ إذا جمعوه وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء لأتيتك به، قال: فما جئتنا بشيء، قال: لا، قال عمر: جددوا لعمير عهداً. قال: لا عملت لك ولا لأحد بعدك، والله ما سلمت بل لم أسلم، قلت لنصراني: أخزاك الله.

واستأذن عمير عمر للرجوع إلىٰ منزله، وكان بينه وبين المدينة أميال فقال عمر حين انصرف عمير لأحد رجاله: انطلق إلىٰ عمير بمائة دينار، فإن رأيت حاله شديدة فادفع إليه المال. وانطلق الرجل فإذا هو بعمير جالس يَفْلي قميصه إلىٰ جانب الحائط. فسلَّم عليه الرجل فقال له عمير: انزل رحمك الله! فنزل، ثم سأله: من أين جئت؟ قال: من المدينة. قال: فكيف تركت أمير المؤمنين؟ قال: صالحاً. قال: فكيف تركت المسلمين؟ قال: صالحين. قال: أليس يقيم الحدود؟ قال: بلىٰ..[2].

(١) العَنَزة: أطول من العصا وأقصر من الرمح، في أسفلها زج كزج الرمح، يتوكأ عليها الشيخ الكبير.

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٤٤/ ٣٢٤.

ونزل الرجل ضيفاً علىٰ عمير ثلاثة أيام، وليس لهم إلا قرصة شعير، كانوا يخصونه بها ويطوون، حتىٰ أتاهم الجهد. فقال له عمير: إنك قد أجعتنا، فإن رأيت أن تتحول عنّا فافعل.

وأخرج الرجل رسول عمر إلىٰ عمير حينذاك الدنانير، ودفعها إليه وقال: بعث بها إليك أمير المؤمنين، فاستعن بها. فصاح عمير: لا حاجة لي فيها... ردها... فقالت له امرأته: إن احتجت إليها، وإلا فضعها مواضعها. فقال عمير: والله ما لي شيء أجعلها فيه. فشقت امرأته أسفل درعها، فأعطته خرقة، فجعلها فيها، ثم خرج، فقسّمها بين أبناء الشهداء والفقراء.

وحين كان عمير والياً علىٰ (حمص) كتب عمر بن الخطاب إلىٰ أهلها اكتبوا لي فقراءكم فكتبوا إليه أسماء الفقراء وذكروا فيهم (عمير بن سعد)، فلما قرأ عمر اسمه قال: «من عمير بن سعد؟!». فقالوا: أميرنا! فقال: «أو فقير هو؟!» فقالوا: ليس أهل بيت أفقر منه!!... فقال عمر: فأين عطاؤه؟ فقالوا: يخرجه كله لا يمسك منه شيئاً. فوجه إليه عمر بمائة دينار، فأخرجها كلها إلىٰ الفقراء، فقالت له امرأته: «لو كنت حبست لنا منها ديناراً واحداً!» فقال: «لو ذكرتني فعلت»[(١)].

ولا بدع بعد هذا وكثيرٍ غيره: أن يكون «نسيج وحده» عند عمر كما سيأتي. وأن يشق عليه موته عندما بلغه ذلك.

ففي «مختصر تاريخ ابن عساكر» لابن منظور: أن عمر رضي الله عنه عندما بلغته وفاة عمير شق ذلك عليه وترحم عليه، فخرج يمشي ومعه المشاؤون إلىٰ بقيع الغرقد، فقال لأصحابه: ليتَمنَّ كل رجل منكم أمنية. فقال رجل: وددت ـ يا أمير المؤمنين ـ أن لي مالاً فأعتق لوجه الله كذا وكذا. وقال آخر: وددت لو أن عندي مالاً فأنفق في سبيل الله. وقال آخر: وددت لو أن لي قوة فأمتح بدلوِ زمزم لحجاج بيت الله. فقال عمر: وددت لو أن لي رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به علىٰ أعمال المسلمين[(٢)].

---

(١) وينظر: «الحلية» لأبي نُعيم: ١/٢٤٧ فما بعد، «معجم الزوائد» للهيثمي: ٩/٣٨٢، «كنز العمال»: ١٣/٥٥٦، «مختصر تاريخ ابن عساكر»: ١٩/٣٣٣ فما بعد (٢٢٣).

(٢) ١٩/٣٣٤ (٢٢٣)، وانظر: «الحلية»: ١/٢٤٩، ٢٥٠.

ويبدو أن عمر رضي الله عنه ودَّ هذا الوُدَّ العظيم لما أنه كان يرىٰ أن عميراً نسيجُ وَحْدِه. قال ابن سيرين: كان عمر مُعْجَباً به ـ أي بعمير ـ فكان من إعجابه به تسميتُه «نسيجَ وَحْدِه»[1].

علىٰ أن البغوي في «معجم الصحابة» روىٰ أن عميراً كان يقال له: نسيج وحده دون تخصيص ذلك بعمر[2].

ويظهر ـ والله أعلم ـ أن أول من قالها فيه لإعجابه به ـ وهو من هو معرفةً بالرجال ـ عمر رضي الله عنه لما كان من نجاحه الباهر ـ مع الزهادة التامة ـ حين ولّاه حمص، والشام ثم استفاضت الكلمة علىٰ الألسن وعُرف بها عليه الرحمة والرضوان، وأخذ مكانه الفاعل في تاريخ أمتنا عَلَماً من أعلامها الكبار، وربانياً من ربانييها العظام، وأميناً فىٰ خدمة جادة للأمة، وترفع عن مباهج الدنيا وزخارف الحكم، أهَّلتُه لأن يعرف بأنه «نسيح وحده» يعلِّم بسلوكه الأجيال ويعطي أبلغ الدروس لمن يلي أمراً من أمور المسلمين. ها هو ذا يخطب علىٰ المنبر وهو والٍ علىٰ حمص فيقول: «ألا إن الإسلام حائط منيع وباب وثيق؛ فحائط الإسلام العدل، وبابه الحق، فإذا نُقض الحائط، وحطم الباب: استفتح الإسلام؛ فلا يزال منيعاً ما اشتد السلطان، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف، ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاءً بالحق وأخذاً بالعدل»[3].

رضي الله عن عمر بما كان يعرف الرجال وأقدارهم، ويضع كلّاً في مكانه الملائم لتحقيق مصالح المسلمين، وعن ربانيِّنا عمير بن سعد بما عرف به ـ مع صحبته ـ بالجدِّية وسلامة السلوك، فيما اؤتمن عليه من الولاية، ناهيك عن الزهادة الفاذة التي صار يعرف بها على كل الأحوال.

وصلاة الله وسلامه علىٰ معلم الناس الخير، وآل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته البررة المجاهدين أجمعين.

---

(١) ينظر: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٤/ ٣٧٥.

(٢) وانظر: «الإصابة»: ٣/ ٣٣ (٦٠٣٦).

(٣) «الطبقات الكبرى»: ٤/ ٣٧٥، «مختصر تاريخ ابن عساكر» لابن منظور: ١٩/ ٣٣٢.



أبو الدرداء رضي الله عنه[1]

١

إنه لأمر أثير لديَّ، أن يكون حديثي اليوم حديثاً عن واحد من صفوة أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام. ذلكم هو الصحابي الجليل أبو الدرداء قاضي دمشق رضي الله عنه الذي كان ـ إلىٰ علمه وفضله وأخذه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ـ ذا قدم راسخة في التفكُّر والتدبُّر، والنظر إلىٰ أفعال الله جلّ جلاله، بعين العبد الخاشع الخاضع الذي يرىٰ في كل فعل منها عين الحكمة الإلـٰهية والعدالة الربانية.

وأبو الدرداء مشهور بكنيته واسمه جميعاً، واختلف في اسمه فقيل: عويمر بن زيد بن قيس، وقيل: عويمر بن عامر، وقيل: ابن عبد الله، وقيل: ابن ثعلبة بن عبد الله الأنصاريُّ الخزرجيُّ، حكيم هذه الأمة وسيد القرّاء بدمشق وروىٰ عن النبي ﷺ عدة أحاديث، وولّاه عمر قضاء دمشق، وتصدر للإقراء في دمشق في خلافة عثمان، مشهود له بأنه من الحكماء الفرسان القضاة، معروف بالشجاعة والنسك.

أسلم يوم بدر وشهد أُحداً وأبلىٰ فيها[2]. وعن شريح بن عبيد قال رسول الله ﷺ يوم أُحد: «**نِعْم الفارس عويمر**»[3] وقال: «**هو حكيم أمتي**»[4].

ولقد اشتهر ـ رضوان الله عليه ـ بالعزوف عن الدنيا، حتىٰ ترك

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الحادية عشرة، الأعداد (٨، ٩، ١٠)، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠/ ١٩٧١م.

(٢) انظر: «طبقات ابن سعد»: ٧/ ٣٩١، «المعارف» لابن قتيبة: ص٢٥٩ ـ ٢٦٨، «الاستيعاب» لابن عبد البر: ٤/١٤٦، «الإصابة في تمييز الصحابة»: ٣/ ٤٥ رقم (٦١١٧)، «السير»: ٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٣)(٤) «الإصابة»: ٣/ ٤٥. وانظر تفصيلاً عن ذلك في: «الطبقات الكبرىٰ»: ٧/ ٣٩٢.

التجارة والربح الدنيوي، إلىٰ العبادة والتفرُّغ للتجارة التي تنجي من العذاب الأليم، انقطاعاً للعلم والعمل وتفرغاً للعبادة. دعاه إلىٰ ذلك خوف أن يأتي يوم الحساب، وقد أثقلت كاهله بأسباب المسؤولية والحساب، وهو يريد أن يلقىٰ الله متخففاً من كل أثقال الدنيا وأعبائها، لعلّه يفوز برحمته سبحانه في يوم يشتد هوله، حتىٰ تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكن عذاب الله شديد.

وفي شأن التفكُّر في آلاء الله تعالىٰ وتدبُّر حكمه في ملكه وملكوته، قال رضي الله عنه: «تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة»[1]. وقد سئلت زوجه ما كان أفضل عمل أبي الدرداء. فقالت: «التفكُّر»[2].

وهذا منه رضي الله عنه دليل فقهه لكتاب الله، ووقوفه عند مدلول آياته البينات، ففي العديد من الآي نجد الدعوة إلىٰ التفكر، وثناءَ الله جلّت حكمته علىٰ أولئك الذين سعدوا بالتفكُّر الصحيح، فكان سبيلهم إلىٰ رفيع المراتب، وعظيم المثوبة عنده سبحانه، من مثل قوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران].

وانظر إلىٰ هذا الدعاء الذي يخترق الحجب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ ولقد كانت الاستجابة، وكان الفضل العظيم والخير العميم، ذلك ما يحسه قلب المؤمن في ندىٰ قوله ـ وهو الرحمٰن الرحيم ـ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

(١) «حلية الأولياء»: ١/٢٠٩.
(٢) المصدر السابق: ١/٢٠٨.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

وكأني بالآيات الكريمة توحي أن مقام التفكُّر ليس بالأمر السهل، فقد اقترن ـ كما نرىٰ ـ بعزائم الرجال، وصبر المؤمنين المجاهدين الصابرين. وسبحان الذي مِنْ بعض فضله، ما يكون من العطاء والنعماء.

وفي شأن الخوف من يوم الحساب، وإيثار الآجلة الباقية علىٰ العاجلة الفانية، والورع من أن تثقله المسؤولية في ذلك اليوم، قال رضي الله عنه: «بعث النبي ﷺ وأنا تاجر، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة، فلم يجتمعا، فرفضت التجارة وأقبلت علىٰ العبادة. والذي نفس أبي الدرداء بيده ما أحب أن لي اليوم حانوتاً علىٰ باب المسجد لا تخطئني فيه صلاة، أربح منه كل يوم أربعين ديناراً، وأتصدّق بها كلها في سبيل الله. قيل له: يا أبا الدرداء، وما تكره من ذلك؟ قال: شدة الحساب»(١).

وفي إزاحة الستار عن شعور صادق بهذه الحقيقة وتذوق لآثار الأخذ بها نرىٰ كلماته تحمل ـ مع صادق النصح للآخرين ـ صورة الوعيد المرعب لأولئك الذين لا همَّ لهم إلا جمع الدنيا من هنا وهناك، ناسين ما يثقل الكواهل من المسؤولية عما يجمعون.

روىٰ أحمد عن فرات بن سليمان أن أبا الدرداء كان يقول: «ويلٌ لكل جَمَّاع فاغرٍ فاه، كأنه مجنون، يرىٰ ما عند الناس، ويرىٰ ما عنده، ولو يستطيع لوصل الليل بالنهار، ويله من حساب غليظ شديد»(٢). وقال ـ كما روىٰ معاوية بن قرة ـ: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكنَّ الخير أن يعظم حلمك، ويكثر علمك، وأن تباري الناس في عبادة الله عز وجل؛ فإن أحسنت حمدت الله تعالىٰ، وإن أسأت استغفرت الله عز وجل»(٣).

---

(١) «الحلية»: ١/ ٢٠٩. وانظر: «المنتظم» لابن الجوزي: ٥/ ١٧، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٤٧/ ١٠٧.

(٢) «صفة الصفوة»: ١/ ٢٦١.

(٣) «الحلية»: ١/ ٢١٢.

وإذا كانت الخشية علىٰ قدر المعرفة: فجدير بأبي الدرداء ﷺ أن يكون علىٰ هذ القدر من خشية الله، وأن يكون في حسبانه دائماً شدة الحساب. وكان دليل الصدق في ذلك صون نفسه عما يخالف ذلك.

علىٰ أنه رحمه الله ورضي عنه، قد أزال من النفوس ما يمكن أن يداخلها من اللبس، بسبب موقفه هذا، ويظن أنه يحرم علىٰ نفسه ما أحلّ الله في كتابه فأماط اللثام عن ذلك، مبيناً أنه يحب أن يكون من الذين لا تلهيهم التجارة والبيع عن ذكر الله وذلك قوله: «ما أقول: إن الله ﷻ لم يحل البيع ويحرم الربا، ولكن أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله»[1].

ذلك ما ارتضاه لنفسه، وقدر أن يصبر عليه، وهو طريق التزمه وتحمل تبعاته؛ ولئن كان الإسلام لا يوجبه علىٰ الناس: إن أبا الدرداء ﷺ لم يلزم به أحداً غيره. ولقد اختار لنفسه ـ بعد أن خبر قدرته ـ أن يستبرئ لدينه وعرضه بالإعراض عن الاستكثار من الدنيا بالتجارة وغيرها، والرضا بالقليل الذي يقوم بالإود ويحفظ الكرامة، حيطة وحذراً من مزالق الأقدام، وما أكثرها، بل وما أوفر مداخل النفس والهوىٰ إليها، ولم يدع يستثمر الوقت في طاعة الله، والتبليغ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام والنصح للمسلمين.

وسبحان خالق الإنسان؛ فلكلٍ أهليته واستعداده، وكلٌ ميسَّرٌ لما خلق له.. أقول هذا: لأن أبا الدرداء ﷺ يعلم بأن الأمة مكلَّفَة بإعداد القوة التي ترهب عدو الله وعدو المسلمين، والمال عنصر مهم علىٰ ساحة الإعداد والبناء الحضاري، مضموماً إليه الطاقات العلمية والجسدية والنفسية وغير ذلك، بعد الإيمان وصدق التوكل علىٰ الله. والانصرافُ عن تنمية ثروات الأمة يتعارض مع هذا الواجب؛ فمن كان قادراً علىٰ الإسهام ـ من الناحية المالية والاقتصادية وعنده الأهلية لذلك ـ لا يجوز له أن يتخلف عن القيام بواجبه في إعداد القوة المستطاعة امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالىٰ بذلك؛ فالأمر واجب كفائي، إلا إذا توافرت أسباب الواجب العيني. ولم يتوافر ذلك في عصر أبي

(١) «الحلية»: ١/ ٢٠٩.

الدرداء رضي الله عنه، فكان صنيعه تضحية منه؛ إذ آثر العزوف عن جمع المال للثراء والمتعة ورضي قانعاً بالقليل الذي يكفي ولا يلجئ إلىٰ التكفف؛ لأن اليد العليا خير من اليد السفلىٰ.

وما أقل ما تجد أولئك الناس القادرين علىٰ اقتحام غريزة حب المال والتملك، والله تعالىٰ يصف الإنسان بقوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات].

ومهما يكن من أمر: فإن هذا ما يحسن تذكُّره ـ والله أعلم ـ عند قراءة تعليق الإمام الذهبي علىٰ مسلك أبي الدرداء عليه الرحمة والرضوان في هذه النقطة.

فقد أورد في «السير» ما أشرت إليه سابقاً وهو ما روىٰ الأعمش عن خيثمة: قال أبو الدرداء: «كنت تاجراً قبل المبعث، فلما جاء الإسلام، جمعت التجارة والعبادة، فلم يجتمعا، فتركت التجارة ولزمت العبادة» وهو ما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ورواه الطبراني وأورده الحافظ في «الإصابة» ورجاله رجال الصحيح.

ثم قال الذهبي تعقيباً علىٰ ذلك: «قلت: الأفضل جمع الأمرين مع الجهاد. وهذا الذي قاله هو طريق جماعة من السلف والصوفية، ولا ريب أن أمزجة الناس تختلف في ذلك، فبعضهم يقوىٰ علىٰ الجمع، كالصدّيق وعبد الرحمٰن بن عوف، وكما كان ابن المبارك؛ وبعضهم يعجز، ويقتصر علىٰ العبادة، وبعضهم يقوىٰ في بدايته، ثم يعجز، وبالعكس؛ وكلٌّ سائغ، ولكن لا بدَّ من النهضة بحقوق الزوجة والعيال»[1].

وما من ريب في أن من ذاق لذة التفكُّر في آلاء الله ـ وفي الأرض والأنفس آيات للموقنين ـ واستشعر عظمة الله ومخافته، وكان علىٰ ذكر من أن الآجال والأرزاق بيده سبحانه، وأنس بالعبادة الخالصة، والخضوع الخاشع بين يدي ربّ العالمين.. هانت عليه الدنيا، ورأىٰ في ملذاتها، وخيراتها

---

(١) «سير أعلام النبلاء»: ٢/٣٣٨.

الزائلة معوقاً عما هو خير وأبقىٰ. وصدق ربنا جلّ شأنه إذ يقول في محكم تنزيله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف] ويقول ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت].

ولا شك في أن من توفيق الله أن يجمع المؤمن المال، ويؤدي فيه حق الله، ثم حق الأمة، وتكون الدنيا في كفيه لا في قلبه، وعندها تكون دنياه في عاجل أمره، مطيته إلىٰ الآخرة في آجل أمره؛ لأنه سخّر المال للخير، ولم يتجاوز حدود الله في جمعه، ولا ألهاه ذلك عن عبادة الله، وكما ذكر الإمام الذهبي: كان عبد الله بن المبارك رحمه الله وأعلىٰ مقامه في الآخرين نموذجاً رائعاً في وضع المال موضعه علىٰ ساحة المعونة للفقراء والمعوزين وتيسير العيش وعبادة الحج لهم، مضافاً إلىٰ ذلك: البذل العظيم علىٰ ساحة الجهاد في سبيل الله؛ فكان يجاهد بنفسه وماله؛ وكم وجّه القرآن الكريم إلىٰ الجهاد بالأموال والأنفس!!

علىٰ أن أبا الدرداء رضي الله عنه ـ وقد أسلم يوم «بدر» ـ لم يفته أن يشهد مقارعة أعداء الله في «أُحد» وقد أبلىٰ البلاء الحسن في ذلك. قال شريح بن عبيد الحمصي: لما هزم أصحاب رسول الله يوم أُحد، كان أبو الدرداء يومئذ فيمن فاء إلىٰ رسول الله ﷺ في الناس؛ فلما أظلهم المشركون من فوقهم، قال رسول الله ﷺ: **«اللهمّ ليس لهم أن يَعْلونا»** فثاب إليه ناسٌ، وانتدبوا[1]، وفيهم عويمر أبو الدرداء، حتىٰ أدحضوهم[2] عن مكانهم. وكان أبو الدرداء يومئذ حسن البلاء، فقال رسول الله ﷺ: **«نِعْم الفارس عويمر»**. وهو مرسل، لما أن شريح بن عبيد الحمصي لم يدرك أبا الدرداء[3].

هذا ولم يعتزل الصحابي الجليل جماعة المسلمين، ولا تقاعس عن واجب أو أداء حق من حقوق الأهل والأمة؛ وكان حريصاً علىٰ النصح،

---

(١) انتدبوا: أسرعوا. (٢) أدحضوهم: أزالوهم.

(٣) «طبقات ابن سعد»: ٧/ ٣٩٢، «المستدرك» للحاكم: ٣/ ٣٣٧، «تاريخ دمشق»: ٤٧/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

والإرشاد إلىٰ ما هو الأقوم والأصلح ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً؛ الأمر الذي يذكر بما أورد الحافظ في «الإصابة» من قول النبي ﷺ: **«هو حكيم أمتي»**[1].

انظر إليه يقول مرشداً ناصحاً، بكلمات هي من ظلال كلام النبوة: **«لا تزالون بخيرٍ ما أحببتم خياركم، وما قيل فيكم بالحق، فعرفتموه، فإن عارف الحق كعاملهٍ»**[2]. وهذا دليل يؤكد أن انصرافه ـ جزاه الله خير الجزاء ـ عن الانخراط في صفوف المكثرين، لم يحل دونه ودون أن يكون اللبنة الصالحة دائماً في بناء المجتمع المسلم، يعمل علىٰ التذكير بأخلاق الإسلام، ومعايير الشريعة، ويقوم بواجب النصح أداءً للأمانة، ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً، فهو من الجماعة المسلمة وإليها، و**«يد الله مع الجماعة»**[3].

جزىٰ الله أبا الدرداء صاحب رسول الله ﷺ خير الجزاء، وتقبَّل منه صالح العمل، وما كان من الجهاد ونصرة الدين، والزهادة في الدنيا، والنصح للمسلمين. ورزقنا الله حسن الانتفاع بسيرة الصحابة عليهم الرضوان، ومن تبعهم بإحسان عبر تاريخنا الطويل.

وصلّىٰ الله وسلم وبارك علىٰ إمام الهداة المجاهدين الزاهدين، وعلىٰ آله وصحابته ومن اهتدىٰ بهديه، علماً وعملاً، وجهاداً، واستعلاءً علىٰ حطام الدنيا في تطلُّع صادق إلىٰ حسن العاقبة يوم الدين.. وعلىٰ آله وصحابته البررة الأخيار ومن اهتدىٰ بهديه إلىٰ يوم المعاد.



---

(١) «الإصابة»: ٣/ ٤٥ (٦١١٧).

(٢) «الحلية»: ١/ ٢١٠ قال أبو نعيم: رواه ابن المبارك عن الأوزاعي مثله.

(٣) حديث صحيح أخرجه الترمذي من رواية ابن عباس رضي الله عنهما (٢١٦٧).



مع أبي الدرداء رضي الله عنه[1]

كلمات أُخر



أبو الدرداء والقضاء:

حدّث يحيىٰ بن سعيد قال: استُعمل أبو الدرداء (عويمر) رضي الله عنه علىٰ قضاء دمشق، فأصبح الناس يهنئونه، فقال: أتهنئونني بالقضاء، وقد جُعلت علىٰ رأس مهواة منزلتها أبعد من عدنِ أبين، ولو علم الناس ما في القضاء لأخذوه بالدُّوَل رغبة عنه وكراهية له، ولو يعلم الناس ما في الأذان لأخذوه بالدُّوَل رغبة فيه وحرصاً عليه[2].

ما يشتكي؟

وعن معاوية بن قُرّة أن أبا الدرداء اشتكىٰ (مرِض) فدخل عليه أصحابه. فقالوا: يا أبا الدرداء ما تشتكي؟ قال: أشتكي ذنوبي. قالوا: فما تشتهي؟ قال: أشتهي الجنة... قالوا: أفلا تدعو لك طبيباً؟ قال: هو الذي أضجعني..[3].

جزاك الله خيراً:

وحدّث أبو معشر القرظي قال: لما حضر أبا الدرداء الموت جاءه حبيب بن مسلمة فقال: كيف تجدك يا أبا الدرداء؟ قال: أجدني ثقيلاً، قال:

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة، العدد (٧)، رمضان ١٣٨٦هـ، كانون الأول ١٩٦٦.

(٢) «الطبقات الكبرى»: ٧/ ٣٩٢؛ «تاريخ دمشق»: ٤٧/ ١٣٩ ـ ١٤٠، «المنتظم»: ٥/ ١٧. و«أبينُ» كما في «الصحاح» للجوهري: اسم رجلٍ نُسب إليه «عَدَنٌ»، يقال: «عدنُ أبيَنَ».

(٣) «الطبقات الكبرىٰ»: ٧/ ٣٩٣، «الحلية»: ١/ ٢١٨، «المنتظم»: ٥/ ١٨.

ما أراه إلا الموت، قال: أجل، قال: جزاك الله خيراً[1].

أحب..

وعن عمرو بن مرة قال: سمعت شيخاً يحدث عن أبي الدرداء أنه قال: أحبّ الفقراء تواضعاً لربي، وأحبّ الموت اشتياقاً إلىٰ ربي، وأحبّ المرض تكفيراً لخطيئتي[2].

ماذا عملت فيما علمت؟

وفي كلمة أخرىٰ يقول: «إنما أخشىٰ على نفسي أن يقال لي علىٰ رؤوس الخلائق: يا عويمر هل علمت؟ فأقول: نعم!! فيقال: ماذا عملت فيما علمت؟»[3].

اللهم غفرك وسترك، إذا كان أبو الدرداء صاحب رسول الله عليه الصلاة والسلام، يخاف علىٰ نفسه هذه المخافة ويراقب هذه المراقبة؟ فماذا نحن فاعلون، وما الذي أعدَّه أولئك الحمقىٰ الذين يأكلون الدنيا بالدين، بل ماذا سيصير إليه أحمق الحمقىٰ الذين يبيعون دينهم بدنيا غيرهم؟!!

اللهمّ يا مثبّت القلب ثبّت قلبنا علىٰ دينك، ويا مصرف القلوب صرّف قلوبنا إلىٰ طاعتك واجعلنا برحمتك ـ ونحن المقرّون بالتقصير ـ في عداد أولئك الذين يعملون بما يعلمون ولا حول ولا قوة إلا بالله..

الدنيا ـ وذروة الإيمان:

ومن القواعد الذهبية للسلوك الذي يكون انعكاس العقيدة ما نراه في هذه الكلمات: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له»[4] «ذروة الإيمان: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب عَزَّ وَجَلَّ»[5].

---

(١) «الطبقات الكبرى»: ٧/ ٣٩٣.

(٢) «الحلية»: ١/ ٢١٧، «تاريخ الإسلام» للذهبي: ٣/ ٤٠٤.

(٣) «حلية الأولياء»: ١/ ٢١٣، «تاريخ دمشق»: ٤٧/ ١٤٨.

(٤) «تاريخ دمشق»: ٤٧/ ١٧٦.

(٥) «حلية الأولياء»: ١/ ٢١٦.

اغدوا فإنا رائحون:

وما نراه أيضاً في الذي كان يقوله إذا رأىٰ جنازة؛ فعن شرحبيل أن أبا الدرداء كان إذا رأىٰ جنازة قال: «اغدوا فإنا رائحون، أو روحوا فإنا غادون، موعظة بليغة، وغفلة سريعة، كفىٰ بالموت واعظاً، يذهب الأول فالأول، ويبقىٰ الآخر لا حلم له»(١).

رضي الله عنك يا أبا الدرداء وأجزل لك المثوبة بما علَّمت العلم، وذكَّرت بالآخرة، ووعظت الناس بحالك قبل أن تعظهم بقالك؛ فكنت القدوة الصالحة في أقوالك وأفعالك. وصلّىٰ الله وسلم علىٰ معلم الناس الخير، والله المأمول أن يقدرنا علىٰ تمثُّل هذه الدرر الحسان المنوّرة لهدي الكتاب والسنّة من حياة هذا الصحابي الجليل، وأن يرزقنا حسن الانتفاع بهذا الميراث العظيم المثقل بالخير، وأن يجعلنا من الذين يتبعون ولا يبتدعون، فتراهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهو سبحانه المحمود علىٰ كل حال.

من الوصايا الجامعة:

ومن وصاياه الجامعة التي تحسُّ فيها أثر مدرسة الوحي، وترىٰ من خلالها ما كان من صدق الأخذ عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وحبه أكثر من الوالد والولد والنفس، ووعي مقالاته ووصاياه وعياً أميناً يدل علىٰ صدق التمثل والانطباع، قوله ﷺ: «اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدُّوا أنفسكم من الموتىٰ، واعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلىٰ، وأن الإثم لا ينسىٰ»(٢).

موعظة لأهل دمشق:

ويقول في موعظة لأهل دمشق: «.. ما لي أرىٰ علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون؟ وأراكم قد أقبلتم علىٰ ما تُكُفِّل لكم به، وتركتم ما أُمرتم به. ألا إن قوماً بنَوا شديداً، وجمعوا كثيراً، وأملوا بعيداً، فأصبح

---

(١) «حلية الأولياء»: ١/ ٢١٧.

(٢) «حلية الأولياء»: ١/ ٢١٢، «تاريخ دمشق»: ٤٧/ ١٦٦، «السير»: ٢/ ٣٥٠.

بنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً، وجمعهم بوراً. ألا فتعلَّموا وعلّموا؛ فإن العالم والمتعلم في الأجر سواء، ولا خير في الناس بعدهما»[1].

إنها موعظة جاءت بالدعوة الحرة الصادقة إلىٰ العلم والتعليم، وذلك خصلة من أوليات خصال الإسلام، فلا خير في الناس بعد العالم والمتعلم، كما دعت إلىٰ الزهادة الصادقة في الدنيا، ووجهت الأنظار إلىٰ الاعتبار بالماضين ماذا صنعوا، وما الذي آلوا إليه، فنِعْم الواعظ ونعمت الموعظة، وطوبىٰ لأولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أخوف ما يخاف:

ولما كان أبو الدرداء دائم التفكُّر والتذكُّر، تملأ قلبه خشية الله، ويخاف أن يدركه الموت وهو مفرط في جنب الله... رأيناه كثيراً ما يسائل نفسه عن العمل بما علم، وبماذا يجيب ربّ العزة حين يسأله عن ذلك يوم الحشر ويبدي خوفه الشديد من ذلك؛

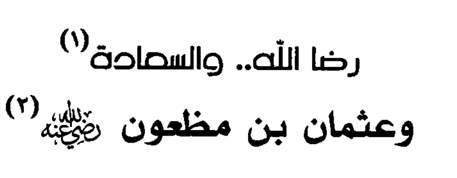
فمن كلامه ﷺ: «أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة: يا عويمر أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت علمت! لا تبقىٰ آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها، الآمرة هل ائتمرت؟ والزاجرة هل ازدجرت؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع»[2].

ألا يا ليت لمن يجفون الحق ويدَّعون العلم والمعرفة آذاناً تسمع وقلوباً تعي، ولكن الدنيا بزخرفها وبهرجها تلهي وتُلهي، والنفس بشهواتها وغرورها تشغل وتشغل، حتىٰ كأن بعضنا لا يؤمن بيوم الحساب، اليوم الذي يكشف الله عماذا يكون فيه، من انقطاع الحيلة، وتعطُّل وسائل التمويه التي كانت في الدنيا فيقول: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

---

(١) «الحلية»: ١/ ٢١٣، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٤٧/ ١٣٢، وأورده الذهبي في «السير»: ٢/ ٣٤٧ مختصراً.

(٢) «الحلية»: ١/ ٢١٤، وعند ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: ٤٧/ ١٤٨: «إن أخوف ما أخاف إذا وقفت علىٰ الحساب أن يقال لي: قد علمت فماذا عملت؟» وبهذا اللفظ نفسه أورده الذهبي في «السير»: ٢/ ٣٤٧.



رضا الله.. والسعادة(1)

وعثمان بن مظعون رضي الله عنه(2)

جاء في مصادر السيرة والتراجم: أنه لما عاد إلىٰ مكة أولئك المهاجرون إلىٰ الحبشة من أصحاب النبي ﷺ بعد الهجرة الأولىٰ: دخل عثمان بن

(1) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة، العددان (1 و2)، ربيع الأول والآخر 1387هـ، حزيران وتموز 1967م.

(2) هو الصحابي الجليل عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي كان من حكماء العرب في الجاهلية يحرم الخمر، أبو السائب كثير المناقب، من سادة المهاجرين، ومن أولياء الله المتقين، الذين فازوا بوفاتهم في حياة نبيهم ﷺ فصلّىٰ عليهم، وكان أبو السائب رضي الله عنه أول من دفن بالبقيع، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر إلىٰ أرض الحبشة مرتين، أراد التبتل، فقصد يتعبَّد، فأتاه النبي ﷺ فقال: **«يا عثمان إن الله لم يبعثني بالرهبانية، وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة»**، شهد رضي الله عنه بدراً، ولما مات جاءه النبي ﷺ فقبّله وهو ميت، حتىٰ رؤيت دموعه تسيل علىٰ خدَّي عثمان، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين، وشرف ـ كما أسلفنا ـ بأولية الدفن بالبقيع منهم. قال الحافظ في «الإصابة»: 2/ 464: توفي بعد شهوده بدراً في السنة الثانية من الهجرة، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين، وأول من دفن بالبقيع منهم. وروىٰ الترمذي من طريق القاسم عن عائشة قالت: قبَّل النبي ﷺ عثمان بن مظعون وهو ميت، وهو يبكي، وعيناه تذرفان، ولما توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ قال: **«الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون»**. وروىٰ كثير بن زيد المدني عن المطلب بن عبد الله قال: لما دفنَ النبيُّ ﷺ عثمان بن مظعون، قال لرجل: **«هلمَّ تلك الصخرة، فاجعلها عند قبر أخي، أعرفه بها، أدفن إليه من دفنت من أهلي»**، فقام الرجل فلم يطقها، فقال ـ يعني الذي حدثه ـ فلكأني أنظر إلىٰ ساعدي رسول الله ﷺ لما احتملها، حتىٰ وضعها عند قبره. أخرجه أبو داود رقم (3206) في الجنائز، وسنده حسن لكنه مرسل، ورواه ابن ماجه رقم (1561) بسند حسن كما قال البوصيري.

وينظر: «الاستيعاب»: 8/ 63، و«الإصابة»: 2/ 464، «السيرة النبوية» لابن هشام: 2/ 9، «السير»: 1/ 153، «الأعلام»: 4/ 214.

مظعون ﷺ في جوار الوليد بن المغيرة، وفي الجوار بعدٌ عن البلاء، وحفظٌ من أذىٰ المشركين.

غير أنه لم يكن كل المؤمنين قادراً علىٰ أن يحظىٰ بجوار...

فلما رأىٰ عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي يلقون من البلاء والأذىٰ ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي.

فمشىٰ إلىٰ الوليد بن المغيرة، فقال: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك.. فقال له: لِمَ يا ابن أخي.. لعله آذاك أحد من قومي؟.. قال: لا، ولكني أرضىٰ بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره.. قال: فانطلقْ إلىٰ المسجد فاردُدْ عليّ جواري علانية، كما أجرتُك علانيةً.

فانطلقا حتىٰ أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان، قد جاء يرد علي جواري. قال عثمان: صدق، ولقد وجدته وفيّاً كريم الجوار، ولكني أحببت ألا أستجير بغير الله.

ثم انصرف عثمان.. والشاعر لبيد بن ربيعة في مجلس من مجالس قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. فقال عثمان: صدقت.. قال لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل. فقال عثمان: كذبت.. نعيم الجنة لا يزول. فقال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذىٰ جليسكم، فمتىٰ حدث هذا فيكم؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه فارق ديننا، فلا تجدَنَّ في نفسك من قوله.

فردَّ عليه عثمان بن مظعون حتىٰ شَريَ أمرُهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فأصابها، والوليد بن المغيرة قريب، يرىٰ ما يحدث لعثمان. فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمةٍ منيعة. فقال عثمان: بل والله أن عيني الصحيحة لفقيرة إلىٰ مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعزُّ منك وأقدرُ يا أبا عبد شمس..

فقال له الوليد: هلمّ يا ابن أخي، إن شئت، فعُد إلىٰ جواري. قال ابن مظعون: لا.

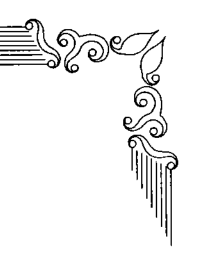
وغادر الصحابي الجليل المكان وعينه تعاني.. وتعاني، ولكن قلبه يفيض بإيمان ينعكس صحة وطمأنينة وقوة.

وفي طريقه إلىٰ داره كان يتغنّىٰ بشعره الذي كان منه:

فإن تكُ عيني في رضا اللّه نالها ... يدا ملحدٍ في الدين ليس بمهتدي
فقد عوّض الرحمٰن منها ثوابه ... ومن يرضه الرحمٰن يا قوم يَسعَد
فإني وإن قلتم غوي مضلَّل ... لأحيا علىٰ دين الرسول محمد
أريد بذاك اللّه والحق ديننا ... علىٰ رغم من يبغي علينا ويعتدي(١)



(١) وانظر: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٣/ ٨٦، «الحلية»: ١/ ١٠٢ فما بعد، «السيرة النبوية» لابن هشام: ٢/ ٩، «صفة الصفوة»: ١/ ١٧٨، «أسد الغابة»: ص٥٩٨ فما بعد، «الإصابة»: ٢/ ٤٦٤، «شذرات الذهب»: لابن العماد الحنبلي: ١/ ٩ ـ ١٠.



أبو مسلم الخولاني[1]

الداراني ـ زاهد العصر

هو عبد الله بن ثُوَبَ، سيد التابعين زاهد العصر، وقارئ أهل الشام، أصله من اليمن وأدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبي ﷺ ولم يره، وقيل: كان إسلامه عام حنين. قدم المدينة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وهاجر إلىٰ الشام في أيام معاوية، وقد ذكر شرحبيل بن مسلم أن الأسود العنسي المتنبئ باليمن ألقاه في النار فأنجاه الله منها[2]. روىٰ رحمه الله عن: عمر ومعاذ وأبي عبيدة والكبار، حدث عنه: أبو إدريس الخولاني وأبو العالية الرياحي وجبير بن نفير وعطاء وأبو قلابة وطائفة، قال الذهبي: وثقه ابن معين والعجلي وغيرهما[3]. وله مناقب وكرامات[4] وكان يقال: حكيم هذه الأمة[5]. أكثر المصادر على أنه توفي غازياً في أرض الروم قريباً من إحدىٰ وستين أو ثنتين وستين للهجرة، في زمن يزيد بن معاوية وقبره في داريا قرب دمشق، يزار.

حكيم هذه الأمة.. شهد هذه الشهادة بأبي مسلم غيرُ واحد من أعلام الأمة[6]، ومن حكمته رحمه الله ما كان يقوله في معرض حديثه عن العلم والعمل

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة عشرة، العدد (٢)، ربيع الآخر ١٣٩٦هـ، نيسان ١٩٧٦م.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ»: ٧/٤٤٨، «المعرفة والتاريخ»: ٢/٣٠٨ و٣٨٢، «السير»: ٤/٨ فما بعد. وينظر: «الروضة الريّا فيمن دفن بداريّا»: ص٢٤ للعمادي.

(٣) «تذكرة الحفاظ»: ١/٤٩، «تهذيب الكمال»: ٣٤/٢٩١.

(٤) «المنتظم»: ٥/٣٣١ ـ ٣٣٢، «تاريخ دمشق»: ٢٧/٢٠٠ ـ ٢٠٢.

(٥) المصدر السابق: ٢٧/٢٠٢ ـ ٢٠٤، «الحلية»: ٥/١٢٠ ـ ١٢١.

(٦) قال أبو نعيم في «الحلية»: ٢/١٢٢: حكيم هذه الأمة وممثلها، ومديم الخدمة ومحررها.

وما يكون من شأن العالم إذا عمل بعلمه وأفاد الناس من علمه وعمله، وما إذا كان علىٰ حال لم يستطع معها أن يؤثر في الناس.. ثم ما إذا كان علىٰ حال يفيد الناس بعلمه ولكنه هو لا يعمل بهذا العلم والعياذ بالله.

قال أبو مسلم في ذلك: «العلماء ثلاثة؟ رجل عاش بعلمه وعاش الناس معه، ورجل عاش بعلمه ولم يعش الناس معه، ورجل عاش الناس بعلمه وأهلك نفسه»[1].

وأبو مسلم عندما يصنّف العلماءَ هذا التصنيف، يلحظ مكانة العالم في حياة المسلمين، وكيف أنه في موضع الريادة والدلالة علىٰ الخير، فإذا انتكس عن الطريق التي أكرمه الله بها: كانت الهلكة والخسران؛ لقد جعل أبو مسلم مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء إذا ظهرت للناس شاهدوا وإذا غابت عنهم تاهوا[2].

ولم تقتصر حياة أبي مسلم علىٰ العلم والتعليم والزهادة في الدنيا، بل كان يضم إلىٰ ذلك الجهاد في سبيل الله، شأنَ الرجل الرباني الذي يعمل بما يعلم، ويسابق الناس إلىٰ ما يدعوهم إليه من التزام ما أمر الله به من التقوىٰ والجهاد؛ فقد عرف عنه أنه اشترك في أكثر من غزوة لأرض الروم هنا علىٰ حدود بلاد الشام، وكانت تظهر علىٰ يديه بعض الكرامات التي يكرم الله بها عبده المؤمن المستقيم علىٰ طاعته الملتزم لشرع الله في أحكامه وآدابه.

فقد روىٰ علماء التراجم عن محمد بن زياد الألهانيّ: أن أبا مسلم كان إذا غزا أرض الروم فمروا بنهر قال: أجيزوا باسم الله ويمر بين أيديهم قال: فيمرون بالنهر الغمر، فربما لم يبلغ من الدواب إلا الركب أو بعض ذلك، أو قريباً من ذلك، فإذا جازوا قال للناس: هل ذهب لكم شيء؟ من ذهب له شيء فأنا له ضامن، قال: فألقىٰ بعضهم مخلاته عمداً، فلما جازوا قال الرجل: مخلاتي وقعت في النهر، قال له: اتبعني، فاتَّبعه فإذا المخلاة تعلقت ببعض أعواد النهر[3].

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٢٧/ ٢٢٦. (٢) «الحلية»: ٥/ ١٢٠.

(٣) «الحلية» لأبي نعيم الأصبهاني: ٥/ ١٢٠ ـ ١٢١، «تاريخ دمشق» ٢٧/ ٢١٠.

ومن أخباره مع الصحابة وحبه إياهم واستشرافه لما عندهم من الخير يحملونه من فيض النبوة إلىٰ الناس: ما ورد من حديثه مع معاذ بن جبل، فعن عطاء عن أبي مسلم الخولاني قال: دخلت مسجداً فإذا حلقة فيها بضع وثلاثون رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، وإذا فيهم شاب آدم أكحل براق الثنايا محتب، فإذا تذاكروا أمراً، فأشكل عليهم سألوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: معاذ بن جبل، قال: فقمنا فصلينا المغرب، فلما انصرفنا لم أقدر علىٰ أحد منهم، فلما كان من الغد هجَّرت فإذا أنا بمعاذ قائماً يصلي إلىٰ سارية، فصليت إلىٰ جانبه، فظن أن لي إليه حاجة، فلما انصرف قعدت بينه وبين السارية محتبياً فقلت: والله إني لأحبك من غير قرابة ولا صلة أرجوها منك، قال: فيمَ ذلك؟ قلت: في الله، قال: فأخذ حبوتي ثم قال: أبشر إن كنت صادقاً، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المتحابون في الله علىٰ منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله**»، قال: فأتيت عبادة بن الصامت فأخبرته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يخبر عن الله ﷻ: «**حقت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ، وحقّت محبتي للمتناصحين فيّ**»[1].

هذه نبذة من أخبار هذا التابعي الكبير التي نلمح فيها العلم والعمل الرباني، والكرامات[2]، وصدق المواقف في الجهاد، والحكمة البالغة التي يجريها الله تبارك وتعالىٰ علىٰ قلوب عباده المتقين وألسنتهم، وحبّه لأصحاب النبي ﷺ الذين من أحبهم فبحب رسول الله أحبهم. . . رحمك الله أبا مسلم فأنت حقاً حكيم هذه الأمة بعملك وعلمك وزهادتك وجهادك. . ونسأل الله أن يعلي مقامك في دار البقاء، وأن يجعلنا عند الذي سلكه أئمة الهدىٰ من ربانيي هذه الأمة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

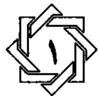
---

(١) «الحلية»: ٥/ ١٢٠ ـ ١٢١. وانظر: «المسند»: ٦/ ٣٢٦ رقم (٢٠٠٢)، وانظر الأرقام: (٢٢٠٦٤، ٢٢٠٦٥، ٢٢٠٨٠، ٢٢٧٨٢)، وينظر: رقم (٩٦٦٥)، «المستدرك» للحاكم: ٣/ ٢٦٩، «الطبقات الكبرىٰ»: ٣/ ٢/ ١٢٥، «السير»: ١/ ٤٥٣.

(٢) وينظر لشيء من كراماته: «الروضة الريّا فيمن دفن بداريّا» للشيخ عبد الرحمن العمادي: ص٣١ ـ ٣٢ تحقيق نذير عتمة.



مع أبي إدريس الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]



هو عائذ الله بن عبد الله الدمشقي ولد عام حنين وتوفي سنة ثمانين للهجرة. كان رَحِمَهُ اللَّهُ من جلّة التابعين، أخذ عن معاذ بن جبل، وسماعُه منه ـ كما قال الثقات ـ صحيح، وسمع من أبي الدرداء وروىٰ عنه، كما روىٰ عن: أبي ذر وحذيفة وعبادة بن الصامت، وعوف بن مالك وأبي هريرة وطائفة من الصحابة، وروىٰ عنه: الزهري ومكحول وربيعة القصير ويحيىٰ بن يحيىٰ الغساني ويونس بن ميسرة، وآخرون.

كان فقيه أهل الشام وعالمهم، وواعظ أهل دمشق وقاصهم وقاضيهم؛ بل قال مكحول: «ما علمت أعلم من أبي إدريس» وقد وثقه النسائي وغيره[2] وهو واحد من أولئك البررة الذين جمعوا بين العلم والعمل، وذلك ما وضع لكلامه القبول في الناس، ولعلمه حسن التأثير في النفوس.

وإذا كان حظُّ أبي إدريس من العمل بالعلم عظيماً بتوفيق الله تعالىٰ، فقد كان مَعلَماً من معالم الخير في الأمة يهتدي الناس بعمله واستقامته؛ كما يهتدون بعلمه ودعوته إلىٰ الله، ولذلك عني بجلاء القلب، وتنقيته عن كل ما يباعد عن الله؛ لأن بصلاح القلب صلاح ما تكسبه الجوارح وبفساده فساده، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلب نقي في ثياب دنسة خير من قلب دنس في ثياب نقية»[3]

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة عشرة، العدد (٣)، جمادىٰ الأولىٰ ١٣٩٦هـ، أيار ١٩٧٦م.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٧/ ٤٤٨، «السير»: ٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٦، «طبقات الفقهاء» لأبي إسحاق الشيرازي: ص٧٤.

(٣) «الحلية»: ٥/ ١٢٢.

وليس هذا بغريب من أبي إدريس في فضله وحسن تبصُّره بالحقائق؛ فإن القلب محل نظر الله ﷻ وليس الظاهر والصور..

وفي تخوُّف من القضاء ورهبة من زلّة الحكم قال حين عزله عبد الملك عن القصص وأقره علىٰ القضاء: «عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي»[1].

علىٰ أن القاصَّ العالم العامل بعلمه كان يحقق نفعاً كبيراً للمسلمين. قال الإمام الذهبي: «كان القاص في الزمن الأول يكون له صورة عظيمة في العلم والعمل»[2].

وفي ترهيب لأولئك الذين لا يقصدون بحديثهم إلىٰ الناس وجه الله. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تعلّم طرق الحديث ليستفيء الناس لم يرح رائحة الجنة»[3].

ويريد أبو إدريس من المسلم أن يكون صادق التوكل علىٰ الله، موحداً وجهته إليه فيقول: «من جعل همومه همّاً واحداً كفاه الله همومه، ومن كان له في كل واد همّ لم يبال الله في أيها هلك»[4]. ورحم الله من قال: اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها.

والمساجد!! وهي بيوت الله التي أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه لها عند أبي إدريس تعريف مرتبط بخلائق روّادها والملازمين لها، ذلك قوله: «المساجد مجالس الكرام»[5]. وما دام للمساجد هذا الشأن: فعزيز علىٰ أبي إدريس أن يرىٰ في المسجد قاصّاً غير فقيه[6].

وفي توجيه إلىٰ العمل بالقرآن وتدبُّره والتزام مضموناته والكشف عن الجوانب التي تناولتها الآيات الكريمة قال أجزل الله مثوبته: «إنما القرآن آية

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٢٧٥، وفي رواية: «عزلوني عن رغبتي وتركوني في رهبتي».

(٢) «السير»: ٤/ ٢٧٥.

(٣) «الحلية»: ٥/ ١٢٢.

(٤) «الحلية»: ٥/ ١٢٣.

(٥) المصدر نفسه: ٥/ ١٢٣، «مختصر تاريخ دمشق»: ١١/ ٣٠٠.

(٦) «الحلية»: ٥/ ١٢٤. وانظر: «السير»: ٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

مبشرة، وآية منذرة، وآية فريضة، أو قصص أو أخبار، وآية تأمرك وآية تنهاك»[1] والسعيد السعيد من استوقفته آية البشارة ففرح بفضل الله واستقام علىٰ الطريقة، وزادته الآية المنذرة إيماناً فخاف ووجل، وكفكف نفسه، فدانها وعمل لما بعد الموت، والتزم الحدود عند آية الفريضة، وملأت قلبه العبرة عند القصص والأخبار، وائتمر بأمر الله عند الآية الآمرة، وانتهىٰ عن المنهيات عند الآية الناهية.. وتلك صفات المؤمنين الصادقين في إيمانهم، أولئك الذين إذا رأيت صنيعهم مع الكتاب الكريم ذكرت قول الله تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

ولا بدع أن يكون أبو إدريس علىٰ هذا السنن من التذكير بتدبُّر القرآن وتذكُّره وهو عالم الشام بلا منازع بعد الإمام القدوة الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه؛ فعن سعيد بن عبد العزيز أنه قال: كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبي الدرداء[2].

رحم الله أبا إدريس الخولاني وجزاه بما نصح للمسلمين كل خير.. ولنا معه وقفة أخرىٰ نستزيد فيها من علمه وعمله إن شاء الله.



---

(١) «الحلية»: ٥/١٢٣. وانظر: «السير»: ٤/ ٢٧٤.

(٢) «تاريخ دمشق»: ٢٦/١٦٢، «السير»: ٤/ ٢٧٤.



مع أبي إدريس الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

كلمات أخر



وفاء بموعد مضروب لوقفة أخرىٰ مع أبي إدريس الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ، أجدني أمام قبضة نيرة من كلماته الربانية ومعالم سلوكه.

روىٰ ربيعة بن يزيد أنه سمع أبا إدريس يقول: «ما تقلد امرؤ قلادة أفضل من سكينة، وما زاد الله عبداً قط فقهاً إلا زاده قصداً»[2].

وإنها لكلمات تراها، علىٰ وجازتها، لبنة في نبراس المؤمن ومعالم طريقه إلىٰ الله. السكينة.. نعمت القلادة يقلدها المرء.. السكينة التي إذا نزلت في قلب المؤمن انعكست علىٰ جوارحه وسلوكه طمأنينة وحلماً ورضاً بقضاء مولاه وصبراً علىٰ المكاره، ويقيناً بما عند الله تبارك وتعالىٰ، فنجده مهما كبرت الأحداث من داخل النفس أو من خارجها، تتزلزل الجبال الرواسي ولا يتزلزل، ولقد جعلها المولىٰ جلّ شأنه طريقاً إلىٰ زيادة الإيمان، فحين أنزلها في قلوب المؤمنين بيَّن أن ذلك كان من فضله عليهم ليحصل لهم مزيد من الطمأنينة واليقين، ففي طوالع سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [٤].

وإذن فيا نعمت القلادة أن يُعطَىٰ المؤمن السكينة، فيكون له من الخير ما يكون.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة عشرة، العدد (٤)، جمادىٰ الآخرة ١٣٩٦هـ، حزيران ١٩٧٦م.

(٢) «الحلية»: ٥/١٢٣ ـ ١٢٤، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: (٢٦/١٦٦).

والفقه في دين الله. . «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»(١) والازدياد من ذلك: طريق القصد، طريق الجادة والاعتدال؛ فلا إفراط ولا تفريط، لأن من أعطيَ الفقهَ في دين الله ـ علىٰ عموم دلالة كلمة الفقه ـ فقد أسلمته العناية إلىٰ الطريق التي تصله بميراث النبوة.

وهكذا إذا اجتمع للمؤمن سكينة القلب والفقه في دين الله، عقيدة وعبادة وعملاً وتصوراً وسلوكاً، كان ذلك عنوان فضل الله عليه، وإيذاناً بأنه من المقربين لديه، وأكرم بها منزلة يمنّ الله علىٰ من يشاء من عباده.

لذا كان لزاماً أن نقدر كلمة أبي إدريس حق قدرها في قوله: «ما تقلّد امرؤ قلادة أفضل من سكينة، وما زاد الله عبداً قط فقهاً إلا زاده الله قصداً».

وما لي لا أذكر موقف أبي إدريس أجزل الله مثوبته من الحفاظ علىٰ السنّة ومحاربة البدعة والابتداع!!! حدث معاوية بن صالح عن أبي الأخنس عن أبي إدريس الخولاني أنه قال: «لأن أرىٰ في جانب المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها أحبُّ إليَّ من أن أرىٰ فيه بدعة لا أستطيع تغييرها»(٢).

إنها البدعة وإنها مسؤولية تغييرها. . البدعة في ذهنه واضحة ما هي. . ولزوم تنقية المساجد عنها لزوم قائم في تصوُّره رحمه الله. . أما المسؤولية وثقل الأمانة في أعناق العلماء فقد كشف عن ذلك بقوله: «أحبّ إليّ من أن أرىٰ فيه بدعة لا أستطيع تغييرها».

رحم الله أبا إدريس فقد ضرب المثل الطيب للعالم العامل في حرصه علىٰ السنّة والتزام النهج المحمدي، ومحاربة البدعة، وأن ذلك وظيفة العالم أولاً وقبل كل شيء، والمفروض في ظل الحكم الإسلامي: أن يكون الأمراء

---

(١) أخرج الترمذي بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» حديث حسن صحيح رقم (٢٦٤٧) في العلم، وفي رواية للبخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنه زيادة: «**إنما أنا قاسم ويعطي الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتىٰ تقوم الساعة حتىٰ يأتي أمر الله**»، «البخاري» رقم (٧١) كتاب العلم، باب: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»، «صحيح مسلم» رقم (١٠٣٧) كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة.

(٢) «الحلية»: ٥/ ١٢٤، «تاريخ دمشق»: ٢٦/ ١٦٨، «المختصر»: ١١/ ٣٠٠.

من وراء العلماء الذين يقفون حماة للدين وسنّة سيد المرسلين وحرباً علىٰ البدع وأهلها، لأن كلّ بدعة ضلالة، كما ثبت في «صحيح السنّة»، والرسول ﷺ يقول: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»**(١).

المهم ـ كما أسلفت ـ أن الذي كان يؤرق أبا إدريس الحفاظ علىٰ بيوت الله أن تنتهك حرمتها بالبدعة، وأن البدعة في نظره، وهي نار معنوية، أشدّ خطراً وأوغل في الإذاية من تلك النار المادية التي يمكن أن تحرق سارية أو جانباً من جوانب المسجد أو جميعه.

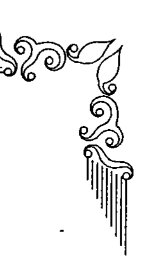
إن الخطر، كل الخطر، يكمن، كما يرىٰ أبو إدريس، في تلك النار التي تكون عنوان مخالفة الهدي النبوي والإعراض عن سنّة رسول الله واستبدالها ببدعة ليس منها رسول الله ﷺ، ولا من أهلها في شيء.

وجزىٰ الله أبا إدريس خير جزائه عن السنّة وحماتها، وعن حربه البدعةَ وأهلها. والله المسؤول أن يفتح البصائر لكلمات هذا الرجل الرباني، وأن يوفق علماء الأمة الحقيقيين أن يدوروا مع الحق حيث دار، فليست البدعة في المسجد أمراً يتعلق بالعبادة فقط، ولكنها اليوم أهوال وأهوال أقل ما يحمله بعضُها: تلكم المخالفة الصريحة عن قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن] ولله الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].



---

(١) أخرجه البخاري من رواية عائشة رقم (٢٦٩٧) كتاب الصلح، باب (إذا اصطلحوا علىٰ صلح جور فالصلح مردود)، و«مسلم» رقم (١٧١٨) كتاب الأقضية، باب (نقض الأحكام الباطلة ومحدثات الأمور).



مع سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ[1]

إنه سيد التابعين في زمانه[2] ومقدّمهم علماً وأمانة في نقل السنّة عن الصحابة، وفقهاً في دين الله عَزَّ وَجَلَّ، وزهداً في الدنيا، وصدعاً بالحق واستعلاءً بالإيمان والعلم علىٰ حطام الدنيا، ورهبةِ السلطان. قال الزهري: جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علماً غيره[3]، وقال محمد بن إسحاق عن مكحول قال: طفت الأرض كلَّها في طلب العلم، فما لقيت أعلم من سعيد بن

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الحادية عشرة، العدد (٤)، جمادىٰ الآخرة ١٣٩٠هـ، آب ١٩٧٠م.

(٢) هو الإمام العلَم الرباني أبو محمد سعيد بن المسيّب القرشي المخزومي عالم المدينة وسيد التابعين في زمانه، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أو قبل موت عمر بسنتين، وقيل: لأربع مضين من خلافته بالمدينة، رأىٰ وسمع عدداً من الصحابة وروىٰ عن كثيرين وروىٰ عنه خلق. وكان ممن برز في العلم والعمل. روىٰ سفيان الثوري عن عثمان بن حكيم قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: «ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد» أخرج ذلك أبو نعيم في «الحلية»: ١٦٣/٢، وأورده الذهبي في «السير»: ٢٢١/٤ وقال: إسناده ثابت، وكان من الممتحنين في سبيل الله، امتحن رَحِمَهُ اللهُ ـ كما يقول أبو نعيم ـ فلم تأخذه لومة لائم، وصبر وصابر إلىٰ المنتهىٰ، وهو ـ مع تلمذته لعدد من الصحابة ـ وعلمه الغزير: صاحبُ عبادة وتنسُّك وجماعة، وعفة وقناعة. قال صاحب «الحلية»: وكان كاسمه بالطاعات سعيداً، ومن المعاصي والجهالات بعيداً، ويمكن القول بأنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان صاحب مدرسة عملت عملها البارَّ في تاريخ الأمة بدءاً من صنيع التابعين بإحسان وحتىٰ أيامنا هذه، وقد توفي سعيد بن المسيب ـ أبو محمد ـ سنة ثلاث أو أربع وتسعين للهجرة عن ثمانين أو إحدىٰ وثمانين عاماً، أعلىٰ الله مقامه في الآخرين.

وينظر: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ١١٩/٥ فما بعد، «الحلية»: ١٦١/٢ فما بعد. «السير»: ٢١٧/٤، «الجرح والتعديل» القسم الأول، المجلد الثاني: ص٥٩، «النجوم الزاهرة»: ٢٢٨/١.

(٣) «البداية والنهاية»: ٩٩/٩.

المسيب[1]. أما الإمام أحمد فيقول: سعيد بن المسيب أفضل التابعين[2]. وقال علي بن المديني: إذا قال سعيد: مضت السنة، فحسبك منه، وهو عندي أجل التابعين[3].

والذي ينبغي التنبُّه إليه، ما كان عند هؤلاء الرجال من التكامل بين العلم والعمل؛ فالعلم وسيلة للتقرُّب إلىٰ الله ﷻ في أنفسهم وذويهم، وفيما وراء ذلك من أبناء الأمة، فترىٰ بجانب العلم الجمّ، العمل بهذا العلم، والعبادة الخالصة المخلصة، والحرص علىٰ أن تكون التصرفات كلها موزونة بميزان الشريعة والمخافة الحقّة من ربّ العالمين، حتىٰ صدق في سعيد وأمثاله: قول الله تبارکت أسماؤه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] قال الأوزاعي رحمه الله: «كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها كانت لأحد من التابعين، لم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة»[4]. وقال هو عن نفسه: «ما أذن المؤمن ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد»[5] وقيل له وقد اشتكىٰ عينيه: يا أبا محمد لو خرجت إلىٰ العقيق فنظرت إلىٰ الخضرة فوجدت ريح البرية، لنفع ذلك بصرَك، فقال سعيد: «فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح»[6]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «كان سعيد بن المسيب من أورع الناس فيما يدخل بيته وبطنه، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا، والكلام فيما لا يعني»[7]. ومما يؤيد ذلك أنه كان له مال يتجر فيه ويقول: «اللهم إنك تعلم أني لم أمسكه بخلاً ولا حرصاً عليه، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها، وإنما أريد أن أصون به وجهي عن بني مروان حتىٰ ألقىٰ الله فيحكم فيّ وفيهم، وأصل منه رحمي، وأؤدي منه الحقوق التي فيه، وأعود علىٰ الأرملة والفقير والمسكين والجار»[8].

---

(١) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم: ٤/ ٦٠ (٢٦٢)، «تهذيب الكمال»: ١١/ ٧١ (٢٣٥٨)، «السير»: ٥/١٥٨، «البداية والنهاية»: ٩/ ٩٩.

(٢) «الحلية»: ٢/ ١٦٣، «البداية والنهاية»: ١٢/ ٤٧٣.

(٣) «تهذيب الكمال»: ١١/ ٧٣، «البداية والنهاية»: ١٢/ ٤٧٣.

(٤) «الحلية»: ٢/ ١٦٣.

(٥) «الحلية»: ٢/ ١٦٣، «البداية والنهاية»: ٩/ ١٠٠.

(٦) «الحلية»: ٢/ ١٦٢.

(٧) «البداية والنهاية»: ٩/ ١٠٠.

(٨) المصدر السابق: ٩/ ١٠٠.

أما وقوفه عند الحق وثباته عليه مهما كانت الظروف: فأمر مشهور وذائع، وقصة إبائه البيعة لبني مروان وعدم تزويج ابنته لهشام بن عبد الملك، وتعرضه للابتلاء ـ فيما بعدُ من أجل ذلك ـ ثم تزويجها علىٰ درهمين لكثير بن أبي وداعة، مما زان تاريخ العلماء العاملين الذين لا يخافون في الله لومة لائم، ويؤدون حق الله والأمة، فيما أوتوا من العلم، وحملوا من أمانة الأسوة والهداية بالقدوة.

وحدّث عبد الله بن طلحة قال: دعي سعيد بن المسيب إلىٰ نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال: لا حاجة لي فيها ولا ببني مروان، حتىٰ ألقىٰ الله فيحكم بيني وبينهم[1].

أما عن حسن سمته وأدبه في الحديث وتذوقه حلاوة الإيمان: فحدث ولا حرج. «جاءه رجل وهو مريض فقال: اقعدوني فأقعدوه، فجلس فحدثه ثم اضطجع، فقال الرجل: وددت أنك لم تتعنَّ، فقال: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع»[2].

ومن مواعظه التي تعمل عملها في تكوين شخصية المؤمن قوله رحمه الله: «لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم، لئلا تحبط أعمالكم الصالحة[3].

وهي نظرة بعيدة الغور تصدر عن إيمان عميق وتجارب اصطلىٰ بنارها، ومعاناةٍ عمليةٍ لأخلاق أهل الإيمان التي لم يكن يدع أن يذكّر بها رحمهُ الله ويريد للمسلم أن تكون برقع سلوكه في الحياة. أما وقد أكرمه الله بما أكرمه من العلم والعمل، فلا بدع أن تتفجّر ينابيع الحكمة علىٰ لسانه. فيبيّن للناس أن الطاعة سبيل الكرامة والإعزاز، وأن المعصية سبيل المهانة والذل فيقول: «ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله تعالىٰ»[4].

---

(١) «الحلية»: ٢/١٦٦.

(٢) «صفة الصفوة»: ٢/ ٨٠.

(٣) «صفة الصفوة»: ٢/ ٨٠، «وفيات الأعيان»: ٢/٣٧٨.

(٤) «الحلية»: ٢/ ١٦٤، «صفة الصفوة»: ٢/ ٨١.

وفي جانب من جوانب هذه الساحة يقول: «كفىٰ بالمرء نصرة من الله له أن يرىٰ عدوه يعمل بمعصية الله»[1].

وفي لمسة رقيقة تدل علىٰ عظيم مراقبته لمولاه، وتحققه بمقام العبودية الخالصة الذي كثيراً ما يكون العلم نفسه عائقاً عن الوصول إليه عندما يقع العالم في حمأة الغفلة فيشرع يطوّف حول ذاته وعلمه وكفىٰ، قال: «يد الله فوق عباده، فمن رفع نفسه وضعه الله، ومن وضعها رفعه الله، الناس تحت كنفه يعملون أعمالهم، فإذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه، فبدت للناس عورته»[2] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

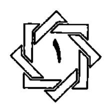
رحم الله عالم المدينة الذي اجتمع له ـ بفضل الله ﷻ ـ العلم والعمل، وأداء حق العلم في التعليم والبيان والصدع بالحق، والخشية الصادقة لرب العالمين، ثم اليقظة التي يمدُّها إيمانه وعقله، فلم يقع ـ وهو المنصرف إلىٰ العلم والعبادة ـ في شيء من الخداع والأحابيل ولم يخف في الله لومة لائم، وكان ـ وهو التقي الورع ـ لكل صغيرة وكبيرة بالمرصاد. رضي الله عنه وأرضاه.



(١) «الحلية»: ٢/ ١٦٤.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٦٦.

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ[1]



هذا واحد من أولئك الرجال الذين قد لا نعرف عنهم الكثير... وإنه لامرؤ - فيما عرفنا عنه - قد أسلم نفسه لله... فكان سعيه دائماً لمرضاته... وأيقن بالآخرة... فجعل من أعماله مركباً يوصله إليها... ومن أجل هذا هانت عليه الدنيا... وكان الحق كبيراً كبيراً في نظره... وأصبح صاحب الكلمة المسموعة عند والده خامس الراشدين رَحِمَهُ اللَّهُ... لما أنه ينطق بلسان أهل الآخرة... مستعلياً علىٰ كل الحطام الذي يختصم فيه الناس ويقطعون أرحامهم... وبذلك استطاع - أكرم الله مثواه - أن يكون صدّاعاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم... مطمئن النفس إلىٰ ما عند مولاه عَزَّ وَجَلَّ، فهو في تطلُّعاته وآماله يسير علىٰ الأرض... وكأنه ليس من العاجلة الفانية في قليل ولا كثير... فشغله الشاغل أن يكون في مرضاة الله عبادة وعملاً... حتىٰ ذكر أنه - بسلوكه - قد أثر في نهج والده من حيث العبادة... والتخلق في العمل بأخلاق أهل الآخرة.

حدث يعلىٰ المحاربي عن بعض مشيخة أهل الشام قال: «كنا نرىٰ أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رأىٰ من ابنه عبد الملك»[2]. ولقد كان من أحبّ الناس إليه رحمهما الله. وقال ابن عبد الحكم: أعان الله عمر بن عبد العزيز بثلاثة؛ أحدهم ابنه عبد الملك، توفي سنة ١٠١هـ قبيل وفاة أبيه.

ولكم كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقد أدرك ما عليه ولده - دقيق النظرة، متأنياً في

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة عشرة، العددان (٥ و٦)، رجب - شعبان ١٣٩٥هـ، آب - أيلول ١٩٧٥م.

(٢) «الحلية»: ٥/ ٣٥٣ - ٣٥٤ و٥/ ٢٧٥ كتاب عمر لعبد الملك.

السماع لما يقول، فتراه يقدر شجاعته في الحق قدرها. وفي الوقت نفسه يعمل علىٰ حسن التوجيه والموعظة.

فعن خالد بن يزيد عن جعونة قال: دخل عبد الملك علىٰ أبيه عمر فقال: يا أمير المؤمنين، ماذا تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقاً لم تحيه، وباطلاً لم تمته؟ قال: «اقعد يا بني إن آباءك وأجدادك خدعوا الناس عن الحق، فانتهت الأمور إلي، وقد أقبل شرّها وأدبر خيرها، ولكن أليس حسبي جميلاً أن لا تطلع الشمس عليّ في يوم إلا أحييت فيه حقاً، وأمت باطلاً حتىٰ يأتيني الموت وأنا علىٰ ذلك»[1].

ورضي الله عن عمر؛ فقد كان كثير الشكر لمولاه علىٰ ما أنعم عليه بواحد من أولاده كعبد الملك فيما كان عليه من صدع بالحق وحب للخير وحسّ مرهف في ردّ المظالم.

هذا إسماعيل بن حكيم كاتب الخليفة عمر بن عبد العزيز بالمدينة والشام يقول: دخل عبد الملك علىٰ أبيه عمر فقال: أين وقع رأيك فيما ذكر لك مزاحم من ردّ المظالم؟ قال: علىٰ إنفاذه، فرفع عمر يديه ثم قال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني علىٰ أمر ديني، نعم يا بني أصلي الظهر إن شاء الله ثم أصعد المنبر فأردها علىٰ رؤوس الناس، فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين من لك بالظهر، ومن لك يا أمير المؤمنين إن بقيت أن تسلم لك نيتك للظهر؟ قال عمر: فقد تفرّق الناس للقائلة، فقال عبد الملك: تأمر مناديك فينادي: الصلاة جامعة حتىٰ يجتمع الناس، فأمر مناديه، فنادىٰ، فاجتمع الناس، وقد جيء بسفط أو جونة فيها تلك الكتب، وفي يد عمر جلم يقصه حتىٰ نودي بالظهر[2].

وفي رواية أنه قال له: يا أبت قد أخّرت أموراً كنت أحسبك لو وليت ساعة من النهار عجلتها! ولوددت أنك قد فعلت ذلك ولو فارت بي وبك القدور[3].

---

(١) «الحلية»: ٥/ ٣٥٥، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٣٧/ ٤٥.

(٢) المصدر السابق: ٥/ ٣٥٦، «تاريخ دمشق»: ٣٧/ ٤٨.

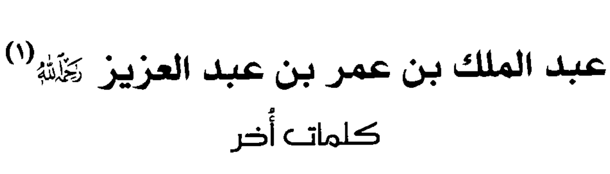
(٣) «الحلية»: ٥/ ٣٥٤، «تاريخ دمشق»: ٣٧/ ٤٦.

ألا نعم الوالد والولد... ورحم الله أفضل رحماته عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك.. روىٰ أبو عمر والحزري عن أبي عبلة أن عمر جلس يوماً للناس، فلما انتصف النهار أصابه الكلال ومل، فقال للناس: مكانكم حتىٰ أنصرف إليكم، فدخل ليستريح فجاء ابنه عبد الملك، فسأل عنه فقالوا: دخل، فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل، قال: يا أمير المؤمنين ما أدخلك؟ قال: أردت أن أستريح ساعة، قال: أو أمنت الموت أن يأتيك ورعيتك علىٰ بابك ينتظرونك، وأنت محتجب عنهم؟ فقام عمر من ساعته، وخرج إلىٰ الناس[1].

تلك هي صياغة الإسلام لأولئك الذين رسموا في تاريخنا معالم الحق بمعرفة وأمانة.. وما أحوج أمتنا لأمثال هذه النماذج من الربانيين في مخافتهم من الله، وشعورهم بثقل الأمانة الملقاة علىٰ عواتقهم في سياسة الرعية... والنظر إلىٰ الآخرة ويوم الحساب قبل النظر إلىٰ أن تكون الولاية مغنماً وفرصة سانحة لكذا... ولكذا... ولا حول ولا قوة إلا بالله...



(١) «الحلية»: ٥/٣٥٨ ـ ٣٥٩، «تاريخ دمشق»: ٣٧/٤٩.



عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

كلمات أخر



هكذا يسعد القلب بحديث هؤلاء الأبرار.. وتطرب النفس لجميل آثارهم.. ويرىٰ كل من في قلبه ذرة من غيرة علىٰ هذه الأمة أن سيرة هؤلاء الربانيين عنصر جوهري من عناصر التكوين والإعداد علىٰ طريق التربية المحمدية علماً وعملاً إن شاء الله...

ولقد أشرنا في العدد الماضي إلىٰ أن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ كان حفياً بآراء ولده عبد الملك، وما يشير به من إسراع في إنفاذ الخير وردّ المظالم، واغتنام الحياة قبل الموت، فربما فجأ الأجل ولم تصل الحقوق إلىٰ أصحابها بعد، وكيف أن عمر رَحِمَهُ اللَّهُ قال مرة: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني علىٰ أمر ديني.

ونرىٰ اليوم مع هذه الكلمات كلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ولده حين وافته المنية إذ كل نفس ذائقة الموت... حيث نرىٰ كريم تقدير الوالد للولد، علىٰ أساس من مقاييس الخير والدعاء له بالمغفرة والرحمة، كما نرىٰ كمال الرضا بقضاء الله وقدره، وحسن التسليم لأمره فيما أخذ وفيما أعطىٰ إذ إنه المحمود علىٰ كل حال.

حدث زياد بن أبي حسان أنه قد شهد عمر بن عبد العزيز حيث دفن ابنه عبد الملك قال: لما دفنه وسوىٰ عليه قبره بالأرض، وضعوا عنده

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة عشرة، العدد (٧)، رمضان ١٣٩٥هـ، تشرين الأول ١٩٧٥م.

خشبتين من زيتون؛ إحداهما عند رأسه، والأخرىٰ عند رجليه، ثم جعل قبره بينه وبين القبلة واستوىٰ قائماً، وأحاط به الناس، فقال: «رحمك الله يا بني لقد كنت باراً بأبيك، والله ما زلتُ منذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً، ولا أرجىٰ بحظي من الله فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيّرك الله إليه، فرحمك الله وغفر لك ذنبك وجزاك بأحسنَ عملك، ورحم الله كل شافع لك بخير من شاهد أو غائب. رضينا بقضاء الله، وسلمنا لأمر الله، والحمد لله ربّ العالمين» ثم انصرف(١).

وعن عبد الجبار العطار حدثنا حزم قال: بلغنا أن عمر كتب إلىٰ عبد الحميد بن عبد الرحمٰن في شأن ابنه عبد الملك حين توفي: أما بعد: «فإن الله تبارك اسمه وتعالىٰ ذكره، كتب علىٰ خلقه حين خلقهم الموت، وجعل مصيرهم إليه، فقال فيما أنزله من كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته علىٰ حقه، أنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء] ثم قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه] فالموت سبيل الناس في الدنيا، لم يكتب الله لمحسن ولا لمسيء فيها خلداً، ولم يرضَ ما أعجب أهلها ثواباً لأهل طاعته، ولم يرضَ ببلائها نقمة لأهل معصيته، فكل شيء منها أعجب أهلها، أو كرهوا منه شيئاً متروك، لذلك خلقت حين خلقت، ولذلك سكنت منذ سكنت، ليبلو الله فيها عباده أيُّهم أحسن عملاً، فمن قدم عند خروجه من الدنيا إلىٰ أهل طاعته ورضوانه من أنبيائه وأئمة الهدىٰ الذين أمر الله نبيه بهداهم.. خالد دار المقامة من فضله، لا يمسّه فيها نصب، ولا يمسّه فيها لغوب. ومن كانت مفارقته الدنيا إلىٰ غيرهم وغير منازلهم، فقد قابل الشر الطويل، وأقام علىٰ ما لا قبل له به. أسأل الله برحمته أن يبقينا ما أبقانا في الدنيا مطيعين لأمره، متبعين لكتابه، وجعلنا إذا خرجنا من الدنيا، كان خروجنا إلىٰ نبينا ومن أمرنا أن نقتدي بهداه

(١) «الحلية»: ٥/٣٥٦، «تاريخ دمشق»: ٣٧/ ٥٢.

من المصطفين الأخيار، وأسأله برحمته أن يقينا أعمال السوء في الدنيا والسيئات يوم القيامة(١).

ثم إن عبد الملك ابن أمير المؤمنين كان عبداً من عباد الله أحسن الله إليه في نفسه، وأحسن إلىٰ أبيه فيه، أعاشه الله ما أحب أن يُعيشه، ثم قبضه إليه حين أحب أن يقبضه، وهو فيما علمت بالموت مغتبط، يرجو فيه من الله رجاءً حسناً، فأعوذ بالله أن تكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله، فإن خلاف ذلك لا يصلح في بلائه عندي وإحسانه إليّ، ونعمته عليّ، وقد قلت فيما كان من سبيله والحمد لله، ما رجوت به ثواب الله وموعده الصادق من المغفرة؛ إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ثم لم أجد والحمد لله بعده في نفسي خيراً من رضىً بقضاء الله، واحتساب لما كان من المصيبة، فحمداً لله علىٰ ما مضىٰ وعلىٰ ما بقي، وعلىٰ كل حال من أمر الدنيا والآخرة.

أحببت أن أكتب إليك بذلك وأعلمكه من قضاء الله، فلا أعلم ما نيحَ عليه في شيء من قبلك، ولا أجتمع علىٰ ذلك أحد من الناس، ولا رخصت فيه لقريب من الناس ولا لبعيد، واكفني ذلك بكفاية الله، ولا ألومنك فيه إن شاء الله والسلام عليك(٢).

مرة ثانية وثالثة.... وبلا حدود... رحم الله عبد الملك ورحم والده عمر بن عبد العزيز الذي كان ربانياً في ساعات الحكم والسلطة... في ساعات العسر واليسر... عند النعمة تفيض عليه... وعند المصيبة تصيبه.. ويا نعم ما علّم هؤلاء الرجال... وكانوا قدوة بأقوالهم وأفعالهم وهم علىٰ إرث النبوة، شأن الكرام الربانيين.

والخير كل الخير في العمل علىٰ الانتفاع بهذا النهج الذي يقوم علىٰ هذا الإرث العظيم إرث النبوة المكين، والله يتولىٰ الصالحين.

---

(١) «الحلية»: ٥/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٣٥٧، ٣٥٨.



طاووس بن كيسان رحمه الله[1]

هو الحافظ أبو عبد الرحمٰن طاووس بن كيسان من أعلام التابعين، وأول الطبقة من أهل اليمن وعالمهم توفي رحمه الله بمنى أو بالمزدلفة سنة خمس ومائة للهجرة. تقرأ سيرته فيشدك ما ترىٰ من العلم العمل والزهادة في الدنيا، والتقشف في العيش، والإكثار من العبادة والتبتل في انتماء سلوكي إلىٰ الصحابة رضوان الله عليهم حيث تجد فيه نهجهم... وتلمس في سلوكه وفهمه لدين الله طريقتهم في أخذهم عن رسول الله عليه الصلاة والسلام... فقد أخذ نفسه بميزان الأمانة في العلم والإخلاص في العمل... والخوف من الله مخافة أراحته من عناء الدنيا والتطلُّع إلىٰ زخرفها... ووحَّد الوجهة... فعمل بصدق لله... وأحسن الأدب في الوقوف عند بابه، فكفاه الله مؤونة الوقوف علىٰ باب عباده من الأغنياء أو الأمراء، وصدق فيه قول أهل المعرفة: اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها...

ثم إنه ـ وهو الفقيه القدوة ـ كان لا يخاف في الله لومة لائم، ومواقفه مشهورة مذكورة في الصدع بالحق حيث وجب دلك. ويأبىٰ ـ لورعه ـ القرب من السلاطين وأعوانهم. قال سفيان بن عيينة: تجنّب السلطانَ ثلاثة: أبو ذر، وطاووس، والثوري[2].

وكان من آثار ذلك ما نجد في شذرات من حياته الغنية بجلائل الأعمال والفضائل... فقد طال عمره وحسن عمله... وقدم لنفسه ولأمته الخير الكثير فلكم علَّم وربّىٰ بالقدوة الحسنة والكلمة الطيبة التي تشهد لها نصوص الكتاب والسنّة وينير سبيلها إلىٰ القلوب، وفاءً بعهد الله وإخلاصاً لا تشوبه شائبة،

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الحادية والعشرون، الأعداد (٨ و٩ و١٠)، ذو الحجة ١٤٠٠هـ، تشرين الثاني ١٩٨٠م.

(٢) وانظر: «الطبقات الكبرى»: ٥/ ٥٤١، «السير»: ٥/ ٤٠ ـ ٤١.

واستمساكاً بأهداب هذا الدين القويم... صنيع من حمل عنهم هذا الدين من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام.

حدث أبو عبد الله الشامي قال: استأذنت علىٰ طاووس لأسأله عن مسألة فخرج عليّ شيخ كبير.. فقلت: أنت طاووس؟ فقال: أنا ابنه، قلت: فإن كنت ابنه فإن الشيخ قد خرف!! فقال: إن العالم لا يخرف، فدخلت، فقال لي طاووس: سل وأوجز، قلت: إن أوجزت أوجزت لك، قال: تريد أن أجمع لك في مجلسي هذا، التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان؟ قلت: نعم، قال: «خف الله تعالىٰ مخافة لا يكون عندك معها شيء أخوف منه، وارجه رجاء هو أشد من خوفك إياه، وأحبّ للناس ما تحب لنفسك»[1].

أرأيت إلىٰ هذا الإيجاز الجامع ما أبلغه... فإذا تصورنا بعقل المؤمن وقلبه ما تعنيه هذه الوصية لرأيناها تجمع أطراف علاقة العبد بخالقه ﷻ، وعلاقته بنفسه، ثم بإخوانه المؤمنين... ولا بدع فطاووس يغترف من بحر النبوة بما تلقىٰ من حقائق العلم وسلامة العمل عن أولئك الذين عاشوا في متنزل الوحي... وتربوا علىٰ الذي أراده لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، وذلكم سبيل الربانيين!

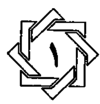
ومن هذا المعين الصافي خرجت هذه الكلمات التي يقولها العظماء.. قال عطاء رحمه الله: جاءني طاووس بكلام محبر من القول، فقال لي: «يا عطاء إياك أن ترفع حوائجك إلىٰ من أغلق دونك بابه، وجعل دونك حجاباً، وعليك بطلب حوائجك إلىٰ من بابه مفتوح لك إلىٰ يوم القيامة، طلب منك أن تدعوه ووعدك بالإجابة»[2] رحم الله طاووساً وأجزل مثوبته، لقد أخذ نفسه بهذا قبل أن يوصي به الآخرين، فكان عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة]. وقوله ﷺ: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...**»[3]. والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) «السير»: ٥/ ٤٧. (٢) وانظر: «الحلية»: ٨/ ١٤١.

(٣) من حديث طويل أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦) في صفة القيامة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» رقم (٢٦٦٩، ٢٧٦٣، ٢٨٠٤) وهو حديث صحيح.

عبيد بن عمير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(1)



إذا ذكر كبار التابعين الربانيين فحيهلا بعبيد بن عمير(2). اشتهر - مع علمه وصلته بالقرآن - بعبادته وتقواه ونظراته الثاقبة التي تنم عن كثير من الحصافة واستنارة البصيرة، وعندما كان يُذكَرُ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في إمامته في فقه الدين وهي دعوة رسول الله ﷺ له بذلك، كان يُذكَرُ عبيد بن عمير بأنه قارئ القوم والقارئ يومذاك - ليس قارئ أيامنا - وإنما هو العالم المتصل علىٰ وجه الحقيقة بالقرآن، فعن داود بن سابور عن مجاهد قال: «كنا نفخر بفقيهنا، ونفخر بقارئنا. فأما فقيهنا: فابن عباس، وأما قارئنا: فعبيد بن عمير». وتروىٰ أيضاً: «ونفخر بقاضينا . . . وأما قاضينا: فعبيد بن عمير»(3).

ولقد كان عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ واحداً من أولئك الصفوة الذين اتخذوا من العلم طريقاً إلىٰ معرفة الله، فكان جسرهم إلىٰ العبادة والتقوىٰ، حتىٰ باتوا من أهل الخشية لله تعالىٰ. . وهذا الذي كان له في ذاته وتزكية نفسه: أعطاه نوعاً من المهابة والقدرة علىٰ الموعظة البالغة التي تتسم بالنفاذ والتأثير، فهي من القلب وإلىٰ القلب. قال - أجزل الله مثوبته - فيما روىٰ عنه مجاهد: «كان يقال - إذا

---

(1) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة عشرة، العدد (2)، ربيع الآخر ١٣٩٨هـ، آذار ١٩٧٨م.

(2) هو عُبيد بن عمير بن قتادة الليثي الجندعي المكي الواعظ العابد المفسِّر، وُلد في حياة الرسول ﷺ، كان كثير الحديث، ومن ثقات التابعين وكبارهم بمكة. وكان يذكِّر الناس، فيحضر عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مجلسه، توفي قبل ابن عمر بأيام يسيرة. وقال الذهبي: قيل توفي سنة ٧٤هـ. وانظر: «الطبقات الكبرىٰ»: ٣/ ٢٦٤، «الحلية»: ٣/ ٢٦٦، «الإصابة»: ترقم (٦٢٤٢)، «أسد الغابة»: ٣/ ٣٥٣، «السير»: ٤/ ١٥٦ فما بعد.

(3) «الحلية»: ٣/ ٢٦٧، «صفة الصفوة»: ٢/ ١١٦.

جاء الشتاء ـ لأهل القرآن: قد طال الليل لصلاتكم، وقصر النهار لصيامكم، إن أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه، وبخلتم بالمال أن تنفقوه، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه، فأكثروا من ذكر الله ﷻ»[(١)].

وفي فهم متدبِّر لكتاب الله تبارك وتعالىٰ نجد وراء التفسير لظاهر اللفظ كما تعطيه الكلمات: روحاً توّاقة إلىٰ العمل بالكتاب وقلباً يحس ما وراء الكلمات. فعن الأعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله تعالىٰ: ﴿.. إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء]. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأواب الذي يتذكر ذنوبه في الخلاء ـ أي خالياً ـ ثم يستغفر الله تعالىٰ منها، ووافقه مجاهد في ذلك»[(٢)]. أو لا ترىٰ ـ يا أخي ـ إلىٰ هذا المعنىٰ الذي قدمه للأواب، إذ انتقل بنا من ظاهر اللفظ ـ كما يقتضيه معهود العرب ـ في الأوبة والرجوع، إلىٰ أن حقيقة الأوبة إلىٰ الله تعالىٰ إنما تكون بأن يتذكر المذنب ذنوبه خالياً ليس معه أحد ولا يراه أحد إلا مولاه، ثم يطلب المغفرة من الله تعالىٰ لذنوبه، وهو علىٰ هذه الحال[(٣)].

وانظر إلىٰ عبيد بن عمير وهو يقدم لنا صورة المال والأهل والعمل، وأنه لا ينفع المرء يوم تنزل به نازلة الموت إلا عمله، حيث لا يغني المال ولا الأهل والعشيرة. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان لرجل ثلاثة أخلّاء، بعضهم أخص من بعض، فنزلت به نازلة، فلقي أخص الثلاثة به فقال: يا فلان إنه نزل بي كذا وكذا، وإني أحب أن تعينني، قال: ما أنا بالذي أفعل، فانطلق إلىٰ الذي يليه في الخاصة فقال: يا فلان إنه قد نزل بي كذا وكذا، وأنا أحب أن تعينني، قال: فأنطلق معك حتىٰ تبلغ المكان الذي تريد، فإذا بلغت رجعت وتركتك.

(١) المصدر السابق: ٣/ ٢٦٧، «صفة الصفوة»: ٢/ ١١٧.

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم»: ٥/ ٢٠٨٥.

(٣) وهذا لا يعارض ترجيح الإمام الطبري بعد إيرده الأقوال فيه: «هو التائبُ من الذنب الراجعُ عن المعصية إلىٰ الطاعة مما يكره الله إلىٰ ما يحبه ويرضاه» إذ نرىٰ تابعينا طلب المزيد من العناية بهذه الأوبة خالياً لا يراه إلا مولاه سبحانه، ولعلّ من الخير أن نذكر ما جاء في الحديث الصحيح من أن سابع السبعة الذين يظلّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله: «**رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**». وانظر: «جامع البيان» للطبري: ١٥/ ٧١.

قال: فانطلق إلىٰ أخص الثلاثة فقال: يا فلان إنه قد نزل بي كذا وكذا فأنا أحب أن تعينني، قال: أنا أذهب معك حيث ذهبت وأدخل معك حيث دخلت.

قال: فالأول المال، فإنه خلفه في أهله ولم يتبعه منه شيء.

والثاني: أهله وعشيرته، ذهبوا معه إلىٰ قبره ثم رجعوا وتركوه.

والثالث: هو عمله، وهو معه حيثما ذهب ويدخل معه حيثما دخل(١).

وهذا دعاء من أدعية هذا التابعي الكريم تجد فيه روح الخشية وصدق المناجاة ولوعة القلب... عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: «كان إذا دخل عبيد بن عمير المسجد وقد غابت الشمس فسمع النداء، قال: اللهمّ إني أسألك عند حضور إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وقيام دعاتك، وحضور صلاتك، أن تغفر لي وترحمني، وأن تجيرني من النار، وإذا أصبح قال مثل ذلك قبل أن يصلي الفجر»(٢).

رحم الله عبيداً وأعلىٰ مقامه في الآخرين، وأرجو أن يقسم لنا لقاء آخر مع وقفاته الربانية وكلماته المؤمنة الصادقة والحمد لله ربّ العالمين.



---

(١) «الحلية»: ٣/ ٢٦٩.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٢٦٩. وقال مهدي بن ميمون: حدثنا غيلان بن جرير عن عبيد بن عمير: «أنه كان إذا آخىٰ في الله أحداً، استقبل به القبلة وقال: اللهم اجعلنا شهداء بما جاء به محمد ﷺ، واجعل محمداً ﷺ شهيداً علينا بالإيمان، وقد سبقت لنا منك الحسنىٰ، غير متطاول علينا الأمد ولا قاسية قلوبنا، ولا قائلين ما ليس لنا بحق، ولا سائليك ـ أو: ولا سائلين ـ ما ليس لنا به علم». وينظر: «الحلية»: ٣/ ٢٧٥، «تهذيب الكمال»: ١٩/ ٢٢٥.



عبيد بن عمير رَحِمَهُ اللَّهُ(1)

كلمات أخر



في كلمات خلت أخذنا بأطراف الحديث عن هذا التابعي رفيع القدر أبي عاصم الذي انقضت حياته في أواخر الثلث الثاني من القرن الأول الهجري، حيث توفي سنة ٧٤هـ والذي أسند عن الكثيرين، وروىٰ عنه الكثيرون.

ونعود اليوم لمتابعة الحديث.. وحين نفعل ذلك: نفعله أخذاً بقسط أوفَرَ من سيرة واحد من أولئك الرجال الذين تعرف من خلال خلائقهم السلوكَ المنهجي الرضيِّ في الإسلام لما أنهم كانوا علىٰ قدم أولئك الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ وصدق فيهم القول الحكيم: «عرفت فالزم».

والأمة حين تتشعّب بها السبل، وتلبّس علىٰ كثير من أبنائها المعالم وتُطِلُّ الفتن بظلماتها الشداد، تريد أن تسُدَّ عليها منافذ الوجود الحقيقي... حين تقع الأمة تحت هذه الدواهي تبدو حاجتها أكثر وأكثر إلىٰ التعرُّف إلىٰ أولئك الروّاد الذين اهتدوا بهدي النبوة، ووردوا معينها العذب الزلال، فهانت في أعينهم الدنيا وتفانوا في طلب ما عند الله.. فتراهم وقد راح الناس يتقممون الحطام تحت أقدام الطغاة.. ترتفع رؤوسهم عالية باستعلاء الإيمان، عزيزة بعزة الحق؛ لما أنهم عبيد لله لا سلطان علىٰ قلوبهم لغيره.. فله يركعون ويسجدون وبين يديه يخضعون ويتذللون.. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة عشرة، العدد (٣)، جماد الأولىٰ ١٣٩٨هـ، نيسان ١٩٧٨م.

وقد رأينا أن من هؤلاء الروّاد الربانيين عبيد بن عمير رَحِمَهُ اللَّهُ، ها هو ذا ـ بما أخذ عن شيوخه من الصحابة ـ يعلمنا من هو الرجل الحقيقي في ميزان الله، وأن القيمة الحقيقية ليست بما يكون في هذه الدار من مظاهر قد تخفي وراءها حقائق تقشعر لها الأبدان، ومخازيَ يندىٰ لها جبين البصير. قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «يؤتىٰ بالرجل العظيم الطويل يوم القيامة فيوضع في الميزان فلا يزن عند الله جناح بعوضة»(١). ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف]. وإذن فالقيمة الحقيقية للرجل، بما يكون له من عمل يرضىٰ عنه الله ورسوله، وكل ما يكون من تمويه وبهارج هنا لا يغير من الحقيقة شيئاً، فالله لا ينظر إلىٰ الصور والأجساد ولكن ينظر إلىٰ القلوب والأعمال.

وإذا كان الأمر كذلك: فالمفروض بالمسلم أن يعمل ليصبح في عداد أولئك الذين يكونون شيئاً في ميزان الله تبارك وتعالىٰ، ولتكون مقاييسه للرجال والأعمال منبثقة عن هذه الحقيقة، فلا ينظر إلىٰ الهالة المصطنعة ولكن ينظر إلىٰ ذلك كله من خلال المدلول الواضح لقوله تعالىٰ عن أولئك الفارغين ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

أكثر من هذا: لقد أثبت القرآن للكافرين أعمالاً ثم كشف عن أنها غير ذات قيمة عند الله يوم القيامة ولهم عليها مثوبة الدنيا هنا ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور] أعمال بقيم.. ورجال بقيم.. والسعيد السعيد من كان وقافاً عند منهج الله فيما يقبل وفيما يرد.

قال عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ في شأن العتل: «هو القوي الشديد، الأكول الشروب، يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة، يدفع الملك من أولئك سبعين ألفاً دفعة واحدة في النار»(٢).

* * *

(١) «الحلية»: ٣/ ٢٧٠.
(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٢٧٠.

وما أعظم ما غمر قلب هذا الرجل من النور الإلـٰهي حتىٰ استقام سلوكه وكانت له نظرته إلىٰ الأعمال وجدواها عند الله.. وكان كبيراً في نفسه كلُّ ما هو من ذكر الله ورضاه بسبيل. فالتسبيحة الصادقة النابعة من القلب أين من وزنها عند الله ملءُ الأرض ذهباً، قال أجزل الله مثوبته: «تسبيحة في صحيفة مؤمن يوم القيامة خير من أن تسير معه الجبال ذهباً»[1] ولِمَ لا يكون الأمر كذلك فالتسبيحة له، ولكن الدنيا ـ بما فيها ـ إذا لم يؤد حق الله ويراقب ويحذر لأمره هي عليه والعياذ بالله.

ولم يكن عجباً من العجب بعد ذلك أن تمتد هذه النظرات إلىٰ علاقته بالناس، فالأخ الحقيقي هو الأخ في الله الذي تجمعه وإياه عبودية لله صادقة، وحرص لا يدانيه حرص علىٰ أن تكون كلمة الله هي العليا، وشريعته هي المحكمة، والآخرة التي وعد بها هي المؤثَرة.. فهذا الأخ في الله هو الذي يحَب، وهو الجدير أن يستأثر بالود والعطاء والإيثار، فمن السبعة الذين **«يظلُّهم الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظلّه: رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه»**.

ثم إن هذه الصلة ليست لغرض قريب ولا من أجل مطمع يلهث وراءه الحمقىٰ طلاب الدنيا. ولكنه صلة عروتُها أن يكون الإخوة في الله شهداء بما جاء به محمد ﷺ لا يقولون ما ليس لهم بحق، ولا يسألون ما ليس لهم به علم. وما أعظم وأكرم أن يكونوا كذلك... ـ وقد سبقت لهم من الله الحسنىٰ ـ وأن يكون نبينا المصطفىٰ صلوات الله عليه شهيداً عليهم بالإيمان: فيسعدوا بأن يَردوا عليه الحوض وأن يحظَوا بشفاعته جزاه الله عن الأمة كل خير وآتاه الوسيلة والفضيلة وبعثه المقام المحمود الذي وعده إنه لا يخلف الميعاد.

حدّث غيلان عن عبيد بن عمير: «أنه كان إذا آخىٰ في الله أحداً أخذ بيده واستقبل به الكعبة وقال: اللهم اجعلنا شهداء بما جاء به محمد ﷺ، واجعل محمداً ﷺ شهيداً بالإيمان، وقد سبقت لنا منك الحسنىٰ، غير متطاول علينا

(١) «حلية الأولياء»: ٣/ ٢٧٢. وانظر: «تهذيب الكمال»: ١٩/ ٢٢٥.

في الآمال ولا قاسية قلوبنا، ولا قائلين ما ليس لنا بحق، ولا سائلين ما ليس لنا به علم»[١]. وقد أشرت إلىٰ هذا من قبل.

* * *

مرة أخرىٰ: رحم الله عُبيداً وأعلىٰ مقامه في الآخرين، وإذا كانت القاعدة «وبضدها تتميز الأشياء» فما أشد حسرة أولئك الذين يتحابون في الشيطان، ويجتمعون علىٰ دخان الضلالة، ونتن الدنيا، يتعلهم الظلمة بالعرض من الفانية، ويذلون لغير الله لهاثاً وراء السراب..!!

وما أحوج الأمة ـ وهي علىٰ عتبة أن تنهض من عثار ـ لترسُّم خطىٰ أولئك البررة الربانيين كيما تكون قادرة علىٰ البذل والإيثار، حيث لا ينفع إلا البذل والإيثار.. وكيما يكون أبناؤها قادرين علىٰ الصعود حيث يسقط أشباه الرجال في أول الطريق.. ولن يكون ذلك إلا بالتخلُّق بأخلاق عظماء توحيداً خالصاً، وتوجهاً إلىٰ الله صادقاً، وثقة بوعد الله أيما ثقة.. واستعلاء علىٰ كل المعوقات، مهما كلف ذلك صاحبه من ثمن، لأن مرضاة الله أغلىٰ وأعلىٰ، والغاية المبتغاة التي يسارع إليها أهل الصفاء الصالحون المجاهدون أعز وأسمىٰ.. بحيث يهون في سبيل ذلك كل ثمن.. بل تراهم غارقين في شكر الله تعالىٰ أن اختارهم للجلّىٰ وارتفع بمطامحهم عن أوضار هذه الدنيا الفانية، وأخذ بأيديهم إلىٰ رياض أولئك الذين قال القرآن فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].



(١) «الحلية»: ٣/ ٢٧٥، «تهذيب الكمال»: ١٩/ ٢٢٥.



مع التابعي العابد،
الشهيد عمرو بن عتبة رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

هو عمرو بن عتبة بن فرقد السُّلمي الكوفي، وخاله عبد الله بن ربيعة السُّلمي، وكانت لأبيه عتبة بن فرقد صحبة. وروىٰ عمرو عن ابن مسعود وعن سبيعة الأسلمية كتابة، وذكره ابن حبان في «الثقات»[2].

وكان معدوداً في كبار تابعيي أهل الكوفة، جمع بين العلم والإكثار من العبادة والجهاد في سبيل الله.. إلىٰ ورع وزهادة في الدنيا، وإعراض عن كل المعوقات التي تعوق السالكين، ولقد شغله استغراقه في العبادة والجهاد عن الإكثار من الرواية، فكأنه مع قدرته علىٰ الرواية وإفادة الناس بمروياته لكونه من الثقات؛ نذر نفسه للعمل في سبيل الله علىٰ ساحة أخرىٰ ما دام غيره يقوم بتلك المهمة، وهم بحمد الله كثير.

وهكذا نرىٰ ابن سعد يذكره في الطبقة الأولىٰ من أهل الكوفة، ويرىٰ أنه كان ثقة قليل الحديث، من المجتهدين في العبادة[3] وما من ريب في أن الزهادة في الدنيا مع توافرها بين يدي المرء: من عمل أهل العزائم، وذلك

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة عشرة، العدد (٥)، شعبان ١٣٩٧هـ، آب ١٩٧٧م.

(٢) ينظر: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٦/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨، «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ١٣٥ فما بعده، «الحلية»: ٤/ ١٥٧، «الجرح والتعديل» للإمام الرازي: ٦/ ٢٥٠ رقم (١٣٨٢).

(٣) روىٰ الإمام أحمد في «المسند» بسنده عن عبد الرحمٰن بن يزيد قال: أخرجنا في جيش فيهم علقمة ومعضد العجليُّ وعمرو بن عتبة بن فرقد ويزيد بن معاوية النخعي، قال: فخرج عمرو عليه جبة بيضاء، فقال: ما أحسن الدم ينحدر علىٰ هذه، قال: فأصابه حجر فشجَّه، قال: فتحدَّر الدم عليها، فمات منها فدفناه. «تهذيب التهذيب» لابن حجر: ٨/ ٧٥ ـ ٧٦. وروىٰ ابن سعد في «الطبقات» عن إبراهيم النخعي أن عمرو بن عتبة استشهد فصلىٰ عليه علقمة. «الطبقات»: ٦/ ٢٠٧.

امتحان أيُّ امتحان، وكان هذا التابعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنموذجاً مباركاً لهذه الزهادة.. ولم يكن زاهداً في المال فحسب، ولكن بكل ماله علاقة بالمنصب والجاه من مطامع هذه الدنيا التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولا تسل عن موقع الجهاد في حياته يرحمه الله[1].

كان أبوه عتبة بن فرقد والياً علىٰ ماسَبَذان، وكان حريصاً علىٰ أن يعاونه ولده في شأن هذه الولاية.. فكان مما قاله عمرو لأبيه: «يا أبت إنما أنا عبد أعمل في فكاك رقبتي - يعني عبوديته لله عَزَّ وَجَلَّ - قال راوي الخبر عبد الله بن ربيعة: فبكىٰ عتبة فقال: يا بني إني لأحبك حبين؛ حباً لله وحب الوالد لولده، فقال عمرو: يا أبت إنك كنت قد أتيتني بمال قد بلغ سبعين ألفاً فإن كنت سائلي عنه فهو ذا فخذه وإلا فدعني فأمضيه. قال له عتبة: فأمضه. قال: فأمضاها فما أبقىٰ منها درهماً»[2].

وقد روي: أنه كان له كل يوم رغيفان يتسحر بأحدهما ويفطر بالآخر[3].

وبذل المال علىٰ طريق الجهاد أمنية غالية عند عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولذَّته في هذه السبيل تعلو علىٰ كل ما يجده أهل الدنيا في حيازة المال وجمع المتاع. حدث عيسىٰ بن عمرو عن السدي قال: «خرج عمرو بن عتبة بن فرقد فاشترىٰ فرساً بأربعة آلاف درهم فعنفوه يستغلونه». ولكن ما كان يتطلع إليه عمرو هو أعلىٰ وأعلىٰ من تلك الآلاف من الدراهم، قال - أجزل الله مثوبته - لأولئك الذين عنفوه وقد هالهم ثمن الفرس: ما من خطوة يخطوها يتقدمها إلىٰ العدو إلا وهي أحب إلي من أربعة آلاف[4]!!.

أرأيت إلىٰ هذا الإيمان العميق بما عند الله وما أعده الله لعباده

---

(١) انظر: الحاشية السابقة.

(٢) «الحلية»: ٤/١٥٦، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ص٧١ - ٧٢، جاء في «صفة الصفوة» لابن الجوزي: وهذه الغزاة التي استشهد فيها هي غزاة أذربيجان في خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. «صفة الصفوة»: ٣/٣٨.

(٣) انظر: «الحلية»: ٤/١٥٧، «تهذيب الكمال»: ٢٢/١٤٠، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ص٦٧.

(٤) «الحلية»: ٤/١٥٦، «صفة الصفوة»: ٣/٣٦.

المجاهدين بالمال أو بالنفس.. فأين المال ـ وهو من حطام الدنيا ـ مما للمؤمن المجاهد عند مولاه ﷻ.. إنه التذوق الإيماني لوعد الله تبارك وتعالىٰ وهو أمر وراء المعرفة.. وهنيئاً ثم هنيئاً لمن يكرمه الله بذلك.

وأحسب أن ما كان عليه هذا التابعي العظيم هو ثمرة من ثمار خشية الله تبارك وتعالىٰ ولذة الخشوع بين يديه.. حيث القلب المتطلع إلىٰ لقاء الله الموقن بما يكون يوم الحساب؛ فعن سعيد بن عامر عن هشام الدستوائي قال: «لما توفي عمرو بن عتبة بن فرقد، دخل بعض أصحابه علىٰ أخته فقال: أخبرينا عنه، فقالت: قام ذات ليلة فاستفتح سورة حمٓ، فلما أتىٰ علىٰ هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ..﴾ [غافر: ١٨] ما جاوزها حتىٰ أصبح»(١).

ومن جهة أخرىٰ حدث عيسىٰ بن عمرو قال: «كان عمرو بن عتبة بن فرقد يخرج علىٰ فرسه ليلاً فيقف علىٰ القبور فيقول: يا أهل القبور قد طويت الصحف، وقد رفعت الأعمال، ثم يبكي ويصف بين قدميه حتىٰ يصبح فيرجع فيشهد صلاة الصبح»(٢).

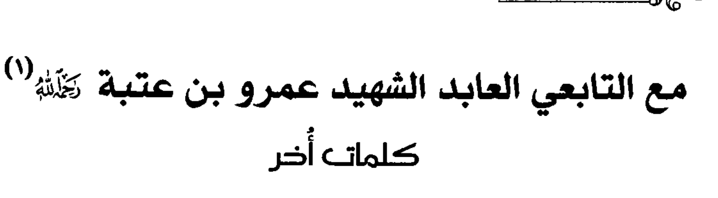
ولنا وقفة أخرىٰ عند هذا العالم الرباني، ولله الأمر من قبل ومن بعد، والحمد لله رب العالمين.



---

(١) «الحلية»: ٤/١٥٨، «صفة الصفوة»: ص٣٨، ولابن سعد في «الطبقات»: أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونس قال: سمعت بعض أصحابنا يذكر أن عتبة بن فرقد قال لبعض أهله: ما لعمروٍ مصغراً؟ وذكر له ضعفه، ففُرش له حيث يراه، قال: فجاء عمرو فقام يصلي حتىٰ بلغ هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ...﴾ قال: فبكىٰ حتىٰ انقطع، قال: فقعد ثم قام، قال: فعاد فقرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ...﴾ قال: فبكىٰ حتىٰ انقطع، قال: ففعل ذلك حتىٰ أصبح. قال: فقال عتبة ـ أبوه ـ هذا الذي عُمل يا بنيَّ العملُ. «الطبقات الكبرىٰ»: ٦/٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٢) وانظر: «الحلية»: ٤/١٥٨، «تهذيب الكمال»: ٢٢/١٤٠، «صفة الصفوة»: ٣/٣٧، «الربانيون قدوة وعمل»: ص٧٥.



مع التابعي العابد الشهيد عمرو بن عتبة رَحِمَهُ اللهُ[1]

كلمات أخر



يا لله كم يفعل تذكر الآخرة في النفوس... وكم يحرك عند أهل القرب من عزائم.. وكم يرقىٰ بعباد الرحمن إلىٰ مراتب يغبطون عليها ثم يغبطون...

لقد أصبح هذا التابعي بما عرف من حقيقة هذه الدنيا، وبما صدق في العمل للآخرة: أقوىٰ من كل مغريات الحياة الدنيا التي وصفها رب العزة جل جلاله بأنها متاع الغرور، وبأنها لهو ولعب وزينة وتفاخر بالأموال والأولاد...

وإذا كان تذوق المعاني الأخروية، وما أعد الله لأولئك الذين يحبهم ويحبونه: قد جعل من عمرو بن عتبة إنساناً أقوىٰ من كل ما في الدنيا من متاع فاستعلىٰ علىٰ الفانية وعمل للباقية.. فإن خشيته لله تبارك وتعالىٰ قد جعلته علىٰ حال لا يخاف معها إلا الله، فلا يُرهبه العدو، ولا يتزلزل قلبه للأسود، حتىٰ كان يستحيي رَحِمَهُ اللهُ من أن يخشىٰ غير مولاه. وقد تفضل الله عليه جزاء هذا السلوك بما أظهر علىٰ يديه من الكرامات في العديد من الوقائع.

قال عبد الله بن المبارك: حدثنا الحسن بن عمر الفراوي قال: حدثني مولىً لعمرو بن عتبة قال: «استيقظنا يوماً حاراً في ساعة حارة، فطلبنا عمرو بن عتبة فوجدناه في جبل وهو ساجد وغمامة تُظلُّه. وكنا نخرج إلىٰ العدو فلا نتحارس لكثرة صلاته ـ أي فهو يقظ أكثر الليل فلا داعي للتناوب علىٰ

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة عشرة، العدد (٦)، رمضان ١٣٩٧هـ، أيلول ١٩٧٧م.

الحراسة ـ ورأيته ليلة يصلي فسمعنا زئير الأسد فهربنا وهو قائم يصلي لم ينصرف، فقلنا له: أما خفت الأسد؟ فقال: إنني لأستحيي من الله أن أخاف شيئاً سواه»[1].

وحدّث سلمة بن علقمة عن محمد ـ يعني ابن سيرين ـ قال: «كان عمرو بن عتبة لا يزال رجل يتشبه به قد صحبه، فبينا هو ليلة في فسطاط يصلي خارجاً من الفسطاط ـ وفي رواية: فبينما هو ليلة في فسطاط يصلي وصاحبه يصلي خارج الفسطاط ـ إذ جاءه أسود ـ أفعىً عظيمة يضرب لونها إلىٰ السواد ـ حتىٰ مر في قبلة صاحب عمرو، فلم ينصرف، ثم أتىٰ الفسطاط، فجاء حتىٰ انطوىٰ علىٰ رجل عمرو فلم ينصرف؛ فلما أراد أن يسجد، جاء حتىٰ انطوىٰ في موضع سجوده، فسجد عليه ـ أو قال: فنحاه ثم سجد ـ. فلما أصبح صاحب عمرو دخل عليه فأخبره بمرِّ الأسود بين يديه، وأنه لم ينصرف، وهو يرىٰ أنه قد صنع شيئاً، فأراه عمرو أثره علىٰ رجله وأخبره بما صنع»[2].

يا خيل الله اركبي:

ويبدو أن الرجل ـ تقبل الله جهاده وعمله ـ كان مجاب الدعوة لا يخيب الله له رجاءً ولا يرد سؤلاً قال الإمام الرباني عبد الله بن المبارك: حدثنا فضيل بن عياض، عن الأعمش قال: قال عمرو بن عتبة بن فرقد: «سألت الله ثلاثاً، فأعطاني ثنتين وأنا انتظر الثالثة؛ سألته أن يزهدني في الدنيا، فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر، وسألته أن يقويني علىٰ الصلاة، فرزقني منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها»[3].

وحاشا لكرم الله أن يضنَّ علىٰ هذا الرباني في الثالثة، لقد حملتْ إلينا كتب التراجم ما روىٰ أبو نعيم بسنده عن عبد الله بن المبارك أنبأنا عيسىٰ بن عمرو عن السُّدي قال: حدثني ابن عم لعمرو بن عتبة قال: «نزلنا في مرج

---

(١) «الحلية»: ٤/ ١٥٧، «صفة الصفوة»: ٣/ ٣٧، «المنتظم» لابن الجوزي.
(٢) «الحلية»: ٤/ ١٥٨، «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩.
(٣) «الحلية»: ٤/ ١٥٥، «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ١٤١، «صفة الصفوة»: ٣/ ٣٦، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ص٧٨. وينظر: «تهذيب التهذيب»: ٨/ ٧٥.

حسن فقال عمرو بن عتبة: ما أحسن هذا المرج!! ما أحس الآن لو أن منادياً ينادي: يا خيل الله اركبي، فخرج رجل فكان في أول من لقي فأصيب ثم جيء به فدفن في هذا المرج. قال: فما كان بأسرع من أن نادىٰ مناد: يا خيل الله اركبي، فخرج عمرو في سرعان الناس في أول من خرج فأتىٰ عتبةُ فأُخبِر بذلك، فقال: علي عمراً علي عمراً، فأرسل في طلبه فما أدرك حتىٰ أصيب، قال: فما أراه دفن إلا في مركز رمحه. وعتبة يومئذٍ علىٰ الناس وقال غير السدي: أصابه جرح فقال: والله إنك لصغير! وإن الله تعالىٰ ليبارك في الصغير، دعوني في مكاني هذا حتىٰ أمسي فإن أنا عشت فارفعوني، قال: فمات في مكانه ذلك»[1].

وفي قضاء نحبه علىٰ أرض المعركة جاءت رواية أخرىٰ تكاد تكون جماع طريقته في الحياة، ومنهج سلوكه الإيماني القويم.

يقول إبراهيم بن علقمة: «خرجنا ومعنا مسروق وعمرو بن عتبة ومعضد غازين، فلما بلغنا (ماسبذان) وأميرها عتبة بن فرقد، قال لنا ابنه عمرو بن عتبة: إنكم إن نزلتم عليه ـ يعني أباه ـ صنع لكم نزلاً، ولعله أن تظلموا فيه أحداً، ولكن إن شئتم: قِلنا في ظل هذه الشجرة وأكلنا من كِسَرنا ثم رجعنا، ففعلنا، فلما قدمنا الأرض قطع عمرو بن عتبة جبة بيضاء فلبسها، فقال: إن تحدُّر الدم علىٰ هذه لحسن، فرمىٰ، فرأيت الدم يتحدر علىٰ المكان الذي وضع يده عليه فمات»[2].

ويقول عبد الرحمٰن بن زيد: خرجنا في جيش فيهم علقمة ويزيد بن معاوية النخعي وعمرو بن عتبة، ومعضد العجلي. قال؛ فخرج عمرو بن عتبة

---

(١) انظر: «الحلية»: ٤/١٥٦، «صفة الصفوة»: ٣/٣٧، «تهذيب الكمال»: ٢٢/١٤٢ ـ ١٤٣. قلت: وهذا الموقف من الإقبال علىٰ الشهادة بصدق ـ كما نرىٰ ـ يذكر مواقف كثرة من الحربيين مع أنبيائهم ﷺ في إقبالهم علىٰ القتال في سبيل الله معهم بشجاعة إيمانية وصبر، وذلك ما نقع عليه في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران].

(٢) «الحلية»: ٤/ ١٥٥، «صفة الصفوة»: ٣/ ٣٧.

وعليه جبة جديدة بيضاء، فقال: ما أحسن الدم يتحدَّر علىٰ هذه، قال: فأصابه حجر فشجه، قال: فتحدَّر الدم عليها. فمات منها فدفناه ولما أصابه الحجر فشجه جعل يلمسها بيده ويقول: إنها صغيرة وإن الله ليبارك في الصغير[1].

سبحان الكريم المتفضل كيف يعطي عباده الصالحين بلا حساب، لقد تحدر الدم علىٰ المكان الذي وضع عمرو يده عليه، إن الله لم يجب سؤله في أن يموت في سبيل الله وحسب، بل أن تكون الموتة علىٰ النحو الذي تمناه، وعن مقام المقاتل في سبيل الله حدث ولا حرج.. إنه الصدق في الأولىٰ... وإنه الصدق في الثانية، وخزائن ربنا تبارك وتعالىٰ لا تنفد، وعطاؤه لا يحده حساب ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء].

إلا يا رحم الله التابعي عمرو بن عتبة، وأعلىٰ مقامه في الآخرين فلقد كان هو وأمثاله الجسر المبارك الذي وصلنا بأصحاب النبي ﷺ، وكان عمرو صورة مثلىٰ لأولياء الله الربانيين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فأنت ترىٰ الإيمان والعلم والعمل مع الزهادة في الدنيا والجهاد الدائم في سبيل الله.

إنها شخصية المسلم المتكامل، إيماناً وتقوىً بكل ما للتقوىٰ من أبعاد في العلم والعمل وخشية الله والزهادة في الدنيا، وصدق العبودية له سبحانه، والجهاد في سبيله. فليس الصلاح عند هؤلاء صناعة، ولا طريقاً لأغراض قريبة هابطة، وإنما هو التزام الطريق التي كان عليها أولئك الذين تربوا في مدرسة النبوة، وكان الواحد منهم صورة صادقة لدين الإسلام في تكامله وشموله، همهم حُسْنُ التأسي بالمصطفىٰ عليه الصلاة والسلام الذي كانت حياته في جميع وجوهها صياغة عملية للوجود الإسلامي كما أراده الله تبارك وتعالىٰ. اللهم ألحقنا بعبادك الصالحين الذين أدركوا ـ علماً وعملاً وتذوقاً معنىٰ ـ قول الله جل وعز: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس].

---

(١) «الحلية»: ٤/ ١٥٥، «صفة الصفوة»: ٣/ ٣٧، «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣. «المنتظم» لابن الجوزي: ٤/ ٣٥٠، ٣٥١.

وقد أشرت من قبل إلىٰ ما أكرم الله به تابعينا الأجل من كراماتٍ هي من إكرام الله له جزاء سلوكه المتفق مع هذه الآيات الكريمات بدءاً من قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ الآيات عقيدة وعبادة علماً وعملاً وزهادة وسمواً في التعامل مع الله جل شأنه وعباد الله ناهيك عن الجهاد الذي ختم بالشهادة، وأعظم بالشهادة من عطاء[1]!!.

هذا: وقد كانت الغزاة التي استشهد فيها عمرو غزاة أذربيجان ـ كما سلفت الإشارة ـ وكان ذلك في خلافة عثمان ﷺ في السنة الخامسة والعشرين للهجرة، وقد صلّىٰ عليه بعد استشهاده علقمة بن قيس النخعي رحم الله الجميع وأعلىٰ مقامهم في الآخرين[2].



(١) وانظر: «المنتظم» لابن الجوزي: ٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥١، «صفة الصفوة»: ٣/ ٣٦ ـ ٣٧.
(٢) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٦/ ٢٠٧.



مع التابعي عون بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)

هو الإمام القدوة العابد أبو عبد الله عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي، أخو فقيه المدينة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، حدّث عن: أبيه وأخيه وابن المسيب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وطائفة. وحدث عنه: إسحاق بن يزيد الهذلي وآخرون. وثقه أحمد ويحيىٰ بن معين والعجلي والنسائي، وقال يحيىٰ بن معين صلىٰ عون خلف أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة بضع عشرة ومائة، وذكره البخاري فيمن توفي بين عشر ومائة وعشرين ومائة.

كان أبو عبد الله من آدب أهل المدينة وأفقههم، وزهادته في الدنيا، والترفع عن حطامها من خلائقه التي عرف بها وقد اشتهر بكثرة ذكره وتنسكه، وشديد خوفه من الله، وكثرة بكائه بين يديه، حتىٰ إذا ذكر أهل الخشية البكاؤون كان في مقدمتهم.

ولا بدع: فعلىٰ قدر المعرفة يكون الخوف، وقد أثنىٰ الله علىٰ قوم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وقال رسول الله ﷺ فيما روىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**عينان لا تمسُّهما النار عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»(٢) ومن السبعة الذين «**يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**»، كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه(٣). وكم تغسل الدموع من خطايا، وكم تطفئ من

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الحادية عشرة، العدد (٥)، رجب ١٣٩٠هـ، أيلول ١٩٧٠م. وانظر: «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ٤٦٠، «السير»: ٥/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) رواه الترمذي رقم (١٦٣٩) وقال: حديث حسن، وأخرجه النسائي رقم (٥٣٨٠) وإسناده صحيح، وصححه الحاكم في «المستدرك».

(٣) حديث: «**سبعة يُظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظِلّه**» رواه أبو هريرة، وهو متفق عليه.

نيران! ولقد غلب هذا الأمر علىٰ عون رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتىٰ عرف به في مجلسه وحديثه، فقد روىٰ سفيان بن عيينة عن أبي هارون وموسىٰ بن يحيىٰ قال: «كان عون يحدثنا ولحيته ترش بالدموع»[1].

هذا: وقد سمع أبو عبد الله من أبي هريرة وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وأدرك أبا جحيفة. وروىٰ ابن المديني عنه أنه قال: «صليت خلف أبي هريرة»[2]، ويقال: إن روايته عن أبي هريرة وعائشة (مرسلة) كما ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]. وذكر أبو نوف الهذلي عن أبيه أن عوناً رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من آدب أهل المدينة وأفقههم[4].

ويتحدث عنه أبو نعيم الأصفهاني فيقول: «الراكن إلىٰ ذكر الله والساكن إلىٰ ضمان الله، المفارق للمثرين والكبراء، المرافق للمساكين والفقراء. كان لمسير الأجل مبصراً، ولغرور الأمل محذراً. كان علىٰ نفسه نائحاً، وإلىٰ الحق رائحاً...»[5].

وهذه طاقة دامعة مما كان يقوله في بكائه وذكر خطيئته.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويحي! بأي شيء لم أعص ربي. ويحي! إنما عصيته بنعمته عندي. ويحي! من خطيئة ذهبت شهوتها وبقيت تبعتها عندي في كتاب كتبه كتَّاب لم يغفلوا عني. ويحي! طاوعت نفسي وهي لا تطاوعني!! طاوعتها فيما يضرها ويضرني. ويحها! ألا تطاوعني فيما ينفعها وينفعني. أريد اصلاحها وتريد أن تفسدني. ويحها! إني لأنصفها وما تنصفني، أدعوها لأرشدها وتدعوني لتفسدني. ويحها! تريد اليوم أن تربيني وغداً تخاصمني...

ربِّ! فعافني منها وعافها مني، حتىٰ لا أظلَّها ولا تظلَّني، وأصلحني لها وأصلحها لي، فلا أُهلكَها ولا تهلكَني، ولا تكلني إليها ولا تكِلها لي.

---

(١) «حلية الأولياء»: ٤/ ٢٤٩.
(٢) «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ٤٥٦، «تاريخ الإسلام» للذهبي: ٧/ ٤٣٧.
(٣) «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ٤٥٤.
(٤) «الحلية»: ٤/ ٢٥٠، «تهذيب الكمال»: ٢٢/ ٤٥٦.
(٥) «حلية الأولياء»: ٤/ ٢٤٠.

ويحي! كيف أفرّ من الموت وقد وُكِّل بي. ويحي! كيف أنساه ولا ينساني. ويحي! إنه يقصّ أثري، فإن فررت لَقِيَني وإن أقمت أدركني. ويحي! هل عسىٰ أن يكون أظلّني فمسّاني أو صبْحني؟ أو طرقني فبغتني؟

ويحي! أزعم أن خطيئتي قد اقترحت قلبي، ولا يتجافىٰ جنبي، ولا تدمع عيني، ولا يسهر ليلي، ويحي! كيف أنام علىٰ مثلها ليلي، وهل ينام علىٰ مثلها مثلي.. ويحي! لقد خشيت أن لا يكون هذا الصدق مني، بل ويلي إن لم يرحمني ربي. ويحي! كيف لا يذهب ذكر خطيئتي كسلي، ولا يبعثني إلىٰ ما يذهبها عني...»[1].

رحم الله أبا عبد الله في الخائفين الوجلين، ورحم الله أبا عبد الله في الربانيين الزاهدين الذاكرين. وسبحان من فتح لأحبائه مغاليق المعرفة فغمرهم نورها الوضاء، وأكرمهم بالخشية فكانت طريقهم إلىٰ منازل أهل القرب والرضوان، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد].



(١) «حلية الأولياء»: ٤/٢٥٥ ـ ٢٥٦.



مع مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

هو العارف بالله أبو يحيىٰ مالك بن دينار البصري، قال الذهبي: عَلَمُ العلماء الأبرار، معدود في ثقات التابعين. ومن أعيان كَتَبَةِ المصاحف، كان من ذلك بُلْغَتُهُ. . . ولد في أيام عبد الله بن عباس وسمع من أنس بن مالك فمن بعده، وحدث عنه وعن سعيد بن جبير والحسن البصري وآخرين. وحدّث عنه سعيد بن أبي عروبة وطائفة سواه، وثقه النسائي وغيره، واستشهد به البخاري. توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة سبع وعشرين ومائة وقال ابن المديني سنة ثلاثين ومائة[2].

كان أبو يحيىٰ من الصفوة الذين اشتهروا بزهدهم، وكثرة ورعهم حتىٰ بات رَحِمَهُ اللَّهُ مضرب المثل في ذلك، وقدوة السالكين في طريق تحتاج إلىٰ الكثير من جهاد النفس والهوىٰ، والقدرة علىٰ تخطي العبودية لشهوات الدنيا وملاذها.

وكان علىٰ غاية القناعة والرضا بالقسمة بعداً عن الشبهات، وورعاً من أن يناله رشاش الإثم عن طريق المال؛ لذا كان حريصاً علىٰ أن يأكل من كسب يده، فيكتب المصاحف ولا يأخذ عليها من الأجر أكثر من عمل يده، فيرضىٰ بالقليل عملاً بسنة الأنبياء، وما رغَّب به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. حدّث عنه جعفر قال: سمعت مالكاً يقول: «قرأت في التوراة: أيها الصديقون تنعَّموا بذكر الله في الدنيا، فإنه لكم في الدنيا نعيم وفي الآخرة جزاء عظيم»[3].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الحادية عشرة، العددان (٦، ٧)، شعبان ورمضان ١٣٩٠هـ، تشرين الأول ١٩٧٠م.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ»: ٧/ ٢٤٣ فما بعد، «تاريخ الفسوي»: ٢/ ٩٦، «صفة الصفوة»: ٣/ ١٩٦، «الحلية»: ٢/ ٣٥٧، «المنتظم»: ٧/ ٢٨٣، «مختصر تاريخ دمشق»: ٢٤/ ٢٥، «السير»: ٥/ ٣٦٢.

(٣) «الحلية»: ٢/ ٣٥٨، «مختصر تاريخ دمشق»: ٢٤/ ٢٦.

ولقد رزق الدأب علىٰ السير في طاعة مولاه جل وعلا، يبتغي الوصل إلىٰ المعرفة الحقة وهي معرفة الله. قال رحمة الله عليه: «خرج أهل الدنيا من الدنيا، ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيىٰ؟ قال: معرفة الله تعالىٰ»[1].

أما عن صلته بالقرآن الكريم: فقد حملت إلينا كتب التراجم الكثير الطيب من ذلك مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال] ومما قاله في ذلك: «إن الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلىٰ الآخرة» ـ زاد السراج في حديثه ـ ثم قال: «خذوا فيقرأ ويقول، اسمعوا إلىٰ قول الصادق من فوق عرشه»[2].

وكان من الطبيعي أن يسائل نفسه ويسائل حملة القرآن عماذا زرع القرآن في قلوبهم، ماذا أثمر من الخير الذي ينعكس علىٰ جوارحهم وسلوكهم.. إلىٰ أي مدىً كان قائدهم إلىٰ الجنة، ومرابع القرب عند الله ﷻ.

حدث جعفر بن سليمان قال: سمعت مالك بن دينار يقول: يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض. فإن الله ينزل الغيث من السماء إلىٰ الأرض فيصيب الحشَّ فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها من أن تهتز وتخضرَّ وتحسن، فيا حملة القرآن! ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟! أين أصحاب سورة أين أصحاب سورتين، ماذا عملتم فيهما»[3]؟!

وكانت له قدرة عجيبة في التأثير وإيصال الموعظة إلىٰ القلوب بحاله وبقاله. روي عن السري السِّقطي: أن لصاً دخل بيت مالك بن دينار، فما وجد شيئاً يأخذه، فناداه مالك: السلام عليكم، فقال: وعليكم السلام، قال: ما حصل لك شيء من الدنيا، أفترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضأ من هذا المِركن ـ الإناء ـ وصل ركعتين، ففعل، ثم قال: يا سيدي

---

(١) «الحلية»: ٢/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨، «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٠٣، «السير»: ٥/ ٣٦٣.
(٢) «الحلية»: ٢/ ٣٥٨.
(٣) «الحلية»: ٢/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

أجلس إلىٰ الصبح، قال: فلما خرج مالك سئل عنه فقال: جاء يسرقنا فسرقناه»[1].

ومن نظراته الربانية الثاقبة رَحِمَهُ اللهُ: ما كان يرىٰ من أن الصدق يبدو في القلب ضعيفاً، فيتفقده صاحبه ويزيده الله تعالىٰ. ويتفقده صاحبه ويزيده الله تعالىٰ، حتىٰ يجعله بركة علىٰ نفسه، ويكون كلامه دواء للخاطئين، يذكر ذلك ثم يقول: أما رأيتموهم؟ ويرجع إلىٰ نفسه فيقول: بلىٰ! والله لقد رأيناهم: الحسن، وسعيد بن جبير وأشباههما. الرجل منهم، يحيي اللهُ بكلامه الفئامَ من الناس[2].

ومن هذه النظرات ما نراه في قوله: «يا هؤلاء! إن الكلب إذا طرح إليه الذهب والفضة لم يعرفهما، وإذا طرح إليه العظم أكب عليه، كذلك سفهاؤكم لا يعرفون الحق»[3].

والمؤمن ـ علىٰ فرحه بفضل الله ـ حزين القلب علىٰ ما يكون من تقصيره، ومخافته من هول يوم القيامة، لذا فإن من خراب القلب ـ كما يرىٰ ابن دينار ـ أن يكون خالياً من هذا الحزن. انظر إليه يقول: «إذا لم يكن في القلب حزن خرب، كما إذا لم يكن في البيت ساكن يخرب»[4].

وهذه الخشية من الله تعالىٰ سمة من سمات الصديقين الذين يرون كأن كُل وعيد في القرآن، إنما ينصب علىٰ رؤوسهم هم وحدهم، وكأن كل قارعة تتهدد العصاة إنما تتهددهم وحدهم، ومن هنا كان تأثرهم بقراءة القرآن ـ خصوصاً آيات العذاب التي تحمل التهديد والتخويف ـ تنفطر لها قلوبهم، وتهتز لها نفوسهم فيناجون الله، ويبكون، ويتخشعون، حتىٰ ثبت عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقرأ بعض الآيات في صلاته فيظل فترة بعدها طريح الفراش.

وفي هذا الباب: حدث المغيرة بن حبيب ختن مالك بن دينار أنه قال:

---

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي: ٨/٢١٦ ـ ٢١٧، «السير»: ٥/٣٦٣. وانظر لرواية أخرىٰ: «صفة الصفوة»: ٣/٢٠٧.

(٢) «الحلية»: ٢/٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٣) «الحلية»: ٢/٣٦٠.

(٤) «الحلية»: ٢/٣٦٠، «تاريخ الإسلام»: ٨/٢١٥.

يموت مالك بن دينار وأنا معه في الدار ولا أدري ما عمله. قال: فصليت العشاء الآخرة ثم جئت فلبست قطيفة في أطول ما يكون الليل. قال: وجاء مالك فقرب رغيفه فأكل ثم قام إلىٰ الصلاة، فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: «إذا جمعت الأولين والآخرين فحرِّم شيبة مالك بن دينار علىٰ النار» فوالله ما زال كذلك حتىٰ غلبتني عيني، ثم انتبهت فإذا هو علىٰ تلك الحال يقدم رجلاً ويؤخر أخرىٰ ويقول: «يا رب! إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك من دينار على النار» فما زال كذلك حتى طلع الفجر فقلت في نفسي: والله لئن خرج مالك بن دينار فرآني لا يبلُّ لي عنده بالَّة أبداً. قال: فجئت إلىٰ منزلي وتركته»[1].

ومن وصاياه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «إن من الناس ناساً إذا لقوا القراء ضربوا معهم بسهم، وإذا لقوا الجبابرة وأبناء الدنيا أخذوا معهم بسهم، فكونوا من قراء الرحمٰن بارك الله فيكم»[2].

رحم الله عالمنا الربانيَّ العارف بالله تعالىٰ «مالك بن دينار» ورزقنا حسن التأسي، عسىٰ أن تبتلَّ القلوب بندىٰ الخشية من الله ﷻ، وتزكو النفوس، حتىٰ تفلح وتفوز بالطمأنينة والخير. واللهم آت أنفسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها لا ربَّ غيرك ولا خير إلا خيرك وأنت يا مولانا المحمود علىٰ كل حال.



---

(١) «الحلية»: ٢/ ٣٦١، «مختصر تاريخ دمشق»: ٢٤/ ٣٢.

(٢) «الحلية»: ٢/ ٣٦٣.



مع الفقيه الرباني التابعي صفوان بن سُليم

نحن علىٰ موعد مع هذا التابعي الجليل الذي شهد سلوكه المستنير بالهدي الرباني بأن اصطحابه لبعض الصحابة وإخوانه من التابعين وسماعه منهم: كان غاية في الخيرية لنفسه وللآخرين، وهو علىٰ الثغر الذي أقامه الله عليه في المجتمع الإسلامي يومذاك.

إنه الإمام الثقة الحافظ الفقيه، العابد المتنسِّك شديد الورع؛ أبو عبد الله، وقيل: أبو الحارث القرشي الزهري المدني مولىٰ حميد بن عبد الرحمٰن بن عوف[1]، قدَّم صاحب «الحلية» للحديث عنه بقوله: ومنهم المجتهد الوفي، المتعبِّد السخي: صفوان بن سُليم الزهري، كان ذا جهد واغتناء، وورد واعتناء[2]، وكانت ولادته رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ستين للهجرة.

حدّث عن: ابن عمر، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن جعفر، وأبي أمامة بن سهل بن حنيف، وثعلبة بن مالك القرظي، وأم سعد بنت عمرو الجمحية وآخرين من الصحابة الذين رآهم، وسمع من كبار التابعين وأخذ عنهم؛ منهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسالم بن عبد الله بن عمر، وطاووس، والقاسم بن محمد، وعكرمة، ونافع، وسليمان بن يسار، ونافع بن جبير، وسعيد بن سلمة الأزرقي وخلق سواهم.

وروىٰ عنه: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ويزيد بن أبي حبيب، وموسىٰ بن عقبة، ومالك بن أنس، وابن جريج، وابن عجلان، والليث، وأسامة بن زيد الليثي، وعبد العزيز الدراورديُّ.. وآخرون[3].

---

(١) وانظر: «السير»: ٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥، «الحلية»: ٣/ ١٥٨ فما بعد.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ١٥٨.

(٣) «تهذيب الكمال»: ١٣/ ١٨٤ ـ ١٨٦، «تاريخ دمشق»: ٢٤/ ١٢٢، «السير»: ٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

ذكره محمد بن سعد في الطبقة الرابعة، وقال: كان ثقة كثير الحديث عابداً. وقال علي بن المديني عن سفيان بن عيينة: حدثني صفوان بن سُليم وكان ثقة. وروىٰ عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: ثقة من خيار عباد الله الصالحين. وقال يعقوب بن شيبة: ثقة ثبت، مشهور بالعبادة، سمعت علي بن عبد الله يقول: كان صفوان بن سليم يصلي علىٰ السطح في الليلة الباردة لئلا يجيئه النوم[(١)]. وهذه الجدية في العبادة مع الإكثار: كانت تعمل عملها الإيماني عند الآخرين، ناهيك عما كانت ترقىٰ به وترقىٰ علىٰ سلَّم الصلة بالله ﷻ ومناجاته التي ترتفع بالرباني إلىٰ مدارج القرب عنده جلَّ وعزَّ. ويزداد إيمانه بالغيب ويزداد، حتىٰ تصبح القيامة عنده وكأنه يراها رأي عين، فإذا الجنة والنار. كأنهما مائلتان أمام ناظريه، فلا يزداد عبادة علىٰ ما هو عليه. حدّث محمد بن يزيد الآدمي عن أبي ضمرة أنس بن عياض قال: رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له: غداً القيامة، ما كان عنده مزيد علىٰ ما هو عليه من العبادة[(٢)]. وهذا يذكِّر بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

ومن حزمه في العبادة ما روىٰ يعقوب بن محمد الزهريُّ عن عبد العزيز بن أبي حازم قال: عادلني[(٣)] صفوان بن سُليم إلىٰ مكة، فما وضع جنبه في المحمِل حتىٰ رجع[(٤)].

وكان تخشعه رحمه الله وأثر ذلك في سمته ونور وجهه بالغ التأثير في الآخرين وحديث أهل القلوب. قال الحميدي عن سفيان بن عيينة: «حجَّ صفوان بن سليم، فذهبت بمنىٰ، فسألت عنه، فقيل لي: إذا دخلت مسجد الخيف، فأت المنارة، فانظر أمامها قليلاً شيخاً إذا رأيتَه علمت أنه يخشىٰ الله تعالىٰ: فهو صفوان بن سليم، فما سألت عنه أحداً حتىٰ جئت كما قالوا؛ فإذا أنا بشيخ، لما رأيته علمت أنه يخشىٰ الله، فجلست إليه، فقلت: أنت

---

(١) «تهذيب الكمال»: ١٣/١٨٦ ـ ١٨٧ (٢٨٨٢)، «الحلية»: ٣/١٦٢.
(٢) «الحلية»: ٣/١٥٩، «تهذيب الكمال»: ١٣/١٨٧، «السير»: ٥/٣٦٦.
(٣) عادلني: ركب معي في المحمِل.
(٤) «التهذيب»: ١٣/١٨٨، «تاريخ دمشق»: ٢٤/١٢٨.

صفوان بن سُليم؟ قال: نعم. وفي رواية أن سفيان قال: سألت إنساناً مدنياً بمنىً، فقلت: دلني علىٰ صفوان بن سُليم. فقال: إذا صليت المغرب فانظر أمام المنارة، فإنك تجده جالساً. قلت: فصفه لي! قال: إذا رأيته عرفته بالتخشع، فنظرت بين يدي المنارة، فإذا شيخ، فجئت فجلست إلىٰ جنبه، فقلت: يا شيخ! أنت من أهل المدينة؟ قال: نعم، فقلت: لا أسأله الليلة عن اسمه هو هو، فجلست ولم أسأله عن اسمه[1].

وملازمته العبادة حباً بها وتخشعاً بين يدي الله ﷻ: جعلته والدنيا جِدُّ هينة في نفسه، ما دام الأمر يتعلق بالعبادة والعمل بحكم من أحكام شريعة الله، قال سفيان بن عيينة: وحج صفوان بن سُليم وليس معه إلا سبعة دنانير، فاشترىٰ بها بدنة، فقيل له في ذلك: فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦][2].

ولما كانت قلوب الربانيين عامرة بالخشية كان ذلك أدعىٰ لأن يتأثر الواحد منهم بالجنازة يراها تمر أمام ناظريه؛ لما أنها تذكره الآخرة، والمصير، إما إلىٰ جنة عرضها السماوات والأرض، أو نار وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وهذا التأثر الصادق الذي يخلط القلب مخالطة صادقة عميقة، يجعل صاحبه أقدر علىٰ التأثير في الآخرين إذا وعظهم في ظل تلك المناسبة العظيمة مناسبة الجنازة والصلاة عليها والدعاء لصاحبها بالنجاة من عذاب القبر ويوم يقوم الناس لرب العالمين، والكلام إذا خرج من القلب فلا تسل عما يفعله بقلوب الآخرين!! قال محمد بن يعلىٰ الثقفيُّ عن المنكدر بن محمد قال: كنا مع صفوان بن سليم في جنازة وفيها أبي وأبو حازم، وذكر نفَراً من العُبَّاد؛ فلما صُلِّيَ عليها، قال صفوان: «أما هذا، فقد انقطعت عنه أعماله واحتاج إلىٰ دعاء من خلَّف بعده، قال: فأبكىٰ والله القوم جميعاً»[3].

---

(١) «الحلية»: ٣/ ١٦١، «تاريخ دمشق»: ٢٤/ ١٣١ ـ ١٣٢، «السير»: ٥/ ٣٦٦، «تهذيب الكمال»: ١٣/ ١٨٨.

(٢) «الحلية»: ٣/ ١٦٠، «المعرفة والتاريخ» للفسوي: ١/ ٦٦١، «السير»: ٥/ ٣٦٦.

(٣) المصدر نفسه: ٥/ ٣٦٦.

وإنه لدرس للدعاة والمربين والوعاظ يعلنها صريحة بأن طريق التأثير فيما يقال ويوعظ به أو يدعىٰ إليه: أن يكون القائم بذلك عاملاً بما يدعو إليه من الاستقامة والطريق الأمثل في السلوك، وأنه إن فعل ذلك: جاءت التربية علىٰ الخير والدعوة إليه بأفضل الثمرات.

وهذا يذكرنا بأخرىٰ من تأثر صفوان وتأثيره، لما أن قلبه مملوء خشيةً لله واليوم الآخر، وإخلاصاً فيما يقول ويفعل. روىٰ يعقوب بن محمد الزهري عن أبي زهرة مولىٰ بني أمية، سمعت صفوان بن سُليم يقول: في الموت راحة للمؤمن من شدائد الدنيا، وإن كان ذا غُصص وكرب، ثم ذرفت عيناه[١].

رحم الله صفوان بن سليم وأجزل مثوبته في الآخرين، فقد كان يعظ بدموعه كما يعظ بكلماته، وهكذا.. هكذا يعلم الربانيون ويدعون إلىٰ الله، ويذكرون بيوم لا ريب فيه، قنطرتُه الموت.

وما أكثر الوقائع التي تدل بوضوح علىٰ ما نومئ إليه من استنارة السلوك الذي وراءه عند صفوان؛ قلب خاشع ونفس طُوِّعت لحقيقة أن الموت قادم لا محالة، وأن في قبور من سبقونا عبرة وذكرىٰ، والمهم أن تكون هناك ـ علىٰ الحقيقة ـ قلوب!! حدّث محمد بن صالح التمَّار قال: كان صفوان بن سليم يأتي البقيع في الأيام، فيمرُّ بي، فاتبعته ذات يوم، وقلت: لأنظرنَّ ما يصنع؛ فقنَّع رأسه، وجلس إلىٰ قبر منها، فلم يزل يبكي حتىٰ رحمتُه، وظننت أنه قبر بعض أهله، ومر بي مرة أخرىٰ، فاتبعته، فقعد إلىٰ جنب قبرٍ غيره، ففعل مثل ذلك، فذكرت ذلك لمحمد بن المنكدر، وقلت: إنما ظننت أنه قبر بعض أهله، فقال محمد: كلُّهم أهلُه وإخوتُه، وإنما هو رجل يحرِّك قلبه بذكر الأموات كلما عرضت له قسوة، قال: ثم جعل محمد بن المنكدر بعدُ يمر بي فنأتي البقيع، فسلمت عليه ذات يوم، فقال: أما نفعتك موعظة صفوان؟ فظننت أنه انتفع بما ألقيت إليه منها[٢].

وهذا الذي يصدر عن صفوان صورةً عن خشيته من الله، ومراقبته سبحانه

(١) «تاريخ دمشق»: ٢٤/ ١٣٣، «تهذيب الكمال»: ١٣/ ١٨٨.

(٢) «تاريخ دمشق»: ٢٤/ ١٣٢، «السير»: ٥/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

علىٰ الأحوال كلها والإكثار من العبادة وملء القلب بذكر الآخرة ويوم الحساب. . . هذا كله لم يزل ديدنه حتىٰ لقي الله ﷻ. قال ابن أبي حازم: دخلت مع أبي علىٰ صفوان وهو في مصلاه، فما زال به أبي حتىٰ ردَّه إلىٰ فراشه، فأخبرته مولاته قالت: ساعة خرجتم مات[١].

ألا ما أعظم هذه التربية بالقدوة واستقامة السلوك، صبراً علىٰ الطاعة، وحملاً للنفس علىٰ كثرة العبادة عند البررة الربانيين ـ وصفوان بن سليم من مشايخهم ـ، وهنيئاً لهم ما قدّموا للمجتمع المسلم والأمة من الخير العميم.

هذا: وما بدٌّ من الوقوف عند خلق كريم من أخلاق صفوان بن سليم؛ ألا وهو تحرزه من عطاء السلاطين ـ وذلك من التربية بالقدوة أيضاً ـ وبعدُه عن كل ما قد يشوب التوحيد الخالص، والتوكل علىٰ الله، والوقفة الصادقة نصرة للحق وأهله في أمة الإسلام. روىٰ كثير بن يحيىٰ عن أبيه قال: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة، وعمر بن عبد العزيز عاملهُ عليها. قال: فصلىٰ بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة، واستند إلىٰ المحراب، واستقبل الناس بوجهه، ثم نظر إلىٰ صفوان بن سليم عن غير معرفة، فقال لعمر: من هذا؟ ما رأيت أحسن سمتاً منه. قال: يا أمير المؤمنين هذا صفوانُ بن سليم، قال: يا غلام كيسٌ فيه خمس مئة دينار، فأتاه به فقال لخادمه: اذهب بها إلىٰ ذلك القائم فوصفه للغلام حتىٰ أثبته، فخرج الغلام بالكيس، وأتىٰ حتىٰ جلس إلىٰ صفوان وهو يصلي، ثم سلم، فأقبل عليه فلما نظر إليه صفوان ركع وسجد، فقال: ما حاجتك؟ قال: أمرني أمير المؤمنين ـ وهو ذا ينظر إليك وإليَّ ـ أن أدفع هذا الكيس، وفيه خمس مائة دينار إليك، وهو يقول: استعن بهذا علىٰ زمانك وعلىٰ عيالك، فقال صفوان للغلام: لست أنا بالذي أُرسلتَ إليه، فقال الغلام: ألست صفوان بن سُليم؟ قال: بلىٰ أنا صفوان بن سُليم، قال: فإليك أُرسلت، قال: اذهب فاستثبت، فولىٰ الغلام، فأخذ صفوان نعليه وخرج فلم يُر بها حتىٰ خرج سليمان من المدينة[٢].

---

(١) «الحلية»: ٣/١٥٩، «تاريخ دمشق»: ٢٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٢) «صفة الصفوة»: ٢/ ٨٧، «تاريخ دمشق»: ٢٤/ ١٣٠، «السير»: ٥/ ٣٦٨.

وهذا الموقف من أعطيات السلاطين مجموعٌ له زهادتُه في الدنيا ـ علىٰ وجه العموم ـ ولكن عندما يرىٰ البذل مطلوباً علىٰ طريق الطاعة وكرم النفس، تجده من أسرع الناس إلىٰ هذا البذل مما يجده مع ضيق ذات يده. حدّث يعقوب بن محمد الزهري، أنبأنا أبو مروان مولىٰ بني تميم قال: انصرفت مع صفوان بن سليم من العيد إلىٰ منزله فجاء بخبز يابس ـ وقال أبو يوسف: بخبز وملح ـ فجاء سائل فوقف علىٰ الباب، وسأل، فقام صفوان إلىٰ كوة في البيت، فأخذ منها شيئاً، ثم خرج إليه فأعطاه، فاتبعت السائل ما أعطاه، فإذا هو يقول: أعطاه الله أفضل ما أعطىٰ أحداً من خلقه، وذكر دعاءً مخلصاً، فقلت: ما أعطاك؟ قال: أعطاني ديناراً[1]. وروىٰ أبو نُعيم الأصبهاني بسنده إلىٰ علي بن عبد الله حدثنا سليمان قال: جاء رجل من أهل الشام، فقال: دلوني علىٰ صفوان بن سليم، فإني رأيته دخل الجنة. قيل له: بأي شيء؟ قال: بقميص كساه مسكيناً، فدلوه عليه، فقال: أخبرني عن قصة القميص، فأبىٰ أن يخبره، فتحمَّل عليه بأصحابه، فسأل بعض إخوان صفوانَ صفوانَ عن قصة القميص فقال: خرجت من المسجد في ليلة باردة وإذا برجل عارٍ، فنزعت قميصي فكسوته[2].

وفي عود إلىٰ الإكثار من العبادة عنده والصبر علىٰ ما يعترضه في ذلك من مشاق: يحسن التذكير بأن ما أوردته في صدر هذا الحديث عنه من أنه كان في الشتاء يصلي في السطح لئلا ينام: يصلنا برواية أخرىٰ عند أبي نعيم يرويها عن الإمام مالك بن أنس أنه قال: كان صفوان يصلي في الشتاء في السطح، وفي الصيف في بطن البيت، يتيقظ بالحر والبرد حتىٰ يُصبح، ثم يقول: هذا الجهد من صفوان وأنت أعلم، وإنه لترِم رجلاه حتىٰ تعود مثل السِّقط من قيام الليل، ويظهر فيها عروق خُضر[3].

ويا نعم ما كان من وثيق العلاقة القلبية والعقلية بين صفوان يرحمه الله وبين مسجد النبي عليه الصلاة والسلام، وهنيئاً ثم هنيئاً له ذلك. حدث أبو

---

(١) «الحلية»: ٣/ ١٦٠، «تاريخ دمشق»: ٢٤/ ١٣١.

(٢) «الحلية»: ٣/ ١٦١.

(٣) «الحلية»: ٣/ ١٥٩، «تاريخ دمشق»: ٢٤/ ١٢٧.

علقمة المديني قال: كان صفوان بن سليم لا يكاد يخرج من مسجد النبي ﷺ؛ فإذ أراد أن يخرج بكىٰ وقال: أخاف أن لا أعود إليه[1].

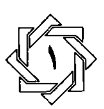
رحم الله أبا عبد الله المديني صفوان بن سليم، وجزاه عن الأمة خير الجزاء، وأكرمه بربانيته الميمونة يوم المعاد إكرام من رضي - سبحانه - عنهم ورضوا عنه. ذلك لمن خاف مقام ربه، ونهىٰ النفس عن الهوىٰ، وجاء ربه يوم المعاد بقلب سليم، والحمد لله رب العالمين. توفي أبو عبد الله سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة عن اثنتين وسبعين سنة.



(١) «تاريخ دمشق»: ٢٤/١٢٩.

مع سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

عالم الأمة وعابدها وأمير المؤمنين في الحديث[2]



من الأبرار الذين كانوا معالم في طريق هذه الأمة «سفيان الثوري» الذي

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثانية عشرة، العددان (٣ و٤)، جمادىٰ الأولىٰ وجمادىٰ الآخرة ١٣٩١هـ، تموز وآب ١٩٧١م.

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق من بني ثور بن عبد مناة، ينتهي نسبه إلىٰ مضر بن نزار بن معد بن عدنان، أمير المؤمنين في الحديث، إمام الحفاظ، شيخ الإسلام، سيد العلماء العاملين الربانيين في زمانه، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد، مصنف كتاب «الجامع» في الحديث، ومصنفاته عدة. ولد سنة ٩٩هـ ونشأ في الكوفة، يقال: إن عدد شيوخه ستمائة شيخ، وكبارهم الذين حدثوه عن أبي هريرة وجرير بن عبد الله وابن عباس وأمثالهم. وقد قرأ الختمة عَرْضاً علىٰ حمزة الزيات أربع مرات، وقد خرج من الكوفة مغلوباً علىٰ أمره عام ١٤٤هـ، فسكن مكة والمدينة، ثم انتقل إلىٰ البصرة ومات رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٦١هـ. وقد روىٰ عنه خلق كثير، قال عبد الله بن المبارك: ما فيهم أفضل من سفيان الثوري، وقال أبو الحارث: سمعت سفيان بن عيينة يقول: ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري. وفي خطاب نافع للشباب في الحرص علىٰ طلب العلم ونشره مقروناً بخشية الله التي هي حال الربانيين يقول أبو عبد الله: يا معشر الشباب تعجّلوا بركة هذا العلم، فإنكم لا تدرون لعلكم لا تبلغون ما تؤملون منه، ليُفد بعضكم بعضاً. وجميل رائع قوله أكرمه الله: أئمة العدل خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز، من قال غير هذا فقد اعتدىٰ. أما عبد الرحمٰن بن مهدي ـ وهو العالم الرباني والإمام القدوة ـ فيقول: ما عاشرت رجلاً في الناس أرقَّ من سفيان، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة، فما كان ينام إلا أول الليل، ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ينادي: النار!! شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات، ثم يتوضأ ويقول علىٰ إثر وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلم، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار، إلـٰهي إن الجزع قد أرقني وذلك من نعمك السابغة عليَّ، إلـٰهي لو كان لي عذر في التخلي ما أقمت مع الناس طرفة =

جمع الله له العلم والعمل، والزهادة في الدنيا، والمعرفة الصادقة، والكلمة التي تنبع من القلب فتصل إلىٰ القلب، والحال المؤثرة الواعظة في عصره وحتىٰ يوم الناس هذا، وإلىٰ آخر الشوط، ما دام في الأمة من يقدُر العلم والعمل، ويشم رائحة الإسلام بصفاء عقيدته، وارتفاعه بالمسلم فوق المعوقات والصوارف، وشدِّه إلىٰ حيث مرضاة الله والنعيم المقيم في الآخرة، في دار الكرامة التي أعدها الله لعباده المتقين المخبتين.

ورضي الله عن الثوري فلقد كانت حياته مصباحاً أضاء الطريق للسالكين، وبرهاناً علىٰ أن هداية الله كائنة لمن يفتح لها قلبه بصدق وعقله بأمانة. وتبارك اسم ربنا الذي يُمدُّ عباده بالعطاء، وجلّ من يكرم الصادقين بالمحبة التي جاء ذكرها في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...**»(1) وسبحان القريب المجيب الذي يدعو عباده دائماً وأبداً ليكونوا في ساحة القرب والمغفرة والإحسان: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة].

وسفيان الذي كان وقافاً عند حدود الله، بصيراً بآي الكتاب وحديث النبي عليه الصلاة والسلام، عازفاً عن الدنيا راغباً في الآخرة لا يني - وهو العَلَم الرباني - يلحُّ علىٰ تلك المعاني التي تقرب من الآخرة وتنأىٰ بالمسلم عن أن تستعبده الشهوة وتستذله مطامع العاجلة.

حدث عبد العزيز القرشي قال: سمعت سفيان يقول: «عليك بالزهد

= عين، ثم يقبل علىٰ صلاته، وكان البكاء يمنعه من القراءة، حتىٰ كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكائه وما كنت أقدر أن أنظر إليه استحياءً وهيبة منه. رحم الله أبا عبد الرحمٰن فقد كان - كما يقول الذهبي - رأساً في الزهد والتأله والخوف، رأساً في الحفظ، رأساً في معرفة الآثار، رأساً في الفقه، لا يخاف في الله لومة لائم. وانظر: «الحلية»: ٦/٣٥٦، «صفة الصفوة»: ٣/٨٣ و٨٤، «الجرح والتعديل»: ١/٩١ فما بعد، «السير»: ٧/٢٣٠، ٢٤١، فما بعد.

(1) من حديث طويل أخرجه البخاري من رواته أبي هريرة (٦٥٠٢).

يبصرك الله عورات الدنيا، وعليك بالورع يخفف الله عنك حسابك، ودع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك». وعن قبيصة قال: سمعت سفيان الثوري يقول: «خير الدنيا لكم ما لم تبتلوا به منها، فإذا ابتليتم بها فخيرها لكم ما خرج من أيديكم منها»(١).

وذلك الذي يعظ به كان هو ما يعرف من حاله وسلوكه رَحِمَهُ اللهُ فهو دائماً ينظر بعين الخائف الحذر وكأنه في سفينة مهددة بالغرق، حدّث عبيد الله بن سعيد قال: سمعت أسامة يقول: «كان من يرىٰ سفيان الثوري يراه كأنه في سفينة يخاف الغرق، أكثر ما تسمعه يقول: يا رب سلِّم سلِّم»(٢).

وقال أحمد بن يونس: سمعت الثوري ما لا أحصيه يقول: اللهم سلِّم سلِّم، اللهم سلمنا، وارزقنا العافية في الدنيا والآخرة(٣).

وبعقل الحكيم المربي ولسان النابه التقي يقول رَحِمَهُ اللهُ: «كان يقال: من كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، ومن كانت سريرته شراً من علانيته فذلك الجور»(٤).

ومن كلماته رضي الله عنه للعلماء والعباد تنبيهاً وتحذيراً ونصحاً للأمة أن يلبس عليها الملبسون ويفتنها الفتانون «كان يقال: تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل، والعالم الفاجر، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون»(٥).

ولئن كان لا يعرف الفضل إلا أهل الفضل: إن الثوري بما أعطي من نور العلم والمعرفة كان أقدر علىٰ معرفة الرجال والحقائق التي ترفع المرء إلىٰ مصاف الرجال. قال يزيد بن خنيس: سمعت سفيان الثوري يقول: «جلست ذات يوم ومعنا سعيد بن السائب الطائفي، فجلس سعيد يبكي حتىٰ رحمته، فقلت له: يا سعيد ما يبكيك وأنت سمعتني أذكر أهل الجنة؟ قال سعيد: يا سفيان ما يمنعني أن أبكي، وإذا ذكرت مناقب الخير، رأيتني عنها بمعزل؟ قال سفيان: وحق له أن يبكي»(٦).

---

(١) «الحلية»: ٧/ ٢٠ ـ ٢١.
(٢) المصدر السابق: ٧/ ٢١.
(٣) «السير»: ٧/ ٢٤٣.
(٤) وانظر: «الحلية»: ٧/ ٣٠.
(٥) «تهذيب الكمال»: ١١/ ١٦٨. وانظر: «الحلية»: ٧/ ٣٦.
(٦) «الحلية»: ٧/ ٣٧.

وفي خاتمة لقائنا مع هذا العلم الرباني اليوم، نذكر ما رواه محمد بن يزيد قال: سمعت سفيان الثوري يقول: «بلغني أنه يأتي علىٰ الناس زمن تمتلئ قلوبهم في ذلك الزمان من حب الدنيا، فلا تدخله الخشية. قال سفيان: وأنت تعرف ذلك، إذا ملأت جراباً من شيء حتىٰ يمتلئ فأردت أن تدخل فيه غيره لم تجد لذلك من خلاء»[1].

رحم الله سفيان وأجزل له المثوبة وصلىٰ وسلم علىٰ معلم الناس الخير الذي كان من آثار هديه الميمون: هذا الرجل وأمثاله في الخالدين.



(١) «حلية الأولياء»: ٧/٣٨.

بين سفيان الثوري... والرشيد رحمهما الله[1]



جاء في «الإحياء» للإمام الغزالي: «عن أبي عمران الجوني ـ أو الجويني ـ أنه كانت بين هارون الرشيد وبين سفيان الثوري ـ وهو من هو في علمه وورعه ـ مودة ومؤاخاة، ولما ولي هارون الحكم انقطع عن لقائه سفيان ـ علىٰ ما كان بينهما من الصلة ـ في الوقت الذي زاره الكثير من المهنئين وفيهم بعض العلماء، واشتاق هارون إلىٰ صديقه وخدنه القديم، ورغب في لقائه لأكثر من غرض، فكتب إليه كتاباً جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلىٰ أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر. أما بعد: يا أخي، قد علمت أن الله تبارك وتعالىٰ واخىٰ بين المؤمنين، وجعل ذلك فيه وله، واعلم أني قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك، ولم أقطع منها ودك، وإني منطو لك علىٰ أفضل المحبة والإرادة؛ ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبواً، لما أجد لك في قلبي من المحبة... إلىٰ أن قال: وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته، فإذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل».

وتهيب رجال هارون الذي كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحج عاماً ويغزو عاماً حمل الكتاب إلىٰ سفيان، ثم حمّله عباد الطالقاني، ودلّ علىٰ سفيان في المسجد... وكان أن أمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يكتب لهارون جواب علىٰ ظهر كتابه ومما جاء في هذا الكتاب: «... فكيف بك يا هارون غدا، إذا نادىٰ المنادي من

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثانية عشرة، العددان (٣ و٤)، جمادىٰ الأولىٰ وجمادىٰ الآخرة ١٣٩١هـ، تموز وآب ١٩٧١م.

قبل الله تعالىٰ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ..﴾ [الصافات: ٢٢] أين الظلمة وأعوان الظلمة، فقدمت بين يدي الله تعالىٰ ويداك مغلولتان إلىٰ عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك، وأنت سابق وإمام إلىٰ النار، كأني بك يا هارون، وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترىٰ حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة على سيئاتك، بلاء علىٰ بلاء، وظلمة فوق ظلمة. فاحتفظ بوصيتي، واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها واعلم أني قد نصحتك، وما أبقيت لك في النصح غاية؛ فاتق الله يا هارون رعيتك، واحفظ محمداً ﷺ في أمته، وأحسن الخلافة عليهم.

واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلىٰ غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته، فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام». وهنا تغمر العناية هذا الرسول.

قال عباد: فألقىٰ إلي الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم، فأخذته وأقبلت إلىٰ سوق الكوفة، وقد وقعت الموعظة من قلبي، فناديت: يا أهل الكوفة فأجابوني، فقلت لهم: يا قوم من يشتري رجلاً هرب من الله إلىٰ الله فأقبلوا إليَّ بالدنانير والدراهم، فقلت: لا حاجة لي في المال، ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية. قال: فأُتيت بذلك، ونزعت ما كان عليّ من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله، حتىٰ أتيت باب أمير المؤمنين حافياً راجلاً، فهزئ بي من كان علىٰ باب الخليفة. ثم استؤذن لي، فلما دخلت عليه وبصر بي علىٰ تلك الحالة، قام وقعد، ثم قام قائماً وجعل يلطم رأسه ووجهه، ويدعو رحمه الله بالويل والحزن، ويقول: «انتفع الرسول وخاب المرسل ما لي وللدنيا، ما لي والملك يزول عني سريعاً» قال عباد: ثم القيت الكتاب إليه منشوراً كما دفع إلي، فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه، ويقرأ ويشهق، فقال بعض جلسائه ـ وما أشأم هؤلاء ـ يا أمير المؤمنين، لقد اجترأ عليك سفيان، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد. . . وضيقت عليه السجن. كنت تجعله عبرة

لغيره!! ولكن ما الذي قال هارون؟ لقد قال أمير المؤمنين: «أتركونا عبيد الدنيا. المغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه وإن سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه».

وأكثر من هذا... يقول الرواة: ثم لم يزل كتاب سفيان إلىٰ جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتىٰ توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ... ألا ليت لهذه الأمة مثل المرسِل والمرسَل إليه. قال الإمام الغزالي: «فرحم الله عبداً نظر لنفسه واتقىٰ الله فيما يقدم عليه غداً من عمله، فإنه عليه يحاسب وبه يجازي، والله وليُّ التوفيق»(١).

وهذا يذكِّر بما روىٰ أبو نُعيم الأصبهاني بسنده عن أبي الحسن بن إبراهيم البياضي قال: أُخبرتُ أن أمير المؤمنين هارون الرشيد قال لزبيدة: أتزوج عليك؟ قالت زبيدة: لا يحلّ لك أن تتزوج عليَّ، قال: بلىٰ، قالت زبيدة: بيني وبينك من شئت، قال: ترضين بسفيان الثوري؟ قالت: نعم، قال: فوجَّه إلىٰ سفيان الثوري فقال: إن زبيدة تزعم أنه لا يحل لي أن أتزوج عليها، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿.. فَأنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ..﴾ [النساء: ٣] ثم سكت، فقال سفيان: تمم الآية، يريد أن يقرأ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء: ٣] وأنت لا تعدل. قال: فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم. فأبىٰ أن يقبلها(٢).

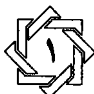
---

(١) «إحياء علوم الدين»: للغزالي: ٢/ ٥٥٠ ـ ٥٥٣، «إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين» للزبيدي: ٧/ ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم: ٦/ ٣٧٨. وانظر: «الجرح والتعديل» للإمام الرازي: ١/ ٨٦ ـ ٨٧.

هذا ومن الجدير بالذكر أن اختلاف التواريخ وتباين بعضها مع الوقائع المذكورة تجعل في النفس شيئاً من قصة سفيان مع الرشيد، الأمر الذي يوحي بأن القصة مع المهدي أو المنصور لا مع الرشيد. قال الزبيدي في «الإتحاف»: «فمن تأمل هذه التواريخ وجد الحكاية مفتعلة إلا أن يكون ذلك للمهدي أو للمنصور فيسلم». «إتحاف السادة المتقين»: ٧/ ٨٢.

عبد الواحد بن زيد[1]



كان من إكرام الله لهذه الأمة المحمدية أن فتح لها بالقرآن مغاليق القلوب ومهد لها معارج الصلة بين العبد وربه سبحانه.. حتىٰ بت ترىٰ علىٰ مدىٰ التاريخ رجالاً يُعلِّمون الناس بالعمل قبل القول وبالسلوك قبل الموعظة، معانيَ الصلة بالله ﷻ ويسلكون بهم سبيل القرب إليه ﷻ. ومن هؤلاء الرجال: عبد الواحد بن زيد[2] الذي كان معاصراً لصالح المري وعتبة الفلاح وأضرابهما.

ولم يقتصر جهاده رحمه الله علىٰ ميدان واحد وإنما كان يخوض معارك الجهاد مع الأعداء، ولا يني يجاهد نفسه ليحملها دائماً علىٰ الجادة، وينأىٰ بها عن كل ما يصرفه عن مراتب المحبين، في تطلع دائم إلىٰ دار الكرامة يوم يصدق في المؤمنين قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة عشرة، العدد (٦)، شعبان ١٣٩٤هـ، أيلول ١٩٧٤م.

(٢) هو عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري، أحد الأعلام، شيخ العباد، الواعظ المؤثر، الزاهد شيخ الصوفية بالبصرة، وأعظم من لحق الحسن البصري وغيره وعلى كلام لأهل الحديث فيه. روى عن: الحسن وعطاء بن أبي رباح ويونس بن عبيد وآخرين، وروى عنه: محمد بن السمَّاك ووكيع ويزيد بن الحباب وأبو سليمان الداراني وغيرهم. صلّىٰ الصبح بوضوء العتمة أربعين عاماً، وكان مجاب الدعوة. قال الذهبي في «تاريخ الإسلام»: ٩/ ٥١٢: ولعبد الواحد كلام كثير حسن وممن صحبه: أحمد بن أبي عطاء اللخمي وموسىٰ الأشج ونصر ورباح بن عمرو، وفي ٥١٣ قلت: ومن وعظ عبد الواحد: «ألا تستحيون من طول ما لا تستحيون» وكانت وفاته رحمه الله بعد الخمسين ومائة.
وانظر: «الحلية»: ٦/ ١٥٧، «طبقات الأولياء»: ١٨٣، «السير»: ٧/ ١٧٨.

ولم يكن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحب أن يستأثر بتلك الأذواق الإيمانية والتنقل في مدارج السالكين وحده، وإنما يريد أن يكون إخوانه وأحباؤه ممن تغمرهم تلك الرحمات، وتسعدهم تلك النفحات..

حدّث عبد الله بن عبيد عن مضر القارئ قال: سمعت عبد الواحد بن زيد يقول: «وعزتك لا أعلم لمحبتك فرحاً دون لقائك والاشتفاء من النظر إلىٰ جلال وجهك في دار كرامتك.. فيا من أحل الصادقين دار الكرامة، وأورث المبطلين منازل الندامة، اجعلني ومن حضرني من أفضل أوليائك زلفىٰ وأعظمهم منزلة وقربا.. تفضلاً منك علي وعلىٰ إخواني يوم تجزي الصادقين بصدقهم جنات قطوفها دانية، متدلية عليهم ثمراتها»[1].

وليس بدعا أن تعمل الطاعة عملها في قلب عبد الواحد، فيطلق لسانه بالحكمة وتسلم له مقاييس أهل الآخرة. قال مسمع بن عاصم: «شهدت عبد الواحد بن زيد عاد مريضاً من إخوانه فقال: ما تشتهي؟ قال: الجنة. قال: فعلام تأسىٰ علىٰ الدنيا إذا كانت هذه شهوتك؟ قال: آسىٰ والله علىٰ مجالس الذكر ومذاكرة الرجال بتعداد نعم الله! قال عبد الواحد: هذا والله خير الدنيا وبه يدرك خير الآخرة[2].

ولقد كان من حبه للجهاد وأنه طريق المؤمن إلىٰ الجنة يذكر قول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكل طريق مختصر، ومختصر طريق الجنة الجهاد»[3].

وعلىٰ سَنَن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام: كان الجهاد في النهار لا يشغله عن العبادة وصحبة كتاب الله في الليل، شأن أولئك الذين كانوا رهباناً في الليل أسوداً في النهار، وتلك هي الفتوة في تاريخ الإسلام. روىٰ أبو نعيم بسنده عن أبي عاصم العباداني حدثني عبد الواحد بن زيد قال: «كنا في غزاة لنا ونحن في العسكر الأعظم، فنزلنا منزلاً، فنام أصحابي وقمت أقرأ جزئي ـ أي حصته من القرآن الكريم ـ قال: فجعلت عيناي تغالبانني وأغالبهما حتىٰ استتممت جزئي؟ فلما فرغت وأخذت مضجعي قلت: لو كنت نمت كما نام أصحابي كان أروح لبدني فإذا أصبحت قرأت جزئي. قال: فقلت هذه

---

(١) «الحلية»: ٦/١٥٦ ـ ١٥٧. وانظر: «تاريخ الإسلام»: ٩/ ٥١٠.
(٢) «الحلية»: ٦/ ١٥٧.
(٣) المصدر السابق: ٦/١٥٧.

المقالة في نفسي والله ما تحركت بها شفتاي، ولا سمعها أحد من الناس مني. قال: ثم نمت فرأيت في منامي كأني أرىٰ شاباً جميلاً قد وقف عليَّ وبيده ورقة بيضاء كأنها الفضة، فقلت: يا فتىٰ ما هذه الورقة التي أراها بيدك؟ قال: فدفعها إلي فنظرت فإذا مكتوب فيها:

ينام من شاء علىٰ غفلة والنوم كالموت فلا تتكل
تنقطع الأعمال فيه كما تنقطع الدنيا عن المنتقل

قال: وتغيب الفتىٰ عني فلم أره! قال: فكان عبد الواحد يردد هذا الكلام كثيراً ويبكي، ويقول: فرق النوم بين المصلين وبين لذتهم في الصلاة، وبين الصائمين وبين لذتهم في الصيام.. ويذكر أصناف الخير»[1].

ذلكم هو الإعداد النفسي للمجاهد في الإسلام.. قتال لأعداء الله وجهاد للنفس، كيما تكون وقافة عند حدود رب العالمين الذي يقاتل المؤمن تحت رايته سبحانه ويجاهد في سبيله..

ويكرم الله عباده الصالحين بمزيد من الثبات... والاستقامة علىٰ الطريق الذي يوصلهم إلىٰ واحة المحبة، فهم يذكرون، ويخشعون، ويتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، ويناجون ويتقربون إلىٰ الله بالنوافل؛ وبذلك يفوزون بنعيم المحبة محبة الله تبارك وتعالىٰ لهم مصداقاً لما جاء في الحديث القدسي: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...**»[2] الحديث. وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

---

(١) «الحلية»: ٦/ ١٦٢. وانظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي: ٩/ ٥١٠ فما بعد.

(٢) روىٰ البخاري في «الجامع الصحيح»، كتاب الرقاق، باب التواضع رقم (٦٥٠٢) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه، فإذا أحببتهُ كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**».

عبد الواحد بن زيد[1]

كلمات أُخر



كان عبد الواحد بن زيد لا يفتأ يدعو إلىٰ الإخلاص في العمل، ثمرة تذوقه لمعناه وأبعاده؛ وكان يربط الإجابة به فيقول: «الإجابة مقرونة بالإخلاص لا فرقة بينهما»[2].

وعندما يتحدث عبد الواحد عن الصبر والرضا وعن المحبة والرجاء تراه وكأنه يغترف من معين العطاء الإلـٰهي، وتحس من كلماته ذلك الندىٰ الذي يخلِّفه صدق التوجه إلىٰ الله

قال خلف بن يزيد القسام: سمعت مضر القارئ يقول: قال لي عبد الواحد بن زيد: «ما أحسب شيئاً يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضا، وهو رأس المحبة»[3].

ويريد لنفسه وللسالكين طريق تزكية النفس والتربية الإيمانية قدراً أكبر من العزيمة وصدق النية فيما يريدونه ويتوجهون إليه. فإذا رسخت أقدامهم علىٰ طريق أهل الفتوة وخلصت نياتهم، وصدقت عزائمهم كان لهم عند الله ما يريدون. وهؤلاء هم الذين يجمعون دائماً بين الخوف والرجاء يعملون ما وسعهم العمل. ويحسنون الظن بمن أسلموا الوجه إليه، ووضعوا الأثقال في رحابه. فسائله لا يخيب ويداه مبسوطتان بالعطاء سبحانه. يقول حكيم بن

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة عشرة، العدد (٧)، رمضان ١٣٩٤هـ، تشرين الأول ١٩٧٤م.

(٢) انظر: «الحلية»: ٦/ ١٥٧.

(٣) المصدر السابق: ٦/ ١٦٣. وينظر: «طبقات الأولياء»: ص١٨٣ الحاشية ٧.

جعفر: سمعت مسمع بن عاصم قال: قال عبد الواحد بن زيد: «من نوىٰ الصبر علىٰ طاعة الله صبَّره الله عليها، ومن نوىٰ الصبر عن معاصي الله أعانه الله علىٰ ذلك وعصمه منها»(١).

وكل الطاعات ـ بعد كونها التزاماً بأوامر الشريعة ـ لا بد أن تكون طريق الأنس بالله والرضا عنه في كل الحالات، والقناعة الكاملة بما عنده سبحانه، وإلا كان العمل مدخولاً لا يتجاوز الخروج من العهدة وكفىٰ. وتلك هي مرحلة الذوق الحقيقي لمعنىٰ العبادة والطاعة. حيث لا يجد العابد أُنْسَه إلا بمولاه، ولا يعرف إلا الرضا عن الله. ولا مكان في نفسه لغير القناعة بما تجود به العناية الإلـٰهية؛ فالخير منه وإليه سبحانه. وهو المعطي المتفضل علىٰ كل حال. قيل لعبد الواحد بن زيد: إن بالبصرة رجلاً يصلي ويصوم منذ خمسين سنة. وحين لقيه قال له: هل قنعت منه بعد؟ قال: لا! قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا! قال: فهل أنست به بعد؟ قال: لا! قال: فإنما ثوابك من عملك التزيد في الصوم والصلاة؟ قال: نعم! قال: لولا أني أستحي منك لأعلمتك أن عملك مدخول(٢).

وفي يقين هذا الرجل الرباني أن من قدر علىٰ اقتحام العقبة، فصبر لمحبة الله عن هواه لم يكن الله ليخيب صبره، ومن ظن غير ذلك فقد أساء الظن بربه(٣). والله تعالىٰ يقول في الحديث القدسي: **«أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني...»**(٤) قال عبد الواحد: «يا سيار أتراك تصبر لمحبته علىٰ

---

(١) «الحلية»: ٦/١٦٣ وتتمة الكلام هناك: قال: وقال لي: يا سيار أتراك تصبر لمحبته عن هواك فيخيب صبرك؟ لقد أساء بسيده الظن من ظن به هذا وشبهه، قال: ثم بكىٰ عبد الواحد حتىٰ خفت أن يغشىٰ عليه، ثم قال: بأبي أنت يا مسبغ نعمة غادية ورائحة علىٰ أهل معصية، فكيف ييأس من رحمته أهل محبته؟!

(٢) «الحلية»: ٦/١٦٣ ـ ١٦٤. وانظر: «تاريخ دمشق»: ٣٧/٢٢٨.

(٣) «الحلية»: ٦/١٦٣.

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه، وإن تقرّب إليّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن تقرّبتُ إليَّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»**. رواه البخاري في كتاب التوحيد من =

هواك فيخيب صبرك لقد أساء به كلَّ الإساءة من ظن به هذا وشبهه، يقول الرجل: ثم بكىٰ عبد الواحد حتىٰ خفت أن يغشىٰ عليه، ثم قال: بأبي أنت يا مسبع نعمة غادية ورائحة علىٰ أهل معصيته، فكيف ييأس من رحمته أهل محبته»(١)!!

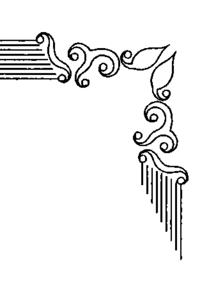
ألا ما أكرم أن يكون من نذير الحديث عنه رَحِمَهُ اللَّهُ قدوة للعالمين والسالكين، لما أنه علىٰ قدم أصحاب النبي ﷺ، الذين تجافت جنوبهم عن المضاجع والناس نيام، وقاتلوا أعداء الله ما وسعتهم القدرة علىٰ ذلك؛ فجمعوا الخير من أطرافه، وكان لهم شرف الجهاد في شتىٰ ميادينه.

ورحمك الله يا ابن زيد عابداً زاهداً في الدنيا، وخاشعاً تتلو كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، ومجاهداً صادقاً تتقرب إلىٰ الله بإعلاء كلمته، وقتال الكفرة المظاهرين عن الحق، وزادك من فضله في دار كرامته، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول، وهو ـ جلَّ شأنه ـ ذو الفضل العظيم.

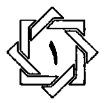


= «الجامع الصحيح». انظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ١٣/ ٣٨٤، ومسلم: ٤/ ٢٠٦١ باب ذكر والدعاء، والترمذي: ٥/ ٥٨١ باب حسن الظن بالله ﷻ من كتاب الدعوات.

(١) وانظر: «الحلية»: ٦/ ١٦٤، «تاريخ دمشق»: ٣٧/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩.



مع داود الطائي رحمه الله[1]



في الجَعبة اليوم ـ علىٰ قلة ما فيها من الزاد ـ كلمات عن واحد من فقهاء الربانيين، هو: أبو سليمان داود بن نصير الطائي؛ الذي أكرمه الله بأن جمع بين العلم والعمل؛ فكان من العلماء البررة الأتقياء، الذين يعبدون الله علىٰ معرفة، ويخلصون الوجهة إليه سبحانه، في رجاء لعفوه ورحمته، ومخافة ليوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، فكان العالم الربانيَّ الثقة الزاهد، الكثير العبادة، الصابر علىٰ مشاق السلوك عند أهل القلوب.

ولد أبو سليمان بالكوفة، ولما ارتحل إلىٰ بغداد ـ وهي غنية بالرجال يومذاك ـ أخذ عن علمائها وكان واحداً من أصحاب أبي حنيفة النعمان رحمه الله.

وحين تمّ له ما يريد من فقه الكتاب والسنة ورأي أهل الرأي وعلوم العربية، وعلم أيام الناس وأمورهم: عاد إلىٰ الكوفة، حيث غلب عليه جانب العمل بما علم والزهد في الدنيا، والانصراف في أكثر ساعات حياته إلىٰ العبادة، وتلاوة كتاب الله متدبراً متفكراً، إلا عن جواب لا يرىٰ مندوحة له من الكلام فيه، وذلك في أمر من أمور الفقه، أو السلوك في نور طاعة الله وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام[2]. وقد وضع الله لكلماته القبول في صدور الناس، وأصبح في ورعه وزهده وتقواه قدوة مثلىٰ يشار إليها بالبنان، حتىٰ

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الرابعة عشرة، العدد (٣)، جمادىٰ الأولىٰ ١٣٩٣هـ، حزيران ١٩٧٣م.

(٢) قال الذهبي: جرّب نفسه ودرّبها حتىٰ قوي علىٰ العزلة. وقال: كان رأساً في العلم والعمل ولم يسمع بمثل جنازته حتىٰ بات الناس ثلاث ليال مخافة أن يفوتهم شهوده.
وانظر: «طبقات ابن سعد»: ٦/ ٣٦٧، «تاريخ بغداد»: ٨/ ٣٤٧، «الحلية»: ٧/ ٣٣٥، «السير»: ٧/ ٤٢٢.

قال أحد معاصريه: «لو كان داود في الأمم الماضية لقصَّ الله تعالىٰ شيئاً من خبره» وبجانب ذلك كله كانت له مشاركة في رواية حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد أسند عن جماعة من التابعين منهم: عبد الله بن عمير وإسماعيل بن أبي خالد والأعمش وحميد الطويل، قال العلماء: وأكثر روايته عن الأعمش[1]. وقد روىٰ عنه: إسماعيل بن علية وزفر بن سليمان، ولكن أكثر من روىٰ عنه ابن أصعب بن المقدام[2].

وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٦٥ أو سنة ١٦٦ للهجرة، وإنك لتذكر حين تقرأ سيرة هذا الرجل الرباني قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

والذي يستوقفك في شأنه أنه في إجهاد نفسه بالعبادة وفعل الخيرات، كان علىٰ تواضع جم وحزن علىٰ التفريط. ومبعث ذلك. . ـ والله أعلم ـ شعوره الصادق بطول الطريق مع الرحلة القريبة والحاجة إلىٰ الزاد، فكان مما يقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «سبقني العابدون وقطع بي والهفاه»[3] وهذه الحال من داود كان يتطلع إليها كبار الرجال حتىٰ قال عبد الله بن المبارك: «وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي»[4] وروي عن سفيان الثوري أنه كان إذا ذكر داود قال: «أبصر الطائي أمره»[5] وهذه الكلمة من سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ التي تقرر أن الطائي قد أبصر أمره ـ بمعنىٰ أنه نظر إلىٰ الدنيا والآخرة نظرة البصيرة التي يشرف عليها نور الإيمان والخشية من الله تعالىٰ ـ تكشف عن منزلة داود في نظر سفيان، فقد شغل أبا سليمان أمرُ الآخرة عن أمر الدنيا، وصدق الله فصدقه، ورغب بما عند الله في الآجلة مستشعراً خطاب الله لنبيه ﷺ وهو سيد العالمين: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحىٰ].

وأنعم بشهادة أهل الإيمان لأخيهم المؤمن بعد الموت، قال ابن السماك

---

(١) «تاريخ بغداد»: ٨/ ٣٥٣.
(٢) «الحلية»: ٧/ ٣٦١.
(٣) «الحلية»: ٧/ ٣٣٦.
(٤) «الحلية»: ٧/ ٣٣٦، «السير»: ٧/ ٤٢٣.
(٥) جاء في «السير»: ٧/ ٤٢٣: وكان الثوري يعظمه ويقول: أبصر داود أمره. وانظر: «الحلية»: ٧/ ٣٣٦.

عند دفن داود رحمه الله: «يا داود كنت تسهر ليلك إذ الناس ينامون» فقال القوم جميعاً: صدقت «وكنت تربح إذا الناس يخسرون» ـ يعني في أمور الآخرة ـ فقال الناس جميعاً: صدقت. «وكنت تسلم إذا الناس يخوضون» فقال الناس جميعاً: صدقت، حتىٰ عدد فضائله كلها، فقام أبو بكر النهشلي وقد خاف علىٰ الناس أن يفتنوا بكثرة تلك الفضائل، وأراد أن يذكرهم بأن العبد مهما صلحت حاله، فهو فقير لفضل الله تعالىٰ ورحمته وإحسانه، فحمد الله ثم قال: يا رب إن الناس قد قالوا ما عندهم مبلغ ما علموا، فاغفر له برحمتك ولا تكله إلىٰ عمله[1].

وإذا كانت الخشية علىٰ قدر المعرفة؛ فقد كان الواحد من هؤلاء الرجال يرىٰ حين يتلو كتاب الله كأن كل وعيد في آيات القرآن ينصب علىٰ رأسه هو ويتهدده وحده، وكأن كل قارعة ينذَر بها العصاة إنما تعنيه هو دون غيره من الناس، وإنما كان ذلك من فرط حسهم رحمهم الله ورقة أفئدتهم، وصفاء تلك النفوس التي عملوا بها تربية وتزكية وجهاداً حازماً دائباً في ظل تلك الخشية.

ومن هنا كان تأثرهم بالقرآن خصوصاً آيات العذاب التي تحمل التهديد والتخويف، تتفطر لها قلوبهم وتهتز لها نفوسهم، فيناجون ربهم باكين خاشعين ويتلون كتابه ضارعين خائفين. ولقد روي عن عمر الجعفي أنه قال: اشتكىٰ داود الطائي أياماً.. وكان سبب علته أنه مر بآية فيها ذكر النار، فكررها مراراً في ليلته فأصبح مريضاً، وبعد أيام دخل عليه أناس من إخوانه وجيرانه فوجدوه قد مات ورأسه علىٰ لبنة[2]. يقول ابن السماك: دخلت علىٰ داود الطائي يوم مات وهو في بيت علىٰ التراب وتحت رأسه لبنة، فبكيت لما رأيت من حاله، وقلت: يا داود لقد فضحت القراء ـ يعني بإقبالهم علىٰ الدنيا ـ ثم ذكرت ما أعد الله لأوليائه فقلت: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترىٰ ثواب ما كنت ترجو، وكنت له تنصب وتعمل[3].

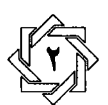
رحم الله داود وأعلىٰ في الآخرين مقامه ولنا عودة قريبة إلىٰ الحديث عنه إن شاء الله.

---

(١) «تاريخ بغداد»: ٨/ ٣٥٥، «الحلية»: ٧/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠.
(٢) «الحلية»: ٧/ ٣٤٠. (٣) المصدر السابق: ٧/ ٣٤٢.

مع داود الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

كلمات أخر



عرضنا في صفحات خلت لشيء من مآثر أبي سليمان داود بن نصر الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ، تلك المآثر التي تدل على أنه كان يعبد الله على علم، وأنه عرف الطريق إلى مرضاة الله سبحانه وامتلأ قلبه بالخشية الصادقة لعلام الغيوب. ورأينا ـ فيما رأينا ـ شهادة كبار معاصريه فيه حتىٰ قال عبد الله بن المبارك ـ وهو من هو ـ علماً وفضلاً وتقوىً: «وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي!!»[2].

وفي متابعة لهذه الكلمات الموصولة بما سبقها، نقف عند لون آخر من فضائل هذا الرجل العظيم، وعند شيء من وصاياه رَحِمَهُ اللَّهُ.

فلقد كان شغله الشاغل، والهم الذي لا يبارحه، أن يكون علىٰ الجادة في كل صغيرة وكبيرة، حتىٰ لا يقع في شيء من المخالفة لمولاه الخالق رب العالمين؛ فكان كثير التفكر والتدبر في النهار، مطيلاً للمناجاة الخاشعة في جوف الليل لمن لا تأخذه سنة ولا نوم، مولانا الذي يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها. فعن عبد الأعلىٰ بن زياد الأسلمي قال: رأيت داود الطائي يوماً قائماً علىٰ شاطئ الفرات مبهوتاً، فقلت: ما يوقفك هاهنا يا أبا سليمان؟ فقال: انظر إلىٰ الفلك كيف تجري في البحر مسخرات بأمر الله تعالىٰ[3].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الرابعة عشرة، العدد (٤)، جمادىٰ الآخرة ١٣٩٣هـ، تموز ١٩٧٣م.

(٢) «الحلية»: ٧/ ٣٣٦، «السير»: ٧/ ٤٢٣.

(٣) «الحلية»: ٧/ ٣٤٢.

حدّثت أم سعيد بن علقمة، ـ وكان سعيد من النساك وأمه طائية من الصالحات ـ قالت: كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير، فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ، قالت: ولربما سمعته في جوف الليل يقول: «اللهم همك عطل علي الهموم، وحال بيني وبين السهاد، وشوقي إلىٰ النظر إليك منع مني اللذات والشهوات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب». قالت: ولربما ترنم في السحر بشيء من القرآن فأرىٰ أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه تلك الساعة، قالت: وكان يكون في الدار وحده وكان لا يصبح، يعني: لا يوقد السراج (لا يسرج)[١].

وإنا لنجد ـ مع هذا الخوف ـ كثيراً من الرجاء بفضل الله سبحانه وذلك موقف المؤمن المتبصر، فقد كان يقول ـ أجزل الله مثوبته ـ: «ما يعوَّل إلا علىٰ حسن الظن، فأما التفريط فهو المستولي علىٰ الأبدان»[٢]. ويقول في موطن آخر: «اليأس سبيل أعمالنا هذه، ولكن القلوب تحن إلىٰ الرجاء»[٣].

وهذا الذي يطبع حياة هؤلاء الصالحين، جعلهم في يقظة دائمة، تباعد بينهم وبين أن يكون للغفلة سلطان علىٰ قلوبهم، وما أشد ما تفعل الغفلة بكثير من النفوس. فقد روي عنه قوله: «كل نفس ترد إلىٰ همِّها. فمهموم بخير ومهموم بشر»[٤] وحدَّث عقبة بن موسىٰ ـ وكان صديقاً لداود ـ أن أبا سليمان قال له ذات يوم: «يا عقبة، كيف يتسلىٰ من حزنٍ من تتجدد عليه المصائب في كل يوم» فخرَّ عقبة مغشياً عليه[٥].

والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، يكرم هؤلاء الربانيين المفلحين بجزيل عطائه، ويزيدهم من فضله خيراً علىٰ خير حتىٰ يكونوا ـ بمنه وكرمه ـ في عداد أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً. روي عن حفص بن عمر أنه قال: كان داود الطائي ومحمد بن النضر الحارثي من العمال لله بالطاعة، المكدودين في العبادة، فلما مات

---

(١) «تاريخ بغداد»: ٨/ ٣٥١ ـ ٣٥٢، «السير»: ٧/ ٤٢٤.
(٢) «الحلية»: ٧/ ٣٥٧.
(٣) «الحلية»: ٧/ ٣٥٩.
(٤) «الحلية»: ٧/ ٣٥٦.
(٥) «الحلية»: ٧/ ٣٥٦.

داود، رأىٰ رجل من عباد أهل الكوفة يقال له محمد بن ميمون، وكان يذكر من فضله، فرأىٰ منادياً ينادي: ألا إن داود الطائي ومحمد بن النضر الحارثي طلبا أمراً فأدركاه»[١]. وقال عبد العزيز بن محمد: رأيت فيما يرىٰ النائم كأن قائلاً يقول: من يحضر؟ من يحضر؟ فأتيته فقال لي: ما تريد؟ قلت: سمعتك تقول: من يحضر؟ من يحضر؟ فأتيتك أسألك عن معنىٰ كلامك، فقال لي: أما ترىٰ القائم الذي يخطب الناس ويخبرهم عن أعلىٰ مراتب الأولياء؟ فأدرك فلعلك تلحقه وتسمع كلامه قبل انصرافه. قال: فأتيته فإذا الناس حوله وهو يقول:

ما نال عبد من الرحمن منزلة أعلىٰ من الشوق إن الشوق محمود

قال: ثم سلَّم ونزل، فقلت لرجل إلىٰ جنبي: من هذا؟ قال: أما تعرفه؟ قلت: لا، قال: هذا داود الطائي، فعجبت في منامي منه، فقال: أتعجب مما رأيت؟ والله للَّذي لداود عند الله أعظم من هذا وأكثر[٢].

والناظر في سيرة الرجل، يجد النسب متصلاً بين هذا الذي رآه عليه عبد العزيز بن محمد في الرؤيا، وبين ما كانت عليه حاله في الدنيا، وسبحانه العليم الخبير، روي عن أبي محمد صدقة الزاهد قال: «خرجنا مع داود الطائي في جنازة بالكوفة، قال: فقعد داود ناحية وهي تدفن، فجاء الناس فقعدوا قريباً منه، فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آت قريب. ثم قال: واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم، واعلم أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور، إنما يفرحون بما يقدمون، ويندمون علىٰ ما يخلفون مما عليه أهل القبور ندموا وعليه أهل الدنيا يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون»[٣].

وفي شذرات من القول كأنها جوامع الكلم ينير الدرب للسالكين فيقول: «ما أخرج الله عبداً من ذل المعاصي إلىٰ عز التقوىٰ إلا أغناه بلا مال، وأعزه

---

(١) «الحلية»: ٧/ ٣٥٢.

(٢) «الحلية»: ٧/ ٣٦٠.

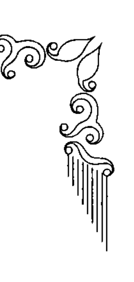
(٣) «الحلية»: ٧/ ٣٥٧.

بلا عشيرة وآنسه بلا أنيس»[1] إنها ضوابط أهل الآخرة، والمقاييس التي تكتب بماء الذهب، كشف فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقيقة العز والذل، وحقيقة الغنىٰ والفقر، وحقيقة الأنس والوحشة، وما يكون لمن أخرجه الله من ذل المعصية إلىٰ عز التقوىٰ. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وسبحان من عطاؤه هو العطاء، لا تنفد كلماته، ولا ينقصُ خزائنه الفضل والإكرام ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء].



(١) «الحلية»: ٧/ ٣٥٦.



مع داود الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]



لقد كانت وصايا أبي سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ صورة واضحة المعالم لما يوجبه التناصح بين المؤمنين، وهي وصايا تقرأ من خلالها سلوك داود وطريقته في الحياة وتذوقه للمعاني التي يدعو إليها، والحقائق التي يوصي بها. انظر بعض ذلك مثلاً في وصيته لعبد الله بن الأعرج التي يقول فيها: «صم عن الدنيا واجعل فطرك في الآخرة، قال عبد الله: فقلت: زدني، قال: ليكن كاتباك محدثَيك، فقلت: زدني، ـ أو الموت ـ قال: برَّ والديك، وقلت: زدني، قال: فِرَّ من الناس فرارك من الأسد غير مفارق لجماعتهم»[2].

وتلك حاله التي كان عليها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وذلك بلا ريب أدعىٰ إلىٰ عمق التأثير في المخاطبين. ورویٰ محمد الصفار قال: حدثني رجل من أهل داود الطائي قال: قلت له يوماً: يا أبا سليمان قد عرفت الرحم بيننا فأوصني قال: فدمعت عيناه ثم قال لي: «يا أخي إنما الليل والنهار مراحل، تنزل بالناس مرحلة مرحلة، حتىٰ ينتهي بهم ذلك إلىٰ آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل يوم مرحلة زاداً لما بين يديه فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريبٍ ما هو، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك» وفي أعقاب ذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأقول هذا وما أعلم أشد تضييعاً مني لذلك» ثم قام[3].

أرأيت إلىٰ هذه الوصية التي تشرق في النفس، وكأنها نور من نور كتاب الله وضياء حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام. ثم أرأيت مع هذه

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الرابعة عشرة، العدد (٥)، رجب ١٣٩٣هـ، آب ١٩٧٣م.
(٢) «تاريخ بغداد»: ٨/ ٣٥١، «الحلية» لأبي نعيم: ٧/ ٣٤٥.
(٣) «الحلية»: ٧/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

الكلمات الحيّة التي تأخذ طريقها إلىٰ القلب... هذا التواضع الخاشع بين يدي الله ﷻ، يستوصيه قريبه فتدمع عيناه.. وبعد أن يزوده بتلك الكلمات الربانية القليلة المبنىٰ، الغزيرة المعنىٰ، تحمله رؤيته لتقصير نفسه وتطلعه إلىٰ ما يجب أن تكون عليه فيقول: «إني لأقول هذا وما أعلم أحداً أشد تضييعاً مني لذلك» يا سبحان الله أي شيء تفعله التقوىٰ في هذه القلوب.. فتفيض بما تفيض به علىٰ لسان حال الرجل الصالح وجوارحه.. فنسمع ما نسمع، ونرىٰ ما نرىٰ، وكأن ما نسمع وما نرىٰ، علىٰ نسب متصل بميراث النبوة.

حدّث إبراهيم بن أدهم أن أبا سليمان كان يقول: «إن للخوف تحركات تعرف في الخائفين، ومقامات يعرفها المحبون، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون. وأين أولئك؟ أولئك هم الفائزون»[1] ومن هذا المرتقىٰ الصعب في مدارج الذوق الإيماني قال داود مرة لسفيان: «إذا كنت تشرب الماء المبرد، وتأكل اللذيذ المطيب، وتمشي في الظل الظليل، فمتىٰ تحب الموت والقدوم علىٰ الله»؟ فبكىٰ سفيان رحمهما الله[2].

ومن وصاياه رضي الله عنه ما حدّث به صالح بن موسىٰ قال: قال رجل لداود الطائي: أوصني قال: «اصحب أهل التقوىٰ فإنهم أيسر أهل الدنيا مؤونة عليك، وأكثر لك معونة»[3]. وأكرم بها من صحبة تحفظ النفس والوقت، وتحمل بما تقدم من القدوة الصالحة علىٰ الاستقامة والمرضي لله ولرسوله من القول والعمل.

أما وصيته لعبد الله بن إدريس: فقد جمعت الخير من أطرافه لمن يريد طريق السالكين، قال عبد الله لأبي سليمان أوصني، فقال داود: «أقلل معرفة الناس» واستزاده عبد الله من الوصية فقال: زدني، قال: ارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين. قلت: زدني، قال: اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطر علىٰ الموت»[4].

وهذا الذي يقوله داود لم يكن ـ كما علمت ـ كلمات تجري علىٰ اللسان

---

(١) «الحلية»: ٧/ ٣٤٦.
(٢) «تاريخ بغداد»: ٨/ ٣٥١، «الحلية»: ٧/ ٣٤٦.
(٣) «تاريخ بغداد»: ٨/ ٣٥١، «الحلية»: ٧/ ٣٤٦.
(٤) «الحلية»: ٧/ ٣٤٣.

وحسب، ولكنه كان حاله التي لا يتكلفها، وسلوكه الذي أصبح سجيته.

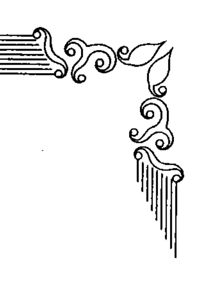
ومن عجب أنه علىٰ قلة مخالطته للناس ـ سرىٰ نبأ وفاته في الكوفة وما حولها بشكل أثار استغراب المؤرخين، وعُدّ ذلك من إكرام الله لهذا الرجل، فلقد بكاه الناس كلهم ودخل الحزن عليه كل بيت، يقول محمد بن عيسىٰ الرايشي: رأيت الناس هنا يأتون ثلاث ليال مخافة أن يفوتهم جنازة داود، ورأيت الناس كلهم يبكون عليه ما شبهته إلا يوم الخروج، ويقول الحسن بن بشر: حضرت جنازة داود، كان يُنعىٰ ساعة بعد ساعة ثم نكذب، فحمل علىٰ سريرين أو ثلاثة تكسر من زحام الناس عليه، وصلي عليه كذا كذا مرة. أما يونس بن عروة: فيقول: زحموني في جنازة داود الطائي حتىٰ قطعوا نعلي فذهبت، وسلوا ردائي عن منكبي فذهب»[1] وذلك لكثرة الخلائق والزحام. وتحريك القلوب علىٰ هذه الشاكلة ونداؤها من الأعماق، وضع تحدث عنه الإمام الصابر أحمد بن حنبل يرحمه الله في كلمة له عن الطغاة والظالمين: حين قال: «بيننا وبينهم الجنائز».

أما بعـد: فقد قال العلماء في داود الكثير، ولكن ابن السماك رحمه الله لم يترك زيادة لمستزيد، وكان من ذلك قوله فيه بعد دفنه: «.. لا تحسد الأخيار، ولا تعيب الأشرار، ولا تقبل من السلطات عطية، ولا من الأمراء هدية، ولا تدنيك المطامع، ولا ترغب إلىٰ الناس في الصنائع؛ آنس ما تكون إذا كنت بالله خالياً، وأوحش ما تكون إذا كنت مع الناس جالساً، فأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس، وآنس ما تكون أوحش ما يكون الناس... إلىٰ أن يقول: عزلت الشهوة عنك في حياتك لئلا يدخلك عجبها ولا تلحقك فتنتها؛ فلما مت شهر ربك بموتك، وألبسك رداء عملك، فلم تنثر ما عملت في سرك، فأظهر الله اليوم ذلك، وأكثر نفعك، وحشد لك الجماعة، فلو رأيت اليوم كثرة من تبعك عرفت أن ربك قد أكرمك وشرفك، ولو أن طيئاً تكلمت بألسنتها شرفاً بك لحق لها ذلك إذا كنت منها أبا سليمان»[2] ولله الحمد في الأولىٰ والآخرة، ونسأله أن يلحقنا بعباده الصالحين.

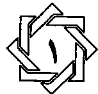
---

(١) «الحلية»: ٧/ ٣٤١، «السير»: ٧/ ٤٢٥.

(٢) «تاريخ بغداد»: ٨/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥، «الحلية»: ٧/ ٣٣٧.



مع بلال بن سعد رَحِمَهُ اللهُ(١)



هو واحد من الربانيين الذين شهد لهم كبار الرجال بعلو الكعب في عبادة الله والإخلاص في طاعته، وقد بلغ من صدقه وعظيم استقامته أنك ترىٰ في كلامه ومواعظه فيضاً من إرث النبوة، وروحاً من روح القرآن الكريم. قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «كان بلال بن سعد(٢) من العبادة علىٰ شيء لم نسمع أحداً من أمة محمد ﷺ كان عليه».

وفي شأنِ بليغ قوله في النفوس وأثر مواعظه في القلوب يقول الأوزاعي أيضاً: «سمعت بلال بن سعد، ولم أسمع واعظاً أبلغ منه»(٣).

أما عبد الله بن المبارك فيقول: «كان محل بلال بن سعد بالشام ومصر كمحل الحسن بن أبي الحسن بالبصرة»(٤).

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة عشرة، العدد (٧)، رمضان ١٣٩٦هـ، أيلول ١٩٧٦م.

(٢) هو بلال بن سعد بن تميم السكوني الإمام الرباني، الواعظ الزاهد العابد الثقة أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق، كان لأبيه سعد صحبة، أوتي بلاغة في الوعظ وصبراً علىٰ العبادة، ونوراً في المعاني التي يحملها إلىٰ الآخرين يزيد من انتفاعهم به، وبعضهم يشبهه بالحسن البصري، حدّث عن: أبيه وعن معاوية وجابر بن عبد الله، وروىٰ عنه: الأوزاعي وعبد الله بن العلاء بن كريز، وعبد الرحمٰن بن يزيد بن جابر وسعيد بن عبد العزيز.

ومن ثمين كلامه ما روىٰ الأوزاعي قال: سمعت بلال بن سعد يقول: لا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت! ويراجع: «الحلية»: ٥/ ٢٢١ فما بعد، «السير»: ٥/ ٩٠ ـ ٩١، «تهذيب ابن عساكر»: ٣/ ٣١٨.

(٣) «السير»: ٥/ ٩١.

(٤) المصدر السابق: ٥/ ٩١.

وشأن الربانيين أن يكون عملهم ترجمان علمهم، حدّث الأوزاعي قال: «هلك ابنٌ لبلال بن سعد بالقسطنطينية، فجاء رجل يدعي عليه بضعة وعشرين ديناراً، فقال له بلال: ألك بينة؟ قال: لا، قال: كتاب؟ قال: لا، قال: فتحلف؟ قال: نعم، قال: فدخل منزله فأعطاه الدنانير وقال: إن كنت صادقاً فقد أديت عن ابني، وإن كنت كاذباً فهي عليك صدقة»(١).

وجاء في واحدة من مواعظه التي هي أشبه بجوامع الكلم، والتي سمعها الأوزاعي منه قوله الصائب: «لا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة ولكن انظر إلىٰ من عصيت؟» وقد أشرت إلىٰ ذلك في الحاشية.

وفي كلمات يذكر بها الغافلين، ويوقظ من ألهتهم الدنيا بمتاعها وشهواتها قال فيما روىٰ عنه عثمان بن مسلم: «رب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن له الويل ولا يشعر، يأكل ويشرب، ويضحك ويلعب، وقد حق عليه في قضاء الله أنه من أهل النار. . فيا ويلاً لك روحاً، ويا ويلاً لك جسداً، فلتبك، وليبك عليك البواكي طول الأبد»(٢).

ويتبدىٰ حرصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ رد الجانحين إلىٰ الطريق، حين يذكر بسعة رحمة الله وكريم عفوه حلمه وتقبله عن عباده التائبين فيقول: «إن لكم رباً ليس إلىٰ عقاب أحدكم بسريع، يقيل العثرة، ويقبل التوبة، ويقبل من المقبل، ويعطف علىٰ المدبر»(٣).

رحم الله بلال بن سعد وأسكنه الفردوس الأعلىٰ في جنة الخلد يوم الدين.

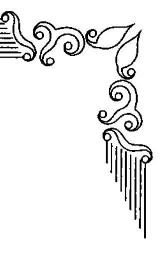
وسبحان ربنا القائل في محكم تنزيله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس].

---

(١) «الحلية»: ٥/ ٢٢٢، «تاريخ دمشق»: ١٠/ ٤٨٠.

(٢) «الحلية»: ٥/ ٢٢٣.

(٣) وانظر: المصدر السابق: ٥/ ٢٣٠، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ١٠/ ٤٨٠.



مع بلال بن سعد[1]

كلمات أخر



ها نحن نتابع الرحلة مع بلال بن سعد وفاء بما وعدنا فيما سبق من القول لعل في ذلك ذكرىٰ لمتذكر، فإن ما كان عليه هؤلاء الرجال صورة صادقة لما كانوا يدعون إليه من العمل بالعلم والزهادة في الدنيا، والجهاد في سبيل الله وأن لا يخاف المؤمن في الله لومة لائم...

ها إن هذا الرجل يحدد لنا ـ كما روىٰ عنه الأوزاعي ـ مفهوم الذكر فيجعله علىٰ نوعين: ذكر باللسان، وأن يذكر الله عندما أحل وما حرم في أخذ الحلال ويجتنب الحرام، وذلك قوله: «الذكر ذكران؛ ذكر باللسان حسن جميل، وذكر الله عندما أحل وحرم أفضل»[2]. ولو تنبه لهذا عامة المسلمين لكانوا علىٰ خير كبير.

ومن هو الأخ الحقيقي عند بلال بن سعد؟ قال الأوزاعي: سمعت بلال بن سعد يقول: «أخ لك كلما لقيك ذكّرك بحظك من الله، خير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك ديناراً»[3] وتلك هي مقاييس أهل الإيمان!!

ولا تسل عن صادق معرفته بربه ﷻ، وحسن ظنه بجميل كرمه سبحانه، يقول الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خرج الناس يستسقون وفيهم بلال بن سعد، فقال: أيها الناس ألستم تقرون بالإساءة؟ قالوا: نعم. قال: اللهم إنك قلت: ﴿مَا عَلَى

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة عشرة، العدد (٨)، شوال ١٣٩٦هـ، تشرين الأول ١٩٧٦م.

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ١٠/ ٤٩٧.

(٣) «الحلية»: ٥/ ٢٢٥.

﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التوبة: ٩١] وكل يقر لك بالإساءة فاغفر لنا واسقنا، قال: فسقينا يومئذ»[١] ألا إنه ليس كثيراً علىٰ كرم الله سبحانه أن يجيب دعوة هذا الرجل الصادق الذي كانت دموعه الخاشعة بريد نجواه، ومخافة الله ينبوع توجهه إلىٰ مولاه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨١] وليكون هنالك عباد حقيقيون.. لا بد من العبودية الحقة...

وفي دعوة إلىٰ إنصاف المظلوم ورحمة الضعيف، والترهيب من تجاوز هذه الحدود يقول أجزل الله مثوبته: «أيها الناس اتقوا الله فيمن لا ناصر له إلا الله»[٢].

وعلىٰ صعيد الخشية من الله ونفاذ البصيرة في حقيقة عمل العبد بجانب رحمة الله ووافر نعمه علىٰ خلقه، يقول الأوزاعي: «ربما سمعت بلالاً يقول: لكأنا قوم لا يعقلون، ولكأنا قوم لا يوقنون»[٣].

وحين ينظر هؤلاء الرجال في شيء من كتاب الله تجد في نظرهم وتفسيرهم شمول الرؤية والتصور الكامل لمعاني الآيات الكريمة مجتمعة، وهذا من أهم الأمور التي تعوز الناظر في كتاب الله مفسراً مستنبطاً لمعانيه.

روىٰ عبد الله بن المبارك عن الأوزاعي عن بلال بن سعد في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٥١﴾ [سبأ] قال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠﴾ [القيامة][٤].

وإنها لَلَفتة تجمع بين أداة المفسر وإحساس صاحب البصيرة..

هكذا يقف هؤلاء الربانيون من أمثال بلال بن سعد علىٰ المحجة التي ترك سيد الأنبياء أمته عليها، فتراهم في قالهم وحالهم معادن خير في الانتصار علىٰ النفس، وحُسْن الأحدوثة لما أنهم ـ بعد الإيمان ـ من تقوىٰ الله وإليها، فرضي الله عنهم وأجزل عطاءهم في الآخرين.

---

(١) «السير»: ٥/ ٩٢.
(٢) «الحلية»: ٥/ ٢٢٦.
(٣) المصدر السابق: ٥/ ٢٢٦.
(٤) «الحلية»: ٥/ ٢٢٧.

اذكروا هذه الكلمات لبلال بن سعد(1)



في فهم للأدب النبوي والأخلاق المحمدية التي يفترض بالمؤمن أن يطوع نفسه لتعيش في ظلها، وتهتدي بنورها: حدّث الأوزاعي قال: سمعت بلال بن سعد يقول: «إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته»(2) ولكم استنكر النبي ﷺ اللجاجة والمماراة والإعجاب بالرأي، وأنذر من الوقوع فيها أو في واحدة منها، والمتأسون به عليه الصلاة والسلام من بحر هديه يغترفون.

وبلال بن سعد ـ وهو من النصحة لهذه الأمة ـ يخشىٰ علىٰ المسلم النفاق، وأن يكون بين سريرته وعلانيته تخالف، لأن ذلك بريد الهاوية والعياذ بالله... يقول بلال وهو يخشىٰ علىٰ أخيه المسلم ذلك: «لا تكن ولياً لله في العلانية وعدوه في السر»(3) أوليس الله هو الذي يعلم السر وأخفىٰ.. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود]. اللهم اجعل سريرتنا أصلح من علانيتنا واجعل علانيتنا صالحة.

وعلىٰ هذا الخط النوراني من ملاحظة القلب وأعماله: يتأول بلال بن سعد قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ...﴾ [العنكبوت: ٤٥] فيقول ـ كما يروي الأوزاعي ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أحدكم إذا لم تنهه

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة عشرة، العدد (٩)، ذو القعدة ١٣٩٦هـ، تشرين الثاني ١٩٧٦م.
(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصبهاني: ٥/٢٢٨، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ١٠/٤٨٨ـ٤٨٩.
(٣) «الحلية»: ٥/٢٢٨، «تاريخ دمشق»: ١٠/٤٨٩.

صلاته عن ظلمه لم تزده صلاته عند الله إلا مقتاً»[1] فويل ثم ويل للظالمين يريدون أن يسحروا أعين الناس لتغمض عن ظلمهم وتراه غير ذلك، فيقومون إلىٰ الصلاة!!! فلا يزدادون بهذه الصلاة، وهم مقيمون علىٰ الظلم والأذىٰ إلا مقتاً عند الله.. وهذا من كريم عدله سبحانه وتعالىٰ.

ولعل من الخير أن تعلم أن صاحبنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا يتناول في بيانه للناس وإرشاده لهم جانباً ويدع جانباً آخر... وإنما هي النظرات الشاملة العميقة، صنع العالم الأريب، والناصح المربي في حرص علىٰ التذكير بالآخرة، وإخلاص العمل لله عَزَّ وَجَلَّ، وحَمْلِ من ولاه الله هدايتهم إلىٰ ساحة التخلق بأخلاق عباد الله المؤمنين الذين أثنىٰ عليهم ـ سبحانه ـ في أكثر من موضع من كتابه. ها هو ذا يقول كما سمع ذلك منه الأوزاعي: «أما ما وكلكم به فتضيعون، وأما ما تكفل لكم به فتطلبون، ما هكذا نعت الله عباده المؤمنين!! أذوو عقول في طلب الدنيا، وبُله عما خلقتم له؟ فكما ترجون رحمة الله بما تؤدون من طاعة الله، فكذلك أشفقوا من عقاب الله بما تنتهكون من معاصي الله»[2]. ذلكم هو التوازن فيما يجب أن يكون عليه سلوك المؤمن الذي يفهم عن الله ما أراد، ويعمل علىٰ حسن التأسي بنبيه عليه الصلاة والسلام.

وانظروا إلىٰ هذه الكلمات النابعة من القلب، المثقلة بندىٰ الصدق والخشية من الله، المزدانة بروح العبودية لله المنعم المتفضل، تلك العبودية التي لا ملاذ للمؤمن غيرها، فعن عبد الرحمن بن أبي حوشب قال: سمعت بلال بن سعد يقول: «أربع خصال جاريات عليكم من الرحمن مع ظلمكم أنفسكم وخطاياكم، أما رزقه: فدارٌّ عليكم، وأما رحمته: فغير محجوبة عنكم، وأما ستره فسابغ عليكم، وأما عقابه: فلم يعجل لكم. ثم أنتم علىٰ ذلك لاهون تجترؤون علىٰ إلـٰهكم، أنتم تكلمون ويوشك الله تعالىٰ يتكلم وتسكتون، ثم يثور من أعمالكم دخان يسود منه الوجوه. فاتقوا يوماً ترجعون فيه إلىٰ الله ثم توفىٰ كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، عباد الرحمـٰن لو غُفرت لكم خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون شغل، ولو عملتم بما

---

(١) انظر: «الحلية»: ٥/ ٢٢٨.

(٢) «الحلية»: ٥/ ٢٣١، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ١٠/ ٤٩٤.

تعلمون لكنتم عباد الله حقاً»[١].

وفي موعظة تكاد تشم من خلال كلماتها رائحة كَبِدٍ مقروحة ملذوعة حباً لله وخشية من عقابه، وتقرأ بين سطورها ما توحي به من صدق العزيمة والزهادة في الدنيا، وعلو الهمة. يقول أجزل الله مثوبته: «عباد الرحمن لو سلمتم من الخطايا فلم تعملوا فيما بينكم وبين الله خطيئة، ولم تتركوا لله طاعة إلا جهدتم أنفسكم في أدائها إلا حبكم الدنيا لوسعكم ذلك شراً، إلا أن يتجاوز الله ويعفو. عباد الرحمـٰن إنكم تعملون في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقام، وفي دار نصب وحزن لدار نعيم وخلد، ومن لم يعمل علىٰ اليقين فلا يغتر». ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «عباد الرحمـٰن هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من أعمالكم تقبل منكم، أو أن شيئاً من خطاياكم غفر لكم ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون] والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كل ما افترض عليكم، أفترغبون في طاعة الله بتعجيل دنيا تفنىٰ عن قريب، ولا ترغبون في جنة ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد] عباد الرحمـٰن اشفقوا من الله، واحذروا الله ولا تأمنوا مكره، ولا تقنطوا من رحمته، واعلموا أن لنعم الله عندكم ثمناً فلا تشقوا علىٰ أنفسكم، أتعملون عمل الله لثواب الدنيا!! فمن كان كذلك فوالله لقد رضي بقليل حيث استعنتم علىٰ اليسير من عمل الدنيا فلم ترضوا ربكم فيها ورفضتم ما يبقىٰ لكم وكفاكم منه اليسير»[٢].

وفي زمن تذرُّ فيه الفتن بقرونها، ويعمل مرضىٰ القلوب علىٰ أن تغشىٰ قلوبَ الآخرين غاشية الزيغ، وأن يستحكم الضلال في الناس، وتصبحَ الذنوب بديل الطاعات: ندعو الله بدعاء بلال بن سعد حين يقول: «اللهم إني أعوذ بك من زيغ القلوب، ومن تبعات الذنوب، ومن مرديات الأعمال، ومضلات الفتن»[٣].

ولله الحمد في الأولىٰ والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل..

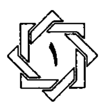
---

(١) «الحلية»: ٥/ ٢٣١، «تاريخ دمشق»: ١٠/ ٤٩٤.

(٢) «الحلية»: ٥/ ٢٣١ ـ ٢٣٢، «تاريخ دمشق»: ١٠/٤٩٣ ـ ٤٩٤.

(٣) المصدر السابق: ١٠/٤٩٩.

مع صالح المرِّي الناجي[1]



في الجعبة اليوم كلمات عن واحد من أولئك الربانيين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وبين العلم وصدق التوجه إلىٰ الله، والإخلاص في الدعوة إلىٰ سبيله وهو (صالح المري الناجي)[2].

والمري من الأعلام الذين كان لهم في تاريخنا أثر لا تبليه الأيام، غناءً بالتقوىٰ وتطلعاً إلىٰ الآخرة، وإغناءً للقلوب بكل معاني الخير والتذوق لحلاوة الإيمان: فقد أخذ رَحِمَهُ اللَّهُ عن التابعين وعاش مع القرآن بكل جوارحه، وعمل علىٰ أن يكون سلوكه طوع الكتاب والسنة؛ وتلك هي خلائق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، واستقاموا علىٰ النهج السوي، علماً وعملاً وخشية لله.

وكان طريقه إلىٰ ذلك تزكية النفس وجهادها، وحملها علىٰ الجادة بمقاييس أهل الآخرة لا بأحابيل أهل الدنيا، حتىٰ بت تراه ـ كما يقول المؤرخون لحياته ـ وهو دائم الخشية، كثير التذكار، يرمي ببصيرته إلىٰ الباقية التي لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم، لا يني يبكي علىٰ نفسه لما يرىٰ أنه تفريط في جنب الله، فالدنيا دار ممر، والآخرة دار مقر والعاقل كل العاقل ـ في نظره ـ من كان دائماً علىٰ ذكر من حقيقة هذه

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة عشرة، العدد (٢)، ربيع الآخر ١٣٩٤هـ، أيار ١٩٧٤م.

(٢) هو صالح بن بشير، أبو بشر المعروف بالمري الناجي، اشتهر بالصلاح والتقوىٰ، والإخلاص في الموعظة والقدرة علىٰ التأثير علىٰ مقال لعلماء الحديث فيه. قال ابن حبان: كان من عباد أهل البصرة وقرّائهم وهو الذي يقال له: صالح بن بشير المري الناجي، وكان من أحزن أهل البصرة صوتاً وأرقهم قراءة، غلب عليه الخير والصلاح، فضمّ إليه العلم أخلاق أهل القلوب الربانيين، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٧٢ أو ١٧٦هـ.

المرحلة التي ينقضي فيها عمر الإنسان، فلا يغره بالله الغرور، ولا يأخذه البهرج، ولا تثنيه عن الحقيقة الزخارف وإلا فأين هو من قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد].

وإذ توافر لصالح رحمه الله تلك النظرة الأخروية الخالصة، والاستعلاء علىٰ الركام والحطام مما يلهث وراءه أهل الدنيا وينسون في غمرته ربهم ودينهم... كانت قدرته علىٰ التأثير في الآخرين وتحريك قلوبهم بالموعظة، والقول البليغ أمراً عجباً، فلقد كان يعظ من حوله بالكلمة تخرج من أعماق قلبه المزدان بالضياء، والدموع الخاشعة ترسلها عيناه، فَتَهَشُّ له القلوب، وتفيض العيون ويصحو الغافل، الأمر الذي يشعرك أنه علىٰ إرث من إرث النبوة فيما يقول وفيما يعمل، وفيما يخاطب الآخرين عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام فيما روى أنس بن مالك رضي الله عنه: **«لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[1].

ويا نعم ما شهد له بذلك سفيان الثوري عليه الرحمة والرضوان، قال عبد الرحمـٰن بن مهدي: جلست مع سفيان الثوري في مسجد صالح المري،

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. «الجامع الصحيح» مع «الفتح»: ١/ ٥٦، ومسلم في الإيمان رقم (٤٥)، والنسائي باب علامة الإيمان: ٨/ ١١٥، والترمذي في صفة القيامة رقم (٢٥١٧)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة رقم (٦٦)، وفي رواية: **«حتىٰ يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير»**. قال الحافظ في «الفتح»: «والمراد بالنفي كمال الإيمان، ونفيُ اسم الشيء ـ علىٰ معنىٰ نفي الكمال عنه ـ مستفيض في كلامهم، كقولهم: فلان ليس بإنسان، فإن قيل: فيلزم أن يكون من حصلت له هذه الخصلة، مؤمناً كاملاً وإن لم يأت ببقية الأركان، أجيب بأن هذا ورد مورد المبالغة، أو يستفاد من قوله: **«لأخيه المسلم»** ملاحظة بقية صفات المسلم. وقد صرح ابن حبان من رواية ابن أبي عدي عن حسين المعلم بالمراد: ولفظه: **«لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان»** ومعنىٰ الحقيقة هنا: الكمال، ضرورة أن من لم يتصف بهذه الصفة لا يكون كافراً». «فتح الباري»: ١/ ٥٧.

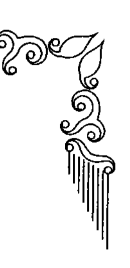
فتكلم صالح، فرأيت سفيان الثوري يبكي ويقول: «ليس هذا بقاص، هذا نذير قوم»[1]، وإنها والله للكلمة من سفيان، الكلمة الأمينة الواعية، التي يعلم رحمه الله أنه مسؤول عنها بين يدي الله رب العالمين، لما أنه في موضع القدوة للناس.

ويقول عفان بن مسلم: «كنا نأتي مجلس صالح المري نحضره وهو يقص، فكان إذا أخذ في الحديث بدا كأنه رجل مذعور يهولك أمره من حزنه وكثرة بكائه، كأنه ثكلىٰ، وكان شديد الخوف من الله كثير البكاء»[2]. ولقد نعلم أن تأثير السلوك والعمل أبلغ من تأثير القول في كثير من الأحيان، فكيف بمن جمع الله له الفضيلتين؟!!



(١) «الحلية»: ٦/ ١٦٧، «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٦٤، «تهذيب الكمال»: ١٣/ ٢٠ ـ ٢١، «تاريخ بغداد»: ٩/ ٣٠٨.

(٢) «الحلية»: ٦/ ١٦٧، «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٦٤، «تهذيب الكمال»: ١٣/ ٢٠، «تاريخ بغداد»: ٩/ ٣٠٨.



مع صالح المري الناجي[1]

كلمات أخر



سبحان الله كم كانت لأبي بشرٍ وقفات عند التذكير القرآني بالوعيد، وكم كان ينصدع قلبه للآية تحمل المؤمن إلىٰ ساحة التفكر والتدبر فيما تكون عليه العاقبة، وفيما يؤول إليه الأمر بين يدي رب العالمين؛ والقرآن بحر لا يدرك ساحله، ونور من نور الله يهدي للتي هي أقوم، وشفاء للقلوب والنفوس.

قال خلف بن الوليد: «كان صالح المري إذا تحدث قال: هات جونة المسك والترياق المجرب ـ يعني القرآن ـ فلا يزال يقرأ ويدعو ويبكي حتىٰ ينصرف»[2]. ولم لا، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٣].

ومن معين القرآن الذي لا ينضب يتحدث أبو بشر عن القيامة وأهوالها وما يؤول إليه أمر الظالمين والمعرضين، ويأخذ بنفسه وبسامعيه إلىٰ ذلك الجو البعيد عن الأوضار والشوائب، ويرقىٰ بهم عن ذلك المستوىٰ الهابط الذي يحكم إغلاقه حب الدنيا وكراهية الموت. ولا تسل عن طيب الأثر حين يجد القلب حلاوة الإيمان، فتفعل الموعظة فيه، ما يفعل الغيث العميم يهمي علىٰ الأرض العطشىٰ فتجود بالخير والنماء.

فمما يروىٰ من أخباره المؤثرة في هذا الباب ما حدَّث الحسن بن حسّان

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة عشرة، العدد (٣)، جمادىٰ الأولى ١٣٩٤هـ، حزيران ١٩٧٤م.

(٢) «الحلية»: ٦/ ١٦٧، «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٦٤.

قال: كنا يوماً عند صالح المري وهو يتكلم ويعظ الناس، فقال لشاب بين يديه: اقرأ يا بني، فقرأ الرجل: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر] فقطع عليه صالح القراءة فقال: «وكيف يكون للظالمين حميم أو شفيع؟ والطالب لهم رب العالمين وبعد أن عرض صورتهم وما يلاقون من أهوال في ذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة، ذلك اليوم الذي ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، بعد أن عرض صورتهم قال: إنك والله لو رأيتهم علىٰ ذلك لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا يستقر لعظمة هوله علىٰ قرار قدمُك. . .

ثم نحَب وصاح: يا سوء منظراه، ويا سوء منقلباه، وبكىٰ وبكىٰ الناس، وقام شاب به تأنيث فقال: أكل هذا في القيامة يا أبا بشر؟ قال نعم، والله يا ابن أخي وما هو أكبر من ذلك لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتىٰ تنقطع أصواتهم، فلا يبقىٰ منها إلا كهيئة الأنين من المدنف. وأخذت الموعظة طريقها إلىٰ قلب الشاب وحركت تلك البقية الباقية فيه من الخير فنادىٰ بأعلىٰ صوته مناجياً خاشعاً: واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة، ويا أسفاه علىٰ تفريطي في طاعتك يا سيداه، واأسفاه علىٰ تضييع عمري في دار الدنيا.

ثم بكىٰ واستقبل القبلة ثم قال: اللهم إني أستقبلك في يومي هذا بتوبة لك لا يخالطها رياء لغيرك، اللهم فاقبلني على ما كان مني، واعف عما تقدم من عمل، وأقلني عثرتي وارحمني ومن حضرني، وتفضل علينا بجودك أجمعين يا أرحم الراحمين، لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي، وإليك أنبت بجميع جوارحي صادقاً بذلك قلبي، فالويل لي إن لم تقبلني»[١].

ومن طرائف ما يروىٰ عن أبي بشر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه رأىٰ فيما يرىٰ النائم أن صحيفة دفعت إليه وفيها: ما تخوفتَ عواقبه فوطن نفسَك علىٰ أن تجتنبَه»[٢].

---

(١) «الحلية»: ٦/ ١٦٥ ـ ١٦٦، «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق: ٦/ ١٦٨.

وكان ذلك ديدنه ﷺ فهو علىٰ بينة من أمره، فسيرة العاقل تقتضيه أن يوطن نفسه علىٰ اجتناب ما يتخوف عواقبه، وإلا وقع في حبائل النفس والشيطان، وأحاطت به خطيئته وكان من الخاسرين.

من أجل هذا كان هذا الربانيُّ يأخذ هذه النفس بالصبر علىٰ الطاعة والصبر عن المعصية، ويكثر أن يدعو الله تعالىٰ أن يمن عليه بالخوف الذي يحجزه عن طريق أهل السخط، ويقويه علىٰ الطاعة والإنابة. قال أبو الحسن الباهلي: سمعت ابن عائشة يقول: كان صالح المري يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك خوفاً غير ناهض ولا قاطع، خوفاً حاجزاً عن معصيتك مقوياً علىٰ طاعتك، وأسألك صبراً علىٰ طاعتك، وصبراً عن معصيتك»(١)، وقال سعيد بن عامر: كان صالح المري يدعو: «اللهم ارزقنا صبراً علىٰ طاعتك، وارزقنا صبراً عند عزائم الأمور»(٢).

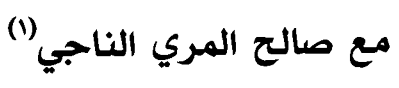
وكما كان صادقاً مع نفسه في هذا المنهج، فقد كان صادقاً مع الآخرين لا يدع أن يجد الفرصة المناسبة ليقول ما يجب أن يقوله حرصاً علىٰ أداء واجب النصح للمسلمين. قال زكريا بن يحيىٰ حدثنا الأصمعي قال: «شهدت صالحاً المري عزىٰ رجلاً بابنه فقال له: لئن كانت مصيبتك لم تحدث لك موعظة في نفسك، فمصيبتك بابنك جلل بجانب مصيبتك في نفسك، فإياها فابك»(٣).

مرة أخرىٰ: رحم الله أبا بشر، وأجزل مثوبته في الآخرين، وجزاه عن المسلمين كل خير... فلقد كان واحداً من عباد الرحمـٰن الذين عملوا بما علموا، وأخذوا أنفسهم بحزم الطاعة وعزيمة الرشد، ففازوا بمنزلة القرب من الله ورضي الله عنهم ورضوا عنه، وكان لهم في نفوس الآخرين آثار مذكورة مشكورة ما أكثر ما أعادت شارداً إلىٰ الحظيرة، وهدت ضالاً إلىٰ الطريق المستقيم، ولكم تذكرنا سيرة هؤلاء الرجال بقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٢٨] والحمد لله رب العالمين.

---

(١) «الحلية»: ٦/ ١٦٨. (٢) «الحلية»: ٦/ ١٧١.

(٣) المصدر نفسه: ٦/ ١٧١ ـ ١٧٢، «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٦٥، «السير»: ٨/ ٤٣.



مع صالح المري الناجي[1]



في عود علىٰ بدء مع متابعة لاصطحاب قبضة من كلمات العالم البَّكاء من خشية الله: نذكر ما روىٰ محمد الجوهري عن غسان أبي معاوية الغلابي أنه قال: «كان كلام صالح المري يقطِّع القلب، ولو قلت: إني لم أر رجلاً محزوناً مثله، وما سَمِعْتُ كلام رجل قط أحسن منه»[2] ولعل أبا معاوية أراد أنه لا يعدو الحقيقة فيما يقول، وليس في هذه المقولة أية مغالاة!!

ولقد صدَّق الخبرَ الخبرُ في هذه الشهادة الرفيعة القدر؟ ها هو ذا يديم التمثل - كما يقول أحمد بن إسحاق الحضرمي - بهذا البيت في قصصه عند الأخذة:

«وغائبُ الموت لا ترجون رجعته إذا ذوو غيبة من سفرة رجعوا

قال: ثم يبكي ويقول: هو والله السفر البعيد، فتزودوا لمراحله: ﴿... فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ...﴾ [البقرة: ١٩٧] واعلموا أنكم في مثل أمنيتهم، فبادروا الموت واعملوا له قبل حلوله، ثم يبكي»[3].

وهذا يذكِّر باستغرابه وتعجبه من أولئك المستيقنين برحلة المعاد، ووجوب التزود لتلك الرحلة بزاد من التقىٰ وحسن الصلة بالله ﷻ، ثم تقعدهم الغفلة عن ذلك، يقول أجزل الله مثوبته: «يا عجباً لقوم أمروا بالزاد، وأوذنوا بالرحيل، وحبس أولهم عن آخرهم وهم يلعبون».

وقد مرَّ بنا من قبل قول العالم الرباني سفيان الثوري رحمه الله في شأن

---

(١) «حضارة الإسلام».
(٢) «الحلية»: ٦/١٦٩.
(٣) «الحلية»: ٦/١٦٨.

صالح المري: ليس هذا بقاص، هذا نذير قوم. ولذلك قصة نوردها كما أوردها ابن الجوزي في «صفة الصفوة» فقال: قال عبد الرحمٰن بن مهدي: كنت أذكر صالحاً المريَّ لسفيان ـ يعني الثوريَّ ـ فيقول: القصص القصص! كأنه يكرهه؛ فكان إذا كانت له حاجة بكَّر فيها، فبكَّر يوماً وبكَّرت معه، فجعلت طريقنا علىٰ مسجد صالح المري، فقلت: يا أبا عبد الله! ندخل فنصلي في هذا المسجد، فدخل، فصلينا، وكان يوم مجلس صالح؛ فلما صلَّوا ازدحم الناس، فبقينا لا نقدر أن نقوم، وتكلَّم صالح، فرأيت سفيان يبكي بكاءً شديداً؛ فلما فرغ وقام قلت له: يا أبا عبد الله! كيف رأيت هذا الرجل؟ فقال: «ليس هذا بقاصٍّ، هذا نذير قوم»[1] أرأيت إلىٰ آراء أهل المعرفة؟! وأهلية سفيان الثوري للحكم الذي أطلقه علىٰ صالح لا تخفىٰ علىٰ ذي بصيرة!!

ومن تذكيره بوجوب تزكية النفس وتربيتها علىٰ استشعار الخطر إذا حلَّت الغفلة عن أحقية الرحيل ووجوب الاستعداد له يقول ـ كما حدّث ميمون النجدي: «وكيف تقرُّ بالدنيا عين من عرفها؟ قال: ثم يبكي ويقول: خلفة الماضين، وبقية المتقدمين، رحِّلوا أنفسكم عنها قبل الرحيل، فكأن الأمر قريب نزل بكم»[2].

وقال عمار بن عثمان الحلبي: سمعت صالحاً يقول: «ما بينك وبين أن ترىٰ لله عليك فيما تحب، إلا أن تعمل فيما بينك وبين خلقه فيما يحب؛ فحينئذ لا تفقد بره، ولا تعدم في كل أمر خيره»[3].

وكل هذا الذي يدعو إليه أبو بشر: لا بد له من علو الهمة وصدق العزيمة، وحسن الصلة بمن بيده ملكوت السماوات والأرض، الذي خلق فسوَّىٰ وقدّر فهدىٰ؛ لذا ـ كما مر بنا من قبل ـ كان رحمه الله حفياً دائماً بالدعاء المحزون، واللجأ المنوَّر بيقظة القلب، طلباً للتفضل بالمعونة من البارئ الحكيم؟ ذلكم قوله في دعائه: «اللهم إني أسألك خوفاً غير ناهض ولا قاطع،

---

(١) وانظر: «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٦٤.
(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٢٦٥.
(٣) «الحلية»: ٦/ ١٧١.

خوفاً حاجزاً عن معصيتك، مقوياً علىٰ طاعتك، وأسألك صبراً علىٰ طاعتك، وصبراً عن معصيتك»، ويقول سعيد بن عامر: كان صالح المري يدعو: «اللهم ارزقنا صبراً علىٰ طاعتك، وارزقنا صبراً عند عزائم الأمور»[1].

وهذه الكلمات والدعوات من أبي بشر: ليست كلاماً للظهور والتباهي، ولا لعقة باللسان لتزجية الوقت، ولكنها نابعة من قلبِ عابد زاهد أكرمه الله بخشوع القلب، وكثرة البكاء، وصدق الضرع إليه سبحانه، وأصبح الكلُّ يستشهد بشهادة سفيان الثوري ـ وما أدراك ما سفيان الثوري ـ التي سداها ولحمتها قوله ـ جزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير ـ في صالح المري: ليس هذا بقاصٍ، هذا نذير قوم.

ومن الجدير بالذكر: أن أبا بشر كان دائماً علىٰ حال يستشعر معها عظمة الله، ووجوب النصح للخاصة والعامة عملاً بالهدي المحمدي في ذلك، جاء في «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير: «وقد استدعاه المهديُّ ليحضر عنده، فجاء راكباً علىٰ حمار، فدنا من بساط الخليفة، فأمر المهديُّ ابنيه ـ وليَّي العهد، موسىٰ الهادي وهارون الرشيد ـ فابتدرا إليه، لينزلاه عن دابته، فأقبل صالح علىٰ نفسه فقال: لقد خبتُ وخسرتُ إن كنت عملت لهذا اليوم ـ وفي رواية: إن داهنت ولم أصدع بالحق في هذا اليوم وفي هذا المقام ـ ثم جلس إلىٰ المهديِّ فوعظه فقال له: اعلَمْ أن رسول الله ﷺ خصم من خالفه في أمته، ومن كان محمد ﷺ خصمَه كان الله خصمَه؟ فأعِدَّ لمخاصمة الله، ومخاصمة رسوله ﷺ حججاً تضمن لك النجاة، وإلا فاستسلم للهلكة. واعلم أن أبطأ الصرعىٰ نهضةً: صريعُ هوىً يدَّعيه إلىٰ الله قُربَةً، وأنَّ أثبت الناس قدماً يوم القيامة آخَذُهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. في كلام طويل، فبكىٰ المهديُّ وأمر بكتابة ذلك في دواوينه»[2] ونقع عند ابن الجوزي في «المنتظم» علىٰ كلام لأبي بشر ذي نسب لتلك الزيارة، حيث جاء هناك: حدثني أبو نعيم بن أعين قال: قال صالح المري: دخلت علىٰ المهدي، فقلت: يا أمير

---

(١) «تاريخ بغداد»: ٩/٣٠٨ ـ ٣٠٩، «الحلية»: ٦/ ١٧٠ و١٧١، «المنتظم»: ٩/ ٢٤.
(٢) «البداية والنهاية»: ١٣/٥٨٨ ـ ٥٨٩.

المؤمنين احمِل لله ما أكلمك به اليوم؛ فإن أولىٰ الناس بالله أحملهم لغلظة النصيحة فيه، وجدير بمن له قرابة من رسول الله ﷺ أن يرث أخلاقه، ويأتمَّ بهديه، وقد ورثك الله من فهم العلم ميراثاً قطع به عذرك، واعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالفه في أمته، ومن كان محمد خصمَه: كان الله خصمَه؛ فأعتِد لمخاصمة الله، ومخاصمةِ رسوله حججاً تضمن لك النجاة أو استسلم للهلكة، واعلم أن أبطأ الصرعىٰ نهضةً صريعُ هوىً يدَّعيه إلىٰ الله قربة، وأن أثبت الناس قدماً يوم القيامة آخَذُهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فمثلك لا يكاثِر بتجديد المعصية ولكن تتمثل لك الإساءة إحساناً أحياناً، ويشهد لك عليها خونَة العلماء، وبهذه الحِبالةِ تصيَّدت الدنيا نظراءَك، فأحسن الحَملَ فقد أحسنتُ إليك الأداءَ.

قال: فبكىٰ المهدي.

قال أبو همام: فأخبرني بعض الكتّاب، أنه رأىٰ هذا الكلام مكتوباً في دواوين المهدي[1].

هذا: ونزولاً عند رغبة عدد من قراء «حضارة الإسلام» سوف نعيد إن شاء الله قصة صالح المري مع الشاب الذي تاب، ولكن كاملة وبرواية ابن قدامة المقدسي عن رجاء بن ميسور المجاشعي، وإليكموها فيما يأتي.



(١) «المنتظم» لابن الجوزي: ٩/ ٢٥ ـ ٢٦.

مع صالح المري الناجي(١)



حدّث ابن قدامة المقدسي عن رجاء بن ميسور المجاشعي قال: كنا في مجلس صالح المري وهو يتكلم. فقال لفتىً بين يديه: اقرأ يا فتىٰ! فقرأ الفتىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر] فقطع صالح عليه القراءة وقال: كيف يكون لظالم حميم أو شفيع، والمطالب له رب العالمين؟ إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأنكال إلىٰ الجحيم حفاة عراة مسودة وجوههم مزرقة عيونهم ذائبة أجسادهم، ينادون: يا ويلنا! يا ثبورنا! ماذا نزل بنا؟ ماذا حلّ بنا؟ أين يذهب بنا؟ ماذا يراد منا؟ والملائكة تسوقهم بمقامع النيران، فمرة يجرون علىٰ وجوههم ويسحبون عليها منكبين، ومرة يقادون إليها مقرنين من بين باك دماً بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت إنك والله لو رأيتهم علىٰ ذلك لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا تستقر لفظاعة هوله علىٰ قرار قدمك! ثم نحب وصاح: يا سوء منظراه يا سوء منقلباه! وبكىٰ، وبكىٰ الناس. فقام فتىً من الأزد كان به تأنيث، فقال: أكل هذا في القيامة، يا أبا بشر؟ قال: نعم والله، يا ابن أخي، وما هو أكثر! لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتىٰ تنقطع أصواتهم، فما يبقىٰ منها إلا كهيئة الأنين من المدنف. فصاح الفتىٰ: إنا لله! واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة! واأسفا علىٰ تفريطي في طاعتك يا سيداه! واأسفا علىٰ تضيعي عمري في دار الدنيا!

---

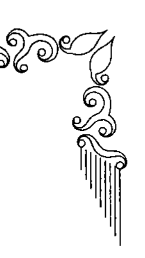
(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة، العددان (٣ و٤)، جمادىٰ الأولىٰ والآخرة ١٣٨٥هـ، أيلول ـ تشرين الأول ١٩٦٥م.

ثم بكىٰ، واستقبل القبلة، فقال: اللهم! إني أستقبلك في يومي هذا بتوبة لا يخالطها رياء لغيرك، اللهم! فاقبلني علىٰ ما كان فيَّ، واعف عما تقدم من فعلي وأقلني عثرتي، وارحمني ومن حفدني وتفضل علينا بجودك وكرمك، يا أرحم الراحمين! لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي، وإليك أنبت بجميع جوارحي صادقاً لذلك قلبي، فالويل لي إن لم تقبلني!

ثم غلب فسقط مغشياً عليه، فحمل من بين القوم صريعاً. فمكث صالح وإخوته يعودونه أياماً. ثم مات ـ والحمد لله ـ فحضره خلق كثير يبكون عليه ويدعون له. فكان صالح كثيراً ما يذكره في مجلسه فيقول: وبأبي قتيل القرآن، وبأبي قتيل المواعظ والأحزان! قال: فرآه رجل في منامه، قال: ما صنعت؟ قال: عمتني بركة مجلس صالح فدخلت في سعة رحمة الله التي وسعت كل شيء..[1].

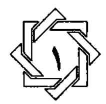


(١) وينظر: «الحلية»: ٦/ ١٦٥ ـ ١٦٦، «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٦٢ وقد مرت هذه القصة بأقصر من هذا برواية أخرىٰ من قبل، وأورد هذه الرواية هنا ابن قدامة في كتاب «التوابين»: ص٢٥٠ فما بعد.



الرجل الرباني

حسَّان بنُ عَطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)



أحمد الله تبارك وتعالىٰ وأصلي وأسلم علىٰ خير أنبيائه محمد وعلىٰ آله وصحابته ومن سلك نهجهم إلىٰ يوم الدين.

من عباد الرحمـٰن الذين كان لهم شأن علىٰ طريق الوجود الذاتي للأمة، والإنماء لحياتها الخيِّرة بالكثير الكثير من الضياء إيماناً ووعياً وصلاح نفس وقلب: الرجل الرباني والإمام الحجة أحد أعلام الأمة الثقة الفقيه حسان بن عطية أبو بكر المحاربي، مولاهم الدمشقي، وقيل: كان من أهل بيروت، حدّث عن: أبي أمامة الباهلي، وسعيد بن المسيب، وأبي كبشة السلولي وطائفة. وحدّث عنه: الأوزاعي، وأبو معبد حفص بن غيلان، وأبو غسان محمد بن مطرف وآخرون. وثقه أحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين.

كان عصر الرجل يموج بالكثير من الأفكار والتيارات، فلم يعجزه أن يكون علىٰ غاية الوعي في موقف المواجهة، وأن يكون عنواناً للاستقامة، والتقرب بالعبادة إلىٰ الله زلفىٰ. قال الأوزاعي: ما رأيت أحداً أكثر عملاً في الخير من حسان بن عطية(٢).

كان يزين حياته وسلوكه العمل الصالح الدائب علىٰ المنهج النبوي الكريم في إطار من العلم والمعرفة التي تجعل من عبادة العابد عملاً بالعلم،

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة عشرة، العدد (٤)، جمادىٰ الآخرة ١٣٩٤هـ، تموز ١٩٧٤م.

(٢) «السير»: ٥/ ٤٦٧.

وتزكية للنفس، وسيراً علىٰ طريقة السلف الذين اغترفوا من معدن النبوة، واستمسكوا بحبل الله المتين، وكانت خلائقهم الأنموذج القرآني فيما أدب به الإنسان، وحمله إلىٰ طريق الجنة التي أعدت للمتقين.

أسند ابن عطية في روايته لحديث رسول الله ﷺ عن أنس بن مالك وشداد بن أوس، كما روىٰ عن عدد من التابعين منهم: سعيد بن المسيب، ومحمد بن أبي عائشة، ومحمد بن المنكدر ونافع وأبي الأشعث الصنعاني رضي الله عنهم أجمعين(١).

ولقد شهد له بالفضل وصلاح العمل العديد من أعلام هذه الأمة الذين تسطر شهاداتهم بماء الذهب حتىٰ قال الأوزاعي رضي الله عنه ـ كما أسلفنا ـ «ما رأيت أحداً أكثر عملاً منه في الخير من حسان بن عطية»(٢).

ومن الوقائع التي ذكرها الأوزاعي ما جاء في قوله: كان حسان بن عطية ينتحي إذا صلىٰ العصر في ناحية المسجد فيذكر الله حتىٰ تغيب الشمس»(٢).

ولا شك أن كثرة الذكر كما أرادها الكتاب والسنة توصل صاحبها إلىٰ الفلاح ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة]. وآية ذلك أن تتفجر ينابيع الحكمة علىٰ لسان الذاكر الصادق الخاضع قلبه، لذا لم يكن بدعاً أن نرىٰ ابن عطية رحمه الله يمدنا في هذا المجال بكلمات هي في أصالتها ونورها أشبه أن تكون من ميراث النبوة.

ففي شأن قيام الليل ـ وهو روضة المحبين الذين تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ـ قال رضي الله عنه: «من أطال قيام الليل هان عليه طول القيام يوم القيامة»(٣).

وفي دعوته إلىٰ الخشوع في الصلاة، وبيان ما يكون من الفارق بين الخاشع والغافل يقول: «إن القوم ليكونون في الصلاة الواحدة، وإن بينهم كما

---

(١) وينظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ١٢/٤٤١.

(٢) «الحلية»: ٦/٧٠، «صفة الصفوة»: ٤/١٩٤، «السير»: ٥/٤٦٧، «تاريخ دمشق»: ١٢/١٤١.

(٣) «الحلية»: ٦/٧٠، «صفة الصفوة»: ٤/١٩٥، «تاريخ دمشق»: ١٢/١٤١.

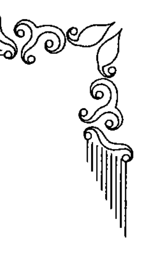
بين السماء والأرض. وتفسير ذلك: أن الرجل يكون خاشعاً مقبلاً علىٰ صلاته، والآخر ساهياً غافلاً»[1].

وفي فهم صادق للترابط بين الإيمان والعمل، وأنه لا يجوز أن يفترقا، كان أجزل الله مثوبته لا يدع أن ينبه علىٰ موقف القرآن من هذه النقطة البالغة الأهمية، ومن ذلك ما رواه الأوزاعي قال: حدثني حسان أن الإيمان في كتاب الله صار إلىٰ العمل فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال]. ثم صيرهم إلىٰ العمل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال][2].

ومن ذلك: تلك القاعدة النورانية التي أرساها في شأن الذكر والذاكرين الصادقين حين قال: «ما عادىٰ عبد ربه بأشد من أن يكره ذكره ومن ذكره»[3].



(١) «الحلية»: ٦/ ٧١، «تاريخ دمشق»: ١٢/ ١٤١.
(٢) «الحلية»: ٦/ ٧١.
(٣) «الحلية»: ٦/ ٧٢.



حسان بن عطية[1]

كلمات أخر



في حديث موصول عن هذا الرجل الرباني أود الإشارة إلىٰ تلك المآثر التي ألمحنا إلىٰ بعض منها فيما سبق من سلامة مواقفه في مواجهة الآراء المطروحة يومذاك، مجتزئاً بما ذكر عبد الملك بن محمد الصنعاني أنه سمع الأوزاعي يقول: «قدم علينا غيلان القدري في خلافة هشام بن عبد الملك، فتكلم غيلان وكان رجلاً مفوهاً، فلما فرغ من كلامه قال لحسان: ما تقول فيما سمعت من كلامي؟ فقال له حسان: «يا غيلان إن يكن لساني يكل عن جوابك، فإن قلبي ينكر ما تقول». وحدث محمد بن كثير عن الأوزاعي أيضاً قال: قال حسان بن عطية لغيلان القدري: «أما والله لئن كنت أعطيتَ لساناً لم نُعطه، إنا لنعرف باطل ما تأتي به»[2].

ألا ما أجمل أن يجتمع للمسلم العلم مع العمل، وما أكرم أن تكون العبادة علىٰ فقه في دين الله بالكتاب والسنة، ووعي لما يكون هناك من الآراء والأفكار التي تقتحم علىٰ العالِم موطنه، وعلىٰ العابد محرابه، وموضع تبتله.

وانظر إليه في تحديده لخصال هي فيض مخالطته للقرآن، ولحديث النبي عليه الصلاة والسلام، ذلكم قوله: «خمس من كن فيه فقد جمع الله له الإيمان: النصيحة لله ولرسوله، وحب الله ورسوله، ومن بذل للناس من نفسه الرضا وكف عنهم السخط، ومن وصل ذا رحمه، ومن كان ذكره في السر

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة عشرة، العدد (٥)، رجب ١٣٩٤هـ، آب ١٩٧٤م.

(٢) انظر: «الحلية» لأبي نعيم الأصبهاني: ٦/ ٧٢.

كذكره في العلانية سواء»[1].

هذا: وبقدر ما كان عاملاً بالسنة ناصراً لها، كان حرباً علىٰ البدعة والمبتدعين قال رضي الله عنه منذراً محذراً: «ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ولا يعيدها إليهم إلي يوم القيامة»[2]. وفي جملة من أدعيته، وحسن تضرعه إلىٰ مولاه: ما يكشف عن صفاء نفسه، وتذوقه حلاوة الإيمان وامتلاء قلبه خشيةً وحباً لله تعالىٰ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون. وصدق الله جل وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

لقد كان من دعائه إذا أمسىٰ قوله: «الحمد لله الذي ذهب بالنهار وجاء بالليل سكناً، نعمة منه وفضلاً. اللهم اجعلنا لك من الشاكرين. الحمد لله الذي عافاني في يومي هذا، فرب مثلي قد ابتلي فيما مضىٰ من عمري. اللهم عافني فيما بقي منه، وفي الآخرة، وقنا عذاب النار» وإذا أصبح قال مثل ذلك، إلا أنه يقول: وجاء النهار مبصراً»[3].

ومما كان يدعو به أيضاً ما روىٰ الأوزاعي أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من شر الشيطان ومن شر ما تجري به الأقلام، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة لغيري، وأعوذ بك أن تجعل غيري أسعد بما آتيتني مني. وأعوذ بك أن أتقوت بشيء من معصيتك عند ضر ينزل بي، وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك، وأعوذ بك أن أقول قولاً ابتغي به غير وجهك. اللهم اغفر لي فإنك بي عالم، ولا تعذبني فإنك علي قادر» لفظهما سواء[4].

وعلىٰ كل ما كان يتسم به من الرحمة بعباد الله، والرأفة بهم، كان لا يعرف المهادنة مع الظلم والظالمين، وأوضح ما يكشف عن ذلك قوله: «يعذب الله الظالم بالظالم ثم يدخلهما النار جميعاً»[5].

---

(١) «الحلية»: ٦/ ٧٤.

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ١٢/ ٤٣٧ ـ ٤٤٠.

(٣) المصدر السابق: ١٢/ ٤٤٢، «الحلية»: ٦/ ٧٣.

(٤) «الحلية»: ٦/ ٧٣ ـ ٧٤، «صفة الصفوة»: ٤/ ١٩٤.

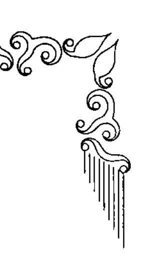
(٥) المصدر السابق: ٦/ ٧٤.

وفي خاتمة المطاف: إنك واجد في حياة هذا الرجل نبعاً من العطاء الذي نحن اليوم بأمس الحاجة إليه، بعد أن أصاب النفوس ما أصابها من الجدب، وظاهَرَ الكثير من الأمة عن أمر الله، وأصبح الإيمان عند هؤلاء وأضرابهم: دعوىٰ بلا دليل. وثالثة الأثافي: ما يرىٰ الناظر في طول عالمنا الإسلامي وعرضه ـ خلا من رحم ربك ـ من ذلك الانفصام بين العلم والعمل، وبين العقيدة والسلوك.

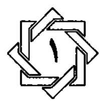
ألا إن كل واحد من هؤلاء الربانيين حجة من الله علىٰ خلقه، في أن يستأنفوا الطريق، فيلجموا هذه الأنفس عن الغي، ويُقلعوا عن التفريط في جنب الله، ويخبتوا إلىٰ ربهم ذاكرين قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف].

وإنا لندعو الله تبارك وتعالىٰ أن يكرم مثوىٰ حسان بن عطية، وأن يعلي مقامه عنده مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وهو ـ جل شأنه ـ المحمود علىٰ كل حال.





مع عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ(1)



إنه علم من أعلام الدنيا في تاريخ المسلمين، وواحد من كبار الربانيين فيهم، جمع الله له خصال الخير من أطرافها، فرأيت العلم والعمل، والشعر والحكمة والتصانيف الحسان، والشجاعة والبذل، والزهادة والجهاد، وحسن الأحدوثة والورع، والعبادة الخالصة بجميع ألوانها ووجوهها. ذلكم هو الإمام الرباني عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم، أبو عبد الرحمٰن المروزي. روىٰ عن كثيرين، منهم: سليمان التيمي، وحميد الطويل، وإسماعيل بن أبي خالد، ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري، والثوري، وشعبة، والأوزاعي. وروىٰ عنه كثيرون منهم: معمر بن راشد، وأبو إسحاق الفزاري، وفضيل بن عياض، وأبو بكر بن عياش وغيرهم من شيوخه وأقرانه، ونعيم بن حماد، وابن مهدي، والقطان، وإسحاق بن راهويه، ويحيىٰ بن معين، وخلق. وحديثه حجة بالإجماع وهو في المسانيد والأصول وكان دائماً من أهل الغزو والمرابطة في سبيل الله(2).

ولد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كما يقول أحمد بن حنبل ـ: سنة ثمان عشرة ومائة. وقال ابن سعد في «الطبقات»: مات بهيت منصرفاً من الغزو سنة إحدىٰ وثمانين ومائة وله ثلاث وستون سنة(3). وأبو عبد الرحمٰن رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وهو حسنة من

---

(1) «حضارة الإسلام»، السنة العشرون، العددان (٥ و٦)، رجب وشعبان ١٣٩٩هـ، حزيران وتموز ١٩٧٩م.

(2) «الحلية»: ٨/ ١٦٢، «صفة الصفوة»: ٤/١٠٨ ـ ١٠٩، «السير»: ٨/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧، «الجرح والتعديل»: ٥/١٧٩ ـ ١٨٠، «البداية والنهاية»: ١٣/ ٦١٠.

(3) «الطبقات الكبرىٰ»: ٥/ ٣٧٢، «السير»: ٨/ ٣٦٦، «البداية والنهاية»: ١٣/ ٦١٠، «المنتظم» لابن الجوزي: ٩/ ٥٨ ـ ٥٩.

حسنات الإسلام ـ وصل به علمه وتثبته وتحقيقه إلىٰ أن يكون من كبار الأئمة المعدودين في دنيا سعة العلم وصالح العمل في الإسلام. قال عبد الرحمٰن بن مهدي: «الأئمة أربعة: الثوري، وحماد بن زيد، ومالك، وابن المبارك»[(١)].

ولقد ارتفعت به ربانيته، وما كان من تكامل أخلاقه في العلم والعمل والجهاد وتقوىٰ الله في كل شاردة وواردة، إلىٰ أن يوضع لكلامه ومنهجه في الحياة القبول في الأرض، وأن يكون أهلاً لثقة من كلمتهم هي الكلمة، حتىٰ قال سفيان: إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل ابن المبارك فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام[(٢)]. وعندما نعي ـ أجزل الله مثوبته ـ إلىٰ سفيان بن عيينة قال: لقد كان فقيهاً، عالماً، عابداً، زاهداً، سخيّاً، شجاعاً، شاعراً[(٣)].

والفضيل بن عياض ـ وهو من هو في صفاء نفسه وحرصه علىٰ العلم والعمل ـ يقول في ابن المبارك بعد موته: أما إنه لم يخلف بعده مثله[(٤)].

ورجال الحديث الذين عُنوا بالجرح والتعديل، وباتوا علىٰ معرفة بالرجال، من يقبل حديثه ومن لا يقبل، ومن يؤخذ من علمه، ومن لا يؤخذ، كان كلامهم في ابن المبارك من خير ما يقال في التوثيق والتعديل؛ حتىٰ قال يحيىٰ بن معين فيه: كان عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ كيّساً مستثبتاً وكان عالماً صحيح الحديث[(٥)]. وقال أيضاً: ابن المبارك سيد من سادات المسلمين[(٦)].

وهذا من ابن معين، واحد من الأدلة الناصعة في تاريخنا العلمي علىٰ سلامة المنهج الذي سلكه أئمتنا في نقل حديث رسول الله ﷺ بل وفي نقل جميع أبواب المعرفة، وذلك ما تفردت به أمتنا عن سائر أمم الأرض

---

(١) «السير»: ٨/ ٣٤٣، وجميل قول أبي نعيم في «الحلية»: ٨/ ١٦٢: ومنهم السخي الجواد، الممهد للمعاد، المتزوّد من الوداد، أليف القرآن والحج والجهاد، جاد فساد، وروجع فزاد، ما له مشارَك، وفعله مبارك وقوله مبارك.. عبد الله بن المبارك رضي الله عنه.

(٢) «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٣٤٤.

(٣) «تهذيب الكمال»: ١٦/ ١٦.

(٤) «حلية الأولياء»: ٨/ ١٦٤.

(٥) «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٣٤٧.

(٦) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

والحمد لله. ولقد رأينا من قبل كلام ابن المهدي فيه من هذه الزاوية.

إن عبد الله بن المبارك ذلك العالم الرباني، والإمام الذي جمع الله له خصال الخير، واحد من المعالم المضيئة علىٰ طريق هذه الأمة، فقد أعطىٰ المثل الصالح للقدوة الحسنة المأمونة في أن العالم الحق، هو من كان علىٰ المورد العذب الزلال في علمه تثبتاً وتحقيقاً وأخذاً بما قام عليه الدليل، ثم الصدق في أداء أمانة العلم وتحميلها لمن هم أهل لحملها بأسلم الطرق وأوثقها.. كل هذا مع خشية الله التي تحمل على العمل بالعلم، وأداء حق الله فيه.

وليس ذلك فحسب: بل ضم إلىٰ ذلك الغزوَ في سبيل الله، والاستقامة علىٰ طريقِ الحق عبادة وتقوىً وسلوكاً، هو الصورة الناطقة للعالم العامل، والإمام الرباني المجاهد. ولقد كان إسماعيل بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ أميناً كل الأمانة فيما أعطىٰ من تعريف موجز بابن المبارك حين قال[1]: ما علىٰ وجه الأرض مثل ابن المبارك، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه.

ولنا ـ إن شاء الله ـ عودة إلىٰ الاستنارة بالحديث عن هذا الإمام الرباني، الذي كان له الأثر الكبير في الأمة علىٰ ساحة العلم والعمل، والنصح للأمة، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما هو من ذلك كله بسبيل.



(١) «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٣٤١.



مع عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ[1]

كلمات أخر



رأينا في سطور مضت ما قاله العلماء الأثبات في هذا الإمام الرباني العظيم، ونتابع الحديث في هذه العجالة لنرىٰ أيَّ معلم من معالم الهدىٰ كان هذا الرجل في حياة أمتنا، وأي عنوان من عناوين الفضل وتقوىٰ الله وصلاح النفس كان هذا العالم الرباني الذي لم تكن حياته مقصورة علىٰ العلم والرواية فحسب، وإنما كانت حياة زاخرة بالعمل والجهاد، والتحرك بالعبادة علىٰ كل الساحات التي تمثل قدرة الإسلام في أبنائه، علىٰ استيعاب كل شؤون الحياة علماً وعملاً وجهاداً وإنفاقاً في سبيل الله عندما يكون المسلم مسلماً بحق.

وهكذا يبدو أن صلاح الرجل، واستقامته علىٰ ما أكرمه الله به من إرث النبوة، في حرص علىٰ إشاعة حقائق الإسلام وخصاله في الناس، كل ذلك قد بلغ به ـ بفضل الله تعالىٰ ـ أن يكون واحداً من مجابي الدعوة شهد بذلك عيسىٰ بن محمد بن عيسىٰ فقال: حدثنا العباس بن مصعب قال: حدثني بعض أصحابنا قال: سمعت أبا وهب يقول: «مر ابن المبارك برجل أعمىٰ فقال: أسألك أن تدعو الله أن يرد عليّ بصري، فدعا الله فرد عليه بصره وأنا أنظر»[2]. هكذا شهد أبو وهب إجابة الدعوة بنفسه وما ذلك علىٰ الله بعزيز، ونصوص الكتاب والسنة تشهد لمثل هذا، وإذا لم يكن العالم العامل المجاهد الورع الزاهد ـ علىٰ وفرة المال لديه ـ الداعية إلىٰ الله بقوله وعمله وسلوكه،

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة العشرون، العدد (٧)، رمضان ١٣٩٩هـ، آب ١٩٧٩م.

(٢) «تاريخ بغداد»: ١٠/ ١٦٧.

من أهل الكرامة عند الله فمن يكون؟ والله تعالىٰ يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس].

والعلم إذا لم ترافقه الخشية، ويزينه العمل والخلق، ينبو بصاحبه عن طريق الخير والعياذ بالله، من أجل هذا كان ما اجتمع لابن المبارك من الفضائل مع العلم: عنواناً بارزاً علىٰ ربانيته، وإمامته في الصالحين. قال ابن حبان في «الثقات»: كان فيه خصال لم تجتمع في أحد من أهل العلم في زمانه في الأرض كلها[1]. وقال النسائي: لا نعلم في عصر ابن المبارك أجلّ من ابن المبارك، ولا أعلىٰ منه ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه. ولقد أشرت من قريب إلىٰ زهده مع وفرة المال بين يديه، وذلك مؤيد بما عرف عنه من التجارة والثراء، وأن الإنفاق في سبيل الله علىٰ الغزاة، وحجاج بيت الله، والفقراء، كان واحداً من طرق العبادة وقربة من القرب عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ. قال علي بن الحسن بن شقيق: بلغنا أن عبد الله بن المبارك قال للفضيل بن عياض: «لولا أنت وأصحابك ما اتجرت»[2]. ومعلوم أن الفضيل وأصحابه كانوا علىٰ حال من الفقر، ويغلب عليهم الانصراف إلىٰ العلم والعمل وتزكيه النفس. فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ معاونتهم فيما هم فيه، وإن كان الغزو في سبيل الله يأتي عنده في المقام الأول من العبادات بعد الفريضة ـ كما يأتي إن شاء الله ـ وقد بلغ من إنفاقه علىٰ الفقراء أن قال علي بن الحسن بن شقيق أيضاً: كان ينفق علىٰ الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم[3].

ومع ما وضع لكلامه من القبول في الأرض، أسبغ الله عليه الهيبة مع وافر الحياء، والذوق الرفيع، قال يحيىٰ بن يحيىٰ الأندلسي: كنا في مجلس مالك، فاستؤذن لابن المبارك، فأذن، فرأينا مالكاً تزحزح له في مجلسه، ثم أقعده بلصقه، ولم أره تزحزح لأحد في مجلسه غيره. وكان القارئ يقرأ علىٰ مالك، فربما مر شيء فيسأله مالك: ما عندكم في هذا؟ فكان عبد الله يجيبه بالخفاء.

---

(١) «الثقات» لابن حبان: ٧/ ٧ ـ ٨.

(٢) «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٣٤١ ـ ٣٤٢. (٣) المصدر السابق: ٨/ ٣٤٢.

ثم قام فخرج، فأعجب مالك بأدبه، ثم قال لنا: هذا ابن المبارك فقيه خراسان[1].

أرأيت ـ يا أخي القارئ: إلىٰ العلم والهيبة، والأدب والحياء!! ابن المبارك ـ علىٰ جلالة قدره ـ يتأدب بأدب الإسلام، فيستأذن قبل الدخول، ولا يدخل حتىٰ يؤذن له، ومالك رَحِمَهُ اللَّهُ يتزحزح له ـ علىٰ غير عادته ـ ويقعده بلصقه، وهذا منتهىٰ إكرام أهل الفضل لأهل الفضل، ولا يعرف الفضل إلا ذووه.

وبعد هذا: ألا ترىٰ إلىٰ خلق مالك ـ وهو إمام أهل المدينة ـ في سؤاله ضيفه ابن المبارك، بهذا الأسلوب المهذب الرفيع: ما عندكم في هذا؟ وبأدب جم يحمل كلَّ تواضع العالم الكبير، يجيب ابن المبارك ولكن بالخفاء، يعني بهمس لا يسمعه إلا الإمام مالك.

ويكتفي مالك بما حصل في المجلس، ولكن بعد خروج العالم الأديب الأريب الثقة: فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ لأصحابه: هذا ابن المبارك فقيه خراسان.

هذا هو عبد الله بن المبارك في هذه الكلمات اليسيرة التي لا تعدو أن يكون لمحة من مآثر لا تتسع لها مئات الصفحات، أجل هذا هو الرجل الرباني الذي قال فيه الحكم النيسابوري: هو إمام عصره في الآفاق، وأولاهم بذلك علماً وزهداً وشجاعة وسخاء ومن أجل ذلك قال الأسود بن سالم: إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك فاتهمه علىٰ الإسلام[2].

ألا وإن من حقه علينا أن لا نغادر هذه العجالة من القول فيه حتىٰ نورد واحدة من مآثره علىٰ ساحة الجهاد في سبيل الله، بعيداً عن الرياء. قال محمد بن المثنىٰ: حدثنا عبد الله بن سِنَان قال: كنت مع ابن المبارك، ومعتمر بن سليمان بطَرَسُوس، فصاح الناس: النفير، فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطف الجمعان، خرج رومي فطلب البِراز، فخرج إليه رجل فشدَّ العِلْجُ فقتله، حتىٰ قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين

---

(١) «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٣٧١.

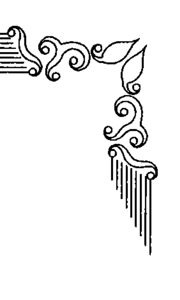
(٢) المصدر السابق: ٨/ ٣٥٠.

يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إليَّ ابن المبارك فقال: يا فلان، إن قُتِلتُ فافعل كذا وكذا، ثم حرَّك دابته، وبرز للعِلْج، فعالج معه ساعة، فقُتل العِلْجَ، وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر، فقتله، حتىٰ قتل ستة عُلوج، وطلب البراز، فكأنهم كاعوا[1] عنه، فضرب دابته، وطرد بين الصفين، ثم غاب فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله لئن حدَّثتَ بهذا أحداً، وأنا حيٌّ، فذكر كلمة[2]!!

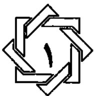


(١) كاعوا: جبنوا، والكاعي: المنهزم.

(٢) «السير»: ٨/ ٣٦١.



مع الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ[1]



ليست هذه ترجمة تحيط بأحوال الفضيل بن عياض[2] رَحِمَهُ اللَّهُ، فحقه أكبر من ذلك وأكبر. . . ولكنها كلمات من مواعظه وتوجيهاته نزجيها ـ والوقت لا يمهل ـ علىٰ أن نعاود الحديث علىٰ صفحات قادمة إن شاء الله.

وهذه الكلمات، علىٰ وجازتها، صورة للمؤمن المخبت الذي زكَّىٰ نفسه فصفت من أكدارها، وكانت معه في طاعة الله لا عليه، فالقلب يقظ ذاكر. . قد امتلأ خشية لله، ورهبة من السؤال. . . والجوارح طوع هذا القلب استقامة علىٰ الطريق، واجتهاداً في العبادة، وتذكراً حين يذكر الله، وتدبراً حين يتلىٰ القرآن. .

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة عشر، العدد (٧)، رمضان ١٣٩٧هـ، أيلول ١٩٧٧م.

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي الإمام الزاهد القدوة الثبت الحجة، شيخ الإسلام كثير الحديث، أبو علي أحد صلحاء الدنيا وعُبادها، الورع الرباني الخراساني المجاور لحرم الله، كتب بالكوفة عن منصور والأعمش، وليث وعطاء بن السائب وصفوان بن سليم وخلق كثير سواهم من الكوفيين والحجازيين، وحدّث عنه: عبد الله بن المبارك ويحيىٰ القطان وعبد الرحمٰن بن مهدي وسفيان بن عيينة والشافعي رضي الله عنه وخلق كثير آخرهم موتاً: الحسين بن داود البلخي، وروىٰ عنه: سفيان الثوري أجلّ شيوخه، وترجمته زاخرة بالحديث عن علمه وفضله وزهادته وعبادته، وصدقه في المناصحة وشجاعته في قولة الحق، ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد ورحل في طلب العلم، توفي سنة ست وثمانين ومائة رَحِمَهُ اللَّهُ وأعلىٰ مقامه في دار الخلود.

وينظر: «الحلية»: ٨/ ٨٤ فما بعد، «الجرح والتعديل»: ٧/ ٧٣، «طبقات الصوفية»: ٦، ١٤، «السير»: ٨/ ٣٧٢.

أوَليس من صفات المؤمنين: أنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلىٰ ربهم يتوكلون؟.. وكذلك كان الفضيل أجزل الله مثوبته، ما نظرتَ في شيء من شأنه إلا وجدتَ مراقبة الله، وحسبان الموت، والتخلق بأخلاق أهل الآخرة.

قال إبراهيم بن الأشعث: «ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذَكَرَ اللهَ أو ذُكر عنده أو سمع القرآن، ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكىٰ حتىٰ يرحمه من بحضرته، وكان دائم الحزن شديد الفكرة ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وأخذه وإعطائه، ومنعه وبذله، وبغضه وحبه، وخصاله كلها غيره»(١) يعني: الفضيل.

والذين يصنعهم الله علىٰ عينه، يذكَّرون فيذكُرون، وتمر بهم العظة فيتعظون ولا يغفلون، وإذا جاءت العبرة فقلوبهم طوع الاعتبار ونظرةِ البصير، فأي شيء من هذا كله كالموت عظة وعبرة لأولئك الذين أعدىٰ أعدائهم الغفلةُ وقسوة القلب.

روي عن إبراهيم بن الأشعث قوله: «كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي، حتىٰ لكأنه يودع أصحابه، ذاهباً إلىٰ الآخرة حتىٰ يبلغ المقابر فيجلس، فكأنه بين الموتىٰ، جلس من الحزن والبكاء حتىٰ يقوم، ولكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها»(٢).

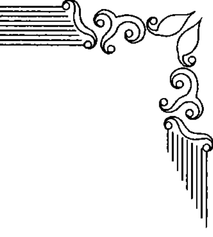
رحم الله هذا العالم الزاهد العابد، وأكرم الله مثواه بما قدم من الأنموذج الصالح لأخلاق ورثة الأنبياء ومن جعلهم الله للمتقين إماماً.



---

(١) «الحلية»: ٨/ ٨٤، «السير»: ٨/ ٣٧٦.

(٢) «الحلية»: ٨/ ٨٤، «السير»: ٨/ ٣٧٦.



مع الفضيل بن عياض

طريق النجاة.. والمكافأة[1]



سبحان الله رب العالمين.. ما أكثر ما يمن علىٰ عباده الصالحين بما يذيقهم من حلاوة الإيمان وبما يضيء قلوبهم بنور المعرفة.. سبحانه وتعالىٰ جعل من هؤلاء المتقين معالم تهدي إلىٰ الصراط الذي دعا إليه النبيون.. وعنوان فضل طالما تطلع إليه المحبون السالكون... وإني داع من يجيب المضطر إذا دعاه: أن يجنبنا مزالق جمود العين وقسوة القلب، وأن يجعلنا من أهل البصائر التي ترىٰ ما يجب أن يُرىٰ مما تعشىٰ عنه عيون أهل الغفلة.. وأن يباعد بيننا وبين مسلك أولئك الذين غشيهم من حب الدنيا ما غشيهم حتىٰ شغلتهم النعمة عن المنعم، فوضعوها في غير موضعها.. وسكروا بالعاجلة حتىٰ حجبهم الطغيان أو النفاق للمخلوقين من ظَلَمة وطواغيت عن حقيقة التوحيد، ونسوا في غمرة فرحهم بما أوتوا.. أن الأرزاق والآجال بيد الله، وأن ما يتمتع به أهل السلطان لو دام لغيرهم ما وصل إليهم.

ونحن ـ اليوم ـ علىٰ موعد مع واحد من أولئك الرجال الربانيين هو الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ الذي عشنا معه علىٰ صفحات قريبة وجيزة القول.. نحن علىٰ موعد معه لنذكر ـ ونحن في ظلمة الواقع ـ فنتذكر، ونقرأ ـ ببصيرة المؤمن ـ فنتأسىٰ ونتدبر.

ما أحسب أن واحداً من الإخوة القراء يجهل قصة الفضيل مع الخليفة هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ. ولست في هذه العجالة بسبيل أن أعمل علىٰ سردها

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة عشرة، جمادى الأولىٰ ١٣٩٨هـ.

كاملة، ولكني مجتزئ هنا بما أجد ضرورة التذكير به لنفسي ولإخواني ـ فحديث هؤلاء الرجال حديث الصفوة من أبناء هذه الأمة الذين ما زايلت أقدامهم طريق الرضوان، ولا فرحت قلوبهم بغير عطاء الكريم المنان..

عندما طلب هارون الرشيد من الفضيل أن يزيده موعظة وتذكيراً بقوله: زدني رحمك الله قال الفضيل: «يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله ﷻ عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار، فإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «**من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة**» فبكىٰ هارون» ولن أدخل بين القارئ وبين هذا السلسبيل العذب المعبر من الكلام!!

قال هارون بعد هذا: هل عليك دين؟ قال: نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي. فقال له الخليفة: إنما أعني من دين العباد، قال: إن ربي يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره، فقال جل وعز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾[1].

فقال له: هذه ألف دينار، خذها فأنفقها علىٰ عيالك، وتقوَّ بها علىٰ عبادتك. فقال الفضيل: سبحان الله! أنا أدلك علىٰ طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

أرأيت يا أخي.. الفضيل يصدع بكلمة الحق فيدل الرشيد ـ الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً ـ علىٰ طريق النجاة بأن يصبح ويمسي وليس في قلبه غش لواحد من رعيته ولا يكون ذلك إلا بالعدل والرحمة.. وإلا لم يرح رائحة الجنة.. فيستعظم أن يكافئه الرشيد بالأذىٰ المتمثل بعرض ألف دينار ينفقها علىٰ عياله ويتقوىٰ بها علىٰ عبادته. وكأني بالفضيل وهو يرىٰ في حقيقة الألف دينار عقرباً تريد أن تلدغه، وصارفاً يصرف عنه لذة النصح للحاكم والصدع بكلمة الحق. إن هذا ـ وايم الله ـ لهو الفهم الصحيح، والفقه النقي

---

(١) وانظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٤٨/ ٤٠٠ فما بعد.

الصافي لدين الله ﷻ بعيداً عن اللهاث وراء العاجلة، نفاقاً للمخلوق، وعبثاً بكلام الله وكلام رسوله حيث تسخَّر النصوص لمآرب هابطة وأغراض قريبة فانية لا تغني صاحبها يوم القيامة فتيلاً.. يوم لا تغني لقلقة اللسان عن صاحبها شيئاً، ويفتضح علىٰ رؤوس الخلائق بما نافق ومالأ وداهن واستبدل الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس] يختم علىٰ الأفواه التي نطقت بكلمة السوء، وتتكلم الأيدي التي قبضت الثمن الفاني، وتشهد الأرجل التي سعت إلىٰ ما سعت إليه.. وإلىٰ من سعت إلىٰ بابه، معرضة عن باب الله الذي عطاؤه هو العطاء.

يقول الفضيل بن الربيع ـ وكان في صحبة الخليفة ـ: ثم صَمَت ـ يعني الفضيل ـ فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا علىٰ الباب، قال هارون: «إذا دللتني علىٰ رجل فدلني علىٰ مثل هذا، هذا سيد المسلمين».

لقد كان من إخلاص هارون أن سُرّ من الرجل الذي أبكاه ونصح له بما ينجيه من عذاب الله يوم القيامة.

قال الفضيل: فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت له ـ أي: الفضيل ـ: قد ترىٰ ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به!! فقال لها: «مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه» وهذه مع سابقتها للرشيد من معدن واحد ولكن الأولىٰ كانت عتباً علىٰ الخليفة، وهذه ـ كما ترىٰ ـ زجر لزوجته عن قبول المال لما أن ذلك قتل له كما أوضح بالمثل ﷺ. إذ ليس من حق أولئك الناس أن يفيدوا من كسبه ثم يزلقونه ـ عندما يكبر ـ في جهنم شأن أولئك الذين ينحرون بعيرهم عندما يكبر بعد أن أفادوا من كسبه قبل الكبر.

لله ما أعظم هذا المثل، وكم هي معبرة تلك الصورة، وأي سمو هذا السمو، وأية مقاييس هذه المقاييس؟ وأين التطلع إلىٰ ما عند الله من تقحم الحثالات هنا وهناك؟؟

وفي خاتمة المطاف يقول راوي الخبر: فبينا نحن كذلك إذ خرجت

جارية سوداء فقالت: يا هذا آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف رحمك الله، فانصرفنا[1].

اللهم اشرح صدورنا لنور معرفتك، حتىٰ لا نرىٰ الخير إلا من عندك، ولا نبصر الفضل إلا من لدنك.. وألحقنا بعبادك الصالحين..



(١) «الحلية»: ٨/ ٤٠٠ فما بعد.



مع الفضيل بن عياض[1]



في العدد الأول من أعداد هذه السنة، كانت لنا وقفة عجلىٰ، لم نملك سواها علىٰ الورق، مع قصة الرجل الرباني الفضيل بن عياض، حين قصده الخليفة هارون الرشيد رحمهما الله تلك القصة التي كانت في عمق دلالتها صورة واضحة لموقف المؤمن الناصح لله ولرسوله ولإمام المسلمين وعامتهم.

ونعود اليوم ـ والعود أحمد ـ لنجد زاداً جديداً في سيرة الفضيل، وكلماته، ومواقفه، فسير أعلام هذه الأمة معالم في طريق المسلم وضُوىً، خصوصاً أولئك الذين ظلوا علىٰ محجة الهدىٰ، وثبتوا علىٰ النهج صلة بالله ﷻ، ووقوفاً عند كل الذي فيه مرضاته، وصدق تطلع إلىٰ ما عند رب العالمين، مقتحمين عقبات النفس والهوىٰ، متجاوزين مزالق الشيطان والسلطان. . .

وها إنك لا تعدم أن ترىٰ في أي واحدة من عظات هذا الرجل، ما يضيء طريقك، ويصلك بمنابع الهداية، حيث لا ينفصم العلم عن العمل، ولا الكلمات المسطورة عن السلوك.

انظر إليه في هذه الإلمامة الدقيقة الرائدة: «من خاف الله تعالىٰ لم يغرَّه شيء، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد»[2] ألا ما أشد حاجة المسلم حين تدلهم الخطوب وتعصف المغريات بكثير من القلوب، ويترنح أهل العناوين تحت مطارق الرغب أو الرهب. . ما أشد حاجة المسلم ـ والأمر كذلك ـ إلىٰ تمثل هذه الحقيقة، بل تذوق معناها ودلالتها لتكون له خلقاً وسجية!! حين يخاف الله. . ما الذي يكون؟؟

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة عشر، العدد (٨)، شوال ١٣٩٧هـ، أيلول ١٩٧٧م.

(٢) انظر: «الحلية»: ٨/٨٨، «صفة الصفوة»: ٢/١٣٧.

إنه حين يقف هذا الموقف، لا يغره شيء.. مهما كان هذا الشيء.. وليذهب فكرك في هذا الشيء كل مذهب.. ومن عبثت به الشياطين فخاف غير الله.. سقط في الهاوية، فلم ينفعه أحد من أولئك الذين نسي سلطان الله فخاف سلطانهم.. نعم.. خاف غير الله فلم ينفعه أحد. إلا أنها قاعدة نورانية تبدو أهميتها أكثر وأكثر ونحن نبصر ـ بألم وحسرة ـ واقع المسلمين اليوم حيث تنعكس الآية ويستبدل العديد من أبناء الأمة مخافة غير الله بمخافة الله.. فعلىٰ صعيد البنية الفكرية والسلوكية عند المسلم: لا بد أن يتحرر من هذا الانتكاس، كيما يكون قادراً أن يقف علىٰ قدميه في مواجهة العوائق والصوارف، سواء كان ذلك من داخل النفس أو من خارجها في المجتمع علىٰ كل صعيد..

وفي جواب عن سؤال كثيراً ما تردد ويتردد علىٰ الألسنة حين يتحسر الناس ـ بعيدين عن العمل ـ ويتلمسون طريق الخلاص دون سلوك مسالكه، أجاب موجهاً إلىٰ التزام طاعة الله مهما ابتعد الناس، والبعد عن المعصية مهما تردىٰ في هاويتها من تردىٰ.. وذلك هو الطريق: «سأله عبد الله بن مالك فقال: يا أبا علي ما الخلاص مما نحن فيه؟ فقال له: أخبرني، من أطاع الله ﷻ، هل تضره معصية أحد؟ قال: لا! قال: فمن عصىٰ الله ﷻ، هل تنفعه طاعة أحد؟ قال: لا! قال: فهو الخلاص أن أردت الخلاص»[1].

ويا نعم ما جاءنا به الفضيل ـ أجزل الله مثوبته ـ من تحديد لمدلول التواضع في نظره، فالتواضع ـ كما يرىٰ ـ خضوع للحق وانقياد له، أياً كان المصدر الذي نطق بهذا الحق.. وإذا كان الكبر علىٰ النقيض من التواضع، فالمتكبر لا يخضع للحق ولا ينقاد له، فإذا دعي إلى هذا الحق أخذته العزة بالإثم، أما من يخضع للحق وينقاد له: فذلك هو الإنسان الذي أكرمه الله بخلق التواضع. «سئل رحمه الله: ما التواضع؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته منه، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه»[2].

---

(١) وانظر: «السير»: ٨/ ٣٧٦، «تهذيب الكمال»: ٢٣/ ٢٩٠.
(٢) «الحلية»: ٨/ ٩١.

ومن وصايا الفضيل الجامعة التي زود بها رجلاً قال له: أوصني «أخف مكانك لا تعرف فتكرم بعملك، واخزن لسانك إلا من خير، وتعاهد قلبك أن لا يقسو، وهل تدري ما قساوة من أذنب؟»[(١)].

ألا ترىٰ معي أن لكل فقرة من فقرات هذه الوصية أصلاً من الكتاب أو السنة!! ثم أوليس ذلك دليل أن الرجل أكرم الله مثواه، يعطي حين يعطي، والنفس مرتوية من هذا الخير في كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

والآن: هذه بعض سمات المؤمن وبعض سمات المنافق يعرضها الفضيل ليعرفها المسلمون ويزِنوا العمل والسلوك من خلالها، قال إبراهيم بن الأشعث: سمعت فضيل بن عياض يقول: «المؤمن قليل الكلام كثير العمل، والمنافق كثير الكلام قليل العمل. كلام المؤمن حكم، وصمته تفكر، ونظره عبرة، وعمله بر، وإذا كنت كذا لم تزل في عبادة»[(٢)].

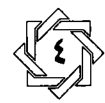
ألا إنها نعمة الإيمان، وأعظم بها من نعمة، وإذا سلم ذلك للمسلم كان له كل ذلك الخير، وكان منه كل ذلك العطاء، فهو ليله ونهاره، متقلبه ومثواه، يسعد بهذا الإيمان، ويسعد الآخرين.. والمن لله ولرسوله في ذلك: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات].

اللهم ارزقنا كمال الإيمان وصدق اليقين، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ونقِّ قلوبنا من كل وصف يباعدنا عن مرضاتك ومحبتك. وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، واجز الفضيل بما نصح وذكر وبما علم وعمل، وبما استقام علىٰ الطريقة خير الجزاء. اللهم ثبتنا بقولك الثابت، وآت أنفسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها، والحمد لله في الأولىٰ والآخرة عليه توكلت وإليه أنيب.

(١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» لأبي نعيم الأصبهاني: ٨/ ٩٧.

(٢) المصدر السابق: ٨/٩٨.

مع الفضيل بن عياض[(١)]



في حديث موصول عن الفضيل رَحِمَهُ اللهُ ـ انجازاً لما وعدنا ـ أود أن أشير إلىٰ أن ما أسلفنا من وجله عند سماع القرآن حيث كانت تفيض عيناه ويبكي ويبكي حتىٰ يرحمه من في مجلسه.. ويُشفِق عليه: هو الذي كان ـ بتوفيق الله ـ باعث التحول في حياته من طريق إلىٰ طريق.. من طريق أهل الشقاوة والمقت، إلىٰ طريق أهل السعادة واليقين.

جاء في بعض أخباره ـ أجزل الله مثوبته ـ أنه كما روىٰ الفضل بن موسىٰ ـ كان شاطراً، يقطع الطريق بين أبيورد[(٢)] وسرخس، وكان سبب توبته ـ وهو مخوف يحسب له حساب ـ أنه كانت له علاقة بجارية وبينما كان يرتقي الجدران ليراها، إذ سمع تالياً للقرآن يتلو قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد] فقال: بلىٰ!! يا رب قد آن!! فرجع فآواه الليل إلىٰ خربة، فإذا فيها رفقه، فقال بعضهم: «نرتحل». وقال بعضهم: «حتىٰ نصبح» فإن فضيلاً علىٰ الطريق؛ فآمنهم بما أخبرهم من حاله وما منّ الله به عليه من نصوح التوبة وبات

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة عشرة، العدد (٩)، ذو القعدة ١٣٩٧هـ، تشرين الأول ١٩٧٧م.

(٢) هي الكورة التي كان مولده فيها بخراسان، وبعد أن قضىٰ شطراً كبيراً من عمره وتاب إلىٰ الله، قدم الكوفة وهو كبير، فسمع بها الحديث، ثم عكف علىٰ حال المتعبدين الزاهدين، والعلماء الصلحاء العاملين، وانتقل إلىٰ مكة حيث سعد بالجوار المبارك للحرم الشريف إلىٰ أن توفاه الله سنة ست وثمانين ومائة أو سبع وثمانين وله نيف وثمانون سنة.

معهم[1]. وتفصيل ذلك أنه قال بعد أن سمع حوارهم: ففكرت وقلت: أنا أسعىٰ بالليل في المعاصي، وقومٌ من المسلمين هاهنا يخافونني، وما أرىٰ الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام[1].

أرأيت إلىٰ كريم العطاء الإلـٰهي وفضله، عاد الفضيل بعد جنوح وشرود إلىٰ مولاه فعاد الله عليه بالمغفرة وحسن الأحدوثة في العالمين..

تحرك قلب الفضيل للآية تلاها التالي، وفاضت دمعته الخاشعة عند سماعها فكان ما كان من التحول العميق في حياة الرجل..

وأين طريق الشقاوة من طريق السعادة في رحاب رب كريم لا تنتهي خزائنه، ولا ينفد ما عنده علىٰ كثرة العطاء!!.

وهذه الخشية التي أنقذته من وهاد الهلكة فاضت آثارها علىٰ حسه ودقيق فهمه، فكان لكلماته ومواعظه الحظ الأكبر من التأثير في نفوس الآخرين لما تحمل من ندىٰ الصدق وبُعد النظرة الأخروية إلىٰ الأمور. قال سريُّ بن المغلِّس: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «من خاف الله تعالىٰ لم يضرَّه أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد»[2] وسأله ـ كما أسلفنا ـ عبد الله بن مالك فقال: يا أبا علي، ما الخلاص مما نحن فيه؟ فقال له: أخبرني من أطاع الله ﷻ هل تضره معصية أحد؟ قال: لا، قال فهو الخلاص إن أردت الخلاص.

وها هو ذا يحدد علامات الشقاء فيقول: «خمس من علامات الشقاء: القسوة في القلب. وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل»[3].

وليس بدعا أن نرىٰ في هذا الكلام فهماً عن الله ورسوله فيما جاءنا من البينات والهدىٰ في كتاب الله وحديث رسوله عليه الصلاة والسلام.

---

(١) وانظر: «تهذيب الكمال» للمزي: ٣/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦، «السير»: ٨/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤.
(٢) «السير»: ٨/ ٣٧٦.
(٣) «طبقات الأولياء» لابن الملقن: ص٢٦٧.

وإذا كانت هذه الخمس من علامات الشقاء، فحري بالمؤمن أن يحذر الوقوع في شيء منها، وليكن همه أن يتصف بأضدادها لأن ذلك من علامات السعادة لا ريب. اللهم اجعلنا ممن يصدقون في العمل وتدركهم العناية فيسعدون سعادة لا يشقون بعدها أبداً إنك أنت الكريم المنان.

وفي ضوء هذه المعاني: من هو أكذب الناس في نظر الفضيل؟ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكذب الناس: العائد في ذنبه، وأجهل الناس: المدلُّ بحسناته، وأعلم الناس بالله أخوفهم منه»(١).

واستمع إليه في بيان هو من أرث النبوة يقول: «إن رهبة العبد من الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ قدر علمه، وإن زهادته في الدنيا علىٰ قدر رغبته في الآخرة»(٢).

وإذن: لا يعتبر عالماً بالمعنىٰ الحقيقي في نظر أهل القلوب، من لم يكن علمه بَريدَ خشيته لله تعالىٰ، فلقد ذكر الحق جلّ وعلا شيئاً من الآيات الدالة علىٰ عظيم قدرته وكمال صنعته في هذا الوجود ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

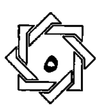
وإذا كانت كل من الدنيا والآخرة ضرَّة للأخرىٰ، فمن الطبيعي أن تكون الرغبة في الآخرة هي التي تحمل علىٰ الزهد في الدنيا، فعلى قدر الرغبة في الآخرة تكون الزهادة في هذه العاجلة، ولقد حمل إلينا التاريخ أنباء رجالٍ من السلف الصالح الذين كانوا لشدة رغبتهم في الآخرة زاهدين في الدنيا وهي في أيديهم إذ لم يكن لها سلطان علىٰ قلوبهم، وإنما كانوا يسخِّرون المال والجاه في سبيل الله، ونصبُ أعينهم الآخرة ومرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ وإنه لميزان في غاية الدقة أن تكون الزهادة في العاجلة علىٰ قدر الرغبة الآجلة، وما عند الله خير وأبقىٰ.



(١) «تاريخ دمشق»: ٤٨/ ٤١٥، «تهذيب الكمال»: ٢٣/ ٢٩١، «السير»: ٨/ ٣٧٧.

(٢) «الحلية»: ٨/ ٨٩.

مع الفضيل بن عياض[1]



هذه عودة إلىٰ الحديث عن هذا الرجل الرباني الذي نرىٰ فيما نرىٰ من أخباره لوناً من التحديد الحكيم ـ الذي هو ثمرة التجربة والمعاناة ـ لبعض الأمور التي لا غناء عن التنبيه إليها وخصوصاً من أولئك الذين درجوا علىٰ طريق السلوك إلىٰ الله، قال فيما يروي إبراهيم بن الأشعث عنه: «خير العمل أخفاه، وأمنعه من الشيطان أبعده من الرياء»[2] إنهما الخصلتان اللتان أخذ بهما نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لأن ذلك أدعىٰ لأن يكون العمل في ميزان الله مقبولاً، وأن لا يقع صاحبه في شيء من الشرك.. ألم يجعل النبي ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ذاك الذي تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.. أو لم نجد في كلام الله وكلام رسوله ما ينعىٰ علىٰ المرائين رياءهم ويجعله من سمات المنافقين.. بل نقرأ في خاتمة سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]. ومن هذا الباب ما روي عنه في تعريف الرياء والشرك في مجال العمل. «ترك العمل من أجل الناس هو الرياء، والعمل من أجل الناس هو الشرك والنجاة أن يعافيك الله منهما»[3]. وفي رواية: والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وانظر إلىٰ المنحة الربانية واليقين بما عند الله حتىٰ كأنه من عالم

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة عشرة، العدد (١٠)، ذو الحجة ١٣٩٧هـ، تشرين الثاني: ١٩٧٧م.

(٢) وانظر: «طبقات الصوفية» للسُّلمي: ص١٣.

(٣) «الحلية»: ٨/ ٩٥، «السير»: ٨/ ٣٧٧.

الشهادة!! جاء رجل إلىٰ الفضيل يشكو إليه الحاجة، فقال له: أمدبراً غير الله تريد»[1]؟.

ويبلغ به الشوق إلىٰ لقاء الله، والحزن علىٰ ما يراه تفريطاً في جنب الله حداً يجعل قلبه وكأنه قلب الثكلىٰ.. تلك التي فقدت وليدها فهي ملتاعة القلب مقرحة الكبد. ففي كلام لسلمة بن غفار عن الفضيل يقول: وقدم عليه ابن أخيه فاتخذ له خبيصاً ـ نوعاً من الطعام المرموق كالحلوىٰ ـ فقال لعمه: يا عم كل معي، قال الفضيل رَحِمَهُ الله: «يا ابن أخي، إن الثكلىٰ لا تجد طعم ما تأكل»[2]. وقال رَحِمَهُ الله: «لو تعلمون ما أعلم لم يهنكم طعام ولا شراب»[3].

ويريد الفضيل لحامل القرآن أن يستشعر دائماً عظمة ما يحمل، فيكون سلوكه علىٰ تساوق مع حمله لكتاب الله تبارك وتعالىٰ: لا يتأكّل به، ولا يشتري به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا.. ولا يلغو مع اللاغين.. ولا يعبث مع العابثين. ذلك قوله في معرض الكلام عن حملة القرآن «حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو، ولا أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو. وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلىٰ الخلق حاجة، لا إلىٰ الخلفاء فمن دونهم، وينبغي أن تكون حوائج الآخرين إليه»[4]... ونحن إذا قدرنا القرآن حق قدره من حيث هو كلام الحكيم الخبير، ومصدر المصادر لهذا الدين القويم، وما للمؤمن في تلاوته وتدبره من الخير، وما هو حقه على هذه الأمة، وأي نعمة حيزت إلى هذا الذي أكرمه الله بحمله... إذا حصل لنا ذلك استطعنا أن ندرك شيئاً من مرامي كلام الفضيل وخصوصاً إذا كنا علىٰ ذكر من واقع المسلمين اليوم وحالِ كثير من حملة القرآن ولا حول ولا قوة إلا بالله..

والآن: أيُّ رجاء عريض هذا الذي نراه عند الفضيل؟! فهو واثق بكرم الله.. بعيد القلب عن اليأس بُعْد ما بين المشرق والمغرب يقول

---

(١) «الحلية»: ٨/ ٩٣. (٢) «الحلية»: ٨/ ٩٣.
(٣) «مختصر تاريخ دمشق»: ٢٠/ ٣٣٠. وينظر: «تاريخ دمشق»: ٤٨/ ٣٨٩.
(٤) «الحلية»: ٨/ ٩٢، «طبقات الصوفية»: ص١٠.

إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل يقول: «لو ادخلني النار فصرت فيها ما أيست»[1] وهذه منه تتكامل مع أختها في الحرص على خلوص العمل لله والزهادة في الدنيا، وتوحيد الوجهة إليه سبحانه.

من أجل ذلك يروىٰ عنه أنه قال لسفيان بن عيينة: «ويل لك إن لم يعف عنك إذا كنت تزعم أنك تعرفه، وأنت تعمل لغيره» وعلىٰ هذا السنن من الفهم العميق والذوق الإيماني يقول: «المتوكل الواثق بالله لا يتهم ربه، ولا يخاف خذلانه، ولا يشكوه» «كان يقال: لا يزال العبد بخير ما إذا قال قال لله، وإذا عمل عمل لله».

وهؤلاء الذين تتفتح بصائرهم وتستضيء بنور المعرفة قلوبهم ترىٰ عندهم شيئاً قد تتطلع إليه ولكنك لا تدرك أبعاده وقد لا تملك التعبير عنه ها هوذا يقول في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أحسن عملاً: «أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتىٰ يكون خالصاً» ولكن ما هو ميزان الصواب وما هو ميزان الإخلاص؟ يقول الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان علىٰ السنة»[2].

أرأيت إلىٰ هذه القواعد النورانية التي يرسِّخها الفضيل، وقد أجرىٰ الله الحكمة علىٰ لسانه؟! ألا ما أصدق عبد الله بن المبارك فيه إذ قال: «إن الفضيل بن عياض صدقَ اللهَ فأجرىٰ الحكمة علىٰ لسانه، فالفضيل ممن نفعه علمه»[3].

وفي كلام عن المؤمن والمنافق وما يكون من كل منهما علىٰ ساحة القول والعمل روي عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «المؤمن قليل الكلام كثير العمل،

---

(١) انظر: «الحلية»: ٨/ ٨٨.

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي: ٨/ ١٧٦، «روح المعاني» للآلوسي: ٢٩/ ٥، «البداية والنهاية» لابن كثير: ١٣/ ٦٢٢.

(٣) «تاريخ مدينة دمشق»: ٤٨/ ٣٨٩، «تهذيب الكمال»: ١٥/ ١٠٩، «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٤٢٥.

والمنافق كثير الكلام قليل العمل.. كلام المؤمن حكم، وصمته تفكر، ونظره بر.. وإذا كنت كذا لم تزل في عبادة»[1] أرأيت: هذا شيء وراء العلم.. إنه ثمرة حلاوة الإيمان يذوقها هؤلاء العاملون الصالحون فيطلعون علىٰ الناس بمثل هذا السلسبيل من القول الذي يكتب بماء الذهب: ما أجملها: المؤمن قليل الكلام كثير العمل... خذها بقلبك ومشاعرك وانظر في حال الأمة اليوم.. أيُّ كلام تسمع، وأيُّ عمل ترىٰ.. ولو اقتصر الأمر علىٰ كثرة الكلام وقلة العمل إذن لهان الخطب ولكنها كثرة الكلام الذي يراد منه التستر علىٰ العمل المؤذي تغريراً بالأمة، وتهاوناً بالإنسان حتىٰ كأنه غير موجود.

ولو توجهت شطر حرص الفضيل علىٰ بنية المؤمن في إيمانه وصدق يقينه، والعمل الذي يدل علىٰ هذا الإيمان ويكون صورة عن التصديق لا تشوبها شائبة.. لرأيت العجب العجاب. يحمل إلينا إبراهيم بن الأشعث أجزل الله مثوبته خبراً عن الفضيل يقول فيه وهو يخاطب إنساناً ما: «يا سفيه ما أجهلك!! ألا ترضىٰ أن تقول أنا مؤمن حتىٰ تقول: أنا مستكمل الإيمان؟ لا والله لا يستكمل العبد الإيمان، حتىٰ يؤدي ما افترض الله تعالىٰ عليه، ويجتنب ما حرم الله تعالىٰ عليه، ويرضىٰ بما قسم الله تعالىٰ له، ثم يخاف بعد ذلك أن لا يتقبل الله منه»[2].

وعلىٰ هدي هذا السمو في النظرة إلىٰ الإيمان وصدق دعواه، كان هؤلاء الرجال أشد مخافة لله من غيرهم، وأمثل تقويماً لأنفسهم من أصحاب الدعاوىٰ وأهل الظهور... فترىٰ أحدهم وهو جبل علم وعمل وصلاح، غاية في التواضع لله والمسكنة بين يديه، لأنه يرىٰ أن ما يعمل قليل قليل في جنب الله ونعمه وعطائه، ومَن هو، أمامَ رسول الله ﷺ في تواضعه وأدبه مع الله ورقة حاشيته؟ يقول أبو جعفر الحذاء: سمعت فضيل بن عياض يقول: «أخذت بيد سفيان بن عيينة ـ وما أدراك ما سفيان بن عيينة ـ في هذا الوادي: فقلت له: إن كنت تظن أنه بقي علىٰ وجه الأرض شر مني ومنك فبئس

---

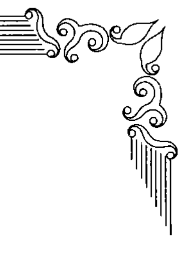
(١) «الحلية»: ٨/٩٨، «مختصر تاريخ دمشق»: ٢٠/٣١٧.
(٢) «الحلية»: ٨/١٠١.

ما تظن»[1] ألا إن للفضيل أن يقول ما يريد تواضعاً وخشية لله ولكنه وسفيان وأضرابهما ـ ولا نزكي علىٰ الله أحداً ـ نحتسب علىٰ الله أن يكونوا من أولئك العلماء العاملين الصالحين الزاهدين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه. والله يتولىٰ الصالحين.



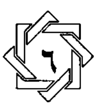
---

(١) «حلية الأولياء»: ٨/١٠١.



مع الفضيل بن عياض

كلمات من القلب[1]



ما أحسب أن قضيةً في ميدان التربية وتطويع السلوك للعقيدة والفكر، بلغت من الوضوح، ما بلغته قضية التواؤم بين المعرفة والسلوك عند هؤلاء الربانيين، الرجالِ الذين زكت بالهداية نفوسهم، وخلصت لله أعمالهم، وكان يوم المعاد بحسبانهم علىٰ الدوام.. حتىٰ إذا نظرت إلىٰ الإسلام من خلالهم، أو نظرت إليهم بمنظار الإسلام كان الأمر علىٰ حد سواء، الأمر الذي يذكِّرنا بقول الصحابة في عمر رضي الله عنه: «كان عمر قرآناً ناطقاً» فعمر في أقواله وأفعاله وسلوكه صورة ناطقة للوحي المكتوب بين دفتي المصحف.. وهذا علىٰ العكس من حالنا نحن المسلمين اليوم ـ إلا من رحم ربك ـ إذ تظلم الحقيقة الإسلامية حين ينظر إليها ويحكم عليها من خلال ممارسة أبناء الأمة لشؤون الدين والحياة، فيكون المسلمون حجة علىٰ الإسلام.. لما أن الكثيرين يمثلون الجفوة البينة عن الإسلام والعياذ بالله، والمفروض أن يكون المسلم صورة حية ناطقة للإسلام الذي يؤمن به ويحمل شعاره، وأن يكون الإسلام حجة عليه عند المحاكمة العقلية والسلوكية لا أن يكون هو حجة علىٰ الإسلام.

وإذا كنا علىٰ موعد جديد مع الفضيل رحمه الله لقد وجدنا عنده في الماضي، ونحن واجدون اليوم ما يؤكد هذا الذي ألمحنا إليه في صدر هذا الحديث. قال عبد الصمد بن يزيد: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «أدركت أقواماً يستحيون من الله سواد الليل من طول الهجعة، إنما هو علىٰ الجنب،

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة عشرة، ربيع الأول ١٣٩٨هـ، شباط ١٩٧٨م.

فإذا تحرك قال: ليس هذا لك، قومي خذي حظك من الآخرة»[1] وهذا الأنموذج من الصالحين يذكرنا بقول الله تبارك وتعالىٰ في بعض صفات المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة].

وهذا الرجل الرباني لا يفتأ يأخذ بيد المسلم إلىٰ كل ما فيه مرضاة الله تعالىٰ والحظوة بمحبته سبحانه. سأله رجل فقال: يا أبا علي متىٰ يبلغ الرجل غايته من حب الله تعالىٰ؟ فقال له: «إذا كان عطاؤه ومنعه إياك عندك سواء، فقد بلغت الغاية من حبه»[2]. وأنت ترىٰ أن هذا الذي يوجه إليه أبو علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من أن يكون منع الحكيم الخبير وعطاؤه عنده سواء، هو الذي يجعل المسلم يرتقي ويرتقي، حتىٰ ينجو مما يقع فيه أولئك الذين يعبدون الله علىٰ حرف، فإن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابتهم فتنة انقلبوا علىٰ وجوههم، خسروا الدنيا والآخرة، كما كشف عن ذلك القرآن الكريم، فإذا استوىٰ عند المسلم المنع والعطاء: فقد بلغ الغاية من محبة الله تعالىٰ، وهنالك يزدان قلبه بنور الرضا عن الله في كل حال وتلك درجة المقربين قال أكرم الله مثواه: «درجة الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ درجة المقربين ليس بينهم وبين الله تعالىٰ إلا روح وريحان»[3].

وكثيراً ما يستوقفك تحديد مصطلحات ربما درج الناس فيها علىٰ عكس ما أراد. روىٰ خالد بن خداش قال: قال لي الفضيل بن عياض: ممن أنت؟ قلت: مهلبي، قال: «إن كنت رجلاً صالحاً فأنت الشريف، وإن كنت رجل سوء فأنت الوضيع كل الوضيع»[4] ذلكم هو تعريف الرجل الصالح، والرجل الوضيع كما يراه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

وعلىٰ هدي من الحرص علىٰ الصلاح في القول والعمل: وجدناه يقول: «حسناتك من عدوك، أكثر منها من صديقك، قيل: وكيف ذلك يا أبا علي؟

---

(١) «الحلية»: ٨/١٠٨.

(٢) «الحلية»: ٨/١١٣، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٤٨/٤٠٠.

(٣) انظر: «طبقات الصوفية» للسُّلمي: ص١٠، «الحلية»: ٨/٩٧.

(٤) «الحلية»: ٨/٩٦. وانظر: «المنتظم» لابن الجوزي: ٩/١٤٨.

قال: إن صديقك إذا ذكرت بين يديه قال: عافاه الله، وعدوك إذا ذكرت بين يديه، يغتابك الليل والنهار، وإنما يدفع المسكين حسناته إليك، فلا ترض إذا ذكر بين يديك أن تقول: اللهم أهلكه، لا، بل ادع الله: اللهم أصلحه، اللهم ارجع به، ويكون الله يعطيك أجر ما دعوت به، فإنه من قال لرجل: اللهم أهلكه فقد أعطىٰ الشيطان سؤاله، لأن الشيطان إنما يدور علىٰ هلاك الخلق»[1].

ولا يخفىٰ أن هذا فيما يكون بين مسلم وآخر في تعامل فردي، أما أعداء الله والإسلام: فَلِهَتْكِهِمْ والكشف عن ضلالهم ـ دونما غرض شخصي ـ شأن آخر.

هذا: ومن إكرام الله لهؤلاء الربانيين ما ترىٰ في أخلاقهم من التواضع الجم وإنكار الذات. يقول الحسين بن زياد: دخلت علىٰ الفضيل يوماً فقال: «عساك ترىٰ أن في ذلك المسجد ـ يعني: المسجد الحرام ـ رجلاً شراً منك، إن كنت ترىٰ فيه فقد ابتليت بعظيم»[2] إنها رائعة من روائع هؤلاء الرجال، فكم للأنا من ضحايا يتساقطون كل آن هنا وهناك، نسأل الله عفوه وعافيته.

وحامل القرآن في نظر أبي علي حامل راية الإسلام، ولا بد أن يكون علىٰ مستوىٰ المسؤولية في حمل هذا الكتاب العزيز، ذلكم قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو، ولا أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلىٰ الخلق حاجة، لا إلىٰ الخلفاء فمن دونهم، وينبغي أن يكون حوائج الخلق إليه»[3] ولعل من الخير أن ننبه إلىٰ أن المراد بـ(حامل القرآن) في عصر الفضيل أشمل منه في عصرنا الحاضر وأدق دلالة.

ولقد كان للقرآن عليه أجزل الله مثوبته سلطان أي سلطان، فإذا تليت عليه الآية أو تلاها، زادته إيماناً وخنقته العبرة وراح يذكر ما يحس من بون شاسع بين عمله وبين ما توجبه الآية الكريمة، جاءه جرير بن عبد الحميد

---

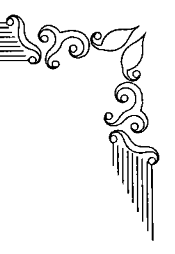
(١) «الحلية»: ٨/ ٩٧.
(٢) «صفة الصفوة»: ٢/ ١٣٦.
(٣) «الحلية»: ٨/ ٩٢.

يزوره، وعندما خرج لوداعه قال له: أوصيك بتقوىٰ الله، فلما أراد أن يقول: «إن الله مع الذين اتقوا» خنقته العبرة، فترك يده فمضىٰ، قال راوي الخبر: فما زال ينشج من موضعه إلىٰ المسجد[1].

اللهم أكرم نزل هذا الرجل عندك، وأسكنه الفراديس العلىٰ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، يوم يقال لأهل الاستقامة: لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. ولله عاقبة الأمور.



(١) «حلية الأولياء»: ٨/ ٩٠، «تهذيب الكمال»: ٤٣/ ٢٨٩ و٢٩٢، «صفة الصفوة»: ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥.



مع الفضيل..
كلمات من القلب[1]



ماذا أنت قائل في هذا الرجل الذي حمَّل مَنْ بَعْدَه أمانة القول والعمل وكيف يجب أن يكون سلوك المسلم إذا أراد أن يكون علىٰ النسب المتصل مع خلائق هذا الإسلام وحقائقه!! يقول إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «لأن يدنو الرجل من جيفة منتنة خير له من أن يدنو إلىٰ هؤلاء ـ السلطان ـ» وسمعته يقول: «رجل لا يخالط هؤلاء ولا يزيد علىٰ المكتوبة: أفضلُ عندنا من رجل يقوم الليل ويصوم النهار ويحج ويعتمر ويجاهد في سبيل الله، ويخالطهم»[2].

ليت شعري أية مقاييس هذه التي يقيس بها الفضيل تصرفات المسلم؟ يخاف علىٰ المؤمن أن يتبلد إحساسه بالرغب والرهب فيغرق فيما عند السلطان، فينسىٰ نفسه وينسىٰ ربه، وكم لذلك من شواهد، وكم للنفس والشيطان في هذا الباب من مداخل هينة لينة ومسولات، مع أن الأمر واضح فإنك لا تجني من الشوك العنب، والذي يخسره المؤمن في مخالطتهم لا يقاس أبداً بما يربحه، لأنهم هم أكثر صحواً لهذه القضايا فهم يحتسبونها بالنقير والقطمير، ويسخرون ويعبثون، ثم يلفظون ضحيتهم لفظ النواة. أرأيت إلىٰ ما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ من الجيفة، وما جنح إلىٰ المقارنة بين الرجل يأتي بألوان العبادات والعزائم ويخالطهم، وبين الرجل حظه من العبادة أن لا يزيد علىٰ المكتوبة، ولا يخالطهم... أرأيت إلىٰ ذلك!!.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة عشرة، ربيع الآخر ١٣٩٨هـ، آذار ١٩٧٨م.
(٢) «الحلية»: ٨/٩٨.

يقول هذا والرجل الأول في رتبة المسؤولية يومذاك هارون الرشيد الذي كان يغزو عاماً ويحج عاماً جزاه الله عن الأمة كل خير[1].

وفي نقلة مبصرة تتخطىٰ حدود الزمان.. نجد الفضيل علىٰ خط مواز لهذا الذي يقول، إذ لم يدخر كلمة حق واحدة يمكن أن يقولها لهارون إلا قالها، فكان مثال العالم العامل الذي يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر مستمداً قوته من الله، ثم من زهادته الصادقة في الحطام الذي كثيراً ما يكون خطاماً (بالخاء) يسوق المتهالكين علىٰ الأعتاب إلىٰ الهاوية وبئس القرار.

وتأخذنا الكلمات إلىٰ ساحة أخرىٰ من ساحات الضياء؛ إن رضىٰ الله ﷻ مبتغىً للمؤمن، وزلفاه إلىٰ ذلك ما يقدم من عبادة وعمل وجهاد.. يرىٰ الفضيل ـ وهذا هو الحق ـ أن كل ما يقدمه المسلم، قليل إذا قيس بالغاية الكبرىٰ التي يطلبها وهي مرضاة مولاه تبارك وتعالىٰ.

ذلك قوله فيما ذكر الفيض بن إسحاق: «كنت قبل اليوم أعجب ممن يعطي، وأنا اليوم لا أعجب، لأن الذي يطلب ليس بصغير، وأنت لو بلغك أن رجلاً تصدق بألف درهم من ماله لتعجبت، أو يكون صاحب غزو أو رباط لتعجبت، وما تدري ما تطلب لو كنت تعقل هذا، ولكنك لا تعقله، والله لو أخبرت عن جبريل وإسرافيل بشدة اجتهاد وما عجبت، وكان ذلك قليلاً عند الذي يطلبون، أتدري أي شيء يطلبون؟ وأي شيء يريدون؟ رضىٰ ربهم ﷻ»[2].

وفي نظرات حازمة إلىٰ رسالة العالم المسلم المتصل بالكتاب والسنة: تراه لا يقعد عن النُّصح والتذكير بالواجب ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً. «رأىٰ رحمه الله قوماً من أصحاب الحديث يمزحون ويضحكون فناداهم: مهلاً يا ورثة الأنبياء مهلاً ـ ثلاثاً ـ إنكم أئمة يقتدىٰ بكم»[3].

ولشد ما تحرك القلب بعض تلك المواعظ التي تخرج من القلب تحملها

---

(١) انظر علىٰ سبيل المثال لما نقول: «الحلية»: ٨/ ١٠٥ ـ ١٠٧، «السير»: ٨/ ٣٨٤.

(٢) «الحلية»: ٨/٩٨ ـ ٩٩.

(٣) المصدر السابق: ٨/ ١٠٠، «السير»: ٨/ ٣٨٤.

إلىٰ الآخرين لوعة الحب ومخافة الله، وهي تبدو كأنها غضة طرية لا يغني مؤمناً أن يتجاهلها، أو يتغاضىٰ عنها. يقول إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ما يؤمنك أن تكون بارزت الله بعمل مقتك عليه، فأغلق دونك أبواب المغفرة وأنت تضحك، كيف ترىٰ أن يكون حالك؟»[1] وصلىٰ الله وسلم علىٰ معلم الناس الخير الذي بشر فأحسن البشارة، وأنذر فأحسن تحريك القلوب بالنذارة. أخرج الترمذي بسنده عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش، ولخرجتم إلىٰ الصُعُدات تجأرون إلىٰ الله. لوددت أني شجرة تعضد»** وفي رواية أن أبا ذر قال: **«لوددت أني كنت شجرة تعضد»**[2].

وفي دعوة إلىٰ البناء من داخل النفس، وصياغة المسلم علىٰ معاني الإسلام الخيرة حيث ينعكس ذلك من بعد علىٰ جوارحه وتصرفاته قال في واحدة من كلماته: «لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة» فكأنه يرىٰ أن عنوان الصدق في العبادة أن تثمر هذا الطيب الخير من الثمرات، من أجل هذا نرىٰ أن ما قاله رحمه الله لا يتعارض أبداً مع ما جاء في الحديث القدسي الصحيح «... **وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه..**»[3] الحديث، فمِن ذكرِ (عَبدي) و(يتقرب إلي) واضح أنها قربة وصلت صاحبها بالله لأنها سخاء بالعطاء.. ومن كان كذلك فلا تسل عن سلامة صدره، وسخاء نفسه، ونصحه للأمة، فخلائق أهل الإيمان والمحبة متكاملة، وهذا الذي نقول:

---

(١) «الحلية»: ٨/ ١٠٠.

(٢) «صحيح البخاري»: ص٩٠٠ رقم (٦٥٠٢)، «السنن الكبرىٰ» للبيهقي: ٣/ ٣٤٦.

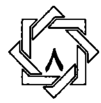
(٣) «سنن الترمذي ـ الجامع الصحيح» رقم (٢٣١٢) من كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً..»** وحسّنه الترمذي، وأخرجه أيضاً ابن ماجه رقم (٤١٩٠) في الزهد باب الحزن والبكاء، وأحمد في «المسند»: ٥/ ١٧٣ وإسناده حسن.

مرتقىً صعب إنما يصبر له أهل العزائم، وهنيئاً ثم هنيئاً لمن تدركهم العناية فيكونون كذلك.

اللهم اجعلنا من أولئك الصادقين الذين تحبهم ويحبونك أذلة علىٰ المؤمنين أعزة علىٰ الكافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة إنك نعم المولىٰ ونعم النصير.



الفضيل.. وعظة الموت[1]



حدّث إسحاق بن إبراهيم قال: قال رجل للفضيل: كيف أصبحت يا أبا علي؟ - فكان يثقل عليه: كيف أصبحت وكيف أمسيت - فقال في عافية، فقال: كيف حالك؟ فقال: «عن أي حال تسأل عن حال الدنيا أو حال الآخرة؟ إن كنت تسأل عن حال الدنيا، فإن الدنيا قد مالت بنا وذهبت بنا كل مذهب، وإن كنت تسأل عن حال الآخرة، فكيف ترىٰ حال من كثرت ذنوبه، وضعف عمله وفني عمره، ولم يتزود لمعاده، ولم يتأهب للموت، ولم يخضع للموت ولم يتشمر للموت، ولم يتزين للموت، وتزين للدنيا، هيه».

وقعد يحدث - يعني نفسه - «واجتمعوا حولك يكتبون عنك، بخ بخ فقد تفرغت للحديث»، ثم قال: «هاه» - وتنفس طويلاً - «ويحك أنت تحسن تحدث، أو أنت أهل أن يحمل عنك. وأنت أنت، أما تعرف نفسك أما تذكر ما كنت: وكيف كنت، أما لو عرفوك ما جلسوا إليك ولا كتبوا عنك. ولا سمعوا منك شيئاً أبداً». فيأخذ في مثل هذا، ثم يقول: «ويحك أما تذكر الموت؟ أما للموت من قلبك موضع؟ أما تدري متىٰ تؤخذ فيرمىٰ بك في الآخرة، فتصير في القبر وضيقه ووحشته؟».

«أما رأيت قبراً قط؟ أما رأيت ميتاً قط؟ أما رأيت حين دفنوه! أما رأيت كيف سلوه في حفرة وأهالوا عليه التراب والحجارة». ثم قال: «ما ينبغي لك أن تتكلم بفمك كله - يعني: نفسه - تدري من تكلم بفمه كله!! عمر بن

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة، العدد (٨)، شوال ١٣٨٥هـ، شباط ١٩٦٦م.

الخطاب كان يطعمهم الطيب ويأكل الغليظ ويكسوهم اللين ويلبس الخشن، وكان يعطيهم حقوقهم ويزيدهم. أعطىٰ رجلاً عطاءه أربعة آلاف درهم وزاده ألفاً. فقيل له: ألا تزيد أخاك كما زدت هذا؟ قال: إن أبا هذا ثبت يوم أُحد ولم يثبت أبو هذا»[1] يعني: الخطاب.

اللّهم أنزل سحائب رحمتك، وعظيم فضلك علىٰ الإمام القدوة الثبت الرباني شيخ الإسلام أبي علي الفضيل بن عياض وبلّغه منازل المقربين الأخيار، واحشره في زمرة من أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، واجزه عن أمة الإسلام خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(١) «الحلية»: ٨/ ٨٥ ـ ٨٦، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٤٨/ ٤٢٠.



مع يوسف بن أسباط رَحِمَهُ اللهُ[1]

ما أكرم ما يجد المرء في تاريخ أولئك البررة والعلماء العاملين من خير يبدو ذا نَسَب إلىٰ معدن النبوة، ومن فضل يشرق علىٰ الناس كأنه نور من نور الكتاب المبين. وفي الجعبة اليوم كلمات عن واحد من هذا الطراز الذي أسعده الله بحسن التأسي والتخلق بالأدب النبوي الكريم هو يوسف بن أسباط[2] الذي كان معاصراً لعبد الله بن المبارك، رحمهما الله، والذي قال فيه شعيب بن حرب: «ما أقدِّم علىٰ يوسف بن أسباط أحداً».

وأنت واجد في سيرة هذا الرجل وتوجيهاته ومواعظه، ما ينبئ عن التكامل في الفهم، والسلامة في التصور، والحرص الشديد علىٰ أن تكون المعاني الإسلامية صورة حية متحركة في سلوكه وعمله، طريقه إلىٰ هذا ـ مع العلم والعمل ـ تزكية للنفس وجهاد دائم لها، كيما تستقيم علىٰ الطريقة كما أمر الله، وترتفع فوق زخارف الدنيا وشهواتها، أو الاغترار بالعلم والصلاح.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثالثة عشرة، العددان (٩ و١٠)، ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٣٩٢هـ، كانون الثاني ـ شباط ١٩٧٣م.

(٢) هو يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الواعظ الثقة من سادات المشايخ وأهل القلوب المعادي للظلم والظالمين، وكان مرابطاً بالثغور الشامية مواعظه نيرات وحكمه تدل على صفاء النفس ونور القلب. قال فيه أبو نعيم في «الحلية»: ٨/ ٢٣٧: ومنهم ذو الجد والنشاط، والمستبق إلىٰ الصراط: يوسف بن أسباط، كان العلم والخوف شعاره، والتخلي من فضول الدنيا دثاره. روىٰ عن: الثوري ومُحِلِّ بن خليفة وزائدة بن قدامة، وروىٰ عنه: المسيَّب بن واضح وعبد الله بن خُبيق وغيرهما، وثقه يحيىٰ بن معين، وقال شعيب بن حرب: ما أقدم علىٰ يوسف بن أسباط أحداً، نقل البخاري عن صدقة قوله: دفن كتبه، فكان بعد يقلب عليه فلا يجيء به كما ينبغي.

وينظر: «الحلية»: ٨/ ٢٣٧، «الجرح والتعديل»: ٩/ ٢١٨، «التاريخ الكبير» للبخاري: ٨/ ٣٨٥، «السير»: ٩/ ١٧٠ فما بعد.

انظر إلىٰ الذي قاله عن غاية الزهد وغاية التواضع، حين سئل عن ذلك لترىٰ بعضاً من سمات الفهم العميق والالتزام الصادق؛ فقد حدث تميم بن سلمة قال: «قلت ليوسف بن أسباط: ما غاية الزهد؟ قال: لا تفرح بما أقبل، ولا تأسف علىٰ ما أدبر. قلت: فما غاية التواضع؟ قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقىٰ أحداً إلا رأيت له الفضل عليك»[1]. و ـ كما ترىٰ ـ ليس الذي قاله يوسف رَحِمَهُ اللهُ بالمرتقىٰ السهل، فهو من الخلائق التي لا يستطيعها إلا من زكت أنفسهم، وقويت صلتهم بالله ﷻ، ورضوا بما عنده، حتىٰ استوىٰ عندهم إقبال الدنيا وإدبارها، فلا يفرحون بما أوتوا، ولا يحزنون علىٰ ما فات.

والعبودية الصادقة لله، واستشعار ضعفهم وذلتهم بين يديه، تجعل الواحد منهم من اليقظة بحيث لا يلقىٰ واحداً من إخوانه المؤمنين إلا رأىٰ أنه خير منه. وقوله: «فلا يلقىٰ أحداً» أي: من المسلمين بلا ريب.

وفي معرض الحديث عن أثر مخافة الله في سلوك المؤمن، وما تثمره محاسبة النفس من بعد عن الغفلة ويقظة تفتح لصاحبها سبل الخير يقول رَحِمَهُ اللهُ فيما روىٰ عبد الله بن خبيق قال: «قال لي يوسف بن أسباط: عجبت كيف تنام عين مع المخافة، أو يغفل قلب مع محاسبة النفس»[2].

ولكم يبدو عميق النظرة في أغوار النفس الإنسانية حين يقول: «الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا»[3] إنه كلام غني عن الأدلة والشواهد.

وفي علاج للقلوب من الشهوات، وما قد ينتابها من الغفلة يقول: «خلقت القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات لا يمحو الشهوات إلا خوف مزعج. أو شوق مقلق»[4].

ويبدو أن ابن أسباط أجزل الله مثوبته، كان كثير الإفادة ممن تقدمه من

---

(١) «الحلية»: ٨/ ٢٣٨، «السير»: ٩/ ١٧٠. وفي رواية: «إلا رأيته خيراً منك». «صفة الصفوة»: ٤/ ٢٦٥.

(٢) «الحلية»: ٨/ ٢٣٨.

(٣) نفسه: ٨/ ٢٣٨، «صفة الصفوة»: ٤/ ٢٣٥.

(٤) «الحلية»: ٨/ ٢٣٨، «صفة الصفوة»: ٤/ ٢٦٢، «تاريخ الإسلام» للذهبي: ١٣/ ٤٨٤.

الشيوخ، سريع التأثر بالكلمة التي تنبع من القلب. جاء في بعض كلامه: «قلت لأبي وكيع: ربما عرض لي في البيت شيء فيداخلني الرعب، فقال لي: يا يوسف، من خاف الله خاف منه كل شيء، قال يوسف: فما خفت شيئاً بعد قوله»[1] وهذا فارق ما بين الكلمة تخرج من اللسان مقطوعة النسب مبتورة ميتة، وبين الكلمة تخرج من القلب، فتستقر في القلب، وتنعكس آثارها علىٰ مشاعر المؤمن وجوارحه.

ولم يكن الرجل بمعزل عن الحياة وما فيها، أو ممن شغلته نفسه عن الاهتمام بأمور المسلمين والحرص علىٰ رفع الظلم عنهم، وفي كلمات قلَّ عدد حروفها وكثرت معانيها، حتىٰ كانت أشبه بجوامع الكلم يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعْصَىٰ الله»[2].

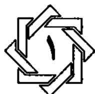
عظيم أن يصحو الرجل الصالح لنفسه فيرعاها دائماً بالتزكية والمحاسبة، ولكن الأعظم من ذلك، أن يجمع إلىٰ هذه الفضيلة، صدق اهتمامه بأمور الأمة، وبيان حكم الله فيمن تجافىٰ عن الطريق السوي، وخضع لسلطان الهوىٰ واستبد به ما يكون من مغانم قريبة عاجلة، فجاهر ربه بالدعاء للظالم بالبقاء، نعوذ بجبار السماوات والأرض من ذلك. رحم الله يوسف بن أسباط، وجزاه خير ما يجزي عالماً عاملاً نصح لنفسه وللأمة. وعافانا من السكوت عن الباطل وأهله والدعاء للظلمة بالبقاء ولله الأمر من قبل ومن بعد.



(١) «الحلية»: ٨/ ٢٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ٨/ ٢٤٠.

من وصية الإمام الشافعي رضي الله عنه[1]



إن من الرجال رجالاً حملوا علوم الإسلام بأمانة، وبلغوها بصدق، وساروا بها في الناس لا يبغون عن مرضاة الله حولاً، ولا يرضون بالزلفىٰ إليه بدلاً... فكان أن كتب الله لكلامهم القبول في الأرض لما أنه ـ مع الحجة والدليل عند الاستنباط ـ مضمخ بندىٰ الإخلاص ـ محمول علىٰ أكف الملائكة جمعوا فيه بين العلم والعمل، ولم يألوا جهداً في أن يحملوا الأمة علىٰ مورد الهداية... ويقفوها علىٰ النبع السلسبيل من كتاب الله وسنة النبي ﷺ... أولئك هم أئمة الهدىٰ الذين أشرقت بهم الدنيا، وصلح بعلمهم وعملهم أمر المسلمين، وكانوا بحق منارات الضياء للعقول والقلوب علىٰ طريقنا الثقافي الأصيل وحضارتنا الإنسانية المثلىٰ. ومن عيون هؤلاء الأئمة رضوان الله عليهم الإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي كان كما قال الإمام أحمد بن حنبل كالشمس للدنيا والعافية للأبدان. وإني مثبت هنا جملة من وصيته رحمه الله التي نبصر من خلالها لمحة من التزام المنهج الرباني، وصورة صادقة عن المسلك الذي كان يسلكه هؤلاء الربانيون. والوصية نقلها إلىٰ الناس الربيع بن سليمان وقد رويت بالسند المتصل إليه.

(حدث أبو العباس محمد بن يعقوب[2] قال: أخبرنا الربيع بن سليمان

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة عشرة، العدد (١٠)، ذو الحجة ١٣٩٦هـ، تشرين الثاني ١٩٧٦م.

(٢) هو محمد بن يعقوب بن يوسف الإمام المحدث الثقة، حدَّث بكتاب «الأم» للإمام الشافعي عن الربيع وطال عمره، أصيب بالصمم وهو شاب وسنُّه بضع وعشرون سنة. روىٰ عنه في: الدنيا بالإجازة أبو نعيم الحافظ، ولد سنة ٢٤٧هـ، وتوفي سنة ٣٤٦هـ. وانظر: «السير»: ١٥/ ٤٥٢، ٤٥٦.

قال: قرئ علىٰ محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وأنا حاضر هذا الكتاب، كتبه محمد بن إدريس بن العباس الشافعي، في شعبان سنة ثلاث ومائتين، وأشهد الله عالم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وكفىٰ به جل ثناؤه شهيداً، ثم من سمعه: أنه يشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ، لم يزل يدين بذلك، وبه يدين حتىٰ يتوفاه الله تعالىٰ ويبعثه عليه إن شاء الله تعالىٰ، وإنه يوصي نفسه وجماعة من سمع وصيته: بإحلال ما أحل الله تبارك وتعالىٰ في كتابه ثم علىٰ لسانه نبيه ﷺ، وتحريم ما حرَّم الله في الكتاب ثم في السنة، ولا يجاوزون من ذلك إلىٰ غيره، فالمجاوزة ترك فرض الله، وترك ما خالف الكتاب والسنة وهما من المحدثات، والمحافظة علىٰ أداء فرائض الله في القول والعمل، والكف عن محارمه خوفاً لله عَجَّلَ، وكثرة ذكر الوقوف بين يدي ربه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

وأن ينزل الدنيا حيث أنزلها الله عَجَّلَ، فإنه لم يجعلها دار مقام إلا مقام مدة عاجلة الانقطاع، وإنما جعلها دار عمل، وجعل الآخرة دار قرار وجزاء بما عمل في الدنيا من خير أو شر، إن لم يعف جل ثناؤه.

وأن يخالَّ أحداً إلا أحداً خاله الله ممن يعقل الخلة لله تبارك وتعالىٰ، ويرجىٰ منه إفادة علم في دين، وحسن أدب في دنيا.

وأن يعرف المرء زمانه، ويرغب إلىٰ الله في الخلاص من شر نفسه فيه، ويمسك عن الإسراف بقول أو فعل في أمر لا يلزمه، وأن يخلص النية لله فيما قال وعمل، فإن الله يكفي مما سواه، ولا يكفي منه شيء غيره. وأوصىٰ متىٰ حدث به حدث الموت الذي كتب الله عَجَّلَ علىٰ خلقه، الذي أسأل الله العون عليه وعلىٰ ما بعده، وكفاية كل هول دون الجنة برحمته)(١).

وبعد أن ذكر الوصية في أمور أولاده وصدقته وغيرها قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

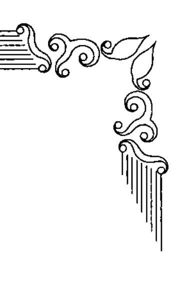
(١) وانظر: «الأم» للشافعي: ٥/٢٦٢ ـ ٢٦٤ تحقيق رفعت عبد المطلب. «مناقب الشافعي» للبيهقي: ٢/٢٨٨ ـ ٢٨٩، «الحلية»: ٩/٦٣، «صفة الصفوة»: ٢/١٤٠، «السير»: ١٠/٥.

«ومحمد بن إدريس يسأل الله القادر علىٰ ما يشاء، أن يصلي علىٰ محمد عبده ورسوله، وأن يرحمه فإنه فقير إلىٰ رحمته، وأن يجيره من النار، فإنه غني عن عذابه، وأن يخلفه في جميع ما خلف، بأفضل ما خلف به أحداً من المؤمنين، وأن يكفيهم فقده، ويجبر مصيبتهم من بعده، وأن يقيهم معاصيه، وإتيان ما يقبح بهم، والحاجة إلىٰ أحد من خلقه بقدرته»(١).

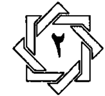
رحم الله الإمام المطلبي ناصر السنة، بما قدم للأمة من علم في شريعتها ولغتها، وبما مهد لفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من طريق ومنهج. . وأعلىٰ مقامه في الآخرين بما كان من تطلعه إلىٰ الآخرة وخشيته لله ﷻ، وسيره الدائب إلىٰ الله فقهاً في الدين وتفقيهاً للناس، وسلوكاً في مدارج التقوىٰ بلغ به ـ إن شاء الله ـ مراتب السابقين المقربين.



(١) «الأم»: ٥/٢٦٦، «مناقب الشافعي» للبيهقي: ٢/٢٨٩.



مع الإمام الشافعي رضي الله عنه[1]



عرضنا فيما سبق من كلمات خلت لوصية الشافعي رضي الله عنه، واستبان لنا ما هي ناطقة به من صدق هذا الإمام، وخشيته من الله وهو في آخر مرحلة من مراحل الدنيا، واستقباله للموت الذي هو ناهية كل حي.. لقد عرضنا لهذه الوصية ورأينا من خلالها سمة من سمات الربانيين. وفي هذه العجالة من القول نعيش مع بعض كلماته التي تنم عن مشاعره وهو في مرضه العضال لندرك أي سر إلٰهي وراء ما كان من القبول لكلام أئمة الهدىٰ في هذه الأرض، وأن الأمر ليس أمر علم وكفىٰ، ولكنه أمر العمل مع العلم، والتقوىٰ مع المعرفة، والصلة الدائمة بالله مع الذكر والألقاب والتكريم في دنيا الناس، بحيث لم يشغلهم عن الله شاغل، ولا صرف قلوبهم صارف، وكانوا الأئمة العاملين المتقين، كما كانوا الأئمة العالمين المجتهدين.

وهل مثل الصبر علىٰ البلاء والرضا عن الله تمام الرضا دليل علىٰ صدق العبد، وتمثله لسنة المصطفىٰ ﷺ وسنة أصحابه من بعده في هذا الباب؟ حدث يونس بن عبد الأعلىٰ قال: ما رأيت أحداً لقي من السقم ما لقي الشافعي، دخلت عليه يوماً فقال لي: يا أبا موسىٰ، اقرأ عليَّ ما بعد العشرين والمائة من آل عمران. وأخف القراءة ولا تثقل، فقرأت عليه، فلما أردت القيام، قال لا تغفل فإني مكروب. قال يونس: عنىٰ الشافعي رضي الله عنه بقراءتي ما بعد العشرين والمائة ما لقي النبي ﷺ وأصحابه أو نحوه[2].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة عشرة، محرم ١٣٩٧هـ، كانون الأول ١٩٧٧م.

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي: ٢/ ٢٩٣، «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي: ١/ ٦٥، «السير»: ١٠/ ٧٥.

وعلىٰ ذلك السنن من المراقبة والصبر إبان شدة البلاء والسقم كان من حاله ما روىٰ المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه دخل علىٰ الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقال: كيف أصبحت يا أبا عبد الله.

فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلىٰ الله وارداً، ولسوء أعمالي ملاقياً، فلا أدري نفسي - أو روحي - تصير إلىٰ الجنة فأهنيها أو إلىٰ النار فأعزيها.

ثم بكىٰ وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوُك أعظما
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

وهنا تتجلىٰ لك قدرة المزني علىٰ اقتناص الفائدة في وقتها المناسب، فقد شرب من علم الشافعي ما يروي غليل الراغب الصادق، والآن يريد لروحه وقلبه وإمامه علىٰ فراش الموت.

قال المزني: فقلت: يا أبا عبد الله رحمك الله فعظني.

فقال لي: اتق الله، ومثِّل الآخرة في قلبك، واجعل الموت نصب عينيك: ولا تنس موقفك بين يدي الله عَجَّلَ، وكن مع الله تعالىٰ عَجَّلَ، واجتنب محارمه، وأدِّ فرائضه، وكن مع الحق حيث كان، ولا تستصغرن نعم الله عليك، وإن قلت، وقابلها بالشكر. وليكن صمتك تفكراً، وكلامك ذكراً، ونظرك عبرة، اعف عمن ظلمك، وصِل من قطعك، وأحسن إلىٰ من أساء إليك، واصبر علىٰ النائبات، واستعذ بالله من النار بالتقوىٰ.

فقلت: زدني رحمك الله، يا أبا عبد الله.

فقال: ليكن الصدق لسانك، والوفاء عمادك، والرحمة ثمرتك، والشكر طهارتك، والحق تجارتك، والتودد زينتك، والكتاب فطنتك، والطاعة معيشتك، والرضا أمانتك، والفهم بصيرتك، والرجاء اصطبارك، والخوف جلبابك، والصدقة حرزك، والزكاة حصنك، والحياء أميرك، والحلم وزيرك، والتوكل درعك، وتكون الدنيا سجنك، والفقر ضجيعك، والحق قائدك،

والحج والجهاد بغيتك، والقرآن محدثك، والله مؤنسك. فمن كانت هذه صفته، كانت الجنة منزلته[1].

أجزل الله مثوبة إمامنا المطلبي، وبوّأه في الآخرة نُزل العلماء العاملين، الذائدين عن شريعة كتابه، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. وتبارك اسم ربنا الذي جعل من العلماء العاملين ورثة للأنبياء ينفون عن الدين كيد المبطلين ونُحل الجاهلين، ويبصرون الأمة بحقائقه ويربونها علىٰ سَنَنِه. سبحانه جعل منهم منارات ضياء وهدىً يسعد السالك مع هداها في الدارين، وصدق فيهم ـ وهم العدول الربانيون ـ قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[2].

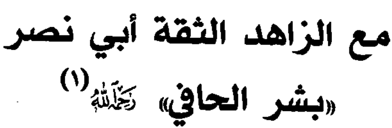
ويرحم الله الحافظ أبا نعيم الأصبهاني حيث يقول في «الحلية» مفتتحاً ترجمة الإمام الشافعي المطلبي: (ومنهم الإمام الكامل، العالم العامل، ذو الشرف المنيف، والخلق الظريف، له السخاء والكرم، وهو الضياء في الظلم، أوضح المشكلات، وأفصح عن المعضلات، المنتشر علمه شرقاً وغرباً، المستفيض مذهبه براً وبحراً، المتبع للسنن والآثار، والمقتدي بما اجتمع عليه المهاجرون والأنصار، اقتبس عن الأئمة الأخيار، فحدث عنه الأئمة الأحبار، الحجازيُّ المطلبيُّ أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه وأرضاه)[3].

---

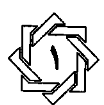
(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٥١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١، «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) «مشكاة المصابيح» للخطيب التبريزي، تحقيق الألباني، رقم (٢٤٨) طبع المكتب الإسلامي.

(٣) «الحلية»: ٩/ ٦٣.



مع الزاهد الثقة أبي نصر «بشر الحافي» رَحِمَهُ اللَّهُ[1]



هو الإمام العالم المحدِّث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام، المروزي ثم البغدادي بشر بن الحارث بن عبد الرحمٰن بن عطاء أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي ابن عم المحدّث علي بن خشرم.

كان مولده سنة ١٥٢هـ، وممن سمع منهم في بغداد: حماد بن زيد، وعبد الله بن المبارك، وابن مهدي، ومالك وأبو بكر بن عياش، وغيرهم، وسمع منه جماعة منهم: أبو خيثمة، وزهير بن حرب، وسري السقطي، والعباس بن عبد العظيم، ومحمد بن حاتم وغيرهم. وقد مات رَحِمَهُ اللَّهُ في سنة سبع وعشرين ومائتين قبل المعتصم الخليفة بستة أيام وعاش خمساً وسبعين سنة[2].

ويبدو أنه انصرف إلىٰ العبادة بعد كثرة سماع من العلماء واشتغال بالعلم، وأصبح من أهم ما يتميز به زهادته وورعه ونسكه وتقشفه، وعندما تكون هذه الأمور عن علم ومعرفة بالشريعة... فحدث ولا حرج.

من أجل ذلك أثنىٰ عليه كثير من كبار الأئمة رحمهم الله، حتىٰ قال الإمام أحمد يوم بلغه موته: لم يكن له نظير إلا عامر بن عبد قيس، ولو تزوج

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة عشرة، العدد (١٠)، ذو الحجة ١٣٩٤هـ، كانون الثاني ١٩٧٥م.

(٢) انظر: «الحلية»: ٨/ ٣٣٦ فما بعد، «صفة الصفوة»: ٢/ ١٨٣، «تهذيب الكمال»: ٤/ ٩٩ فما بعد، «السير»: ١٠/ ٤٦٩.

لتمّ أمره. وفي رواية عنه أنه قال: ما ترك بعده مثله[1]. وقال إبراهيم الحربي: «ما أخرجت بغداد أتمّ عقلاً منه، ولا أحفظ للسانه منه، ما عرف له غيبة لمسلم، وفي كل شعرة منه عقل، ولو قسم عقله علىٰ أهل بغداد لصاروا عقلاء، وما نقص من عقله شيء..»[2] وطبيعي أن هذا الكلام من الإمام أحمد والحربي يدل علىٰ طبيعة المقاييس التي كانت تقاس بها الرجال يومذاك. ومن أوضحها: ما كان عليه بِشرٌ من العلم والعمل... والعبادة الصادقة... والزهادة في الدنيا.. في ورع يجعل الجوارح بعيدة عن الولوغ في المخالفات.. وهذا ما يجعل من حال العابد قبل قاله نوراً يضيء للناس طريقهم.. ويجعل لكلامه وسيره القبول في الأرض...

من هنا ترجم له أبو نعيم في «الحلية» بقوله: «ومنهم من حباه الله الحق بجزيل الفواتح، وحماه من وبيل الفوادح، أبو نصر بشر بن الحارث الحافي، المكتفي بكفاية الكافي، اكتفىٰ فاشتفىٰ»[3].

وقد وردت عدة روايات بشأن تحوله عن الطريق المخالفة إلىٰ حيث آل أمره؛ منها ما أورده الحافظ ابن كثير أنه كان «شاطراً» في بدء أمره، وكان سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم الله ﷻ في أتون حمام، فرفعها ورفع طرفه إلىٰ السماء وقال: سيدي اسمك هاهنا ملقىٰ يداس!! ثم ذهب إلىٰ عطار فاشترىٰ بدرهم غالية ـ طيباً ـ وضمخ تلك الرقعة ووضعها حيث لا تنال، فأحيا الله قلبه وألهمه رشده، وصار إلىٰ ما صار إليه من العبادة والزهادة[4].

وهذا الذي أكرمه الله به جعل لكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ رونقاً، لأنه يخرج من القلب فيدخل القلوب في نفاذ وتأثير.

ففي تذوق لما كان عليه من الزهادة الصادقة في الدنيا التي يتقاتل عليها الناس، وكثيراً ما تفرق بين المرء وأحب الناس إليه قال أبو جعفر البزار:

---

(١) ينظر: «السير»: ١٠/ ٤٧٢، «تهذيب الكمال»: ٤/ ١٠٥ ـ ١٠٦، «البداية والنهاية»: ١٤/ ٢٩٠.

(٢) «تهذيب الكمال»: ٤/ ١٠٦ ـ ١٠٧، «البداية والنهاية»: ١٤/ ٢٩٠.

(٣) «الحلية»: ٨/ ٣٣٦.

(٤) «تاريخ دمشق»: ١٠/ ١٨١، «صفة الصفوة»: ٢/ ١٨٣، «البداية والنهاية»: ١٤/ ٢٩١.

سمعت بشر بن الحارث يقول: «قل لمن طلب الدنيا: تهيأ للذل»[1].

وعند بشر ـ أجزل الله مثوبته ـ تجد الفهم العميق لمكانة العلم، وضرورة ارتباطه بالتقوىٰ.. وأن الفضيلة جاءت من هنا.. وإلا عاد العلم سلاحاً يرتد إلىٰ صدر صاحبه. قال في ذلك: «إنما فضل العلم علىٰ غيره ليُتَّقىٰ به»[2].

وفي تعريف مشرق لعز المؤمن وشرفه قال رحمة الله عليه: «عز المؤمن استغناؤه عن الناس، وشرفه قيامه بالليل»[3].

أرأيت... العز فيما بايع النبي عليه أصحابه من أن لا يسأل أحدهم الناس شيئاً... والشرف في وقفة العبودية بين يدي جبار السماوات والأرض حيث يقف الذين قال الله فيهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة].

ويبدو أنه كان كثير المحبة لأصحاب النبي ﷺ، وذلك من سمات المؤمن الصادق لأن في ذلك وقوفاً عند الذي تمليه نصوص الكتاب والسنة؛ قال السري السقطي: سمعت بشر بن الحارث يقول: «ما أنا بشيء من عملي أوثق به مني بحب أصحاب محمد ﷺ»[4]. وعن علي بن الحسين القاضي، سمعت عبيد بن محمد الوراق يقول: سمعت بشر بن الحارث يقول: «أوثق عملي في نفسي حب أصحاب محمد ﷺ»[5].

هذا طرف من سيرة هذا الرجل الرباني الذي أكرمه الله بصدق العبودية له، وحسن الإنابة إليه، والتزهد في الدنيا، والعمل لما بعد الموت... وما أشد احتياجنا ـ والغفلة تضرب بجرانها علىٰ القلوب ـ لأن نذكر عمل العاملين وصدق الصادقين، ليكون لنا ما به تستيقظ القلوب من غفلتها... ولنا عودة ـ إن شاء الله ـ إلىٰ سيرة هذا الرجل الرباني الكبير. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

---

(١) «الحلية»: ٨/ ٣٥٢.

(٢) عبارة سفيان الثوري: «إنما يطلب العلم ليتَّقىٰ به، فمن ثَم فضل، فلولا ذلك لكان كسائر الأشياء»، «الحلية»: ٦/ ٣٦٢.

(٣) وانظر: «الحلية»: ٨/ ٣٤٣.

(٤) «الحلية»: ٨/ ٣٣٨.

(٥) المصدر نفسه: ٨/ ٣٣٨.

مع بشر الحافي رَحِمَهُ اللهُ[1]

كلمات أخر



نحن علىٰ موعد مع هذا الرجل الرباني الزاهد الثقة أجزل الله مثوبته، وقد رأينا من عهد قريب بعضاً من مآثره وكلماته التي هي انعكاس صدقه واستقامته، واليوم نعيش مع رسالة أرسلها إلىٰ علي بن خشرم[2]، هي محض النصح، وسلامة التوجيه، وصدق الأخوة في الله. وذلك يذكرنا بقول الله تباركت أسماؤه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف] كتب رَحِمَهُ اللهُ يقول:

إلىٰ أبي الحسن علي بن خشرم.

«السلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإني أسأل الله أن يتم ما بنا وبكم من نعمة، وأن يرزقنا وإياكم الشكر علىٰ إحسانه، وأن يميتنا ويحيينا وإياكم علىٰ الإسلام، وأن يسلم لنا ولكم خلفاً من تلف، وعوضاً من كل رزية.

أوصيك بتقوىٰ الله يا علي، ولزوم أمره والتمسك بكتابه ثم اتباع آثار القوم الذين سبقونا بالإيمان، وسهلوا لنا السبل، فاجعلهم نصب عينيك، وأكثر عرض حالاتهم عليك، تأنس بهم في الخلاء، ويغنوك عن مشاهد الملأ؛ فمثّل

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة عشرة، العدد (١)، ربيع الأول ١٣٩٥هـ، آذار ١٩٧٥م.

(٢) هو علي بن خشرم بن عبد الرحمٰن الإمام الحافظ الصدوق ابن أخت بشر الحافي، ثقة، روىٰ عنه: مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم، أبو الحسن المروزي، توفي سنة سبع وخمسين ومائتين للهجرة أو بعدها وقد قارب المائة. «السير»: ١١/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣.

حالهم أنك تشاهدهم، فمجالسة أصحاب النبي ﷺ أوفق من مجالسة الموتىٰ ممن يرقب منك زلتك وسقطتك، إن قدر عليها، فإن لم يقدر عليها جعل جليسك إن رآه عندك عيبك، فرماك بما لم يره الله منك.

واعلم علَّمك الله الخير وجعلك من أهله، أن أكثر عمرك فيما أرىٰ قد انقضىٰ، ومن يرضي حاله قد مضىٰ، وأنت لاحق بهم، وأنت مطلوب ولا تعجز طالبك، وأنت أسير في يديه، وكل الخلق في كبريائه صغير، وكلهم إليه فقير، فلا يشغلنك كثرة من يحبك، وتضرع إليه تضرع ذليل إلىٰ عزيز، وفقير إلىٰ غني، وأسير لا يجد ملجأ ولا مفراً يفر إليه غيره، وخائف مما قدمت يداه، غير واثق علىٰ ما يقدم، لا يقطع الرجاء ولا يدع الدعاء، ولا يأمن من الفتن والبلاء، فلعله إن رآك كذلك عطف عليك بفضله، وأمدك بمعونته، وبلغ بك من عفوه ورحمته، فافزع إليه في نوائبك، واستعنه علىٰ ما ضعفت عنه قوتك، فإنك إذا فعلت ذلك قربك بخضوعك له، ووجدته أسرع إليك من أبويك، وأقرب إليك من نفسك، وبالله التوفيق وإياه اسأل خير المواهب لنا ولك.

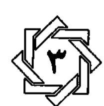
واعلم يا علي أنه من ابتلي بالشهرة ومعرفة الناس فمصيبته جليلة، فجبرها الله لنا ولك بالخضوع، والاستكانة والذل لعظمته، وكفانا وإياك فتنتها وشر عاقبتها فإنه تولىٰ ذلك من أوليائه ومن أراد توفيقه، وارجع إلىٰ أقرب الأمرين منك، إلىٰ إرضاء ربك، وإشارة أحياء القلوب من صالح أهل زمانك، ولا ترجعن بقلبك إلىٰ محمدة أهل زمانك ولا ذمهم فإن من كان يتقىٰ ذلك منه قد مات، وإنما أنت في محل موتىٰ ومقابر أحياء ماتوا عن الآخرة، ودرست عن طرقها آثارهم، هؤلاء أهل زمانك فتوار مما لا يستضاء فيها بنور الله، ولا يستعمل فيها كتابه إلا من عصم الله، ولا تبال من تركك منهم، ولا تأس علىٰ فقدهم، واعلم أن حظك في بعدهم أوفر من حظك في قربهم، وحسبك الله فاتخذه أنيساً ففيه الخلف منهم، فاحذر أهل زمانك، وما العيش مع من يظن به في زمانك الخير، ولا مع من يسيء به الظن خير، وما ينبغي أن يكون في طلعة أبغض إلىٰ عاقل تهمه نفسه من طلعة إنسان في زمانك، لأنك منه علىٰ

شرف فتنة إن جالسته، ولا تأمن البلاء إن جانبته، والموت في العزلة خير من الحياة مع من لا يؤمن خوف فتنته واجعل أذنك عما يؤثمك صماء، وعينك عنه عمياء، احذر سوء الظن فقد حذرك الله تعالىٰ ذلك، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿... إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] والسلام[1].



(١) «الحلية»: ٨/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.

مع بشر الحافي رَحِمَهُ اللَّهُ(1)



حديث هؤلاء البررة الربانيين حديث لا تمله القلوب، لما أنه يحملنا علىٰ جناح من الطهر ورفافية الحس، إلىٰ واحة تزخر بالعطاء الرباني متمثلة في سَيْرهم الدائب الحثيث إلىٰ الله وفرارهم إليه، ومسارعةٍ لا تعرف الكلال إلىٰ مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

وقد كان من حديثنا عن هذا الزاهد الكبير بشر بن الحارث الذي اشتهر بـ (بشر الحافي) رسالته التي بعث بها إلىٰ علي بن خشرم ناصحاً ومذكراً... حيث رأينا فيها كلمات هي أشبه ما تكون بميراث النبوة... لأنها فيض الاتباع الصادق لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

ونعود اليوم ـ كما وعدنا ـ إلىٰ بعض من سيرته وكلماته رَحِمَهُ اللَّهُ.

ففي تقدير للرجال وإعطاء الأعمال قيمها قال في شأن موقف الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم فتنة القول بخلق القرآن... ذلك الموقف الذي أصبح معلماً من المعالم يسير علىٰ هديه العلماء العاملون الذين يصدعون بالحق ولا يخافون في الله لومة لائم... قال بشر في ذلك: «دخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهباً أحمر... فبلغ ذلك أحمد فقال: الحمد لله الذي أرضىٰ بشراً بما صنعنا»(2).

وفي تواضع جم، ووقوف عند مقاييس علماء الآخرة، وخوف من الله أن يحق عليه قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢

---

(1) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة عشرة، العدد (٢)، ربيع الآخر ١٣٩٥هـ، نيسان ١٩٧٥م.

(2) «الحلية»: ٨/ ٣٣٧ من رواية علي بن خشرم عنه.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف] كان له موقف نراه فيما حدث الحسن بن سعيد قال: «كنا عند بشر بن الحارث فجاء رجل من خراسان، فبرك قدامه فقال له: يا أبا نصر، إن وفد خراسان، حدثني بخمسة أحاديث أذكرك بها بخراسان، فلم يزل يتلطف له وبشر يقول له: المحدثون كثير، فلم يزل يداريه ويجتهد به، فلما رأىٰ أنه لا ينفعه شيء قال له: يا أبا نصر، أليس تروي عن عيسىٰ عليه السلام أنه قال: من علم وعمل وعلَّم فذلك الذي يدعىٰ عظيماً في ملكوت السماء؟ قال له: كيف قلت؟ أعد عليَّ، فأعاد عليه القول: من علم وعمل وعلَّم فذلك الذي يدعىٰ عظيماً في ملكوت السماء، قال له: «صدقت، قد علمنا حتىٰ نعمل ثم نعلِّم»[1].

وأنت ترىٰ أن هذا من أبي نصر ليس كتماً للعلم، ولكن كان يرىٰ في غيره أهلية تبليغ حديث رسول الله ﷺ، كما يخشىٰ علىٰ نفسه أن يكون ممن يقول ولا يفعل.. ولو تمحض أمر التبليغ فيه لما وقف هذا الموقف، عملاً بقول رسول الله ﷺ فيما روىٰ زيد بن ثابت رضي الله عنه: «**نضَّر الله أمرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتىٰ يبلغه غيره، فربَّ حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه**»[2].

إن بشراً يخاف أن يكون حظه من العلم شقشقة اللسان دون عمل، وأن تحمله الكلمة مسؤولية العمل بها، وهو لشدة مخافته من الله لا يرىٰ في نفسه أهلية العلماء المتقين، وما أكثر ما يجد الشيطان من المداخل إلىٰ نفوس علماء الدنيا من طريق الرياء وأن يلتمس بالعلم الدنيا والقرب من أهل الجاه والنفوذ... نسأل الله عفوه وعافيته.

---

(١) «الحلية»: ٨/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) رواه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الحث علىٰ تبليغ السماع: ٥/ ٣٤ رقم (٢٦٥٦) وله في رواية أخرىٰ رقم (٦٥٨): «**نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها...**» الحديث. ورواه أبو داود في العلم رقم (٣٦٦٠) حديث صحيح، ورواه أحمد وابن ماجه والدارمي.

وللترمذي أيضاً من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**نضّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرُبّ مبلّغ أوعىٰ من سامع**» رقم (٢٦٥٧).

ولا بدع أن يخاف أبو نصر رَحِمَهُ اللهُ علىٰ نفسه الرياء وما إليه، وهو الذي كان علىٰ قدم أولئك الرجال الذين منهم مالك بن دينار.. مالك الذي روىٰ بشر أن رجلاً قال له: يا مرائي، فقال ابن دينار أجزل الله مثوبته: متىٰ عرفت اسمي؟ ما عرف اسمي غيرك[1].

ومن هنا كان يأخذ نفسه بالعمل بالعلم.. ويحرص علىٰ تربية من ولاه الله أمرهم علىٰ ذلك، فقد روي عن الفضل بن العباس الحلبي قال: سمعت أبا نصر بشر بن الحارث ـ وذكر العلم وطلبه ـ فقال: «إذا لم يعمل به فتركه أفضل، والعلم هو العمل، فإذا أطعت الله علمك، وإذا عصيته لم يعلمك، والعلم أداة الأنبياء إلىٰ احتجاجهم، فذكر أن النبي ﷺ أدىٰ إلىٰ أصحابه فتمسكوا به. وحفظوه وعملوا به، ثم أدوه إلىٰ قوم فذكر من فضلهم، وأدىٰ أولئك إلىٰ قوم آخرين، فذكر الطبقات الثلاثة ثم قال أبو نصر: وقد صار العلم إلىٰ قوم «يأكلون به»[2].

رحم الله بشر بن الحارث.. إن في كلماته هذه دعوة إلىٰ العلم، وحرصاً علىٰ العمل، فالعلم بلا عمل عبء علىٰ صاحبه ومسؤولية في كفة سيئاته يوم الله... والاستشهاد بطرائق الأنبياء وفعل النبي عليه الصلاة والسلام يؤكد ما نقول، وإذا كان أبو نصر يغترف من بحر النبوة، فإن سنة النبي ﷺ بيان الكتاب الكريم الذي نجد فيه بعد آية المداينة التي علَّمت ما علَّمت، وبينت من الأحكام ما بينت، قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة].

وتلك هي سنة الإسلام علم وعمل، والله يفتح للمتقين من أبواب الفهم ما يفتح، وينير قلوبهم بما ينير... وكل ما تجده لديهم من الفتح الإلـٰهي لا يمكن أن يخرج علىٰ العربية التي بها نزل الكتاب، أو أن يتجافىٰ مع مفهومات الشريعة الموحىٰ بها إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام... وذلكم نهج الربانيين.

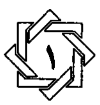
---

(١) «حلية الأولياء»: ٨/ ٣٣٩، «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٠٧.
(٢) «الحلية»: ٨/ ٣٤٠ ـ ٣٤١.

في خاتمة رحلتنا القصيرة مع أبي نصر «بشر الحافي» نسأل الله تبارك وتعالىٰ أن يفيض عليه من سحائب رحمته ويجزيه عن هذه الأمة خير جزائه، وأن يأخذ بأيدينا إلىٰ مرابع السعادة بتقواه، وهو المرجو سبحانه أن يتوفانا مسلمين، ويلحقنا بالصالحين.. وله الحمد في الأولىٰ والآخرة.. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].



مع أبي سليمان الداراني رحمه الله[1]



هو عبد الرحمٰن بن أحمد بن عطية يقال: أصله من واسط، وداراني نسبة إلىٰ داريا في غوطة دمشق ـ وهي نسبة علىٰ غير القياس ـ وقد عاش فيها وكانت وفاته فيها أيضاً وذلك سنة ٢١٥هـ وقبره معروف هناك. روىٰ عن: الربيع بن صبيح من أهل العراق وروىٰ عنه: صاحبه أحمد بن أبي الحواري، والقاسم الجوعي وغيرهما[٢].

كان رحمه الله يجمع ـ إلىٰ العلم والمعرفة ـ زهادة في الدنيا، ودأباً علىٰ العبادة، ونفاذاً في كل ما يؤدي إلىٰ حسن العاقبة، وفهماً في دين الله أعانه عليه صفاء القلب وصدق الوجهة والتزام ما كان عليه السابقون الأولون ممن نهلوا من نور النبوة.. وأخذوا أنفسهم بالصالح من القول والعمل حتىٰ كانت راحتهم بالكلال في سبيل الله.. ولذتهم في الرضا بما عند الله.

وسليمان ولده كان من العباد الزهاد أيضاً مات رحمه الله بعد أبيه بسنتين وشهر في سنة ٢١٧هـ قال أحد أصحاب أبي سليمان: «اجتمعت أنا وأبو سليمان الداراني ومضينا في المسجد فتذاكرنا الشهوات: وأن من أصابها عوقب، ومن تركها أثيب، وقال: وسليمان بن أبي سليمان ساكت، ثم قال لنا: لقد أكثرتم منذ العشية ذكر الشهوات، أما أنا: فأزعم أن من لم يكن

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة عشرة، العدد (٨)، شوال ١٣٩٥هـ، تشرين الثاني ١٩٧٥م.

(٢) «طبقات الصوفية» للسُّلمي: ص٧٥، «الحلية» لأبي نعيم: ٩/ ٢٥٤، «الرسالة القشيرية»: ص١٩، «صفة الصفوة»: ٤/ ١٩٧، «تاريخ بغداد»: ١٠/ ٢٤٨ ـ ٢٥٠. وينظر: «الروضة الريا فيمن دفن بداريا» ص٣٢ ـ ٤٣.

في قلبه من الآخرة ما يشغله عن الشهوات: لم يغن عنه تركها».

الحق أن الرجل تجاوز بنا ظواهر الأمور إلىٰ بواعثها وتلك هي النظرة الفاحصة الدقيقة. الأمر أولاً: أن يكون في القلب من الآخرة ما يشغله عن الشهوات؛ ذلك أن لذة الأنس بأمور الآخرة عند أولئك الربانيين تتقاصر أمامها كل شهوة من شهوات الدنيا. . . فأين الشهوة الفانية التي كثيراً ما تعقب المقت والضيق من تلك الحلاوة التي يتذوقها قلب المؤمن. . والمهم أن أولئك البررة من عباد الرحمـٰن يكونون بإيمانهم بالغيب علىٰ مثل الجبال الرواسي فكل ما أخبر الله ورسوله عنه من النعيم المقيم في الآخرة. . وما يدخره الله لعباده ـ إن هم استقاموا علىٰ الطريقة ـ هو عندهم وكأنه من عالم الشهود ماثل للعيان.

وندع سليمان أجزل الله مثوبته لنعيش ـ ولو لحظات ـ مع أبي سليمان الذي لا تكفي للحديث عنه صفحة أو صفحات. . ها هم أهل الطاعة يفوزون ـ في نظر صالح بن عبد الجليل كما يروي أبو سليمان ـ بلذة العيش في الدنيا بما ينعمون به من الرضا والطمأنينة. . ولذة العيش في الآخرة حين يجدون ما وعدهم ربهم حقاً. قال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الدارادني يقول: سمعت صالح بن عبد الجليل يقول: «ذهب المطيعون لله بلذيذ العيش في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالىٰ لهم يوم القيامة: رضيتم بي بدلاً من خلقي، وآثرتموني علىٰ شهواتكم في الدنيا، فعندي اليوم فباشروها، فلكم اليوم عندي تحياتي وكرامتي، فبي فافرحوا، وبقربي فتنعموا، فوعزتي وجلالي ما خلقت الجنات إلا من أجلكم»[1].

وانظر إلىٰ أبي سليمان يرسم لطلاب الآخرة طريق السلوك فيقول ـ كما روىٰ عنه أحمد بن أبي الحواري ـ: «من أحسن في نهاره كُفيَ في ليله، ومن أحسن في ليله كُفيَ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة كُفيَ مؤنتَها، وكان الله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له»[2].

---

(١) «الحلية»: ٨/ ٣١٧، صالح بن عبد الجليل: (٤٢٤).

(٢) «المصدر السابق»: ٩/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، «طبقات الأولياء» لابن الملقن: ص٣٨٦، وفي «طبقات الصوفية» للسُّلمي: ص٧٧: (كوفئ).

وما هذا اليقين الذي استراح له أبو سليمان وكان من نعم الله العظمىٰ عليه... حتىٰ بات لا يزحزحه عن الحق شيء.. ولا يعرف الشك إلىٰ قلبه سبيلاً!! إنه ثمرة من ثمار متابعة الطريق التي سلكها أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام. قال رَحِمَهُ الله: «لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي» قال ابن أبي الحواري: كان قلبه في هذا مثل قلب أبي بكر الصديق يوم الردة[1].

وفي قاعدة نورانية يحدد بها أبو سليمان حقيقة القناعة والورع يقول: «القناعة أول الرضا والورع أول الزهد»[2].

ولذة الطاعة وما لذة الطاعة؟! يقول أبو سليمان: «ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة، إنما العجب ممن وجد لذتها ثم تركها»[3]!

وفي خاتمة المطاف: أرجو أن يكون لنا مع أبي سليمان لحظات أخرىٰ نعيشها مع توجيهاته وضياء سلوكه، ولله الحمد رب العالمين.

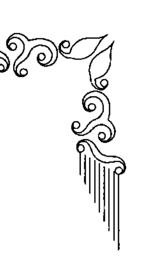


---

(١) «الحلية»: ٩/ ٢٥٦، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: (٣٤/ ١٣٩).

(٢) «الحلية»: ٩/ ٢٥٧، وينظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر: (٣٤/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

(٣) «الحلية»: ٩/ ٢٦٢، ٢٧٥، وينظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر: (٣٤/ ١٤٢).



مع أبي سليمان الداراني رحمه الله(1)

كلمات أخر



عجباً لأمر هؤلاء البررة الذين وقفوا علىٰ الأصيل من المورد يستقون من عذبه الفرات... وعلىٰ هدي الله يستضيئون بنوره في شعاب الحياة... ذلكم هو ميراث النبوة الذي من عشا إلىٰ ضوئه فاز بسعادة الدارين... وتفجرت الحكمة من قلبه علىٰ لسانه... ومن أعرض عنه قسا قلبه... واستبدت به مخازي الشيطان...

أبو سليمان الداراني ـ زاده الله من عفوه وإحسانه في الآخرين ـ واحد من أولئك الصفوة الذين ألهموا الحكمة بما رشفوا من رحيق ذلك الميراث النوراني فطلعوا علينا بما يصلنا دائماً بأدب النبوة... وثمرات الرسالة في قلب المؤمن، حيث ينعكس ذلك نوراً وضياءً علىٰ أقواله وأفعاله وكدحه إلىٰ ربه في هذه الرحلة التي لا بد منتهية إلىٰ لقاء الله عز وجل.

هذا أبو سليمان تصفو نفسه.. وتصفو.. حتىٰ تملك عليه مراقبة مولاه كل مجامع تلك النفس... لقد سأله رجل عن أقرب ما يتقرب به العبد إلىٰ الله عز وجل.. فبكىٰ وقال: «مثلك يَسأل عن هذا؟ أفضل ما يتقرب به العبد إلىٰ الله أن يطلع علىٰ قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره»(2) وأبو سليمان لا يتجافىٰ بهذا مع فضيلة سؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار، إذ إن المؤمن مبتغاه مرضاة الله.. والجنة مظهر الرضا.. كما أن النار ـ والعياذ

(1) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة عشرة، العددان (٩، ١٠)، ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٣٩٥هـ، كانون الأول ـ كانون الثاني ١٩٧٥م.

(2) «الحلية»: ٩/٢٥٦ ـ ٢٥٧، وفي «صفة الصفوة»: ٤/٢٠٥: «مثلي يُسأل عن هذا»؟!

برضاه سبحانه ـ مظهر الغضب.. وفيما ذهب إليه أبو سليمان في جواب هذا السائل، دعوة إلىٰ تصفية النفس من الرياء وحب الظهور... فكثيراً ما يؤتىٰ العابد التقي من هذا الباب... حين يرىٰ أنه علىٰ شيء أو يقع في شرك الرياء والرغبة في أن يراه العباد علىٰ ما هو عليه من الطاعة والتقوىٰ... أما إذا كان لا يريد من الدنيا والآخرة غير الله... فذلكم هو صدق الدعوىٰ.. وعنوان سلامة العمل، وطريق القبول إن شاء الله وموطن ذلك كله هو القلب... فلا بد من العناية به... والعمل علىٰ جلائه ليصفو من المكدرات... ويكون محط عطاء الله وتجلياته... وهل ذلك من أبي سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ... إلا بعض مما يوحي به قول النبي صلوات الله وسلامه عليه: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلَح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1]...

ومن هنا خرج علينا أبو سليمان بتعريف للزهد تعريفاً يربطه بالمعاني القلبية، لما أنه لا بد أن يكون نابعاً من القلب فهو سمة من سمة أعمال القلوب.. قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اختلفوا علينا في الزهد بالعراق فمنهم من قال: الزهد ترك لقاء الناس، ومنهم من قال: في ترك الشهوات، ومنهم من قال: في ترك الشبع. وكلامهم قريب بعضه من بعض»... ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنا أذهب إلىٰ أن الزهد في ترك ما يشغلك عن الله»[2].

وماذا عن الدنيا وأحابيلها في نظر أبي سليمان؟ إنه يحذر بلغة الواثق المطمئن حين يقول: «الدنيا تطلب الهارب منها، فإن أدركته جرحته، وإن أدركها الطالب لها قتلته»[3] والدنيا كما هي علىٰ حقيقتها في فهم هؤلاء الرجال: تتجاوز في مدلولها، أن تكون مالاً وولداً فحسب.. بل هي أوسع من ذلك، فكم لها من سلطان وصولجان في ميادين الجاه، والشهرة، وحب السيطرة والظهور وأن يقال عن المرء كذا.. ويذكر بكذا.. إلخ، من أجل

---

(١) خاتمة حديث طويل رواه مسلم رقم (١٥٩٩) باب أخذ الحلال وترك الشبهات من كتاب المساقاة.

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم: ٩/٢٥٨. (٣) المصدر السابق: ٩/٢٥٨ ـ ٢٥٩.

ذلك وفي ضوء هذا الشمول نقل عنه أحمد بن أبي الحواري قوله: «واحزناه علىٰ الحزن في دار الدنيا»[1] وواضح أن ما يحزن منه أبو سليمان هو الحزن علىٰ أمر من أمور الدنيا أما الحزن المتعلق بالآخرة فذلك محمدة للمؤمن ولا ريب أنه من خلال المتقين.. وقد نقلت إلينا كتب الشمائل أن ذلك كان من صفات النبي صلوات الله وسلامه عليه إذ كان حزنه في قلبه وبشره في وجهه.

وفي توجيه لأولئك السالكين الذين يسيرون علىٰ درب تزكية النفس والتزهد في الدنيا.. ولكن تنتابهم تلك اللحظات من الضعف فيقعون في شرك الغفلة.. ويأتيهم الشيطان من طريق الشهوة وحب الدنيا قال أجزل الله مثوبته: «يلبس أحدهم عباءة قيمتها ثلاثة دراهم ونصف، وشهوته في قلبه خمسة دراهم!! أو ما يستحيي أن تجاوز شهوته لباسه... قال أبو سليمان: وإذا لم يبق في قلبه من الشهوات شيء، جاز له أن يتدرع عباءة ويلزم الطريق، لأن العباءة علم من أعلام الزهد، ولو أنه ستر زهده بثوبين أبيضين بخلطة الناس كان أسلم له»[2]. إن أبا سليمان يريد ما هو أكمل وأكثر اتساقاً مع النهج الإسلامي القويم!! إنه يدعو هذا المتزهد الذي غلبت شهوته في قلبه، مظهره علىٰ جسمه إلىٰ أن يستر زهده بثوبين أبيضين بخلطة الناس.. فذلك أسلم له... لما أن ذلك دليل الصدق أولاً... وآية أن المسلم الحق هو الذي يملك القدرة علىٰ الخلطة ـ في حدود الشريعة ـ مع اليقظة، والبعد عن الانزلاق فيما لا تحمد عقباه..

ولكم يخاف أبو سليمان علىٰ هذا القلب... يخاف عليه أن يلتقمه حب الدنيا... فيكون ذلك إضراراً بآخرة صاحبه... إنه لا ضير أن تكون الدنيا بيد المؤمن يستعين بها علىٰ مرضاة الله ويسخرها لخدمة نفسه وأهله وأمته ولكن الرزية كل الرزية أن تكون الدنيا في القلب هوىً وحباً ولهفة وتلك هي الطامة الكبرىٰ... لأن القلب إما أن يكون للدنيا وإما أن يكون للآخرة. قال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: «إذا جاءت الدنيا إلىٰ

---

(١) «الحلية»: ٩/٢٥٩.

(٢) «الحلية»: ٩/٢٦٠. وانظر: «صفة الصفوة»: ٤/٢٠٤ ـ ٢٠٥.

القلب ترحلت الآخرة عنه، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تجئ الآخرة تزحمها، لأن الدنيا لئيمة والآخرة عزيزة»(١).

وَبَعْـدُ: فيطيب لي في خاتمة المطاف أن أذكِّر بواحدة من مكارمه النيِّرة علىٰ صعيد الالتزام بضوابط الكتاب والسنة في الشؤون جميعها، دقيقها وجليلها، وإنه لَلْمنهجُ الحقُّ الأبلجُ الذي من أعرض عن نوره أدركه ظلام التِّيه عن الحق الذي هو طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام. حدث الخَلْديُّ عن الجُنيد قال: قال أبو سليمان الداراني: «ربما يقع في قلبي النُّكتة من نُكَت القوم أياماً، فلا أَقْبَلُ منه إلا بشاهدين عَدْلَيْنِ: الكتابِ والسنةِ»(٢).

النُّكتة: كلمة الحكمة مما يتعلق بالتربية الروحية والسلوك، و«القوم» الصالحون ممن اشتهر بالخير علىٰ تلك الساحة.

رحمك الله أبا سليمان... وسقىٰ ثراك وابل رضوانه... بما قدمت لهذه الأمة من طيب الكلمة وكريم السلوك. وصدق الله جل ثناؤه إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت].



---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٣٤/١٣٦، «الحلية»: ٩/٢٦.

(٢) «البداية والنهاية»: ١٠/٢٥٥، «طبقات الصوفية»: ص٧٧ ـ ٧٨، «السير»: ١٠/١٨٣.

مع أبي يعقوب النهرجوري رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

هو أبو يعقوب إسحاق بن محمد من رجال القرن الرابع للهجرة، أقام بالحرم سنين كثيرة، ومات مجاوراً فيه، كان من علماء هذه الأمة وصلحائها، صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي وأبا يعقوب السنوسي وغيرهم من المشايخ الذين ازدان سلوكهم بالعلم والعمل. قال فيه أبو نُعيم الأصبهاني: «كان ذا نور زاهر، وحضور شاهر» توفي رَحِمَهُ اللَّهُ بمكة مجاوراً سنة ثلاثين وثلاثمائة للهجرة.

لا يقع الباحث في ترجمة أبي يعقوب علىٰ كثير من الكلام المنقول عنه، ولكن القليل الذي نقل وتداوله أهل المعرفة والتقوىٰ فيه ما فيه من الخير، وينبئ بكثير من الوضوح والإشراق عن قلب نقي ونفس مشرقة بالإيمان واليقين.

الصدق

استمع إليه يعرّف الصدق الذي يرقىٰ بصاحبه إذا تحراه واتصف به، إلىٰ مقام الصديقين عند الله عَزَّ وَجَلَّ حيث يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«ولا يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقاً»**[2] قال رَحِمَهُ اللَّهُ في شأن هذه الخلة الكريمة العالية: «الصدق موافقة الحق في السر والعلانية، وحقيقة الصدق: القول بالحق في مواطن التهلكة»[3].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة عشرة، العدد (٥)، رجب ١٣٩٧هـ، تموز ١٩٧٧م.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وهو عند البخاري (٦٠٩٤) في الأدب: ١٠/٥٠٧ مع «الفتح»، وعند مسلم رقم (٢٦٠٦، ٢٦٠٧) في البر.

(٣) «طبقات الصوفية» للسلمي: ص٣٧٨، «الأعلام» للزركلي: ١/٢٩٦.

لم يزل فقيراً.. محروماً

ويسوق الحديث إلىٰ أولئك الذين غرهم بالله الغرور، فاطمأنوا إلىٰ الدنيا، وجانبتهم حقيقة التوحيد فقصدوا بحاجتهم الخلق واستعانوا علىٰ أمرهم بغير الله.. يسوق الحديث إلىٰ أولئك وأشباههم فيقول: «من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعاً، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً، ومن قصد بحاجته الخلق لم يزل محروماً، ومن استعان علىٰ أمره بغير الله لم يزل مخذولاً»[1].

أرأيت كيف أشار إلىٰ اغترار أهل الدنيا بالشبع والغنىٰ، وأن فقر النفس هو الفقر الحقيقي، وأن غنى النفس هو الغنىٰ الحقيقي.. والمؤمن الحق هو الذي لا تشغله النعمة عن المنعم، ولا العطاء عن المعطي، والمطلوب منه أن يكون دائماً من أهل الآخرة أولئك الذين يتجاوزون بنظراتهم وسلوكهم هذه الفانية وما فيها من الزخرف والمتاع إلىٰ الباقية التي قال الله لنبيه ﷺ في شأنها: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحىٰ] ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء].

أما التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة: فمن ثمراته أن لا يقصد بحاجته إلا الله، وأن لا يستعين علىٰ أمره بغير الله. أوليس ذلك من هدي النبوة في هذا الباب الواسع من أبواب العقيدة: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[2] قد يقصد الخلق بحاجته ويعطونه ويعطونه ما أراد ولكنه في نظر أبي يعقوب لم يزل محروماً، لأن الحرمان قد بدأ منذ توجه إلىٰ المخلوق الضعيف بحاجته.. وقد يستعين علىٰ أمره بغير الله فيجد بعض المعونة من الخلق، ولكنه في نظر أبي يعقوب: لم يزل مخذولاً، لما أن الخذلان قد بدأ منذ توجه إلىٰ المخلوق مستعيناً به علىٰ أمره.. وحقيقة

---

(١) انظر: «طبقات الصوفية»: ص٣٧٩، «الحلية»: ١٠/٣٥٦، «طبقات الأولياء» لابن الملقن: ص١٠٥.

(٢) من حديث طويل أخرجه الترمذي. «القيامة» رقم (٥٩) من رواية ابن عباس (٢٥١٦)، وتقدم في الصفحة (٨٨).

التوحيد روح وريحان يجد المؤمن عبيره في قول الهادي المهدي صلوات الله وسلامه عليه: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**».

وفي قول أبي يعقوب عن الأول: (لم يزل محروماً) وعن الثاني: (لم يزل مخذولاً) وفاءٌ بالمقصود أي وفاء، فهو علىٰ الحقيقة محروم وما يزال مهما دلت الظواهر علىٰ غير ذلك، والآخر في الحقيقة مخذول مهما دلت الظواهر علىٰ غير ذلك، حتىٰ يعود الأول إلىٰ أن يقصد بحاجته رب الأرباب الذي لا تنفد خزائنه، ويستأنف الآخر طريقه، فيستعين علىٰ أمره بالعزيز القاهر فوق عباده الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ألا ليت لأولئك الذين يستخفهم شياطين الإنس والجن، فيخلعون عذار الحياء، وينحرفون عن الجادة طلباً لما في أيدي الظلمة أعداء الله والحق... ليت لهم سمعاً فيسمعوا هذا الذي يقوله واحد وجَّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض... وليت لهم قلوباً تفقه أن هذا الذي هم فيه، خبال ووهم، وأن الحطام الذي يعبث بعقولهم عبث الوليد بملهاته: لا يغنيهم من الله شيئاً، وأن حلاوة اليوم ستنقلب علقماً وزقوماً يوم القيامة.

الدنيا.. الآخرة.. الناس

وهذه صورة واضحة الملامح، معبرة عن المقصود أيما تعبير، تلك هي صورة الدنيا والآخرة والناس. قال أجزل الله مثوبته: «الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب التقوىٰ، والناس سفر»[1].

والتقوىٰ هي مركب الإنسان إلىٰ الآخرة بنعيمها وعطاء الله فيها، وما يجزل من الإحسان لعباده الصالحين، وما يعفو عن السيئات لمن يعترفون بذنوبهم، ويتوبون توبة نصوحاً إليه.. إن هؤلاء المسافرين إذا أرادوا الوصول إلىٰ ساحل النجاة والطمأنينة، فما عليهم إلا أن يمتطوا هذا المركب الذي ارتضاه الله لعباده خير مركب وخير زاد.. والكيِّس الكيِّس من فعل ذلك فكان من أولئك الذين هم أحق بالتقوىٰ وأهلُها، وحظي بفضل الله الذي هو أهل

---

(١) «طبقات الصوفية»: ص٣٨٠، «طبقات الأولياء» لابن الملقن، ص١٠٥.

التقوىٰ وأهل المغفرة، والجاهل الجاهل: من جنح عن الطريق السوي، وسلك سبيل غير المتقين.

ألهمنا الله الرشد وأكرمنا بطاعته وتقواه، وجزىٰ الله أبا يعقوب خير الجزاء عن المسلمين فيما نصح لهم وذكّرهم بمواعظه الربانية هديَ نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





قاضي قرطبة.. منذر بن سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ(١)

ورع وصدق(٢)

من كنوز هذه الأمة التي لا تنفد، ما كان من سلوك أولئك الربانيين من أعلامها، حيث البرهان العملي علىٰ صدق الإيمان، والحرص علىٰ العمل بالعلم، والاستعلاء علىٰ كل ما يلهث في طلبه أهل الغفلة الذي أسكرهم حب المنصب، وحجبهم عن وضوح الرؤية زخرف الدنيا.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة عشرة، العدد (١)، ربيع الأول ١٣٩٤هـ، نيسان ١٩٧٤م.

(٢) هو منذر بن سعيد أبو الحكم البلوطي، قاضي الجماعة بقرطبة، وقاضي قضاة الأندلس، نسبة إلىٰ «فحص البلوط» بقرب قرطبة، ويقال له: «الكزني» نسبة إلىٰ فخذ من البربر يسمىٰ «كزنه» كان فقيهاً محققاً وشاعراً فصيحاً، وخطيباً بليغاً مفوَّهاً، يتميز بخشية الله، والعمل بالعلم ـ شأن العلماء الربانيين ـ وتراه صداعاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم، دائم المراجعة لسلوكه مع الخالق والخلق، خوفاً من سوء المصير، خطب يوماً فأعجبته نفسه، فقال: حتىٰ متىٰ أعظ ولا أتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدلُّ علىٰ الطريق المستدلين، وأبقىٰ مقيماً مع الحائرين، كلّا إن هذا لهو البلاء المبين، اللهم فرغِّبني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفلتَ لي به، رحل حاجاً سنة ٣٠٨هـ فأقام في رحلته أربعين شهراً أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر.
قال أبو محمد بن حزم: أخبرني حكم بن منذر بن سعيد، أخبرني أبي أنه حج مع قوم رجالة، فانقطعوا، وأعوزهم الماء في الحجاز، وتاهوا، قال: فأوينا إلىٰ غار ننتظر الموت، فوضعت رأسي ملصقاً بالجبل، فإذا حجر كان في قُبالته، فعالجته، فنزعته، فانبعث الماء، فشربنا وتزودنا. هذا ولم تحفظ عليه مدة ولايته قضية جور.
له كتب في القرآن والسنّة والرد علىٰ أهل الأهواء، منها: «الإنباء علىٰ استنباط الأحكام من كتاب الله» ويسمىٰ: «أحكام القرآن» و«الإبانة عن حقائق أصول الديانة» و«الناسخ المنسوخ». ولد رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ٢٦٥ للهجرة وتوفي سنة ٣٥٥هـ.
وانظر: «معجم الأدباء» لياقوت: ١٠/ ١٧٤ فما بعد، «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي: ص٤٠٤، «بغية الملتمس»: ص٤٠٦، «نفح الطيب» للمقّري: ١/ ٣٧٢، «السير»: ١٦/ ١٧٣، «الأعلام»: ٧/ ٢٩٤، «شذرات الذهب»: ٢/ ١٧.

ومن أولئك الأعلام قاضي قرطبة ـ قاضي قضاة الأندلس في عصره ـ منذر بن سعيد من رجال القرن الرابع الهجري الذي أعطىٰ للمسلمين ـ وعلمائهم بخاصة ـ الأنموذج الصادق لاستعلاء الإيمان، وما يجب أن يكون عليه العالم كيما يكون صحيح النسبة إلىٰ إرث النبوة وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن ورع العالم وصدقه هما الجناحان اللذان يطير بهما إلىٰ آفاق من السمو الروحي يجد حلاوتَه أهلُ الخشية الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ولي المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قضاء الجماعة بقرطبة للناصر في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وظلَّ قاضياً إلىٰ وفاة الناصر، فولي القضاء من بعده للحكم المستنصر إلىٰ أن توفي الحكم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

ولقد كان ذلك امتحاناً قاسياً لمقدار استقامته، وترفُّعه عن المغريات، وقدرته ـ بعون الله ـ علىٰ تخطي ما يصادف أهل المناصب المرموقة، حين يضعفون فيقعون في الشَّرَك، وتراهم يطَّوفون حول الحطام.. فقد بلغ من أمره رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الناصر لما بنىٰ مدينة الزهراء كان كَلِفاً ـ مولعاً ـ بالعمارة وتخليد الآثار التي تدل علىٰ قوة الملك وعزة السلطان الأمر الذي أفضىٰ به إلىٰ أن ابتنىٰ الزهراء البناء الشائع ذكره، وجلب لها كل ما فيه تحقيق شموخها وعظمتها واستفرغ جهده في زخرفتها وتنميقها واتقان قصورها، وكان من انهماكه بذلك: أن ترك شهود الجمعة بالمسجد الجامع في قرطبة ثلاث جمع متواليات، والمفروض أن يشهدها في المسجد الجامع لا في غيره بحكم ولايته. فلما حضر لصلاة الجمعة بعد افتتاح «الزهراء» ـ وكان القاضي المنذر يلقي الخطبة مع القضاء ـ وقام يخطب، أراد تنبيهه بما يتناوله من الموعظة، وتذكيره بالإنابة والرجوع، فابتدأ خطبته في الجمعة الرابعة بقوله تعالىٰ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء] ومضىٰ في هذه الطريقة. والتذكير الخاشع، والموعظة المؤثرة، والقول البليغ في النفوس والقلوب ـ وأورد أحاديث وآثاراً تشاكل ذلك ـ وما زال بالقوم حتىٰ أخذ منهم الخشوع كل مأخذ، وضج المسجد علىٰ رحبه بالبكاء،

وأخذ الخليفة من تلك الكلمات الإيمانية الصادقة بأوفر نصيب؛ فبكىٰ وندم علىٰ ما حصل من التفريط، وكانت كل كلمة بالنسبة إليه سلاحاً ماضياً يعمل عمله متخطياً كل الحواجز والاعتبارات. وتلك هي سمة النفاذ في كلمة الحق، ومكمن القوة في صدق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حين يعرف أهل العلم أن ذلك أول واجبات من أقامهم الله علىٰ ثغر، فيه من ميراث النبوة مشابهُ.. وأن الحراسة الحقيقية لكيان الأمة بإسلامها إنما تكون بذلك...

غير أن الخليفة ـ علىٰ كل تأثُّره ـ وجد بعض الشيء علىٰ المنذر، وشكا ذلك لولده الحكم وقال ـ وقد اتعبته نفسه ـ: والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عنىٰ بها غيري، فأسرف عليَّ، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي. وأقسم ألا يصلي خلفه صلاة الجمعة، فجعل يلزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، وترك الصلاة بالزهراء. عند ذلك قال له الحكم: ما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال به إذ كرهته؟ وهنا تبدت الأصالة وغلب الدِّين، إذ قال الخليفة للحكم بعد أن زجره وانتهره: أمثلُ منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ـ لا أم لك ـ يُعزَل لإرضاء نفس ناكبةٍ عن الرشد، سالكةٍ غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله ألَّا اجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثلَ منذر في ورعه وصدقه، ولكنَّه أحرجني فأقسمت، ولوددت أن أجد سبيلاً إلىٰ كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياتَه وحياتَنا إن شاء الله تعالىٰ، فما أظننا نعتاض عنه أبداً[1].

ألا ما أجدر هذه الشوامخ في تاريخنا أن تكون منارات نهتدي بها في ظلمات الجاهلية والنفاق، ورحم الله الرجلين كليهما، وشكر للخليفة الناصر هذه الأوبة إلىٰ الحق، وأنه لم يحُل سلطان الحكم بينه وبين أن يقدُر القاضي

---

(١) يذكر أن قاضينا منذر بن سعيد كان ـ علىٰ متانته وصلابته ـ حَسَن الخلق كثير الدعابة، فربما ساء ظن من لا يعرفه لدعابته؛ فإذا رأىٰ ما يُخلُّ بالدين قِيدَ شعرة ثار ثورة الأسد الضاري، وتبدلت بشاشته عبوساً. وينظر: «معجم الأدباء» لياقوت: ١٠/ ١٨١ ـ ١٨٣، «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي: ص٤٠٤، «السير»: ١٦/ ١٧٧ ـ ١٧٨.

منذر بن سعيد قدره، لما أنه يخلص النصح لولي الأمر بحقائق الإسلام..
وجزىٰ الله منذر بن سعيد خير ما يجزي به العلماء العاملين الصادقين، وكم له من مكرمات ومناقب تعطي عطاءها الخيِّر عبر التاريخ.

ومن مناقبه رَحِمَهُ اللهُ في الصدع بالحق، والتماسِ مرضاة لله تعالىٰ فيما يأخذ وفيما يذر: ما قال ابن عفيف: من أخباره المحفوظة: أن أمير المؤمنين عمل في بعض سطوح الزهراء قبة بالذهب والفضة، وجلس فيها، ودخل الأعيان؛ فجاء منذر بن سعيد، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله: هل رأيتَ أو سمعتَ أن أحداً من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدّر، ثم قال: والله ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، أن أنزلك منازل الكفار، قال: لِمَ؟ فقال: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف].

فنكس الناصر رأسه طويلاً، ثم قال: جزاك الله عنا خيراً وعن المسلمين، الذي قلت هو الحق، وأمر بنقض سقف القبة[1].

وقال ابن عبد البر: حدثت أن رجلاً وجد القاضيَ منذر بن سعيد في بعض الأسحار علىٰ دكان المسجد، فعرفه، فجلس إليه، وقال: يا سيدي إنك لتغرر بخروجك، وأنت أعظم الحكام، وفي الناس المحكوم عليه والرقيق الدين. فقال: يا أخي، وأنّىٰ لي بمثل هذه المنزلة؟ وأنّىٰ لي بالشهادة، ما أخرجُ تعرُّضاً للتغرُّر، بل أخرجُ متوكلاً علىٰ الله إذ أنا في ذمته، فاعْلَم أن قدَره لا محيدَ عنه، ولا وَزَر دونَه[2].

وهذا التوكل الصادق علىٰ الله ثمرة من ثمرات إقباله علىٰ الطاعة، قياماً للَّيل، وصياماً للنهار، وصلة دائمة بالكتاب العزيز وسنة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، ناهيك عن الصدع بالحق أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، فلا يخاف في الله لومة لائم، ويلهج بأخبار الصالحين. قال ابن بشكوال: منذر بن

---

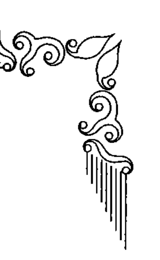
(١) «السير»: ١٦/ ١٧٧.
(٢) «السير»: ١٦/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

سعيد: خطيب بليغ مِصْقع، لم يكن بالأندلس أخطب منه، مع العلم البارع، والمعرفة الكاملة، واليقين في العلوم، والدين، والورع، وكثرة الصيام، والتهجد، والصدع بالحق. كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد استسقىٰ غير مرة فسُقي.

وقال محمد بن الحارث القروي في كلام طويل: «.. يميل إلىٰ طرق الفضائل ويوالي أهلها، ويلهم بأخبار الصالحين»[1]. وتلكم أخلاق الربانيين مع الأدب مع الله والتواضع الجم، وقد أشرت من قريب عند التعريف به رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله عندما خطب يوماً فأعجبته نفسه: «حتىٰ متىٰ أعظ ولا أتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدل علىٰ الطريق المستدلين، وأبقىٰ مقيماً مع الحائرين، كلّا إن هذا لهو البلاء المبين. اللهم فرغِّبني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفلتَ لي به: رحم الله هذا الإمام العالم الرباني وأعلىٰ مقامه في الخالدين.



(١) وانظر: «نفح الطيب» للمَقَّري: ١/ ٣٧٢ فما بعد، «جذوة المقتبس» للأزدي: ٣١٥، «السير» ١٦/ ١٧٤.



نور الدين الشهيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(1)][(2)]

هل تحسب يا أخي القارئ أن الربانيين تحدهم مقصورة العبادة التوقيفية المباركة، أو ساحة الزهادة والتبتل فحسب!! لا والذي قال في كتابه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء]، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل].

ففضله جل شأنه لا تحده حدود، وعطاؤه دائم لا ينفد، وكم للعبادة في ديننا من محاريب. وما دام الإسلام هو النور الذي لا بد أن يضيء جنبات الحياة كلها: فكل من يحمل هذا النور للناس بصدق وإخلاص: فله من فضل الله تعالىٰ، ومن عطائه الذي لا تنفد خزائنه القسط الأوفىٰ، والأجر بغير حساب.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة عشرة، العدد (٤)، جمادىٰ الآخرة ١٣٩٦هـ، حزيران ١٩٧٦م.

(٢) هو محمود بن زنكي (عماد الدين) الملقب بالملك العادل، كان أعدل ملوك زمانه وأجلَّهم وأفضلهم، صالحاً متعبّداً يحتكم إلىٰ الشرع ويقدّر العلماء، وكان معتنياً بمصالح رعيته، مداوماً للجهاد، يباشر القتال بنفسه، موفقاً في حروبه مع الصليبيين أيام زحفهم علىٰ بلاد الشام، وله الفضل ـ بعد الله ـ في نشر العلم وبناء المدارس، والتمهيد لما حققه المجاهد الكبير صلاح الدين الأيوبي من نصر علىٰ الصليبيين أعداء الله والحق. وكان يتمنىٰ أن يموت شهيداً فمات بعلة (الخوانيق) في قلعة دمشق سنة ٥٦٩هـ فقيل له: (الشهيد). قال الإمام الذهبي: صاحب الشام، الملك العادل، نور الدين، ناصر أمير المؤمنين، تقيُّ الملوك، ليث الإسلام أبو القاسم. واشتهر بـ(نور الدين الشهيد)، وقد بني بجانب قبره مسجد، ويقع اليوم في سوق الخياطين بدمشق.

وينظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٥٧/١١٨، «السير»: ٢٠/٥٣١، «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»: ١/٤٨ ـ ٢٣٠، «الكامل» لابن الأثير: ٩/١٢٥.

ولعل الذي يكون علىٰ مورد من موارد السلطان مما تخضع له النفوس، وتزل عنده الأقدام، ويحوم حوله الشيطان ليبيض ويفرِّخ: يكون أدعىٰ للحكم علىٰ صاحبه، بأنه أكثر قرباً إلىٰ الله في ذاك الذي ليس علىٰ مورد الامتحان، ولم تتفتح أمامه أبواب الشهوة والسلطان وأن يأمر فيطاع ـ ولا نزكي علىٰ الله أحداً ـ. .

لذلك كان هذا الرجل ـ نور الدين الشهيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ الذي أبلىٰ في مقارعة الباطل، ورسم الخطة المثلىٰ لطرد الصليبيين من علىٰ أرضنا، وجاهدهم بنفسه وماله وسلطانه، وكان علىٰ الصراط السوي في علاقته بالله عَزَّ وَجَلَّ وبالناس، لذلك كان هذا الرجل ـ وهو يمثل عاتق الميزان يومذاك ـ ممن يتوجب علىٰ الأمة أن تضعهم موضع الأسوة والريادة، وتفتح بصر الجيل وبصيرته في كل عصر علىٰ صدقهم مع الحق سبحانه وجهادهم، وأخلاقهم، وطاعتهم لله وحرصهم علىٰ دينه، فكل شيء لديهم مجند لخدمة هذا الإسلام، بصدق وإخلاص والحمد لله.

لقد كان من سيرة نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ وأجزل مثوبته، أنه كان يدعو دائماً إلىٰ الانقياد إلىٰ أوامر الشرع وأحكامه، دون تفريق بين أبناء الرعية، وكثيراً ما كان يقول: «لا فرق أمام الشرع بين صغير وكبير» واشتهر ذلك عنه، حتىٰ أصبح كل أولئك الذين هم في موضع المسؤولية أو الغنىٰ والجاه. . وما إلىٰ ذلك: لا يتردد الواحد منهم لحظة في حضور مجالس الحكم الشرعي والامتثال لما تأمر به الشريعة.

فكان ذلك طابع المساواة بين الناس أمام ما يحكم به الله تبارك وتعالىٰ. وفي يوم من أيام التدريب علىٰ السلاح في مواجهة الصليبيين ونور الدين يقوم بواجبه في ذلك. . رأىٰ رجلاً يحدِّث آخر ويومئ إلىٰ نور الدين. فبعث الحاجب ليسأله ما شأنه؟ فإذا هو رجل معه رسول من جهة القاضي، فلما رجع الحاجب إلىٰ نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ وأعلمه بذلك، ألقىٰ ما بيده من سلاح التدريب، وأقبل مع خصمه ماشياً إلىٰ القاضي، وأرسل نور الدين إلىٰ القاضي ينبهه أن لا يعامله إلا معاملة الخصوم سواء بسواء.

وحين وصل ـ وهو صاحب السلطة ـ مع خصمه إلىٰ مجلس القاضي:

وقف مع خصمه بين يدي القاضي، شأنُه في ذلك شأن أي واحد من المتخاصمين من أبناء رعيته، وظل واقفاً حتىٰ فصل القاضي في الخصومة والحكومة. ولم يثبت للرجل علىٰ نور الدين حق، بل ثبت حق السلطان نور الدين علىٰ الرجل، فلما تبين ذلك قال ـ أحسن الله ذكره مع الآخرين ـ إنما جئت معه لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلىٰ الشرع إذا دعي إليه، فإنما نحن معاشر الحكام خدم لرسول الله، وحراس لشرعه، وقائمون بين يديه، وطوع ما يريد، فما أمر به امتثلناه، وما نهىٰ عنه اجتنبناه، وأنا أعلم أنه لاحق عندي، ومع هذا أشهدكم أني ملكته ذلك الذي أدعىٰ به ووهبته له[1].

أرأيت ـ يا أخي ـ إلىٰ هذا الرجل القائدِ الرباني، أرايت كيف أن الطرق إلىٰ مرضاة الله مفتحة الأبواب، وأن من يرد الله به خيراً يجعل له واعظاً من نفسه، وعندها ـ أيضاً ـ لا يقرِّب إلا بطانة الخير، التي تذكره إذا غفل، وتنصحه إذا مال عن الصراط السوي. إن نور الدين الشهيد مثل مشرق مضيء في تاريخنا يعطي الدليل علىٰ أن الذي يراد له أن ينقذ الأمة من وهدتها، ويقودها إلىٰ ساحة الكرامة ورضا الله، لا بد أن يكون هو في نفسه كذلك، وأن تكون الزلفىٰ إلىٰ الله أغلىٰ عنده من كل ما يملك من وسائل الظهور والاستعلاء.

إن نور الدين ـ بما جعل للشرع من سلطان علىٰ نفسه وقلبه، وبما زان أعماله من العبودية الخالصة لله ﷻ، وبما كان يرىٰ أن ما أعطيه من متاع الدنيا وسلطانها ظل زائل ـ. إن نور الدين بما كان له من ذلك كله، بوأه هذه المكانة، وكتب الله علىٰ يديه أن يعبّد طريق الأمة للتحرر من هجمات الصليبيين وما كان من حملاتهم الشرسة علىٰ ديارنا ومقومات وجودنا.. جزىٰ الله نور الدين الشهيد عن الأمة خير جزائه وأعلىٰ مقامه في الآخرين.. وهكذا يعلم الربانيون.

---

(١) «السير»: ٢٠/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦. وانظر: «تاريخ دمشق»: لابن عساكر: ٥٧/ ١٢٠ ـ ١٢١، «الكامل» لابن الأثير: ٩/ ١٢٥.



مع الإمام موفق الدين
ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ(١)(٢)

ليست هذه الكلمات التي تتسم بالوجازة حديثاً يفي بقدر هذا الإمام الرباني ولكنها الماحة إلىٰ الضياء الذي يعطي ـ بإذن الله ـ للعلم نوره وقدرته علىٰ النفاذ، وللعمل حياته وطريقه إلىٰ التأثير والقبول، وكان ذلك في شخصه رَحِمَهُ اللَّهُ سمة بارزة لا تخفىٰ علىٰ ذي بصيرة.

ذلكم هو شيخ الإسلام أبو محمد، من أعلام الفقه الحنبلي، ورجال الإسلام العاملين في بلاد الشام، فإذا قلت: الموفق المقدسي، فقد ذكرت صاحب «المغني» وإذا ذكرت صاحب «المغني»: فقد ذكرت علماً من أعلام الفقه والقدرة علىٰ المقارنة بين المذاهب ومواجهة النصوص بنفاذ بصيرة، وفقه نفس، وتقوىٰ، ولا تسل عن مشاركته في شتىٰ العلوم الأخرىٰ مما أمدّه بسعة الأفق وعمق النظرة إلىٰ الأمور؛ فقد قدم إلىٰ دمشق مع أهله وهو ابن سبع

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الحادية عشرة.

(٢) هو الشيخ الإمام العلّامة المجتهد القدوة شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسيُّ الجماعيليُّ ثم الدمشقيُّ الصالحيُّ الحنبليُّ صاحب «المغني». من مصنفاته: «المغني» في الفقه شرح به «مختصر الخرقي» وهو في خمسة عشر مجلداً، و«روضة الناظر» في أصول الفقه و«المقنع» و«كتاب التوابين» و«الكافي» في الفقه في أربعة مجلدات و«الاستبصار في نسب الأنصار» وغيرها. ولد في جماعيل من قرىٰ نابلس بفلسطين سنة ٥٤١هـ وطلب العلم في دمشق ورحل إلىٰ بغداد مرتين سنة ٥٦١ وسنة ٥٦٧هـ. ويروىٰ أنه أقام فيها أربع سنين، ثم عاد إلىٰ دمشق وفيها كانت وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ٦٢٠هـ.
وينظر: «ذيل الروضتين» لأبي شامة: ص١٣٩، «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي: ٢/ ١٣٣ ـ ١٤٩، «تاريخ الإسلام» للذهبي: ٤٤/ ٤٨٣ فما بعد، «السير»: ٢٢/ ١٦٥، «البداية والنهاية»: ١٧/ ١١٦ فما بعد.

سنين وقرأ القرآن وسمع الحديث الكثير، وحين ارتحل إلىٰ بغداد: تفقه لدىٰ إقامته فيها علىٰ مذهب الإمام أحمد، وبرع ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ وأفتىٰ وناظر وتبحر في فنون كثيرة[1] وقد أشرنا إلىٰ بعض من مؤلفاته من قريب.

غير أن الأمر لم يقتصر علىٰ ذلك في شخصية هذا العالم الكبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد جمع إلىٰ غزارة العلم: زهادة في الدنيا، واستقامة علىٰ العبادة وطاعة الله، إلىٰ ورع كان يعرف به أجزل الله مثوبته..

كل أولئك علىٰ تواضع جم واستمساك بمحاسن الأخلاق، وعلىٰ بساطة ما في يده، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ جواداً لا يبخل بما هو في مقدوره... ولقد أكرمه الله بأن انعكس النور القلبي وصفاء النفس وخشية الله تعالىٰ علىٰ وجهه، فكان حسن السمت بهي الطلعة، تلمح علىٰ محياه آثار ما ينطوي عليه من الصدق مع الله، واستدامة الذكر والتلاوة والتهجد، والتنفل في الصيام، وكأن الله تبارك وتعالىٰ يبارك لهؤلاء العلماء العاملين الصلحاء في الوقت، ويكتب لكلامهم القبول، فإذا نظرت إلىٰ ما كان يحمل نفسَه عليه من العمل وتلفتَّ إلىٰ ثمرات علمه وقلمه فيما كتب وألف وأثر في تلامذته وأتباعه: وجدتَ العجب العجاب.. ولكنهم أحسنوا صلتهم بالله فكان الله لهم بالعون والتوفيق، وأمدّهم بروح من عنده، وأفاض عليهم من إرث النبوة ما أفاض؛ بما كان من صادق اتباعهم لسنة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، وإخلاص الوجهة له سبحانه، والتزام بطريقة السلف الصالح الذين سلكوا هذه السبيل، وتلك لعمر الله هي الولاية الحقيقية:

ولقد أحسن الحافظ ابن كثير إذ شهد لهذا الإمام بالولاية والصلاح واستشهد لما ذهب إليه بما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لم يكن العلماء العاملون أولياء لله فلا أعلم لله ولياً»[2].

---

(١) «البداية والنهاية»: ١١٧/١٧.

(٢) «البداية والنهاية»: ١١٧/١٧. وينظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي: ٢/ ١٥٥، «السير»: ١٠/ ٥٣، ويذكر هنا أن الذي ذكر كلمة الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونقلت عنه فيما بعد: هو البيهقي في المصدر المذكور: ٢/ ١٥٥.

لقد كان يؤم الناس في محراب الحنابلة، فإذا صلىٰ المغرب تنفل بين العشاءين في محرابه، فإذا صلىٰ، انصرف إلىٰ منزله وأخذ معه من الفقراء من تيسر يأكلون من طعامه[1]... إنها أخلاق العلماء العاملين، ومكارم عباد الله الصالحين، ويبدو أنه كان ينظم الشعر في بعض الأحيان:

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: نقلت من خط الشيخ موفق رحمه الله تعالىٰ:

لا تجلسنَّ بباب من ... يأبىٰ عليك وصول داره
وتقول حاجاتي إليه ... يعوقها إن لم أُداره
واتركْه واقصد ربَّها ... تُقضىٰ وربُّ الدار كاره

ونجد في شعره صورة صادقة عن صلاح نفسه وخوفه من الله ورجائه فضله ورحمته فمما أنشده لنفسه رضي الله عنه قوله:

أبَعْدَ بياض الشعر أعمر مسكناً ... سوىٰ القبر إني إن فعلت لأحمق
يخبِّرني شيبي بأنيَ ميت ... وشيكاً فينعاني إليَّ ويصدق
يخرِّق عمري كل يوم وليلة ... فهل مستطاع رقع ما يتخرق
كأني بجسمي فوق نعشي ممدداً ... فمن ساكت أو معول يتحرق
إذا سئلوا عني أجابوا وأعولوا ... وأدمعهم تنهلّ هذا الموفق
وغُيِّبْتُ في صدع من الأرض ضيقٍ ... وأودعت لحداً فوقه الصخر مطبق
ويحثو عليَّ الترب أوثقُ صاحب ... ويسلمني للقبر من هو مشفق
فيارب كن لي مؤنساً يوم وحشتي ... فإني بما أنزلته لمصدِّق
وما ضرني أني إلىٰ الله صائر ... ومَن هو من أهلي أبرُّ وأرفق[2]

أرأيت إلىٰ هذه الصورة التي تخترق الحجب حتىٰ تصل إلىٰ الأعماق...

أرأيت إلىٰ هذه الرقة التي لم تحل دونها كثرة علم، ولا رفيع ذكر عند الناس...؟!!

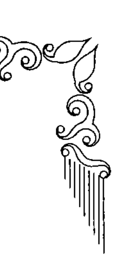
---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة»: ٢/ ١٣٤، «البداية والنهاية»: ١١٨/١٧. وانظر: «الذيل علىٰ الروضتين»: ص١٤٠.

(٢) «البداية والنهاية»: ١١٩/١٧ ـ ١٢٠.

أرأيت ما يفعله الإيمان بهذه النفوس، كيف يرقىٰ بها ويرقىٰ، حتىٰ تصل إلىٰ مرتبة الإحسان. . . إنها صورة جديرة بأن تعمل عملها في نفوسنا. وجزىٰ الله الإمام الموفق عن هذه الأمة كل خير ورفع قدره في الآخرين. وسبحان الموفِّق الذي لا يُضيع عمل عامل، وهنيئاً لهؤلاء العلماء العاملين الربانيين ما أعدّ الله لهم من جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها جزاء العلم والعمل، وما يكرمهم به من منازل الكرامة والرضوان ـ وهو المنان المتفضل ـ مثوبة بما كانوا يؤدون الأمانة ويجاهدون.





مع العلَّامة الرباني الشيخ إبراهيم الغلاييني رَحِمَهُ اللهُ[(١)(٢)]

كان ذلك قبل ثلاثين عاماً علىٰ الأقل يوم كنت في دار شيخنا في قطنا ودخلت مستأذناً إلىٰ غرفة كان يقف فيها مع فاضل من أولاده وكل أولاده.. وكان أن جرىٰ بين الأب والابن الحديث التالي:

قال ابن الشيخ: سيدي أنت ترىٰ ما نحن فيه من الضائقة المادية.. والمسؤوليات أكبر من هذا الواقع و... وأسمع أن العلماء يسعون وراء زيادة مرتباتهم... إلا أنتم لا تحركون ساكناً.. من أجل أن تتحسن الحال ويخف دفع هذه الضائقة التي نعاني منها ما نعاني!!!.

ونظرت في وجه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ـ وأنا حديث عهد بطلب العلم عنده ـ نظرت في وجهه لأرىٰ وأسمع ماذا يكون الجواب؟؟.

لقد دمعت عينا الشيخ وقال لولده: يا بني، ألا يكفي أن وجود أبيك مفتياً للمسلمين هو صورة لمعجزة رسول الله ﷺ فيما أخبر به في قوله: «**إذا وُسِّد الأمر إلىٰ غير أهله فانتظر الساعة**»[(٣)] لا يكفي هذا حتىٰ نلهث وراء طلب

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة عشرة، العدد (٤)، رجب ١٣٩٧هـ، تموز ١٩٧٧م.

(٢) ولد شيخنا رَحِمَهُ اللهُ في دمشق سنة ١٣٠٠هـ. ومن كبار العلماء الذين درس عليهم الشيخ عطا الكسم والشيخ محمود العطار رحمهما الله وعمل في بدء شبابه إماماً وخطيباً في قطنا وبعد سنوات قليلة عيّن مفتياً فيها وظل كذلك إلىٰ أن توفّاه الله في ١٥ شوال سنة ١٣٧٨ للهجرة، ودفن في مقبرة باب الصغير بدمشق. ومما شرفت به أن أهديت إليه رسالة الدكتوراه «تفسير النصوص» في تموز ١٩٦٤م بقولي هناك: «إلىٰ الرجل الذي عاش لا يخاف في الله لومة لائم، حتىٰ قضىٰ في سبيل الهداية والحق مثلاً للعالم العامل المجاهد، ومربياً ناصحاً لدينه ولأمته الشيخ إبراهيم الغلاييني..» أستاذي.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة برقم (٥٩).

الدنيا!!!. ويتضح هذا إذا علمنا أن الشيخ ﷺ لم يتطلّع إلىٰ هذا المنصب ولكن رضي به عملاً بواجب شرعي قدّره الله تعالىٰ، وهذا ما صدقه منهجه الذي عماده أن منصب الإفتاء واجب لأداء حق الله في الفتوىٰ، وليس مهمة لخدمة السلطان!.

لقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تواضعه وخشيته من الله ﷻ يرىٰ وهو في منصب الإفتاء أنه يمثل توسيد الأمر إلىٰ غير أهله وذلك من علامات الساعة.

ويشهد كل الذين عرفوه ـ أجزل الله مثوبته ـ عن قرب، أنه كان مع علمه غاية في الورع، والتثبت من النصوص حين يفتي وحين يجيب عن سؤال. وكانت عنايته بأية مسألة مهما صغرت عناية فائقة حين ينظر فيها من الناحية العلمية والبحث في المصادر والمظان.. وحين يستشعر أن الفتوىٰ أمانة وأنه مسؤول عن هذه الأمانة بين يدي الله ﷻ. ولقد رأيت بجانب سريره قبل وفاته بشهور ـ وهو علىٰ غاية التعب ـ مجموعة من مصادر الفقه، وحين سألته لم يرهق نفسه بهذا؟ قال: لأول مرة أجدني مضطراً للأخذ برخصة الفطر في رمضان لشيخوختي وتعبي الذي ترىٰ فأحببت أن أتثبت من الحكم في مصادره.. ورع من أجل نفسه وورع من أجل الآخرين حين يفتي.

تلك واحدة من خلائقه جزاه الله عنا وعن المسلمين كل خير... وأجدر بالعالم العامل الورع أن يكون من عباد الرحمـٰن الربانيين، أولئك الأولياء الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أرأيت إلىٰ هذه الخصلة التي تذكرك بالسلف الصالح الذي كان أحدهم يخاف الله قبل أن يخاف الناس.. وكثيراً ما يقول: «لا أدري» خشية الوقوع في المأثم حين تلبّس الأمور فيستبدل الحرام بالحلال.. والحلال بالحرام والمعاذ الله...

إنه لم يكن همُّ أئمة الهدىٰ عليهم الرحمة والرضوان أن يُذكروا في الناس بأنهم علماء بل كان همهم أن يرضىٰ الله عنهم، وأن لا يكون العلم سائقهم إلىٰ النار، وأن يكونوا أمناء علىٰ دين هذه الأمة وعلم هذه الشريعة حين يفتون وحين يدرسون.. ذلك أن العلماء ورثة الأنبياء وجدير بالوارث أن يكون علىٰ قدم المورّث.. رحم الله شيخنا الشيخ إبراهيم الغلاييني الذي مضىٰ

علىٰ وفاته تسعة عشر عاماً، وأعلىٰ مقامه في الآخرين وجعل من ورعه وأخلاقه مثلاً يحتذىٰ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هذا ما سعدت بكتابته لركن «هكذا يعلم الربانيون» لمجلتنا الحبيبة «حضارة الإسلام» التي أشرف برئاسة تحريرها، في العدد الرابع من السنة الثامنة عشرة في شهر رجب ١٣٩٧هـ، وتموز ١٩٧٧م فيما مضىٰ.

وأرىٰ اليوم من حق القارئ الكريم بل من حق الأمة ـ وأنا أُعدُّ ما نشر في الركن المذكور ليكون ـ مع التنقيح والتوثيق والتخريج، وشيء من الزيادة: كتاباً قائماً بذاته: أن أضيف ولو قدراً يسيراً من الحديث عن حياة هذا العلم الرباني القدوة شيخنا المربي الثبت الشيخ إبراهيم الأصيل المشهور بالغلاييني، بعد أن لم يكن ذلك ممكناً للمجلة حسب المنهج في عدد الصفحات الذي له عدة اعتبارات، منها الاعتبار الاقتصادي يومذاك، وإليكم ما أردت والله المستعان.

النشأة وطلب العلم:

نشأ شيخنا أجزل الله مثوبته نشأة صالحة في أسرةٍ هداية واستقامة وصلاح تعين عليه البيئة العامة في البلد الطيب منارةِ التاريخ دمشق. وقد اتجه بشكل مبكِّر إلىٰ طلب العلم عند كرام المشايخ يومذاك، مع عمل جزئي في التجارة، ثم لم يلبث أن انصرف انصرافاً كلياً إلىٰ دراسة شتىٰ العلوم الشرعية، وكان ذلك من فضل الله عليه وعلىٰ الأمة والحمد لله. وقد وفق في حداثة سنه حيث المرحلة الأولىٰ من مراحل الشباب ـ كما أسلفنا ـ لأن يظفر بالدراسة علىٰ عدد من أولئك العلماء الأفذاذ، نذكر منهم: المحدث الكبير الشيخ بدر الدين الحسني، والمفتي العام العلامة الشيخ عطا الله الكسم، والفقيه النابه الشيخ محمود العطار، والعلامة الشيخ عبد القادر الإسكندراني كما أخذ عن آخرين من أفاضل العلماء، نذكر منهم الشيخ أبا الخير الميداني، ووالد زوجته السيدة أم بدر الدين الشيخ سليم لنطفجي المعروف بعلمه وتقواه، وقد صحب ذلك كله استدامة الرعاية النيِّرة الذكية من والده رحمه الله السيد محمد خير ـ أبي الخير ـ الغلاييني الذي كان حريصاً الحرص كلَّه علىٰ أن يتابع ولده الذكي النابه الموفَّق، موهبةً وسلوكاً: تحصيل العلوم الشرعية والعربية في

حلقات أولئك الأخيار يرحمهم الله ويضاعف لهم أجر العلماء الربانيين الذين يعلِّمون الكتاب ويدرسون. وكان طبيعياً ـ وقد توافرت الأسباب عند الطالب ومشايخه ـ: أن يحفظ عدداً من المتون، وأن يثمر توفره علىٰ الكتاب والدرس في مجالس العلماء إلىٰ جانب الحلقات: قاعدة علمية تعطي ـ بتوفيق من الله ـ عطاءها الذي إذا انضم إليه النبوع: كان من وراء ذلك المستوىٰ العلمي اللائق في علوم الشريعة والعربية والمنطق وغير ذلك. وإذ تحقَّق لشيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المستوىٰ، وأصبح للعلم وجود ذاتي في حياته ـ وبخاصة الفقه ـ فلا يعوزك أن ترىٰ المعرفة، والبحث، والاستدلال مع الاستحضار لأساسيات المسائل في الأصول والفروع.

ويذكر هنا: أنه قرأ مع صديقه الحميم ورصيفه الشيخ أبي الخير الميداني «حاشية ابن عابدين» في الفقه الحنفي علىٰ مفتي الديار الشامية العلامة الشيخ عطا الله الكسم جزاه الله خير الجزاء. علىٰ أن زميله الشيخ أبا الخير كان شيخه في النحو؛ إذ درّسه هذا العلم من علوم العربية شهراً كاملاً، كما حدثني شيخنا أكرمه الله غير مرة بذلك.

ومما يجدر ذكره هنا: أن معلومات غاية في الأهمية عن شيخنا ورحلته في الدراسة العلمية والسلوك: كنت أتلقفها وأنا في سن مبكرة من الرجل الصالح التقي النقي والد الشيخ رحمهما الله وغفر لهما: محمد خير الغلاييني أبي الخير الذي كان يقيم أيام شيخوخته المباركة النيرة في منزل شيخنا في قطنا. إذ كنت أجلس إليه، أفيد من تجاربه في الحياة خلال تاريخه المديد ـ ما شاء الله ـ وآنس كثيراً بصلاحه، وكثرة عبادته وقراءته للقرآن؛ وقد سمعت منه غير مرة ثناءً عاطراً علىٰ إبراهيم ـ كما كان يحلو له أن يقول ـ من حيث علمه وزهادته في الدنيا، وتقوىٰ قلبه المنوَّر بالطاعة، وكثيراً ما كان يقول ـ وقد أقعده الهرم عن الذهاب إلىٰ المسجد ـ كما أتمنىٰ أن يدوم لي الاقتداء بإبراهيم في الصلاة؛ لأن من صلَّىٰ خلف عالم تقي، فكأنما صلىٰ خلف نبي!!

ولقد سمعت منه مرات عدة، وهو يتحدث عن أيام الدراسة لشيخنا: أنه قد درس علىٰ الشيخ محمود العطار، وأفاد من تلمذته عليه الاتصال النافع بعدد من الكتب في شتىٰ علوم الشريعة والعربية ـ وبخاصة الفقه ـ وقد أقام

عنده سنة كاملة، ـ حيث كان الشيخ إمام وخطيب الجامع الكبير في بلدة كفر سوسيه قرب دمشق ـ وسُكناه غرفة متواضعة تابعة للمسجد ـ شأن الغرف التي يسكنها أكثر طلاب العلم ـ موقعها فوق أماكن الماء والوضوء، وانقطع في تلك الحقبة انقطاعاً كاملاً للدراسة الجادة حينذاك، يقول: وقد أتعب نفسه تعباً شديداً بالمثابرة علىٰ التحصيل، مضموماً إلىٰ ذلك، مكابدة العيش في مجاهدة للنفس، المجاهدةِ التي تكون بريد صلاح القلب، ومراقبة الله ﷻ. فاصطحاب الكتاب، والدرس الجادُّ، يصحبه قيام الليل، وصلاة النافلة عموماً، والإكثار من صيام النفل، مع الإقلال من الطعام أيام الإفطار؛ الأمر الذي أدىٰ ـ بقدر من الله ـ إلىٰ جهد صحي شديد، حيث بلغني مرضه، فبادرت إلىٰ كفر سوسيه وهالني ما رأيت، فاستأذنت الشيخ محمود في العودة به إلىٰ دمشق للمعالجة، علىٰ أن يعود بعد الشفاء إن شاء الله، وكان مما ناله من الجهد: شيء من جفاف الحلق بحيث لا يستطيع إساغة شيء من الطعام، وأشار الطبيب بإدخال الماء والسوائل نقطة وراء نقطة، وبعد هذا مع المداومة علىٰ العلاج، عوفي ـ والحمد لله ـ وعاد ـ ودعاء الوالدين يكلؤه بإذن الله ـ إلى نشاطه العلميِّ الجاد المتبصِّر، وكل ما يعين علىٰ العمل بالعلم، من جهاد النفس الذي هو أول لون من ألوان الجهاد في سبيل الله. ـ كما يقول العلماء وهو سبيل العالم، بله طالب العلم، إلىٰ صلاح القلب الذي بصلاحه صلاح أعمال الجوارح، وهو ما هدىٰ إليه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ: «.. **ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلَحت صلَح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» [خ(٥٣)، م(١٥٩٩)].

الأدب.. والوفاء:

وإذا كان الخير يذكِّر بالخير: فلأذكر هنا ـ وقد دار الحديث عن العلامة الفقيه الحنفي الشيخ محمود العطار وعلاقة شيخنا به: إن شيخنا رحمه الله كان مثال الأدب والاعتراف بالفضل قولاً وعملاً؛ ومن ذلك أن الشيخ محمود أجزل الله مثوبته زار تلميذَه شيخنا الغلاييني في منزله بقطنا وكنت في تلك الحقبة ألازم ـ بحمد الله ـ شيخنا طلباً للعلم ملازمة تامة في دروسه ومجالسه،

وتحركاته ـ بعد حلقة الدرس، مع ضيفه الكبير؛ فكان هذا أعون علىٰ أن أشهد بنفسي سلوك شيخنا المتميِّزِ مع شيخه العطار وهو نزيله في منزله بقطنا، ومن أبرز ما حصل أن الزيارة كانت صيفاً والحرُّ في النهار شديد رغم الطقس المعتدل علىٰ الغالب في منطقتنا هناك؛ يصحب ذلك الحرصُ علىٰ صلاة الجماعة، والمنزل بعيد بعض الشيء عن المسجد الذي يصلي فيه شيخنا إماماً، ويلقي علىٰ الناس ما شاء الله من الدروس والمواعظ. فكان شيخنا رحمه الله وهو في مركزه المرموق الذي يعرفه الناس جميعاً هناك مسلمهم وغير مسلمهم؛ فهو المفتي، وهو الخطيب والإمام، والموجه البارز في كثير من قضايا المجتمع توجيهاً سليماً في نور الإسلام، وهو ـ كما يعلم الجميع ـ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وهيبته الشجاعة بصدعه بالحق ونشدانه أن تكون كلمة الله هي العليا: من بدهيات المعرفة التي لا يفارق الشعور بها أحداً هناك... شيخنا الذي له كل هذه الخصائص ـ وغيرها كثير ـ يخاف علىٰ شيخه من شدة الحر، فيمسك بالمظلة ويرفعها فوق رأسه منذ الخروج من المنزل ومروراً بطريق متشعب المسالك، ثم بالسوق علىٰ ما فيه من الزحام ووصولاً إلىٰ المسجد. فكان يرىٰ الناس شيخهم الشيخ إبراهيم يرفع هذه المظلة فوق رأس ضيفه المسنِّ وبعضهم لا يعلم طبيعة العلاقة، لكنه استنتجها من تصرف الشيخ، وقد رجوته غير مرة أن يأذن لي بأن أقوم بهذه المهمة اليسيرة في ظاهرها الكبيرة في معناها، فيصرُّ هو علىٰ القول: هذا حقي يا بني وواجبي تجاه شيخي جزاه الله عني كل خير، وهذا يسيرٌ يسيرٌ من بعض حقه عليَّ. والحق أني ـ علىٰ صغر سني يومذاك ـ كنت أخجل كثيراً من هذه الصورة؛ وهي أن أمشي وأنا مستريحٌ وشيخنا احتراماً لأستاذه يرفع المظلة من المنزل إلىٰ المسجد ومن المسجد إلىٰ المنزل ذهاباً وإياباً، ولكن الدرس ـ بما يحمل من المعاني الكبار ـ كان بالغ التأثير، وهو صورة من صور حرص شيخنا علىٰ التربية بالقدوة مع قيامه ـ كما يرىٰ ـ بواجب الإكرام والخدمة والتقدير لشيخه رحمهما الله رحمة واسعة وأعلىٰ مقامهما في الآخرين. والحق أن هؤلاء الربانيين يعلِّمون الأخلاق قبل أن يعلِّموا العلم جزاهم الله عن الأمة كل خير وكم كان كلاماً نورانياً رفيعاً، كلام شيخنا وهو يثني علىٰ ضيفه الكبير وأستاذه في المسجد وعندما يُزار في منزله

مبيناً ما له من قدر ومكانة عند أهل العلم والصلاح في دمشق وغيرها، ثم ما له من فضل كبير عليه بتدريسه علوم الشريعة المطهرة.

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أن الشيخ محمود العطار، كما كان شيخاً لأستاذي ومربيَّ الشيخ إبراهيم، فقد ازددت ـ فيما بعد ـ من المعرفة به والإفادة من علمه وفضله وكريم سلوكه عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥م وأنا طالب في الكلية الشرعية بدمشق ـ العمارة ـ أيام كان مدرساً عظيم القدر ـ علىٰ كبر سنه ـ فيها يدرس الفقه الحنفي لأولئك الطلبة الذين هم علىٰ عتبة الشباب، تحقيقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ [آل عمران] حيث قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرباني هو الذي يدرِّس صغار العلوم قبل كبارها» وذلك طاعة لله تعالىٰ في أن يكون الأساس الذي تقوم عليه التربية والتعليم أساساً متيناً، فترىٰ الرجل الرباني وتلامذته يتحرَّكون علىٰ ساحة الحياة طاعةً لله تعالىٰ؛ العالم بالتعليم والتربية والتوجيه، والطلبة بالتعلُّم والانصياع للقيم التربوية التي يوجّهون من خلالها، وكلُّ أولئك من الروافد العظيمة لبناء قوي يظفر به الفرد والجماعة في ظل شريعة الإسلام وأخلاق الإسلام.

من أخلاق الربانيين:

هذا: والحديث عن الأدب وكامل التقدير والمحبة من شيخنا الشيخ إبراهيم يرحمه الله لأستاذه الكبير الشيخ محمود العطار، وقد لزمه في الدراسة عليه حقبة طويلة بعض الشيء: ينقلنا إلىٰ ما كان من سلوكه الأمثل مع صديق له وزميل درّسه علم النحو شهراً واحداً. . نعم شهراً واحداً، ذلكم هو العلامة الشيخ أبو الخير الميداني الذي كان يكبره بقليل من السنوات.

ولقد علمت ذلك ـ كما سبق ـ من شيخنا، إذ سمعت منه غير مرة وفي مناسبات عدة، أن الشيخ أبا الخير درَّسه علم النحو شهراً كاملاً، لذا فهو يتعامل معه علىٰ أنه شيخه، وعندما يلتقيان، وفي الغالب يكون هناك بعض الأساتذة والطلاب، وأحياناً العديد من الناس الذين يصحبون المشايخ للفائدة والانتفاع بعلمهم: أقول: عندما يلتقيان ـ والحال ما ذكرت ـ يكون من شيخنا

ـ علىٰ ما يبلغه من العمر وما يزدان به من العلم والفضل ـ الأدب الرفيع، والقدر الفائق من الاحترام والتقدير لأخيه، وعند اللقاء، وكذا عند الافتراق يصرُّ رَحِمَهُ اللهُ تقبيل يد أستاذه الشيخ أبي الخير؛ فهو شيخه، وما يقابله به هو بعض حقه.

ولعل من استكمال الفائدة أن أشير إلىٰ أن مما زاد هذه العلاقة وثوقاً بين الشيخين الربانيين: كون الشيخ الميداني ـ مع منقبته التي ذكرنا ـ أخاً وزميلاً لشيخنا في الدراسة الموسَّعة في الفقه علىٰ الشيخ عطا الله الكسم إذ قرأ عليه «حاشية ابن عابدين» في الفقه الحنفي، وأعيدت هذه القراءة للكتاب بأجمعه أو لعدد وافر من أبوابه بضع مرات، كما تزاملا في اصطحاب شيخهما الشيخ عيسىٰ الكردي النقشبندي مريدين يتميزان بالعلم والمعرفة علىٰ طريقة أهل السلوك من السلف الصالح، حيث كان الشيخ عيسىٰ رَحِمَهُ اللهُ ـ مع عنايته العظيمة وهو يوجه مريديه ويرشدهم ـ بمنهج السلوك المنضبط بضوابط الشريعة التي تُحِلُّ تقوىٰ الله مكانها اللائق. وما جاء في الحديث الصحيح من أن **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** [خ (٤٧٧٧)، م (٩)]، ثم ما جاء عن السلف الصالح في ذلك... كان من كبار فقهاء الشافعية في دمشق، حتىٰ إنه كان يقال له: الشافعي الصغير. وما أزال أذكر زيارة للقبور في سفح الصالحية، يوم قال لي شيخنا مشيراً إلىٰ قبر علىٰ السنة: هذا قبر شيخي الشيخ عيسىٰ رَحِمَهُ اللهُ علىٰ السنة كما ترىٰ!.

هذا ولم يكن عجباً من العجب ـ والشيخُ أبو الخير هو من هو في علمه وأدبه الجم وأخلاقه ـ: أن يكون مسلكُ شيخنا رحمهما الله في التعامل معه علىٰ الطريقة المنيرة التي أدير الحديث عنها: موضع التقدير البالغ، وإعطائها مكانها اللائق من نفسه وقلبه، يلاحظ ذلك من يرىٰ ذلك الذوق في التعالم بينهما، وما يتبادلان من الاحترام غير المتكلَّف، ثم ما يكنُّه الشيخ أبو الخير لشيخنا من المحبة الصادقة، والاعتراف له بالفضل في حياته وشهرته، حتىٰ إنه قال لي مرة وأنا أشرف بالحديث معه عن العلاقة الفاذة بين الشيخين: «يا ولدي ما ترىٰ من شهرتي في دمشق وحُسن الحديث عني لدىٰ الناس: مردُّه بعد فضل الله وتقديره، إلىٰ شيخك الشيخ إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ وأعلىٰ مقامه في

علِّيين؛ فشيخك له المكانة العظيمة في نفوس الناس، وهو موضع احترام الجميع وتقديرهم في أجواء العلم والتقوىٰ، وصلة الشعب المسلم بعلمائه، وعندما نلتقي مصادفة أو علىٰ موعد في «رابطة العلماء» أو أي مجلس من المجالس العامة أو الخاصة، ويكون معه بعض الطلبة والمريدين، ومعي كذلك: يلقاني بوجهه المتألق وأدبه الرفيع، ويصرُّ علىٰ تقبيل يدي أمام الجميع؛ لأني ـ كما يرىٰ مشكوراً ـ شيخه. وإذا كان الأمر كذلك علىٰ هذه الصورة التي ترىٰ من تقديره، وأدبه الرفيع، وتواضعه مع أخيه وزميله أبي الخير، فكيف يكون شعور من يرون هذه الواقعة بما تحمل من معاني الخير والأخلاق والتي سداها ولحمتها أدبه معي وتواضعه؟ لا أشك في أن الواحد منهم يقول في داخل نفسه: إذا كان الشيخ إبراهيم يقدُر الشيخ أبا الخير علىٰ هذه الصورة التي نرىٰ؛ فمعنىٰ ذلك أن أبا الخير جدير بما يلقىٰ من التبجيل والاحترام، وكانت الشهرة من وراء ذلك. وما أجلَّ وأعظم ما يقدم بها هذان العالمان الربانيَّان وأضرابهما، من هذا اللون العظيم من التربية، وهو التربية بالقدوة والسلوك، بجانب التربية بالكلمة والدرس والموعظة!!.

والذي لا غنىٰ عن ذكره ـ ولو طال بنا الحديث ـ أن الشيخ أبا الخير أجزل الله مثوبته علىٰ صراحته المحبَّبة ووقوفه عند كل ما هو استقامة وحق.. لم يدع في مرة من المرات أن يقصَّ عليَّ ـ مستشهداً علىٰ أدب شيخنا وكريم تواضعه ـ أنه كان مرةً مدعواً عند أسرة كريمة في الميدان من آل قطرميز، وكان الشيخ إبراهيم مدعواً أيضاً. وعندما التقينا في دار صاحب الدعوة، أصرَّ علىٰ أن أجلس في مكان التكرمة الأكثر لأني شيخه ولي الفضل عليه ـ كما يقول ـ وأكثر من هذا: بعد أن خرجت قبله مستأذناً للوفاء بموعد لديَّ: طلب أهل الدار من الشيخ أن يجلس حيث كنت أجلس، تكرمة له كما كانت التكرمة التي أصرَّ عليها لي، فأبىٰ بحزم أن يفعل، وقال: هذا المكان لا يليق إلا بشيخي، فلا يحق لي أن أتجاوز قدري، وأجلس في مكان التكرمة الذي كان يجلس فيه الشيخ أبو الخير!!.

قلت: وأحسب أن ما تتركه هذه الواقعة وأمثالها من الأثر الطيب في النفوس: ناطق بنفسه لا يحتاج إلىٰ مزيد من البيان والتعليق، ورحمة الله

عالمي الأمة الربانيِّين المتواضعين، وأجزل مثوبتهما، وبوّأهما منازل الأبرار المقربين.

وهذا كله جدير بتوكيد ما كان عليه شيخنا من محبة العلم النافع وأهله العاملين به، والحرص علىٰ نشر علوم الإسلام، وإعطاء هذه المكرمة ما تستحق من التقدير الذي يحمل علىٰ الاقتداء.

وقد كنت أرىٰ من حرصه علىٰ الدرس والاهتمام بالقراءة أيام كنت أشرف بتدريسه لي وتربيته العجب العُجاب، رأيت ذلك وأحسست به، وقد قرأت عليه عدداً من الكتب في شتىٰ علوم الشريعة والعربية ناهيك عما يتعلق بالسلوك وأعمال القلوب.

وماذا عليَّ أن أذكر أن وجهاء قطنا تجمعوا مرة عنده في الدار حيث استقبلوا وأُجلسوا في غرفة ملاصقة للغرفة التي نقرأ فيها الدرس، وأظنه في الفرائض، والغاية من التجمُّع الذهاب مع الشيخ إلىٰ دمشق لمراجعة جهة حكومية في شأن واحدة من مصالح البلدة يومذاك، وتكرر تذكير الشيخ بأدب من أجل الخروج والسفر، فما كان من الشيخ رحمه الله إلا أن قال: «ليس هناك موعد يُخْرَم، فأنا مستعد لاصطحابكم في هذا الأمر المهم، ولكني لا أقطع درس العلم أو: درسُ العلم لا أقطعه. ومن يدري ما يمكن أن يكون من الخير علىٰ يد طالب العلم؟!» وهكذا كان، حيث انتهينا من الدرس علىٰ الوجه الذي ينتهجه عادة من الدقة والتوثيق. وسلامة الربط بين الفروع والأصول بالقدر الذي يمكنني استيعابه، جزاه الله خير الجزاء، ثم سافر مع القوم إلىٰ دمشق، وحصل المطلوب والحمد لله.

وأكثر من هذا: كان هنالك رجل من خيار أهل دمشق وصلحائهم الأذكياء، لا ينقطع عن مجالس الشيخ حيث يكون الشيخ في دمشق، فضلاً عن زيارته في منزله بقطنا قبل أن يتحوَّل المنزل إلىٰ دمشق، وعلىٰ نباهة هذا الرجل وفضله. لم يكن علىٰ استيعاب لما يحمل الشيخ بين جنبيه من تقدير فريد للعلم، والاهتمام بالدرس والتدريس. وفقاً لما هدىٰ إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فقال للشيخ ـ وهو يرىٰ اهتمامه بهذا الطالب وعنايته به ـ: يا سيدي! ألا تريدون أن تعطوا

فلاناً ـ وهو يعنيني ـ الطريق؟ فقال له الشيخ مجيباً: «طلب العلم طريق وزيادة». وصادف أن الرجل خرج بعد أن أوصد عليه الشيخ الباب في سؤاله الذي كان يراه مهماً للغاية، وظللت مع الشيخ وحدنا في الغرفة، فراح يشرح لي لم كان طلب العلم طريقاً ـ في التصوف ـ وزيادة؛ ببيان القدر العظيم للعلوم المتعلقة بالكتاب والسنة، وما يخدمها من علوم العربية، والمهم أن يخلص طالب العلم النية، كما يقطع الطريق علىٰ النفس والهوىٰ، بما ينفثان من الجنوح إلىٰ الرياء وما هو منه بسبب، وعلىٰ طالب العلم أن يواظب علىٰ قراءة القرآن، والأوراد الواردة في سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يكون في حرصه علىٰ العلم، وأخلاقه في الطلب: مثالاً يحتذىٰ.. إلىٰ آخر ما وجه إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأجزل مثوبته.. من ضرورة الجمع بين الجدية في طلب العلم والترقي من مدارجه ومصادره، وبين التقوىٰ ومراقبة الله تعالىٰ في السر والعلن، علىٰ هدي ما دل عليه الكتاب الكريم، وبينته السنة المطهَّرة... ثم لم يَعُد الرجل الطيب إلىٰ القضية التي سأل الشيخ عنها والحمد لله.

وقد كنت أشرت من قبل إلىٰ إقبال الشيخ الدائم علىٰ الكتاب العلمي، وأمانته في التدريس، والفتوىٰ، طلباً لمرضاة الله، حيث يجمع بين الدقة العلمية من المصادر الموثقة، وبين الأدب مع الله في كل ما يأخذ وما يذر في هذه السبيل، إن الشيخ بذلك نعم المعلم ونعم المربي بهذا السلوك المنوَّر بالهدي المحمدي والتزام السنة المطهرة علىٰ الوجه الذي ينبغي.

وهذا يذكرني بما قصَّ عليَّ الأخ الكريم الشيخ الدكتور محمد لطفي الصباغ شكر الله له، من أنه عندما كان مدرساً للعربية في درعا كان يلتقي أخانا الموفق خال أولادي الشيخ سعد الدين الغلاييني أحد أنجال شيخنا رحمهما الله الذي كان يدرِّس هناك مادة التربية الإسلامية وصادف أن زار شيخُنا ولده في درعا، وحصل لقاء في مجلس عام مع الشيخ: فسأله أحد الحضور عن حكم صلاة المرأة في المسجد، فأجابه الشيخ بالجواز، غير أن صلاتها في بيتها أفضل، ثم أحال السائلَ ـ لمزيد من التفصيل إن أراد ـ علىٰ كتاب «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري.. يقول الأخ المفضال الدكتور الصباغ: فرجعت ـ أنا ـ إلىٰ كتاب «الترغيب والترهيب» فوجدت الحكم كما

قال الشيخ إبراهيم بوّأه الله منازل الأبرار، الأمر الذي زادني يقيناً بسعة علمه، واستحضاره لأقوال العلماء في المسألة المسؤول عنها.

وكم أتمنىٰ لو سلمت مجلدات فتاواه الثمينة، فلم تفقد، وتيسَّر تقديم نماذج من تلك الفتاوىٰ، بدقتها العلمية، والأمانة في نقل الأحكام من المصادر وحسن التعامل مع النصوص!! **علماً بأنه كان يكتب في ذيل الفتوىٰ. وكتبَه الفقير إليه تعالىٰ: «إبراهيم» بتوقيع.**

وهذا الذي نقول في الكشف عن أهمية العلم والتعليم عند الشيخ والدرس والتدريس، مصحوباً ذلك بالإخلاص وتقوىٰ الله ﷻ ينقلنا إلىٰ أنموذج من نماذج أسلوبه العلمي الحكيم المؤثر عندما يتحدث إلىٰ الناس مقرراً موضوعاً ما، من خلال تفسير آية أو شرح حديث نبوي، أو الكشف عن أبعاد كلمة من كلمات واحد من السلف الصالح، وهاكم هذا النموذج الذي أتحفنا به المحدث الفقيه أخونا المفضال الشيخ شعيب الأرناؤوط حرسه الله.

قال الشيخ شعيب:

بسم الله الرحمن الرحيم. . . في الخمسينات في أثناء طلبي للعلم كانت تقام في مساجد دمشق حفلات لإحياء ذكرىٰ المولد النبوي الشريف، تتلىٰ فيه قصة المولد، وينشد المنشدون قصائد في مدح النبي ﷺ، ويخطب غير واحد من المتكلمين يتحدثون عن شمائل النبي ﷺ، وكريم خلاله وسجاياه، ويذكرون المعجزات التي أجراها الله علىٰ يديه، ويعمقون محبة النبي ﷺ في نفوسهم، حتىٰ يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم والناس أجمعين، يفعلون ذلك لتثمر هذه المحبة الطاعة التامة والتسليم المطلق لهديه ﷺ، وكنت شديدَ المحبة لهذه المجالس، فأسارع إلىٰ حُضُورها حين يبلغني أمرها، لما فيها من عِظاتٍ بالغاتٍ، وتوجيات مُباركات، وكان يحضر تلك المجالس علماء أجلاء من مدينة دمشق وضواحيها، وكثير منهم قد جاوزوا الستين، وكانوا يجمعون إلىٰ قوة إيمانهم ووفرة علومهم، مظهراً أنيقاً في اللباس والهيئة، فهم يدُلُّونك علىٰ الله بأفعالهم وأقوالهم وهيئاتهم، وفي يوم من الأيام من شهر المولد أُخبِرتُ أن قصة المولد ستُتلىٰ في جامع الدقاق في الميدان أو جامع مازي القريب منه، وسيحضره عُلماء دمشق الأجلاء، وكان الموعد في المساء بعد

صلاة العشاء، فتُليت قصة المولد وخطب الخطباء، وكان في المسجد الشيخ إبراهيم الغلاييني رَحِمَهُ اللهُ، وربما كان أكبر القوم سنّاً، وأفضلهم علماً، وأكثرهم اتباعاً لهديه ﷺ، فطلب أحد أهل العلم منه رَحِمَهُ اللهُ، في ختام المجلس أن يتكلم ويَعِظَ الحاضرين، فاستجاب لذلك وكان كلامه ـ علىٰ وجازته ـ عظة بالغة، انتفع بها الحاضرون، وتأثروا بالغ التأثر، وغطّت علىٰ كلام المُجيدين الذين تحدثوا قبله، وسرُّ ذلك في نظري أنه رَحِمَهُ اللهُ كان يقول ما يفعلُه، ويحاول ـ ما استطاع ـ أن يكون مؤمناً حقاً، فكان المستمع إليه يُحِسُّ بحرارة الإيمان تنبعث من تلك الكلمات التي تسمعها منه، وكان مما حفظته من وعظه ذلك أنه كان يُلِحُّ علىٰ المستمعين تحقيق معنىٰ العبودية في جميع تصرفاتهم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: التي هي الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر علىٰ المفقود، وقد أجاد كل الإجادة في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وكان مما قال: «إن العبادة الحقة هي التي تجمع بين أمرين اثنين، وهما: أن لا يُعبد إلا اللهُ، وأن تكون العبادة مما شَرع اللهُ» ثم قال ما معناه: أن العبودية الكاملة التي تجمع كلَّ أفعال الإنسان المقرونة بالإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، تدفع صاحبها لأن يستمد العون منه تعالىٰ والتوفيق والهداية، وأن العبد الذي يتحقق في باب العبودية ويخلِصُ له سبحانه ويستمد العون منه لا من أحدٍ سواه فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يحييه حياة طيبة، ويكفيه هم الدنيا وعذاب الآخرة واستشهد بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ ثم قال: كونوا عبيداً لله يكن الله رباً.

رحمه الله رحمة واسعة، فكم ذرفت عليه لوفاته دموع المؤمنين، وحزنت القلوب، وانطلقت ألسنتهم بالثناء عليه والدعاء له.

فراسة وكرامة:

ليس من مكرور القول التذكير بأن العالم الرباني همُّه ـ وهو يؤدي رسالة الخير في الأمة ـ استدامة صفاء قلبه، وحسن صلته بالله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا كان الأمر كذلك: فلا تسل عما يكرمه الحق تبارك وتعالىٰ به من عطاء قوله جل شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس] ومن ذلك ما يتفضل به عليه من نور البصيرة، حيث صدق الفراسة وإجراء الكرامة علىٰ يديه!.

وددت أن أسوق هذه الكلمات بين يدي ما أنا بسبيله من إيراد ما حدثني به الأخ المفضال الشيخ شعيب الأرناؤوط من أن عدداً يبلغ العشرة من إخوانه مدرسي مادة التربية الإسلامية تنادوا للذهاب إلىٰ قطنا لإطلاع شيخنا الشيخ إبراهيم الغلاييني علىٰ ما تعانيه هذه المادة ومدرسوها من الحيف والمساءة عسىٰ أن يسهم عند أولياء الأمر في دفع الأذىٰ وإعادة الأمور إلىٰ نصابها، وكان الشيخ مشهوراً ـ كما هو معلوم ـ بحسن تفهمه للمشكلات، وصدق لهجته، وصراحته في كلمة الحق، ناهيك عن همته العالية في كل ما هو من مصالح الأمة بسبب، وواضح أن المشكلة المطروحة تتعلق بعقيدة الأمة وثقافتها.

وكان لقاء الأساتذة للذهاب إلىٰ الشيخ ـ كما يقول أخونا الشيخ شعيب ـ في مكان انطلاق ـ باصات ـ قطنا في الحلبوني. وأكثر الإخوة لم يكونوا تناولوا طعام الغداء قبل السفر إليه عند الغروب. وكان إلىٰ جانب المرآب مطعم يصنع الشطائر، فبادر بعضهم فاشترىٰ وأكل، ورفض البعض الآخر أن يأكل قائلين بأنهم سيأكلون عند الشيخ؛ لأن الشيخ معروف عنه تقديم الطعام للأضياف، أياً كان سبب الزيارة. وانطلقنا ـ كما يقول محدثي الفاضل ـ في السيارة حتىٰ وصلنا قطنا، ولقينا الشيخ أجزل الله مثوبته، والذي حصل: أنه بعد ترحيبه المؤنس ـ كما هي عادته وكريم خلقه ـ أطلعناه علىٰ جلية الأمر فيما جئنا من أجله، فتفهَّم الأمر بإحاطة واضحة، وتحمَّس له، ووعد خيراً كما هي عادته في خدمة الإسلام والمسلمين، ودفع الأذىٰ عنهم ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر من أخلاقه المعروفة بالتواتر.

ثم قال الشيخ لأحد ولديه الشيخ محمد أو الشيخ عبد الله ـ لا يذكر الشيخ شعيب ـ: اذهب وائتنا بالطعام ثم التفت إلينا وقال بلهجته المحببَّة المهذبة: ليس من المستحسن أن يأكل طالب العلم في الطريق وهو قائم، لأنه خلاف السنة، خصوصاً وأنه ذاهب إلىٰ أخٍ له في الله.

يقول الشيخ شعيب: وتبين لنا أن الله قد كشف عن بصيرته، وأطلعه علىٰ ما فعله بعضنا، فكان الذين لم يأكلوا يعتبون بأسلوب لطيف علىٰ الذين طعموا في الطريق، ويقولون لهم: أرأيتم كيف أن الشيخ أنجز ما كنا متصورين من

تقديم الطعام، رحمه الله رحمة واسعة وكانت له ـ من نور البصيرة ـ فراسة صادقة، هذا: وقد وفىٰ الشيخ بما وعد في شأن القضية التي زرناه من أجل تجليتها وطلب توسطه في رفع الحيف ودفع المساءة والحمد لله.

الصدع بالحق والتأييد الإلهي:

وَبَعْـد: فغير خاف ـ والله أعلم ـ أن هذا الذي رأينا من الكلمات المضيئة، المضمخة بعبير الإخلاص، والتي تدخل بكل يسر إلىٰ القلوب، وتعمل عملها الخيِّر في النفوس، وتحدث ما تحدث عند السامع من التأثر البالغ علىٰ طريق الهداية والتوفيق: مردُّه إلىٰ ما جرت الإشارة إليه فيما سبق، وهو توفيق الله شيخنا الشيخ إبراهيم ـ وهو العالم الرباني ـ إلىٰ العمل بالعلم، والزهادة في الدنيا، مع التنسُّك والإكثار من العبادة، في سلوك لا يغادر السُّنة، مضموماً إلىٰ ذلك: ما كان من السخاء وبسط الكف في الصدقات وفعل الخيرات والقربات، ناهيك عما أخذ به نفسه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً، وقد توافر له ـ بحمد الله ـ الشجاعة النادرة في الصدع بالحق، وأن لا يخاف في الله لومة لائم، كل أولئك مع الحرص علىٰ بذل الجهد في تعليم من يستطيع من الناس أحكام الدين وآداب الإسلام من خلال الدعوة إلىٰ سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وإن أنس لا أنس ما حدثني به الثقات عن موقف غاية في الروعة وقع له أيام انتشار جيش الاحتلال الفرنسي في قطنا بعيد ثورة ١٩٢٥م، حيث بلغ الأمر من السوء حدَّ أن أذِنت القيادة للجنود وهم المتطوعون من غير أهل السنة، بمشاركة الناس في بيوتهم، حتىٰ إنك لا تعدم أن ترىٰ في كل منزل جندياً أو أكثر يسومون الناس سوء العذاب من طريق التعايش الذي فرضوه عليهم.

وفي هذه الأثناء ـ والحال هي الحال ـ جاء رجل مسكين مستضعف إلىٰ شيخنا ـ وهو في المسجد ـ يشكو له علاقة سيئة بين جندي أسكنه الاحتلال في داره وبين زوجته، فاختار الشيخ ـ ولم يكن مفتياً بعد ـ أن يوجه الرجل الذي يعتصره الألم ويعيش علىٰ تهديد الجندي له بالموت: إلىٰ القاضي ذي

المنصب الرسمي، ويخبره بالأمر علَّه يساعده، ولكن القاضي ـ وقد بلغ منه الذعر مبلغه ـ صدّه، وأمره أن لا يتحدث عنه أنه لقيه بهذا الشأن قائلاً له: ألا ترىٰ إلىٰ حالة الطوارئ المفروضة علىٰ البلد بمن فيه؟!.

وعندما عاد الرجل إلىٰ شيخنا وقصَّ عليه ما حدث مع القاضي: صحبه إلىٰ المنزل وفي الطريق رأىٰ شاباً يعرفه من المسجد، فقال له: تعال معي أعلمك كيف يُنكر المنكر، وحدثني هذا الرجل يرحمه الله أنه رأىٰ بأم عينه تصرّف الشيخ بعد أن دلَّه صاحب المنزل علىٰ الغرفة التي يخلو فيها الجندي الحقير بزوجته؛ إذ طرق الشيخ الباب وطلب أن يُفتح فرفع الجندي صوته بالوعيد للطارق، فما كان من الشيخ ـ كما حدثني الرجل ـ إلا أن دفع الباب بقوة لا يعهدها الناس منه، وإذا بالباب الموصد ينخلع، ولم تَخْفَ بوادر السوء بين الجندي والمرأة، فغضب الجندي وثار لأنه الأقوىٰ ـ كما يحسُّ بذلك ـ ولكن الشيخ قابله بالنصح الحكيم؛ غير أن المجرم لم ينتفع بهذه الحكمة بل غضب بسوء أدب وتهديد ووعيد، وعمد إلىٰ بندقيته المعلقة في الجدار، ووجهها إلىٰ صدر الشيخ، ولكن الشيخ وقد بلغ منه الغضب لله مبلغه أمسك البندقية من يد الجندي قائلاً له: اضرب الله أكبر منك، اضرب الله أكبر منك، واستطاع بقوة إيمانه أن ينتزعها منه، ويتخذ منها بواسطة حمالتها سلاحاً طوقه به علىٰ رقبته، وهنا خارت قواه، وأصبح الشيخ سيد الموقف، وقاده إلىٰ دار الحكومة، وفي الطريق لم يقصر في تأديبه وتأنيبه، حتىٰ إذا اقترب الشيخ من مباني السلطة الفرنسية، صادف ذلك خروج ضابط شركسي مسلم يعمل ترجماناً للفرنسيين، فسأل الشيخ عن هذا الأمر المهول، فأجابه بالواقع، عندها قال هذا الترجمان الضابط لشيخنا: انتهىٰ دورك يا سيدي، ونحن سنتصرف إن شاء الله.

ومما يجدر ذكره هنا: أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقدم علىٰ ما أقدم عليه وهو يجهل أن هنالك أحكاماً عرفية وحالة طوارئ، وأن دم المسلم ـ أو المواطن السوري عموماً يومذاك ـ لا قيمة له عند اللزوم، وإن كانت تصرفات المستعمرين الفرنسيين أحياناً أقل سوءاً من تصرفات بعض الحكام عندنا الذين همُّهم توكيد إلغاء وجود الإنسان، بمصادرة حريته وكرامته، وانتهاك الحرمات

صباح مساء؛ فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ غضب لله، وأقدم علىٰ ما أقدم عليه انتصاراً للحق، وقياماً بواجب معاونة الضعيف من إخوانه، ودرء المفاسد عن المجتمع قدر المستطاع، وليكن بعد ذلك ما يكون، وإنها لشجاعة في نصرة الحق وأهله مقامها عظيم في تاريخنا ونورها وضاءٌ لا ينكره إلا أرمد العين أعشىٰ، وبدونها تظل الأمة مضروباً عليها بالأسداد، ذليلة بعد عز، ضعيفة متراخية بعد قوة وظهور.

هذا: ولم يمض إلا حقبة يسيرة من الزمن حتىٰ بدأ التآمر علىٰ الشيخ أجل: بدأ امتحان الشيخ من طريق المال؛ فإن نجحوا، سقط الشيخ في وهدة حب الدنيا، وأن غضبه لم يكن لله، إذ سرعان ما تغير الحال علىٰ وهج الذهب، ولكن خاب فألهم، وقصة ذلك كما يلي: بعد حقبة يسيرة من الزمن دُعي الشيخ دعوة رسمية لحضور اجتماع مهم طارئ في دار الحكومة يحضره المستشار الفرنسي وبقية الرسميين من عسكريين ومدنيين ولبىٰ الشيخ الدعوة حرصاً علىٰ أن يكون ـ وهو المفتي والخطيب والمدرس والإمام ـ علىٰ علم بمسالك الأمور، ودراية بما يجري علىٰ الساحة العامة. واستقبل الاستقبال المناسب، وجلس في مكانه اللائق ، والحضور ينظرون إليه ولم يمض مع ذلك إلا دقائق، حتىٰ أعلم الشيخ بإعلان عام أن الجندي الذي كانت له واقعة عصية مع الشيخ قد تاب وأناب، وسيعتذر من الشيخ ويطلب الصفح منه أمام الجميع من المستشار الفرنسي فما بعد.

بدت الموافقة علىٰ وجه الشيخ ووصل الجندي إلىٰ حيث يجلس، واعتذر وأخذ يد الشيخ يريد تقبيلها بحسب الظاهر، ولكن سرعان ما ضرب الشيخ علىٰ يد الجندي بيده، وهناك تطايرت ليرات ذهبية كثيرة بعض الشيء وتبين أنها المؤامرة الشنيعة، ونادىٰ الشيخ بعد أن تطايرت الليرات: تريدون أن تشتروا إبراهيم بالذهب، إبراهيم يغضب لله ولا يبيع دينه، واعملوا ما شئتم فروحه رخيصة في سبيل الله ثم نصرة الحق مهما كلف ذلك من ثمن. وانفض الاجتماع بعد أن رفع الشيخ عقيرته بشجاعته الأدبية، وجرأته في الصدع بالحق، ولم يقصِّر في توجيه الخطاب للمتآمرين بما يستحقونه، وتأنيبهم علىٰ صنيعهم الساقط المتخلف.

وبعد هذا كله، راح القوم يسترضون الشيخ معتذرين، وأبلغوه ما قرروا من عقوبة الجندي، ومن فقراتها إبعاده عن قطنا إلىٰ بلد ناءٍ بعيد.

وهكذا انتصر الحق، وارتفعت راية الرجل الرباني الشجاع الشيخ إبراهيم الغلاييني، وكان صنيعه من أوله إلىٰ آخره محطة مباركة في تاريخ الغضب لله والصدع بالحق، وأن لا يخاف العالم الرباني في الله لومة لائم.

من كراماته رضي الله عنه:

وفي خاتمة المطاف: لعل من الخير وما ينبغي من التكامل ـ أو ما يقاربه ـ في الحديث عن واحد من أعلام الربانيين ـ وأستاذنا الشيخ إبراهيم واحد من عيونهم ـ أن نشير إلىٰ أن ما كان عليه الشيخ من الصفات التي سبقت، ومنها سلامة عمل الجوارح، نتيجة استنارة أعمال القلب، بعد إخلاص الدين لله والصدق في المواطن: مدعاةٌ للتصديق بإمكان أن تُخرق له العادة، ويُجريَ الله علىٰ يده ـ وفق ما تقرره الشريعة ـ واحدة أو أكثر من الكرامات التي يكرم بوقوعها أولياءه الربانيين في نور قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس].

وقد وقع العديد من ذلك له يرحمه الله، مما شهدته بنفسي، أو سمعته من العدول الثقات، والأمر متسع لعطاء الرحيم الرحمٰن سبحانه في حياة زاخرة بالخير والصلاح.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا بد من الإشارة إلىٰ أنه ـ يرحمه الله ـ كان لا يُولي ظهور الكرامة كبير عناية لأنه يخاف أن تكون استدراجاً كما ورد ذلك عن أحمد بن حنبل رحمه الله وكثيراً ما كان شيخنا يردد: الاستقامة هي عين الكرامة؛ فالخير كلُّ الخير عنده، والكرامة كلُّ الكرامة، أن يعمل المؤمن بهذا الدين، ويضبط سلوكه بضوابط الشرع الحنيف. وإذا ظهر علىٰ يده شيء مما نقول من الكرامات: تراه وكأنه مذعور مما حدث، ويحاول جاداً صرف من شهدوا ذلك عنه، وأحياناً تدمع عيناه، ويستبدل الحديث الذي كانت الكرامة

ثمرته، بموضوع آخر، أو بمسألة علمية ينبغي تداول الكلام في شأنها إلىٰ غير ذلك من الصوارف التي يراها، موصداً البابة التي ظهر منها الأمر الخارق.

ومهما يكن من أمر: فإن هذا الموقف من الشيخ يزيدنا رغبة في أن نتحدث بإيجاز إضافة إلىٰ ما ذكر عن بعض هذه الكرامات، وسأقتصر علىٰ ذكر ثلاث منها، مستصحباً حقيقة أن ما ذكر دليل علىٰ ما لم يذكر، ما دامت الكرامة ليست من صنع صاحبها، ولكنها فضل من الله تبارك وتعالىٰ يتفضل بها علىٰ أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون.

• **فأولاها**: ما حصل لي معه وأنا حديث السن، حديث العهد بطلب العلم عنده؛ إذ خرجت من المسجد بإذنه وهو معتكف في العشر الأواخر من رمضان، وذهبت إلىٰ دارنا حيث الوالدة[1] رحمها الله وأجزل مثوبتها هي راعية المنزل لأن والدي توفي وأنا ابن ستة أشهر، وسنها عشرون عاماً، وتأبّت علىٰ الزواج حرصاً منها علىٰ التفرغ لتربيتي وتعليمي أعلىٰ الله مقامها في الآخرين مع المنعَم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وجرىٰ بيننا كلام في شأن الثياب، ويبدو أني أطلت بعض الشيء وربما كان ذلك خطأ لعدم الانتباه أو ما يشبه ذلك مما يمكن أن يقع من فتًى سنُّه ثلاثة أو أربعة عشر عاماً يومذاك، وشعرت بيني وبين نفسي بالخطأ خصوصاً وأنها ـ بعد الله ـ كل شيء بالنسبة لحياتي التربوية وكل ما يكون من أسباب

---

(١) الوالدة: هي السيدة أم أديب نظمية بنت أحمد الطحان ولدت في دمشق عام ١٩٠٦م وعاشت في قطنا مع والدي الذي توفي رحمه الله وسنُّها يومذاك عشرون عاماً وستة أشهر، وحرصاً منها علىٰ تربيتي دون سلطان لزوج جديد رفضت الزواج ثانية بعد أن خطبت غير مرة، وتفرّغت جزاها الله خير الجزاء للعناية بي صابرة علىٰ لأواء الطريق مجاهدة تقية، همُّها ـ بعد استقامتها ـ أن ينشأ ولدها نشأة علمية صالحة، وكانت وفاتها في الرياض بالمستشفىٰ بعد تمريضها أياماً، وهي صابرة محتسبة في المنزل بيننا عام ١٤٠٣هـ ويسَّر الله دفنها في البقيع بالمدينة المنورة والحمد لله إنفاذاً لما هو شبه الوصية.. ولقد أسعدني وزادني شرفاً، وهذا ما أملكه أن جعلت إهداء رسالتي للدكتوراه «تفسير النصوص» قولي هناك: «إلىٰ الرائدة الأمينة علىٰ درب اليتم الطويل.. والتي ما زالت تتابع الطريق عطاءً ووفاءً ترجو بهما الله واليوم الآخر.. أمي يرحمها الله ويعلي مقامها في الآخرين. تموز ١٩٦٤م.

بناء شخصيتي فهي بعد الله صاحبة الفضل الكبير علىٰ درب اليتم الطويل وعدت إلىٰ المسجد. وبعد دقائق من درس قرأته مع الشيخ، شرع يمتِّن شيئاً من حفظه في القرآن الكريم وأنا أضبط في المصحف، وكان من عادته أن يقف أحياناً عند بعض الآيات يستجلي بأسلوب جميل بعض معانيها وما تعطيه من الفوائد، فجاء علىٰ آية لا أذكرها الآن، حمله معناها علىٰ القول ـ بكل وضوح ـ هذا ما يجب أن يكون للوالدين طاعةً لله ﷻ، لا كما يفعله بعض الشباب من مجادلته والدته وربما رفع صوته فوق صوتها، وأحسست صادقاً ـ علم الله ـ كأن الشيخ كان معنا ساعة جرىٰ الحديث بيني وبين سيدتي الوالدة في منزلنا حيث كنا وحدنا، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسجد ملازم للبقاء فيه معتكف!!.

واستغفرت الله بعدها مرات ومرات، واسترضيت سيدتي الوالدة معتذراً وهذا بعض حقها، لأن حقها وهي الأم الصابرة المجاهدة التقية كبير كبير، علىٰ أن شخصيتها بما اجتمع لها بعون الله من عزم وحزم وشفقة وصبر: كانت أكبر مني وأكبر من اعتذاري، فرضيَتْ ودعت دعاء مصحوباً بالدموع. رحمها الله رحمة واسعة.

• **أما الثانية:** فقد حدثني الثقة العدل الذي لا أشك في صدقه وتقواه، وفي محبته الصادقة الواعية لشيخنا رحمهما الله، معلمي ومربيّ في السنتين الرابعة والخامسة ـ وهي سنة الشهادة يومذاك ـ في المدرسة الابتدائية، وفي بيته أيضاً معاونةً لطالب قريب له يتيم يتوسم فيه الخير: الأستاذ حسين أمين من خيرة أهل قطنا، وكبار رجال التربية والتعليم في سورية إذ أمضىٰ ـ مع التدريس ـ حقبة طويلة في التفتيش.

حدثني أنه عندما كان الشيخ في الأربعينيات حاجاً حجته الأخيرة، وهو مشتاق إليه ويحبه، رأىٰ فيما يرىٰ النائم: أنه مع الشيخ إبراهيم في الحج، وعندما أتيا ماء زمزم، وشربا بهناءة من ذلك الماء المبارك الذي هو طعام طُعم وشفاء سُقم، شرع الشيخ يلحُّ عليه، بإعادة الشرب، والتضلُّع من ماء زمزم، وكرر ذلك غير مرة. ومضت الأيام وعاد الشيخ من الحج بعد تأخر لسبب صحي. يقول الأستاذ حسين ـ أبو ماجد ـ وذهبت إلىٰ منزل الشيخ ـ شأن الكثيرين ـ للمباركة بالحج، والتهنئة بالقدوم وطلب الدعاء، وكنت إلىٰ

تلكم اللحظات عند الشيخ ناسياً الرؤيا، ولكن فوجئت بما جعلني أذكرها مفصَّلة علىٰ خير وجه، ذلك بأن تلميذي النجيب الشيخ سعد الدين أحد أولاد الشيخ، قام يكرم الأضياف بتوجيه من أبيه بأن قدّم لنا ماء زمزم بكؤوس جميلة، والذي فوجئت به وأبكاني، أنه عندما وصل الشيخ سعد إليَّ بدور الضيافة شربت الكأس، وإذا بالشيخ يقول لولده سعد: اسق عمك وأستاذك أيضاً من ماء زمزم ـ وكان ذلك لي دون الآخرين من الأضياف وهم كثُر، وكرر ذلك هنا ـ كما كرر أمري بالتضلّع من ماء زمزم ـ في مكة المكرمة هناك إذ كلما شربت كأساً أمر سعداً بأن يجدد الإكرام بكأس أخرىٰ. . وعندها اعترتني حال الصحو بعد الغفلة، وتذكرت الرؤيا التي كنت ناسيها، تذكرتها بالتفصيل الذي عماده التطابق بين أمره لي بأسلوبه العذب المحبّب غير مرة بأن أتضلَّع من ماء زمزم، وبين أمره ولده تلميذي النابه بأن يعاود إكرامي بعد كل كأس بكأس جديدة ثلاث مرات أو تزيد، وبكيت وبكيت وأحسست بسعادة لا أملك وصفها وحمدت الله علىٰ فضله في أن منَّ علينا بل علىٰ الأمة بهذا الرجل الرباني العظيم عالمنا وشيخنا الشيخ إبراهيم يرحمه الله!!.

● **وأما الثالثة**: فواقعة حصلت لي معه ـ وقد مضىٰ علىٰ زواجي بابنته أم أولادي السيدة المصونة أم محمد إقبال ما يقارب الثمان سنوات؛ حيث صدر قرار إيفادي ـ وأنا معيد بكلية الشريعة بجامعة دمشق ـ إلىٰ كلية الحقوق بجامعة القاهرة في القاهرة، للحصول علىٰ درجة الدكتوراة [في الحقوق ـ الشريعة الإسلامية] وسافرت مع أهلي حيث مكثنا في القاهرة بضعة شهور ثم عدنا، وعزمت علىٰ العودة لمتابعة الدراسة والتحضير، وكنا ما نزال نسكن في قطنا والشيخ موجود هناك، وحرصت في اليوم الذي يسبق سفري أن أودِّعه علىٰ الطريقة المسلوكة بيننا محبة واحتراماً وتقديراً، ولكني فوجئت بأن الشيخ متعب في النهار، وقيل لي: لعلك تمرُّ في المساء، وفعلاً مررت في المساء، فإذا بي أفاجأ مرة أخرىٰ بأن الشيخ ما يزال متعباً ونام مبكراً، وأنه ـ لحرصه علىٰ اللقاء مع ما هو عليه من التعب ـ رأى أن يكون الموعد فجراً إن شاء الله أو قُبيل الفجر. ولم استغرب الموعد في هذا الوقت لأني أعلم أنه لا يدع قيام الليل والمناجاة بالأسحار، حتىٰ عندما يكون متعباً بعض الشيء، بل يستشفي

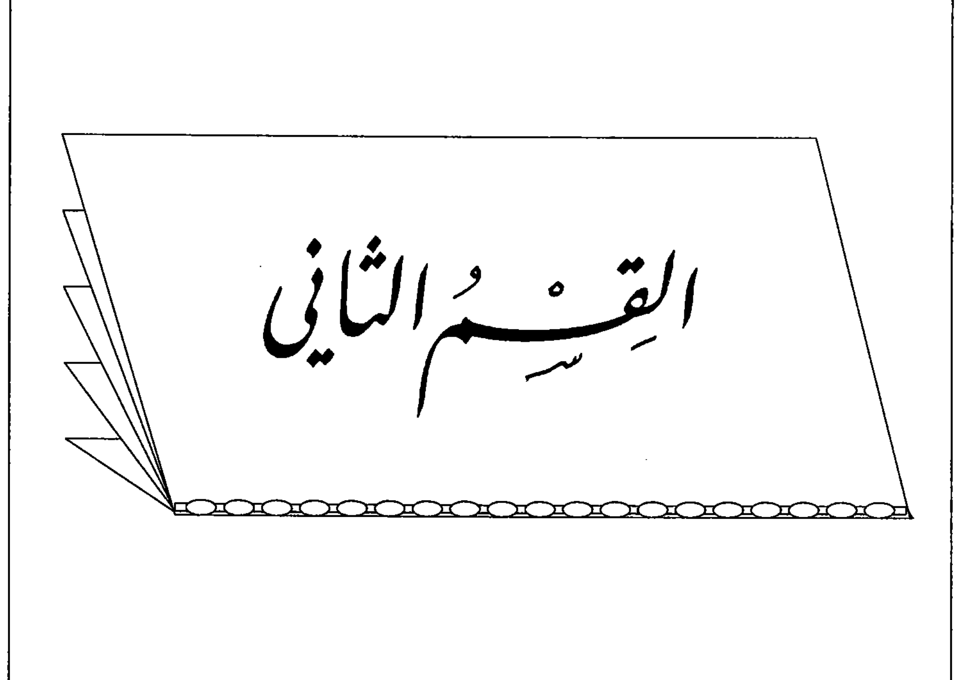
بذلك، شأنَ أهل القلوب الربانيين. وجئت قبل الفجر، واستقبلني جزاه الله خيراً بلهفة أبوية حارة مصحوبة بلطيف الاعتذار، وأشعرته أني أنا الأجدر بأن أعتذر عن إلحاحي، ولكنه السفر.. واستفسرت عن صحته وتمنيت له الشفاء العاجل ودعوت الله بذلك ونظراً لما يعتريه من التعب، وضيق الوقت عندي لأني مسافر في الصباح، صلينا الفجر في المنزل، والغريب الذي لم أكن أتوقعه أنه ـ لأول مرة ـ تجمعنا فيها جلسة خاصة، يقدمني لإمامته في الصلاة، ثم لا ينفع الاعتذار، ويصرُّ علىٰ ذلك ولم يكن يدور بخلدي شيء من دلالة هذا التصرف الزاخر بالتواضع والإكرام، وأن له علاقة بأن هذا اللقاء هو الأخير هذه المرة، وانتقلنا من الصلاة بعد الفريضة، وقرأ أوراده المعتادة بشيء من الإيجاز، ثم فتح الله عليه ـ وهو ينظر إليَّ جزاه الله خير الجزاء ـ بكلام عجيب في عذوبته، جِدٍّ عظيم في مراميه، تحسبه دموعاً وما هو بالدموع، وقد يكون كلام مودع، أنت محجوب عنك الشعور بذلك؛ فأنا ـ علىٰ الحقيقة ـ جدُّ حريص قلباً وعقلاً بأن أتزود أكبر قدر ممكن من عمق كلماته، والنظر إلىٰ وجهه المؤنس النيرِّ بالصلاح والنُّصح، ثم الإفادة من توجيهاته التي تأخذ بمجامع القلوب، حيث أستمع إليه وهو صاحب الفضل في التعليم والتربية، والمعاونة علىٰ كل ما فيه سلامة البناء في مرحلة استقبل فيها العمل الجامعي، وما قد يتصل بذلك من شؤون الدعوة، ثم إنه ـ والحمد لله ـ جدُّ أولادي وهذا شرف كبير! وتحدَّثَ وتحدَّث وفي عينيه التماع، وفي قلبه من نور الإيمان والخشية وجيب، وكانت نظراته تتألق وكأنها تريد أن تقول للزمن: تمهل قليلاً، تأنَّ قليلاً، تريث قليلاً.. كل هذا وأنا ـ لأمر يريده الله ـ لا أتبيَّن أن الجلسة أصبحت جلسة مودع لها دلالتها ومعانيها في المحبة والتذكير النافع العظيم، وأنىٰ لي أن أحيط بسنا ما كان من نفحات تلك الجلسة التي كان السلطان فيها للغة القلوب، حيث معي ـ أكرمه الله ـ إلىٰ الباب الخارجي، وكم كانت لحظات عميقة الدلالة علىٰ فضله ومحبته وما كان من رحلة عينيه إلىٰ المستقبل في تلك الحظات، وتعانقنا وقبَّلني وعيناه تدمعان، وقبلت يده مرة بعد مرة، وقلبي يجف من عطائه وحنانه، كل ذلك وهو يتمتم نحو السماء، ولم يدع أن يدعو بدعاء الوداع المسنون عند السفر، وخرجت وأنا

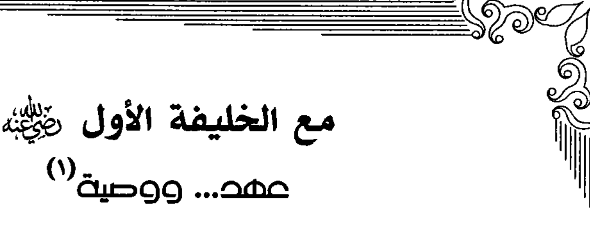
أتمنىٰ أن لا أكون أثقلت عليه، مع أني اعتذرت له عن ذلك من قبل، وتوجهت إلىٰ السيارة التي تقلُّني إلىٰ المطار، وأنا أحمد الله بلساني وبقلبي علىٰ ما أكرمني به من لقاء شيخنا علىٰ ما هو فيه من الحال الإيمانية التي رأيت، والعطف الأبوي الذي شهدت، ودعوت الله له بالشفاء العاجل وأن يهبه سبحانه قوة من لدنه، تقدُره علىٰ أن يتابع مسيرة الخير، حاضر القلب، دائم النفع للآخرين.

وبيت القصيد: أنه لم يمض علينا بضعة أشهر في القاهرة، حتىٰ وافاه الأجل في دمشق، وعندها أحسست بأن تصرفه النوراني الذي تحدثت عنه في منزله بقطنا موثِّق العرىٰ ـ والله أعلم ـ بنبأ الوفاة، فكأن الله تعالىٰ قد ألهمه الإحساس بدنو الأجل، وأن لا لقاء بعد اليوم في هذه الدار، فكان منه ما كان، أجزل الله مثوبته، وجزاه عني كل خير.

وكم تمنيت أن لو قسم لي وداعه في لحظاته الأخيرة، وتقبيله بعد موته.. كما أكرمني هو بذلك الوداع المؤثر ساعة غادرت منزله في قطنا، ولكن قدر الله غالب، والرضا به واجب، ولا أملك إلا الدعاء بأن يجمعني الله به في مستقر رحمته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

والآن: أرأيتم؟ هذه هي ثالثة المكرمات التي اقتصرت علىٰ ذكرها، ولشيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ غيرها وغيرها مما أرجو ذكره في كتاب عن شيخنا إن يسَّر المولىٰ عَزَّوَجَلَّ، وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.


القسم الثاني



مع الخليفة الأول رضي الله عنه

عهد... ووصية[1]

رحم الله الخليفة الأول أبا بكر الصديق ورضي عنه وأرضاه. فقد كان الصورة المثلىٰ لسيرة النبي ﷺ في الناس، حتىٰ كانت حياته ـ علىٰ قصرها الزمني ـ ذات أبعاد رحبة وعظيمة في تاريخ هذه الأمة، صدقاً في متابعة الطريق التي رسمتها يد النبوة، ووفاء في التزام الأمانة التي حملها يوم بايعه المسلمون في سقيفة بني ساعدة. وكان ذلك ديدنه منذ اللحظة الأولىٰ، حتىٰ فارق الدنيا بعد أن دفع أذىٰ المرتدين، وجمع القرآن، وفتح الفتوح وسار في الناس سيرة صاحبه وحبيبه خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، وبعد أن عهد بالأمر من بعده إلىٰ عمر رضي الله عنه بموافقة أهل الحل والعقد من المسلمين، ولقد علَّم الدنيا فيما قال وفيما فعل، وفيما عهد، كيف ينصح راعٍ مسؤول، لدينه وأمته وكيف يكون علىٰ الصراط السوي لا يغيِّر ولا يبدل، إلىٰ خاتمة المطاف حين يقف علىٰ عتبة النهاية ويحمله القدر إلىٰ أجله المحتوم، كما علّم الأمة بربانيته العظيمة الكثير الكثير..

ولقد كانت صورة عهده إلىٰ عمر رضي الله عنهما بعد أن استشار الصحابة ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، أني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدَّل فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم، والخير أردت،

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الرابعة عشرة، العدد (١٠)، ربيع الأول ١٣٩٤هـ، نيسان ١٩٧٤م.

ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

وبعد هذا العهد الذي يحمل كلَّ سمات التصور الصحيح لطبيعة المسؤولية في الإسلام، وما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وضرورة ارتباط الجميع بكل ما من شأنه مرضاة الله ورسوله... تحامل رضي الله عنه وخاطب المسلمين الذين اجتمعوا بالمسجد للأمر الخطير فقال لهم:

«أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني استخلفت عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا».

قالوا: سمعنا وأطعنا، وبايعوا عمر[2].

وبعد أن بايع المسلمون عمر رضي الله عنه، كانت الوصية الجامعة التي تنطق كلماتها بميراث النبوة وذلك قول أبي بكر لعمر رضي الله عنهما:

«إني مستخلفك من بعدي، وموصيك بتقوىٰ الله، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا تقبل نافلة حتىٰ تؤدىٰ الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحُق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحُقّ لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وحُقّ لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً، وإن الله تعالىٰ ذَكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم؛ فإذا ذكرتهم قلت: إني لأخاف أن لا ألحق بهم، وإن الله تعالىٰ ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم وردَّ عليهم أحسنها، فإذا

(١) «الطبقات الكبرىٰ»: ٣/ ٢٠٠، «تاريخ دمشق»: ٣٠/ ٤١١، «المنتظم» لابن الجوزي: ٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦، «وفيات الأعيان» لابن خلكان: ٣/ ٦٨.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ»: ٣٠/ ٢٠٠، «تاريخ دمشق»: ٣٠/ ٤١١ ـ ٤١٢، «صفة الصفوة»: ١/ ١٠٠، «أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر» لعلي الطنطاوي وناجي الطنطاوي: ص٥٢ ـ ٥٣.

ذكرتهم قلت: إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء ليكون العبد راغباً راهباً لا يتمنىٰ علىٰ الله غير الحق ولا يقنط من رحمته ﷻ. فإذا أنت حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبَّ إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيَّعت وصيتي لم يكن غائب أبغضَ إليك من الموت، ولست بمعجز الله»[1].

وبعد هذه الوصية بتقوى الله وطاعته وحب الموت ـ ولذلك ما له من دلالة ـ كان الدعاء الخاشع المثقل بندىٰ الضراعة وصدق الابتهال، حيث دعا أبو بكر ربه بعد خروج عمر فقال: «اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت به أعلم، واجتهدت لهم رأياً، فوليت عليهم خيرهم، وأقواه عليهم، وأحرصهم علىٰ ما يرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك ونواصيهم بيدك، أصلح اللهم واليهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته»[2]. رحم الله الصاحبَيْن وأكرم مثواهما في الآخرين وجزاهما عن الإسلام والمسلمين كل خير. وسبحان من لا يضيع أجرَ من أحسن عملاً.



---

(١) «الحلية»: ١/ ٣٦ ـ ٣٧، «تاريخ دمشق»: ٣٠/ ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٢) المصدر السابق: ٣٠/ ٤١١ ـ ٤١٢، «صفة الصفوة»: ١/ ١٠٠.

أبو بكر يوصي عمر رضي الله عنهما[(١)]

(نعمت الوصية وأكرم بالموصي والموصىٰ)[(٢)]

أخرج ابن أبي شيبة بسنده عن زبيد قال: لما حضرت أبا بكر الوفاة، أرسل إلىٰ عمر رضي الله عنهما فقال: «إني أوصيك بوصية وفي رواية: إن حفظتها: إن لله عز وجل حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتىٰ تؤدىٰ الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة باتباعهم الحق في الدنيا وثقل ذلك عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه يوم القيامة إلا الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل وخفته عليهم في الدنيا، وحُق لميزان لا يوضع فيه يوم القيامة إلا الباطل أن يكون خفيفاً.

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة وآية الشدة عند آية الرجاء، ليكون العبد راغباً راهباً، لا يلقي بيديه إلىٰ التهلكة ولا يتمنىٰ علىٰ الله غير الحق. فإن أنت حفظت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت، ولا بد لك منه، وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ولا بد لك منه ولن تعجزه»[(٢)].

لذات أهل الدنيا ومصيرهم

قال ميمون بن مهران: «خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلىٰ المقبرة فلما نظر إلىٰ القبور بكىٰ، ثم أقبل عليَّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي «من بني

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة، العدد (١)، ربيع الأول ١٣٨٤هـ، تموز ١٩٦٤م.

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة: ١٣/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠ رقم (١٦٢٨٠)، «الحلية»: ١/ ٣٦، «الزهد» لابن المبارك ص٣١٩.

أمية» كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعىٰ قد خلت بهم المثلات[1] واستحكم فيهم البلاء وأصابت الهوامُّ مقيلاً في أبدانهم. ثم بكىٰ وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلىٰ هذه القبور وقد أمن من عذاب الله تعالىٰ»[2].

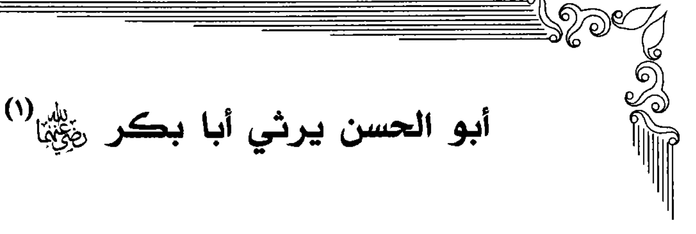
نصيحة لمعاوية

دخل شيخ من الأزد علىٰ معاوية ﵁ فقال له: «اتق الله يا معاوية، واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تأتي عليك، لا تزداد من الدنيا إلا بعداً ومن الآخرة إلا قرباً، وعلىٰ أثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن يلحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذي صائرون إليه باق، إن خيراً فخير وإن شراً فشر».



(١) المثلات: جمع مثلة، وهي العقوبة.

(٢) «المعرفة والتاريخ» للفسوي: ١/ ٥٨٥، «الحلية»: ٥/ ٢٦٩، «الربانيون قدوة وعمل»: ص٣٨٩، د. محمد أديب الصالح، دار الوطن.



أبو الحسن يرثي أبا بكر رضي الله عنهما[1]

أورد الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفىٰ سنة ٤٠٣ للهجرة في كتابه «إعجاز القرآن» هذه الشذرات من كلام سيدنا علي بن أبي طالب في رثاء سيدنا أبي بكر رضي الله عنهما.

قال: لما قُبض أبو بكر رضي الله عنه ارتجَّت المدينة بالبكاء، كيوم قُبض النبي ﷺ، وجاء عليٌّ باكياً مسترجعاً وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة، حتىٰ وقف علىٰ باب البيت الذي فيه أبو بكر فقال: «رحمك الله أبا بكر كنت إلْفَ رسول الله ﷺ وأنسه وثقتَه وموضع سرِّه. كنت أولَ القوم إسلاماً وأخلصَهم إيماناً وأشدَّهم يقيناً وأخوفَهم لله وأعظمَهم غناءً في دين الله. وأحوطهم علىٰ رسول الله وأثبتَهم علىٰ الإسلام وأيمنَهم علىٰ أصحابه. وأحسنَهم صحبة وأكثرَهم مناقب وأفضلَهم سوابقَ وأرفعَهم درجةً، وأقربَهم وسيلةً، وأشبهَهُم برسول الله ﷺ سَنَناً وهدياً ورحمةً وفضلاً، وأشرفَهم منزلة وأكرمَهم عليه وأوثَقَهم عنده.

فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً؛ كنت عنده بمنزلة السمع والبصر. صدّقْتَ رسول الله ﷺ حين كذَّبه الناس، فسماك اللهُ في تنزيله صِدِّيقاً فقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣].

وآسيتَه حين بخلوا، وقمت معه عند المكاره حين قعدوا، وصَحِبتَه في الشدائد أكرم الصحبة «ثاني اثنين وصاحبه» في الغار والمنزل عليه السكينة والوقار ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله وفي أمته ـ أحسنَ الخلافة ـ حين ارتد الناس، فنهضت حين وهن أصحابك، وبرزت حين استكانوا،

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة العاشرة، العدد (٤)، جمادىٰ الأولىٰ ١٣٨٩هـ، آب ـ أيلول ١٩٦٩م.

وقويت حين ضعفوا، وقمت بالأمر حين فشلوا ونطقتَ حين تتَعتعُوا[١]، مضيت بنور: إذ وقفوا واتبعوك فَهُدوا. وكنت أصوبَهم منطقاً وأطولهم صمتاً، وأبلغهم قولاً وأكثرهم رأياً وأشجعهم نفساً وأعرفهم بالأمور، وأشرفهم عملاً.

كنت للدين يعسوباً، أولاً حين نفرَ عنه الناس وآخراً حين قفلوا.

وكنت للمؤمنين أباً رحيماً إذ صاروا عليك عيالاً فحملت أثقال ما صنعوا عنه، ورعيت ما أهملوا وحفظت ما أضاعوا؛ شمرت إذ خنعوا، وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ جزعوا وأدركت أوتار ما طلبوا، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا. وكنت كما قال رسول الله ﷺ: أمَنَّ الناس عليه في صحبتك وذات يدك؛ وكنت كما قال: ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله. جليلاً في أعين الناس، كبيراً في أنفسهم.

لم يكن لأحد فيك مَغْمَزْ، ولا لأحد مطمع ولا لمخلوق عندك هوادة.

الضعيف الذليل عندك قوي عزيز، حتىٰ تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ذليل حتىٰ تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك سواء، أقرب الناس إليك أطوعهم لله.

شأنك الحق والصدق والرفق، وقولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم فأبلغت وقد نهج السبيل وسهُلَ العسير، وأطفأت النيران، واعتدل بك الدين وقوي الإيمان، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون.

وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً، وفزت بالجدِّ فوزاً عظيماً، فجلَلْت عن البكاء، وعظمت رزيتُك في السماء، وهَدَّت مصيبتك الأنام، فإنا لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا له أمره.

فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً، فألحقك الله بنبيه، ولا حرمنا أجرك، ولا أضلنا بعدك.

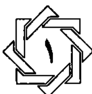
وسكت الناس حتىٰ انقضىٰ كلامه، ثم بكوا حتىٰ علت أصواتهم[٢].

---

(١) قوله: (حين تَتَعْتَعُوا) مأخوذ من التعتعة في الكلام، وهي أن يَعْيا بكلامه ويتردَّد من حَصْر أوعِيٍّ. . ومنه الحديث: «. . والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاقٌّ. .» أي يتردَّد في قراءته ويتبلَّد فيها لسانُه. والحديث متفق عليه.

(٢) انظر: «إعجاز القرآن» لأبي بكر الباقلاني: ص١٩٦ ـ ١٩٨.

الربانيَّة... وخطة عمر رضي الله عنه في الحكم[1]



حدّث التابعي الجليل معدان بن أبي طلحة ـ أو ابن طلحة ـ قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أيها الناس: إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث: أن يؤخذ بالحق، ويعطىٰ في الحق، ويمنع من الباطل، وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويعتدي عليه حتىٰ أضع خده علىٰ الأرض وأضع قدمي علىٰ الخد الآخر حتىٰ يذعن للحق.

ولكم عليَّ أيها الناس! خصال أذكرها لكم فخذوني بها:

لكم علي أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه.

ولكم علي أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ـ إن شاء الله ـ وأسد ثغوركم.

ولكم علي أن لا ألقيكم في المهالك ولا أجمِّركم في ثغوركم.

وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء، قليل الفقهاء كثير الأمل، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب، ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر.

يا أيها الناس، إن الله عظم حقه فوق حق خلقه، فقال فيما عظم من

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة، العدد (٥)، رجب ١٣٨٦هـ، تشرين الأول ١٩٦٦م.

حـــقـــه: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران].

ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدىٰ يهتدىٰ بكم فأدروا علىٰ المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم، وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فإذا رأيتم بها كلالة فكفوا عن ذلك، فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم.

أيها الناس، إني أشهدكم علىٰ أمراء الأمصار أني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيئهم ويحكموا بينهم، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إليَّ[1].

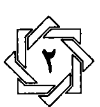


---

(١) وانظر: «الطبقات الكبرىٰ»: ٣/ ٢٨١، ٣٣٥، ٣٣٦، «السنن الكبرىٰ» للبيهقي: ٨/ ٤٨ و٩/ ٢٩، «معرفة الثقات»: ٢/ ٢٨٦، «تهذيب الكمال»: ٢١/ ٣٢٤ فما بعد.

في القضــاء

منقبة أخرى للفاروق



من رسالة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري في القضاء:

«بسم الله الرحمن الرحيم... من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلىٰ عبد الله بن قيس سلام عليك.. أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتىٰ لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة علىٰ من ادعىٰ واليمين علىٰ من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرم حلالاً. لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلىٰ الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلىٰ أقربها إلىٰ الله وأشبهها بالحق واجعل لمن ادعىٰ حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه فإن أحضر بينة أخذتَ له بحقه وإلا استمللت عليه القضية فإنه أنفىٰ للشك وأجلىٰ للعمىٰ. المسلمون عدول بعضهم علىٰ بعض إلا مجلوداً بحد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب فإن الله تولىٰ منكم السرائر درأ بالبينات والأيمان وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل علىٰ نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شنأه الله فما ظنك بثواب غير الله ﷻ في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام»[1].

---

(١) «إعلام الموقعين عن ربّ العالمين» لابن قيم الجوزية: ١/ ٨٥ ـ ٨٦.

من عمريّات الخليفة الثاني رضي الله عنه[1]



فأعزّكم الله بالإسلام!!

حدَّث قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر الشام عرضت له مَخاضةٌ، فنزل عن بعيره ونزع خفيه فأمسكهما، وخاض لماء ومعه بعيره، فقال أبو عبيدة: لقد صنعتَ اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، فصَكَّ في صدره وقال: أوَّه أو غيرُك يقول هذا يا أبا عبيدة!! إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس وأقلَّ الناس فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله.

وجاء في رواية أخرىٰ: أنه لما قدم رضي الله عنه الشام، استقبله الناس وهو علىٰ بعيره، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو ركبت برذوناً فقد تلقاك عظماء الناس ووجوههم، فقال عمر: لا أراكم هاهنا، إنما الأمر هاهنا ـ وأشار بيده إلىٰ السماء ـ خلوا سبيل جملي[2].

أسعد الرعاة!!

وكتب عمر إلىٰ عامله أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنهما: أما بعد: فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته، وإن أشقىٰ الرعاة من شقيت به رعيته، وإياك أن ترتع فيرتع عمالك، فيكون مثَلُك عند الله عز وجل مَثَلُ البهيمة نظرت إلىٰ خضرة من الأرض فرعت فيها تبتغي بذلك السِّمن، وإنما حتفها في سِمنها والسلام عليك[3].

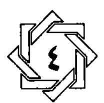
---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة العاشرة، العددان (٥، ٦)، رجب ـ شعبان ١٣٨٩هـ، أيلول ـ تشرين الأول ١٩٦٩م.

(٢) وانظر: «البداية والنهاية» لابن كثير: ٩/٣٦٦.

(٣) انظر: «الحلية» لأبي نعيم الأصبهاني: ١/٥٠.

... فقام عمر فَقبّل رأْسَه[1] رضي الله عنهما



أخرج أبو بكر البيهقي وابن عساكر عن أبي رافع قال: وجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً إلىٰ الروم وفيهم رجل يقال له: عبد الله بن حذافة[2] من أصحاب النبي ﷺ. فأسره الروم. فذهبوا به إلىٰ ملكهم، فقالوا له: إنّ هذا من أصحاب محمد ﷺ.

فقال له الطاغية: هل لك أن تتنصر وأشركك في ملكي وسلطاني؟

فقال له عبد الله: لو أعطيتني ما تملك وجميع ما ملكته العرب ـ أو وجميع مملكة العرب ـ، علىٰ أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين: ما فعلت.

قال: إذاً أقتلَك. .

قال: أنت وذاك!!

فأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريباً من يديه، قريباً من رجليه وهو يعرض عليه التنصر وهو يأبىٰ.

ثم أمر به فأنزل، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتىٰ احترقت، ثم دعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فألقي فيها وهو يعرض عليه النصرانية

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة، العدد (١)، ربيع الأول ١٣٨٨هـ، حزيران ١٩٦٨م.

(٢) هو الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي أبو حُذافة السهمي من السابقين الأولين، هاجر إلىٰ الحبشة وأنفذه النبي ﷺ رسولاً إلىٰ كسرىٰ، وقال أبو سعيد بن يونس وابن منده: شهد بدراً، وكان علىٰ كل جدِّيته في البذل والتضحية في سبيل الله صاحب دعابة، مات ابن حذافة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

وهو يأبىٰ، ثم أمر به أن يلقىٰ فيها. فلما ذهب به بكىٰ، فقيل له: إنه قد بكىٰ، فظن أنه قد جزع، فقال: ردوه، فعرض عليه النصرانية، فأبىٰ.

قال: فما أبكاك إذاً؟

قال: أبكاني أني إن قتلتُ فهي نفس واحدة، تُلقىٰ الساعة في هذه القِدر فتذهب!!

فكنت أشتهي أن يكون بعدد كل شعرة في جسدي نفس تلقىٰ هذا في الله ـ أو بعدد شعري أنفس تلقىٰ في النار في الله ـ.

فقال له الطاغية: هل لك أن تقبل، رأسي وأُخلي عنك؟

قال له عبد الله: وعن جميع أسارىٰ المسلمين؟

قال: وعن جميع أسارىٰ المسلمين؟

قال عبد الله: فقلت في نفسي: عدو من أعداء الله أقبِّل رأسه يخلي عني وعن أسارىٰ المسلمين، لا أبالي.

قال: فدنا منه، فقبّل رأسه، فدفع إليه الأسارىٰ، فقدم بهم إلىٰ عمر رضي الله عنه، فأخبر عمر بخبره.

فقال عمر: حق علىٰ كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ. فقام عمر فقبّل رأسه[1].

قال الإمام الذهبي في «السير»: وقد روىٰ ابن عائذ قصة ابن حذافة فقال: حدثنا الوليد بن محمد أن ابن حذافة أُسر، فذكر القصة مطولة، وفيها أطلق له ثلاث مئة أسير، وأجازه بثلاثين ألف دينار، وثلاثين وصيفة، وثلاثين وصيفاً.

ثم قال رحمه الله: ولعل هذا الملك قد أسلم سِرّاً، ويدل علىٰ ذلك مبالغته في إكرام الصحابي ابن حذافة.

---

(١) وينظر: «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر: ٣٥٨/٢٧، «المختصر» لابن منظور: ١٠٦/١٢، «الإصابة»: رقم (٤٦٢٢). وقال الحافظ في «الإصابة»: وأخرج ابن عساكر لهذه القصة شاهداً من حديث ابن عباس موصولاً، وآخر من فوائد هشام بن عثمان من مرسل الزهري.

وكذا القول في هرقل إذ عرض علىٰ قومه الدخول في الإسلام، فلما خافهم قال: إنما كنت أختبر شدتكم في دينكم»[1].

* * *

يا عجباً... ما الذي ينتظرون؟

جاء في أخبار سيد التابعين الحسن بن أبي الحسن البصري المتوفىٰ سنة ١١٠ للهجرة أجزل الله مثوبته في الآخرين:

أن راهبين دخلا البصرة من ناحية الشام، فنظرا إلىٰ الحسن البصري، فقال أحدهما لصاحبه: مِلْ بنا إلىٰ هذا الذي كأن سمتَه سمتُ المسيح، فعدلا إليه، فألفياه مفترشاً بذقنه ظاهر كفه وهو يقول:

«يا عجباً لقوم قد أمروا بالزاد، وأوذنوا بالرحيل، وأقام أولهم علىٰ آخرهم، فليت شعري ما الذي ينتظرون؟!»[2].



(١) «سير أعلام النبلاء»: ٢/ ١٥.

(٢) وانظر: «الحلية»: ٢/ ١٦٥.



مما علَّمَنا ضمام بن ثعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]

نحن اليوم علىٰ موعد مع الحديث عن واحد من أصحاب النبي ﷺ هو «ضمام بن ثعلبة» الأزدي من أزد شنوءة، وقد ذكر الواقدي أنه قدم علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام في السنة الخامسة للهجرة. وذهب ابن هشام إلىٰ أن ذلك كان في السنة التاسعة وهو ما رجحه الحافظ ابن حجر العسقلاني. قال اليعقوبي: وكان يسكن الكوفة[2].

وفي قصة إسلامه: ما يوحي بما اتسمت به نفسه من صفاء ووعي، أثمرا صدق إيمان تجاوز حدود صاحبه إلىٰ التأثير بسرعة مذهلة في الآخرين، لأن كلماته لم تكن كلمات ميتة فاقدة معناها، ولكن كانت كلمات حية تنبض بكل معاني الوجود الواعي والقدرة علىٰ التأثير، حتىٰ أخذت طريقها ببساطة ويسر إلىٰ قلوب كل أولئك الذين هم من حوله ومن بني قومه.

إنها الصلة الصحيحة بالله التي مكنته من القدرة علىٰ العطاء، وجعلت لدعوته لسان صدق عند بني جلدته، حتىٰ صدق فيه ما قرره النبي عليه الصلاة والسلام من أن «**الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[3].

وما أجدر العُصبة المؤمنة التي تعتز بالله، وتستعلي علىٰ الأذىٰ بنصرة دعوته: أن يكون لها من ضمام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأمثاله نماذج تحتذىٰ، في نقاء القلب، وطهارة النفس، والإيمان الواعي، والحرص علىٰ أن يكون للكلمات مقومات

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الرابعة عشرة، العدد (٢)، ربيع الآخر ١٣٩٣هـ، أيار ١٩٧٣م.

(٢) «الإصابة» للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١ رقم (٤١٧٨). وانظر: «فتح الباري»: ١/ ١٥٢.

(٣) تقدم تخريجه في الصفحة (٣٠).

وجودها وحياتها بما يمدُّها به القلب من الإخلاص ومراقبة الله في السر والعلن، وأن تكون علىٰ رباط وثيق بالرسالة التي من أجلها قيلت تلك الكلمة أو كتبت. . وسنترك لحديث ضمام أن يفصح عن هذا الذي نريد من قصته ﷺ في قدومه علىٰ النبي ﷺ وما ألقىٰ عليه من الأسئلة وما أراد من الاستفسارات، ثم ما كان من رجوعه إلىٰ قومه، ودعوته الصادقة لهم، واستهانته بِلاتِهم وعُزاهم وكيف كانت الاستجابة في ساحتها الواسعة الشاملة والحمد لله.

وقد روىٰ الحديث البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وأحمد وابن ماجه والدارمي وغيرهم علىٰ اختلاف يسير بين رواية وأخرىٰ، ومنها ما هو عن ابن عباس ومنها ما هو عن أبي هريرة، ومنها ما هو عن أنس رضي الله عنهم أجمعين.

فعن ابن عباس ﷺ قال: «بعثت بنو سعد بن بكر ضِمامَ بنَ ثعلبة وافداً إلىٰ رسول الله ﷺ فقدم عليه، وأناخ بعيره علىٰ باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعرَ ذا غديرتين، فأقبل حتىٰ وقف علىٰ رسول الله ﷺ في أصحابه. فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟، فقال رسول الله ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**»، فقال: محمد؟ قال: نعم، قال: يابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك، قال: «**لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك**» فقال: أنشدك اللهَ إلـٰهك وإلـٰه من كان قبلك وإلـٰه من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولاً؟ فقال: «**اللهم نعم**» قال: فأنشدك الله إلـٰهك وإلـٰه من كان قبلك وإلـٰه من هو كائن بعدك آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه. قال: «**اللهم نعم**»! قال: فأنشدك الله إلـٰهك وإلـٰه من قبلك وإلـٰه من هو كائن بعدك آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: «**اللهم نعم!**».

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلَّها يناشده عند كل فريضة منها كما يناشده في التي قبلها، حتىٰ إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله،

وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص، قال: ثم انصرف إلىٰ بعيره راجعاً. قال:

فقال رسول الله ﷺ: «**إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة**» قال: فأتىٰ بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتىٰ قدم علىٰ قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزىٰ. فقالوا: مَهْ يا ضِمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان شيئاً. إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه. وإني أشهد أن لا إلٰه إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه. قال: فوالله ما أمسىٰ من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً. قال: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة».

وكان عمر رضي الله عنه يقول: ما رأيت أحداً أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة. أجزل الله مثوبته ورضي عنه وأكرم مثواه في الآخرين. والحمد لله رب العالمين. والرواية المذكورة لأحمد في «المسند»[1].



(١) وانظر: «صحيح البخاري»: (٦٣)، و«صحيح مسلم»: (١٢)، «سنن أبي داود»: (٤٨٦)، «النسائي»: (٢٠٩١ ـ ٢٠٩٣)، «المسند»: (٢٣٨٠)، «ابن ماجه»: (١٤٠٢)، «سنن الدارمي»: (٦٧٥).

عمرو بن العاص رضي الله عنه على فراش الموت[1]

روىٰ الإمام مسلم في «صحيحه» عن ابن شُماسة المَهْرِيِّ قال: حضرْنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو في سياقة الموت[2] فبكىٰ طويلاً، وحوّل وجهه إلىٰ الجدار. فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟

قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نُعِدُّ شهادةُ أن لا إلـٰه الله وأن محمداً رسول الله.

إني قد كنت علىٰ أطباقٍ ثلاث[3]:

لقد رأيتُني وما أحدٌ أشدَّ بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه فقتلتُه؛ فلو مُتُّ علىٰ تلك الحال لكنتُ من أهل النار.

فلما جعل الله الإسلام في قلبي، أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه. قال: فقبضت يدي. قال: «**ما لك يا عمرو؟**» قال: قلت: أردتُ أن أشترط. قال: «**تشترط بماذا؟**» قلت: أن يُغْفَرَ لي. قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**» وما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عينيَّ منه، وما كنت أُطيق أن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له؛ ولو سئلتُ أن أصفه

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة، العدد (١٠)، ذو الحجة ١٣٨٦هـ، آذار ١٩٦٧م.

(٢) (في سياقة الموت): حال حضور الموت.

(٣) (كنت علىٰ أطباق ثلاث): أي علىٰ أحوال ثلاث، ولهذا أُنث (ثلاثاً) إرادةً لمعنىٰ أطباق.

ما أطقتُ؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم وَلينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها. فإذا أنا مُتُّ فلا تَصْحَبْني نائحةٌ ولا نار.

فإذا دفنتموني فشُنُّوا عليّ التراب شنّاً[1]، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحَرُ جَزورٌ ويُقْسَمُ لحمها حتىٰ أستأنس بكم، وأنظر ماذا أُراجع به رسل ربي[2].



(١) أي: صبّوه قليلاً قليلاً.

(٢) «صحيح مسلم» كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج رقم (١٢١).

قطوف من حياة أبي الدرداء!![1]

أتهنئونني بالقضاء؟!

حدث يحيىٰ بن سعيد قال: استعمل أبو الدرداء (عويمر) رضي الله عنه علىٰ القضاء فأصبح الناس يهنئونه، فقال: أتهنئونني بالقضاء، وقد جُعلت علىٰ رأس مهواة منزلتها أبعد من عدن أبين، ولو علم الناس ما في القضاء لأخذوه بالدول رغبة عنه وكراهية له، ولو يعلم الناس ما في الأذان لأخذوه بالدول رغبة فيه وحرصاً عليه[2].

التفكُّر...

وروت أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[3].

ماذا يشتكي؟

وعن معاوية بن قرة أن أبا الدرداء اشتكىٰ (مرض) فدخل عليه أصحابه. فقالوا: يا أبا الدرداء ما تشتكي؟

قال: أشتكي ذنوبي. قالوا: فما تشتهي؟ قال: أشتهي الجنة.. قالوا: أفلا تدعو لك طبيباً؟ قال: هو الذي أضجعني..[4].

جزاك الله خيراً

وحدّث أبو معشر القرظي قال: لما حضر أبا الدرداء الموت جاءه

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة، العدد (٧)، رمضان ١٣٨٦هـ، كانون الأول ١٩٦٦م.

(٢) «المنتظم» لابن الجوزي: ١٧/٥، «تاريخ ابن عساكر»: ٤٧/ ١٤٠.

(٣) «الحلية»: ١/ ٢٠٩، «تاريخ ابن عساكر»: ١٤٩/٤٧.

(٤) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ١١٨/٢/٧، «الحلية»: ١/ ٢١٨، «المنتظم»: ١٨/٥.

حبيب بن مسلمة فقال: كيف تجدك يا أبا الدرداء؟ قال: أجدني ثقيلاً، قال: ما أراه إلا الموت، قال: أجل، قال: جزاك الله خيراً[1].

أحِب...

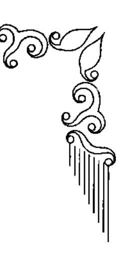
وعن عمرو بن مرة قال: سمعت شيخاً يحدث عن أبي الدرداء أنه قال: أحب الفقر تواضعاً لربي، وأحب الموت اشتياقاً إلىٰ ربي، وأحب المرض تكفيراً لخطيئتي[2].

رضاء الله... ورضاء الناس

كتب أبو الدرداء إلىٰ معاوية رضي الله عنهما: «أما بعد: فإنه من التمس رضاء الله بسخط الناس: كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله: وكَله الله إلىٰ الناس»[3].



(١) وينظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢/٣٥٢.
(٢) «الحلية»: ١/٢١٧، «السير»: ٢/٣٤٩.
(٣) وانظر: «السير»: ٢/٣٤٥.



علماء... ولكن بلا قلوب[1]

قال عمر رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف علىٰ هذه الأمة المنافق العليم، قالوا: وكيف يكون منافقاً عليماً؟ قال: عليم اللسان، جاهل القلب والعمل»[2].

* * *

والعالم ذو القلب في سير دائم، لا يحجزه عن المتابعة كبر ولا غرور، قال عبد الله بن المبارك: «لا يزال العالم عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل»[3].

* * *

وانظر إلىٰ الفضيل بن عياض كيف يرثي لحال العالِم الذي تلعب به الدنيا!! قال رحمه الله: «إني لأرحم ثلاثة: عزيز قوم ذلَّ، وغني قوم افتقر، وعالِماً تلعب به الدنيا»[4].

* * *

وفي وصية جامعة تضيء الطريق لمن يحمل أمانة العلم يقول التابعي العظيم الحسن البصري رحمه الله: «لا تكن ممن يجمع علم العلماء، وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرىٰ السفهاء»[5].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة، العدد (٧ و٨)، رمضان وشوال ١٣٨٨هـ، كانون الأول وكانون الثاني ١٩٦٨ و١٩٦٩م.

(٢) «كشف الخفا ومزيل الإلباس» للعجلوني: ١/ ٦٨. وانظر: «الكامل» لابن عدي: ٣/ ٩٧٠.

(٣) «إحياء علوم الدين» مع شرحه «إتحاف السادة المتقين» للزبيدي: ١/ ٣٤٣.

(٤) «إحياء علوم الدين» تحقيق سيد إبراهيم: ١/ ٩٩.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٩٩.

أما عقوبة الجانحين عن الطريق السوي من هؤلاء: فاستمع إليها في قول الحسن أيضاً: «عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة»[1].

* * *

ويا لطول ندم أولئك المفرطين ساعة لا ينفع الندم!! سأل سائل إبراهيم بن عيينة فقال: أي الناس أطول ندماً؟ فقال إبراهيم رحمه الله:

أما في الدنيا: فصانع المعروف إلىٰ من لا يشكره ـ أي: المعروف ـ وأما عند الموت: فعالم مفرِّط[2].

ولم يكن بدعاً ما قاله هؤلاء النصحة الربانيون الأمناء، فهو قَبَسٌ مشرقٌ في ظل الهدي النبوي الكريم، بيان الفرقان الحكيم. أخرج الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: **«من تعلَّم علماً لغير الله، أو أراد به غير الله، فليتبوَّأ مقعده من النار»** قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث أيوب إلا من هذا الوجه[3].

وأخرج أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلم علماً مما يُبتغىٰ به وجه الله، لا يتعلَّمه إلا ليُصيب به عرضاً[4] من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»** يعني: ريحها[5].

أعاذنا الله من هذا الذي هو قاصمة الظهر؛ فأي داهية أمرٌّ من أن ينقضي العمر في الدنيا مظلَّلاً بعناوين العلم النافع والمعرفة المنجية، ثم ينكشف الغطاء يوم القيامة.. ينكشف هناك!!

حيث تتعرىٰ الحقيقة ماثلة كما هي، فإذا بأناس مطرودين عن دار الكرامة، لا يجدون ريحها الطيبة، ولا ينصحون بما ينعم به أهل الخشية الذين

---

(١) المصدر السابق: ١/١٠١.
(٢) «إحياء علوم الدين» تحقيق سيد إبراهيم: ١/٩٩.
(٣) «الجامع الصحيح» للترمذي: ص٥٨٨ رقم (٢٦٥٥).
(٤) عَرْضاً: أي حظاً؛ مالاً أو جاهاً أو منصباً دنيوياً.
(٥) «سنن أبي داود»: ص٦٠٠ كتاب العلم، باب من طلب العلم لغير الله رقم (٣٦٦٤).

قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] ويتسربلون مذلة التفريط والنفاق التي صحبتهم علىٰ أبواب السلاطين في دار التباهي بالنفاق!! فأصبحوا علماء... ولكن بلا قلوب!!

بلا قلوب تثاءبوا علىٰ طريق الزمن... وبلا قلوب برزوا لله الذي لا تخفىٰ عليه خافية... وبلا قلوب حملوا أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم، وأنىٰ لمن كانت هذه بضاعته، أن يجد عرف الجنة؟! إن عرف الجنة طيب للطيبين، وكرامة لأهل الكرامة... إنه للذين أخلصوا دينهم وعلمهم لله، فلم يتوحَّلوا بالتلفت إلىٰ هنا وهناك، ولا استبدلوا الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، وحملتهم هممهم إلىٰ حيث البعدُ عن أن يكون عرض الدنيا هو المطلوب، وأن يكون النفاق لذي السلطان هو المرغوب!

اللهم افتح بصائرنا لنور هداك حتىٰ نكون علىٰ سواء السبيل، وقوفاً عند المراد من قولك في أهل الكتاب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران].

وصلوات الله وأزكىٰ تسليماته علىٰ البشير النذير الذي لم يدع أن يؤدي أمانة التبليغ، بشارةً ونذارةً علىٰ الوجه الذي ينبغي، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين، وصحابته والتابعين لهم بإحسان، ومن اهتدىٰ بهذا الهدىٰ، علماً وعملاً إلىٰ يوم الدين.





بين الحقيقة.. والاستدراج[1]

كان من رحمة الله بهذه الأمة أن جعل ما رسم لها من مناهج في العقيدة والشريعة والأخلاق، مما لا يدخل في حدود التجريد، ولكنه يتسق تمام الاتساق مع طاقات الإنسان وقدرته، ولذلك رأيت من عهد النبي ﷺ، وعلىٰ مختلف العصور الإسلامية، النماذج التي تستعصي علىٰ العد، وكلها نماذج ترىٰ فيها سلامة التطبيق لما أراده الله تبارك وتعالىٰ وإرادة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ففي معرض الاحتكام في كل أمر إلىٰ الكتاب والسنة وعدم الالتفاف إلىٰ ما قد يعرض من الخواطر والهواجس رأينا الصحابة رضوان الله عليهم يتهمون آراءهم بجانب نصوص الكتاب والسنة، وهم أعمق الأمة علماً وأبرها قلوباً، وأبعدها عن الشيطان، لذا كان عنوان الخيرية عندهم الاعتصام بالكتاب والسنة علىٰ الأحوال كلها والشؤون، وتقوىٰ الله تعالىٰ في السر والعلن. كتب كاتب لعمر رضي الله عنه بين يديه: «هذا ما أرىٰ الله عمر. فقال: لا، امحه واكتب: هذا ما رأىٰ عمر» ونماذج ذلك كثيرة فيهم عليهم الرحمة والرضوان حيث يتهمون أنفسهم ويتعلقون بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، إلا ما كان من تلك الآراء المقبولة والاجتهادات في فهم القرآن وتدبره واستنباط الأحكام منه ومن حديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

نقول هذا في الوقت الذي سمعنا وما نزال نسمع عن أولئك الذين يحتكمون إلىٰ الهوىٰ باسم الأخذ عن الله «حدثني قلبي عن ربي» ولو عدنا إلىٰ أولئك البررة الذين ازدان بهم تاريخ جهاد النفس وتزكيتها، وحملها دائماً علىٰ الذكر والتقبل والزهادة في الدنيا.. لو عدنا إلىٰ أولئك البررة.. لوجدناهم علىٰ الجادة التي سلكها أصحاب الرسول ﷺ في الاحتكام إلىٰ الكتاب والسنة

(١) «حضارة الإسلام»، السنة العشرون ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٦م.

عند أي خاطر أو هاجس أو إلهام. حكىٰ الجنيد عن أبي سليمان الداراني قال: «ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة»(١) وينقل لنا الإمام ابن القيم عن أبي يزيد البسطامي قوله: «لو نظرتم إلىٰ رجل أعطي من الكرامات حتىٰ يتربع في الهواء فلا تغتروا به، حتىٰ تنظروا: كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود، وأداء الشريعة»(٢).

ذلك لأن ظهور هذه الأمور دون وقوف عند الأمر والنهي وحفظ الحدود هو ما يسميه علماؤنا بـ«الاستدراج» والعياذ بالله. وذلك أمن لمكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون(٣). قال قائلهم ويا نعم ما قال:

إذا رأيتَ رجلاً يطيرُ وفوق ماء البحر قد يسيرُ
ولم يقف عند حدود الشرعِ فإنه مستدرج وبدعي

وما يروىٰ عن أبي يزيد أيضاً: «من ترك قراءة القرآن ولزوم الجماعات، وحضور الجنائز وعيادة المرضىٰ، وادعىٰ بهذا الشأن ـ يعني طريق السالكين إلىٰ الله ـ فهو مدَّعي»(٤) ومعنىٰ ذلك أنه مدع بلا دليل، بل إن سلوكه يدل علىٰ نقيض ما يدعي. والإسلام ـ بحمد الله ـ لم يكن في يوم من الأيام آراء فلسفية تجريدية للتفكه العقلي، يتحاور بها الناس ثم ينصرفون كل إلىٰ عمله المناقض لما كان يقوله ويدافع عنه بالكلام وإحكام المقدمات والنتائج، ولكنه إيمان وعمل وتواص بالحق وتواص بالصبر.

والمنقول عن الجنيد في هذا الباب قوله: «مذهبنا مقيد بالأصول؛ بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ويتفقه، لا يقتدىٰ به»(٥).

---

(١) «الرسالة القشيرية» لأبي القاسم القشيري: ص١٥.
(٢) «الرسالة القشيرية»: ص١٤، «الحلية»: ١٠/ ٤٠.
(٣) قال الحسن البصري: «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجِل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن». وانظر: «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ١٤٥٨.
(٤) انظر: «طبقات الصوفية» للسُّلمي: ص٧٤، «الرسالة القشيرية»: ص١٤، «مدارج السالكين» لابن القيم: ٣/ ١٩٧.
(٥) انظر: «الرسالة القشيرية»: ص١٩، «السير»: ١٤/ ٦٧.

والطريق إلىٰ يقظة القلب وتذوقه لحلاوة الإيمان عند أبي بكر الدقاق هو الاستمساك بالأوامر واجتناب النواهي وإلا كان الحرمان والخسران قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر حرم مشاهدة القلب في الباطن»[(١)] وأوضح أن المراد من الباطن هنا ما كان بين العبد ومولاه من لذة القرب والرضا مما يتولد عن محبة الله عَزَّوَجَلَّ.

تُرىٰ أيُّ داهية ألمت ببعض من يزعمون أنهم علىٰ هذا السنن، حتىٰ اتفقت العناوين، واختلفت المضمونات والسلوك؛ كان أولئك الذين نلمح إلىٰ بعض آثارهم يسخرون من الشيطان ويقتحمونه بالاستقامة علىٰ حدود الشرع، فأصبح هؤلاء يسخر منهم الشيطان بما له من سلطان عليهم أثمره الانحراف وعدم الالتزام بحدود الشرع.

جزىٰ الله الخير كلَّ الخير أصحاب النبي ﷺ وكل من سار علىٰ نهجهم النبوي وتبعهم بإحسان. اللهم جنبنا مزالق الشيطان والنفس والهوىٰ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



---

(١) وانظر: «الرسالة القشيرية»: ص١٩، «نوادر الأصول» للحكيم الترمذي: ص١٦٧.

رَبَّانيَّة الحسن البصري في بعض وصاياه[1]

يجد الباحث في سير هؤلاء الرجال الذين كانوا علىٰ قدم رسول الله ﷺ سلوكاً واتباعاً: أنهم كانوا علىٰ خير حال في نصحهم لأنفسهم ونصحهم لمن ولاهم الله أمرهم تربية وتعهداً ودلالة علىٰ ما به نجاتهم وفوزهم في الدنيا والآخرة، عملاً بقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**الدين النصيحة؛** قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: **لله ولرسوله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[2] ولا شك أن من نصح المؤمن لمن ولي إليه أمره، ووكلت إليه تربيته وإعداده، أن يأخذ بيده إلىٰ مواطن مرضاة الله تعالىٰ، وأن يرفعه عن حمأة الدنيا وأوضارها ويعمل علىٰ أن يجعل قلبه مزداناً بخشية الله، يبكي لذنبه، ويحزن علىٰ ما يفوته من أمور الآخرة، ويندم علىٰ ما فرط في جنب مولاه سبحانه، حتىٰ يصبح ذلك كأنه طبع له وسجية.

فقد روىٰ ابن أبي الدنيا عن حمزة الأعمىٰ قال ذهبت بي أمي إلىٰ الحسن[3]

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثانية عشرة، العددان (٩ و١٠) ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩١هـ، آذار ١٩٧٢م.

(٢) مسلم: (٥٥) من رواية تميم الداري.

(٣) هو الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد، ولد سنة ٢٥هـ وكان سيد التابعين في عصره، جمع إلىٰ العلم والخشية والحرص علىٰ إيصال الكلمة النيِّرة للناس بالحكمة الواضحة والفصاحة المرموقة المؤثرة. قال محمد بن سعد في «الطبقات الكبرىٰ»: يقال: إنه من سبي مَيْسان، وقع إلىٰ المدينة، فاشترته الرُّبيِّع بنت النضر عمة أنس بن مالك فأعتقته، وذكر عن الحسن أنه قال: كان أبواي لرجل من بني النجار، فتزوج امرأة من بني سَلِمة، فساقهما إليها من صداقها فأعتقتهما، وولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب، فيذكرون أن أمه كانت ربما غابت فيبكي، فتعطيه أم سلمة ﵂ ثديها، تعلله به إلىٰ أن تجيء أمه فدرَّ عليها ثديها فشربه، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك، توفي الحسن سنة ٢٤١ للهجرة. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٧/١٥٦ ـ ١٥٧، «تهذيب الكمال» للمزي: ٦/٩٦ ـ ٩٧.

فقالت: يا أبا الحسن، ابني هذا قد أحببت أن يلزمك، فلعل الله أن ينفعه بك، قال: فكنت اختلف إليه فقال لي يوماً: يابني: «أدم الحزن علىٰ خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه، وابكِ في ساعات الخلوة في الليل والنهار لعل مولاك أن يطلع عليك، فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين»[1].

هذه واحدة من وصايا الحسن لحمزة، وقد ائتمنته أمه علىٰ تربيته وتوجيهه، وإشراق هذه الوصية فيما تحمل من النصح وفيما تضيء من الطريق، واضح لكل من تذوق معنىٰ الخضوع بين يدي الله، وأسعده الله بالدمعة الحرىٰ يطفئ بها لهيب المخالفة، ويغسل بجوهرها الفذ أدران المعاصي وما يكون من قسوة القلب ـ والعياذ بالله ـ.

ولعل من الخير أن نذكر أن هؤلاء الربانيين ـ والحسن واحد منهم ـ كانوا في سلوكهم حكماء معلمين قبل أن يكونوا في كلماتهم نصحة مؤدبين ومربين. قال حمزة: وكنت أدخل علىٰ الحسن منزله وهو يبكي، وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه، فقلت له يوماً: إنك تكثر البكاء. فقال: «يا بني، ماذا يصنع العبد إذا لم يبكِ؟ يا بني، إن البكاء داعٍ إلىٰ الرحمة. . فإن استطعتَ أن لا تكون عمُرَك إلا باكياً فافعل، لعله يراك علىٰ حالة فيرحمك بها، فإذا أنت قد نجوت من النار»[2]. وقال ـ كما روىٰ مالك بن دينار ـ: ما هو إلا حلول الدار إما الجنة وإما النار، ما هنالك منزل ثالث، وقال: بلغنا أن الباكي من خشية الله لا تقطر من دموعه قطرة حتىٰ تعتق رقبته من النار، ولو أن باكياً بكىٰ في الأمة خشية الله لرحموا جميعاً. وليس شيء من الأعمال إلا له وزن إلا البكاء من خشية الله فإنه لا يقدم لله بالدمعة منه شيئاً»[3].

أما بعد: فلم يكن هذا الذي نرىٰ من خلق الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلا بعضاً من خلائق أصحاب النبي ﷺ الذي أكرمه الله بلقاء نفر منهم. فلقد ثبت أن هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم كانوا بما أدبهم به رسول الله ﷺ مثالاً يحتذىٰ في خشية الله والبكاء علىٰ أنفسهم أن لا تكون العاقبة هي المرتجاة؛ فحين قال

---

(١) «تهذيب الكمال»: ٦/ ١١٥.

(٢) المصدر السابق: ٦/ ١١٥ ـ ١١٦.

(٣) المصدر السابق: ٦/ ١٢٥.

لهم رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»[1] ضجوا بالبكاء وكان لهم خنين. ورسولنا جعل من السبعة الذين يظللهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**رجلاً ذكر الله خالياً فدمعت عيناه**».

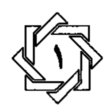
رحم الله الحسن ورضي عنه. فلقد كان نعم الناصحَ الأمين بحاله وقاله. وأكرم بالكلمة يلقيها من يلقيها، وقد سبقها منه العمل والسلوك، ويا ما أحيلاها وصية هي من معدن النبوة أصالة وإشراقاً، ومن خلائق رجال رضي الله عنهم ورضوا عنه نسباً وسبباً، اللهم اجعلنا من أولئك الذين صدقوا في العبودية لك، من امتحنتَ قلوبهم للتقوىٰ، فكانوا إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ـ اللهم أكرمنا بأن نكون من عداد الذين قلت فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المعارج] ورحم الله الحسن البصري وأجزل مثوبته في الخالدين.



(١) تقدم تخريجه في الصفحة (٣١).

من أخبار عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ

خامس الخلفاء الراشدين[1]



لا يكاد الباحث في تاريخ خامس الخلفاء الراشدين رحمه الله ورضي عنه ينتهي من لمحة عطرة في حياته، حتىٰ يطالعه غيرها وغيرها هنا وهناك، الأمر الذي يؤكد أن ما كان له من التوفيق، وما بلغه الحكم في عصره إلىٰ تلك القمة العظيمة السامقة ـ علىٰ قِصر المدة التي قضاها فيه ـ إنما كان ثمرة من ثمرات إيمانه وصدقه وتقواه، بعيداً عن شهوة الحكم والرغبة في السلطان وحرصه أن يكون في حكمه للرعية علىٰ السنن الذي سلكته الخلافة الراشدة، تحقيقاً لعبودية الله في الأرض، وإنفاذاً لشريعته، ومراقبة له في السر والعلن، والإعداد ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكن عذاب الله شديد.

توفي الخليفة الصالح والإمام العادل الشهيد سنة إحدىٰ ومائة (١٠١) ودامت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأياماً[2].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الرابعة عشرة، العدد (١)، ربيع الأول ١٣٩٣هـ، نيسان ١٩٧٣م.

(٢) من أروع الكلام في هذا الخليفة الراشد قول الإمام الذهبي: «قد كان هذا الرجل حسنَ الخَلْق والخُلُق، كامل العقل، حَسَن السمت، جيد السياسة، حريصاً علىٰ العدل بكل ممكن، وافرَ العلم، فقيه النفس، ظاهر الذكاء والفهم، أوَّاهاً منيباً، قانتاً لله، حنيفاً زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين، وكثرةِ الأمراء الظلمة الذين ملُّوه وكرهوا محاققتة لهم، ونقْصَه أُعطياتِهم، وأخذَه كثيراً مما في أيديهم، مما أخذوه بغير حقٍّ؛ فما زالوا به حتىٰ سقوه السُّمَّ، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين». «السير»: ٥/ ١٢٠.

الرحمة بالأمة:

ومن عجب أنه لم ينسَ الأمة ورحمتها والدعاء لها في حال من الأحوال؟ فقد حدّث علي بن عبيد عن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال: كان عمر بن عبد العزيز يقول: «اللهم أهلِك من كان في هلاكه صلاحٌ لأمة محمد ﷺ»[1]. يقول: وأخبرني من رأىٰ عمر بن عبد العزيز واقفاً بعرفة وهو يدعو ويقول بأصبعه هكذا ـ يعني يشير بها ـ ويقول: «اللهم زد أمة محمد إحساناً، وراجع مسيئهم إلىٰ التوبة، ثم يقول هكذا ـ يشير بأصبعه ـ اللهم وحط من ورائهم برحمتك»[2].

التعبد والتلاوة:

ولا تسل عن الوقود الحقيقي الذي كان يحرك حياته وسلوكه في ظل مخافة الله وحسن الصلة به سبحانه، فعن صالح بن سعيد المؤذن قال: «بينا أنا وعمر بن عبد العزيز في (بلد كذا) فأذنت للعشاء الآخرة، فصلىٰ، ثم دخل القصر، فما لبث أن خرج، فصلىٰ ركعتين خفيفتين، ثم جلس فاحتبىٰ، فاستفتح «الأنفال» فما زال يرددها ويقرأ، كلما مر بآية تخويف تضرع، وكلما مر بآية رحمة دعا، حتىٰ أذنت للفجر»[3].

عندما يدعون له بالبقاء:

وعن موقف المربي للرعية علىٰ الخلق الإسلامي كيما تكون الحياة طيبة بالعمل الصالح وترقب الموت يحدثنا عبد الله بن نمير عن طلحة بن يحيىٰ أنه قال: «كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فدخل عليه عبد الأعلىٰ بن هلال فقال: أبقاك الله يا أمير المؤمنين ما دام البقاء خيراً لك. قال: قد فُرغ من ذلك يا أبا النضر، ولكن قل: أحياك الله حياة طيبة وتوفاك من الأبرار»[4].

---

(١) وانظر: «الطبقات الكبرىٰ»: ٥/ ٣٣٠، «الحلية»: ٥/ ٣٢٤، «السير»: ٥/ ١١٤، «شذرات الذهب»: ١/ ١١٩.

(٢) «الحلية»: ٥/ ٣٢٤.

(٣) «الطبقات الكبرىٰ»: ٥/ ٣٦٢ و٣٦٣، «الحلية»: ٥/ ٣٢٤.

(٤) «الحلية»: ٥/ ٣٢٤، «تاريخ دمشق»: ٤٥/ ٢٢٤.

وهذا لا يعني اعتراضاً علىٰ الدعوة التي دعا بها عبد الأعلىٰ، ولكن خوف عمر من الله في تواضعه ومراقبته لله أن يكون قد ظلم رعيته قيد أنملة.

أحمق الحمقىٰ:

وفي فلسفة تحمل كل معاني الدقة وتفتح البصيرة، وتنبئ عن إدراك لما يكمن وراء التصرفات الظاهرة، وما يمكن أن تدل عليه، نقرأ ما حدّث إسماعيل بن عياش عن سالم بن عبد الله قال: سمعت ميمون بن مهران يقول: قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه: «أخبروني بأحمق الناس، قالوا: رجل باع آخرته بدنياه، فقال عمر: ألا أنبئكم بأحمق منه؟ قالوا: بلىٰ، قال: رجل باع آخرته بدنيا غيره»[1].

أولاهما بالمعصية:

وإنك لترىٰ الفهم العميق الخالص من الشوائب في بعض خطبه رَحِمَهُ اللَّهُ مما يدل علىٰ حسن صلته بكتاب الله وما أدب به رسول الله هذه الأمة.

فقد حدّث بشر بن عبد الله بن بشار السلمي قال: خطب عمر الناس فقال: «أيها الناس، لا يبعدن عليكم ولا يطولن يوم القيامة، فإنه من وافته منيته فقد قامت عليه قيامته، لا يستطيع أن يزيد في حسن ولا يعتب من شيء، ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه: العاصي، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم»[2].



---

(١) «الحلية»: ٥/ ٣٢٥، وتنسب هذه الكلمات النيِّرات إلىٰ الإمام سحنون من كبار رجال مذهب الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «الحلية»: ٥/ ٣٢٥.

آخر خطبة لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]



عن شعيب بن صفوان عن أبيه قال: خطب عمر بن عبد العزيز[2] بخناصرة[3] خطبة لم يخطب بعدها غيرها حتىٰ مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فحمد الله وأثنىٰ عليه وصلىٰ علىٰ نبيه ثم قال:

أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدىٰ، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحُرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض.

واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم، وباع قليلاً بكثير، ونافداً بباقٍ. ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون كذلك حتىٰ تردوا إلىٰ خير الوارثين.

ثم أنتم في كل يوم تشيِّعون غادياً ورائحاً إلىٰ الله، قد قضىٰ نحبه وبلغ أجله، ثم تغيِّبونه في صدع من الأرض، ثم تدَعونه غير موسَّد ولا ممهَّد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وباشر التراب وواجه الحساب غنياً عما ترك، فقيراً إلىٰ ما قدَّم، وايمُ الله! إني لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي، فاستغفروا الله لي ولكم.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة، العدد (٥)، رجب ١٣٨٥هـ، تشرين الثاني ١٩٦٥م.

(٢) وأذكر مرة أخرىٰ بأن عمر بن عبد العزيز ولد سنة إحدىٰ وستين أو ثلاث وستين وبويع له بالخلافة سنة تسع وتسعين وتوفي سنة إحدىٰ ومئة، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأياماً. رحمه الله وأعلىٰ مقامه في الآخرين.

(٣) خناصرة: بلدة بالشام من أعمال حلب.

وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها. وما أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي، ولحمتي الذين يلونني، حتىٰ يستوي عيشنا وعيشكم.

وايم الله! إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة، لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً، عالماً بأسبابه، لكنه مضىٰ من الله كتاب ناطق، وسنة عادلة دل فيها علىٰ طاعته، ونهىٰ فيها عن معصيته.

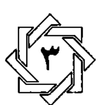
ثم بكىٰ رَحِمَهُ اللهُ فتلقىٰ دموع عينيه بأطراف ردائه، ثم نزل، فلم يُر علىٰ تلك الأعواد حتىٰ قبضه الله إلىٰ رحمته[1].



(١) انظر لما يروىٰ أنه آخر خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، «المعرفة والتاريخ» للفسوي: ٦١٢/١، «حلية الأولياء» لأبي نُعيم: ٢٦٦/٥، ٢٧٩، ٢٩٤، «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ١٧٢/٤٥ ـ ١٧٣، «البداية والنهاية» لابن كثير: ٦٩٣/١٢.

ومن كلمات خامس الخلفاء الراشدين

هذه اللآلئ(1)



قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدىٰ خطبه(2):

أن لكل سفر زاداً لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلىٰ الآخرة التقوىٰ، وكونوا كمن عاين ما أعدَّ الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسوَ قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم؛ فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه، ولا يمسي بعد صباحه، ولربما كانت بين ذلك خطفات المنايا. فكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغتراً، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة.

فأما من لا يداوي كَلْماً إلا أصابه جُرح في ناحية أخرىٰ، فأعوذ بالله أن آمركم بما أنهىٰ عنه نفسي، فتخسرَ صفقتي، وتظهرَ عيبتي وتبدوَ مسكنتي، في يوم يبدو فيه الغنىٰ والفقر، والموازين منصوبة.

ولقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلىٰ إحداهما؟!!

وقال في خطبة أخرىٰ(3):

إن الدنيا ليست بدار قرار، دار كتب الله عليها الفناء، وكتب علىٰ أهلها

---

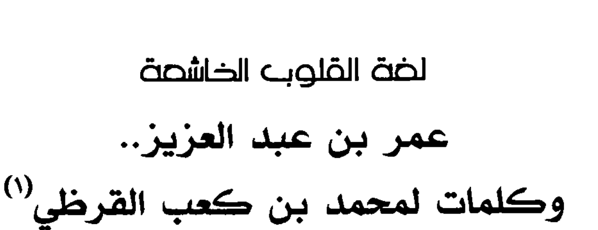
(1) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة، عدد (٤) جمادىٰ الآخرة ١٣٨٨هـ، أيلول ١٩٦٨م.

(2) «الحلية»: ٥/ ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(3) «الحلية»: ٥/ ٢٩٢.

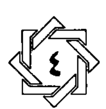
منها الظعن، فكم عامر موثق، عما قليل مخرب، وكم مقيم مغتبط، عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضركم من النفلة وتزودوا فإن خير الزاد التقوىٰ، إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب. بينا ابن آدم في الدنيا ينافس فيها وبها قرير العين إذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه، فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، إنها تسر قليلاً، وتجر حزناً طويلاً.





لغة القلوب الخاشعة

عمر بن عبد العزيز.. وكلمات لمحمد بن كعب القرظي[1]



روىٰ صاحب «الحلية» أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضي عنه كان عنده هشام بن مصاد، فكانا يتحدثان، فذكر شيئاً فبكىٰ، فأتاه مولاه مزاحم فقال: إن محمد بن كعب القرظي بالباب، فقال: أدخله، فدخل ولم يمسح عمر عينيه من الدموع. فقال محمد: ما أبكاك يا أمير المؤمنين؟ فقال هشام بن مصاد: أبكاه كذا وكذا.

فقال محمد بن كعب: «يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما نفعهم، ومنها خرجوا بما ضرهم؛ فكم من قوم قد غرَّهم منها مثل الذي أصبحنا لا يحمدهم، وصاروا إلىٰ من لا يعذرهم.

فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين، أن ننظر إلىٰ تلك الأعمال التي نغبطهم بها فنخلفهم فيها، وننظر إلىٰ تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها فنكفهم عنها.

فاتق الله يا أمير المؤمنين، واجعل قلبك في اثنتين؛ انظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت علىٰ ربك فابتغ به البدل حيث يوجد البدل، ولا تذهبن إلىٰ سلعة قد بارت علىٰ من كان قبلك ترجو أن تجوز عنك، فاتق الله يا أمير المؤمنين، فافتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الحادية عشرة، العدد (٣)، جمادى الأولىٰ ١٣٩٠هـ، تموز ١٩٧٠م.

ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله؛ من إذا رضي لم يدخل رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له»[1].

هذا: وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أمر غاية في الأهمية، وهو أن أبا حمزة محمد بن كعب القرظي تقوم موعظته لعمر بن عبد العزيز ـ بجانب ما بينهما من فارق السن ـ علىٰ قاعدة نورانية يفيء إليها الأئمة الربانيون، سداها ولُحمتها: العلم والعمل والتقوىٰ، مصحوباً ذلك بالزهادة في الدنيا، والتزكية للنفس، والمراقبة الدائمة لله الذي يعلم ـ جلَّ شأنه ـ السر وأخفىٰ. ناهيك عما كان يحمل بين جنبيه من الحب الصادق لخامس الراشدين، وضرورة القيام بواجب المناصحة لأئمة المسلمين طاعة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام، شأن أولئك الموفقين المستنيرة قلوبهم وعقولهم بعطاء قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران].

وكل أولئك يقابله من عمر بن عبد العزيز ـ وما أدراك ما عمر بن عبد العزيز ـ صدق المحبة ووافر التقدير، ومعاملة أبي حمزة بما هو جدير به من الإجلال والتكريم، مضموماً إلىٰ ذلك ـ وهو بعض من كريم خصاله ـ انشراح صدره لما يقول؛ براحة نفسية وقبول حسن، الأمر الذي يذكِّر بموقف الفتىٰ البار من نصح والده الخيِّر الأمين.

ثم إن هذا الرجل الربانيَّ هو: محمد بن كعب بن سليم، الإمام العلامة الثقة، كبير القدر مجاب الدعوة: أبو حمزة ـ وقيل: أبو عبد الله ـ القرظي، التابعي المدني من حلفاء الأوس؛ كان من أفاضل أهل المدينة، علماً وفقهاً وورعاً، وهو عالم بالقرآن، كثير الحديث، ومن أئمة التفسير، روىٰ له الجماعة. وقال البخاري: كان أبوه ـ وهو عطية القرظي ـ ممن لم يُنبِتْ يوم قريظة فتُرك.

أما عن تألهه وتنسكه في العبادة، وتزكيته لنفسه وكونه علىٰ سَنن أصل الأئمة: فقد بلغ في ذلك مبلغ أن يقول صاحب «حلية الأولياء..» الحافظ أبو

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني: ٥/٣١٢ ـ ٣١٣.

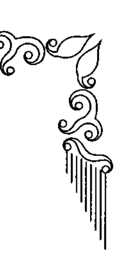
نُعيم الأصفهاني فيه: «ومنهم المنفر عن دار الغرور والكرب، المبشر بما يعقب تحمُّل النفور والصعب: القرظي أبو حمزة محمد بن كعب».

ومن ثمين كلامه في هذه البابة من السلوك: قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أراد الله بعبد خيراً زهَّده في الدنيا، وفقَّهه في الدين، وبصَّره عيوبه، ومن أوتيهنَّ أوتي خير الدنيا والآخرة».

وقالت له أمه ـ وهي ترىٰ ما يكابد في حرصه علىٰ العلم وشدة محاسبته لنفسه ـ: «يا بنيَّ لولا أني أعرفك صغيراً طيِّباً، وكبيراً طيِّباً، لقلت: إنك أذنبت ذنباً موبقاً لما أراك تصنع بنفسك! قال: يا أماه ـ أو يا أمَّتاه ـ! وما يؤمنني أن يكون الله قد اطَّلع عليَّ وأنا في بعض ذنوبي، فمقَتَني وقال: اذهب لا أغفر لك؛ مع أن عجائب القرآن تَرِدُ بي علىٰ أمور، حتىٰ إنَّه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي» توفي أبو حمزة أعلىٰ الله مقامه في الآخرين سنة عشرين ومائة للهجرة[1].



(١) انظر «تهذيب الكمال» رقم (٥٥٧٣)، «الحلية»: ٣/ ٣١٢ ـ ٣١٤، «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ٦٥ رقم (٢٣) فما بعد.



من درر
العظات والمناصحات عند الربانيين[1]

• روىٰ أبو نعيم في «الحلية» بسنده أن محمد بن كعب القرظيَّ قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: لا تصحب من الأصحاب من خطرك عنده علىٰ قدر قضاء حاجته، فإذا انقضت حاجته: انقطعت أسباب مودته. واصحب من الأصحاب ذا العلىٰ في الخير، والأناة في الحق، يعينك علىٰ نفسك، ويكفيك مؤونته»[2].

وقال محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتىٰ أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عُدَّة، ولا لما كرهوا منها جُنَّة واقتسمَ ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلىٰ من لا يعذرهم.

فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين، أن ننظر إلىٰ تلك الأعمال التي نغبطهم بها فنخلفهم فيها، وإلىٰ الأعمال التي نتخوف عليهم فيها، فنكف عنها.

فاتق الله وافتح الأبواب وسهل الحجاب وانصر المظلوم ورد المظالم، ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ﷻ: إذا رضي: لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب: لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر: لم يتناول ما ليس له[3].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة، العدد (٢)، ربيع الآخر ١٣٨٤هـ، آب ١٩٦٤م.

(٢) «الحلية»: ٥/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٣) «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر: ٥٥/ ٢٢٠، «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي: ص١٥٧.

• وقال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فيها فرحاً، وما ألزم عبد نفسه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها[1].

• وكان حامد القيصري يقول: «كلنا قد أيقن بالموت وما نرىٰ له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرىٰ لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار ولا نرىٰ لها خائفاً؛ فعلام تفرحون وما عسيتم تنتظرون! الموت، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير أو بشر، فيا إخوتاه سيروا إلىٰ ربكم سيراً جميلاً».

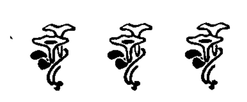
• ومن كلام الإمام أبي عثمان النيسابوري:

«الخوف من الله يوصلك إلىٰ الله، والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله، واحتقار الناس في نفسك مرض عظيم لا يداوىٰ»[2].

وعندما سئل: ما علامة السعادة والشقاوة؟ قال:

«علامة السعادة: أن تطيع الله، وتخاف أن تكون مردوداً، وعلامة الشقاوة: أن تعصي الله وترجو أن تكون مقبولاً»[3].

• قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأبي حازم سلمة بن دينار المخزومي: عظني فقال: «اضطجع، ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة، فدعه الآن»[4].



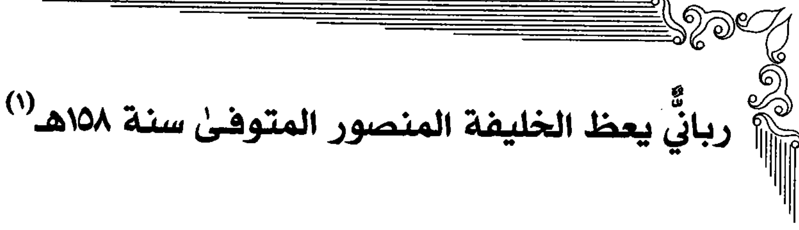
---

(1) «الحلية»: ٢/ ١٤٩.

(2) «طبقات الصوفية»: ص١٧٢.

(3) «طبقات الصوفية»: ص١٧٥.

(4) ينظر: «الحلية»: ٣/ ٢٣٨.



ربانيٌّ يعظ الخليفة المنصور المتوفىٰ سنة ١٥٨هـ[1]

قدم أبو جعفر المنصور مكة ـ شرفها الله ـ حاجاً. فكان يخرج من دار الندوة إلىٰ الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يُعلم به، فإذا طلع الفجر رجع إلىٰ دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس.

خرج ذات ليلة حين أسحر فبينما هو يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم يقول: «اللهم! إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم».

فأسرع المنصور في مشيه حتىٰ ملأ مسامعه من قوله، ثم خرج فجلس ناحية المسجد، وأرسل إليه فدعاه، فأتاه الرسول وقال له:

أجب أمير المؤمنين.

فصلىٰ ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه.

فقال له المنصور: ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم؟! فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن أمنتني علىٰ نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها وإلا اقتصرت علىٰ نفسي ففيها لي شغل شاغل.

فقال له: أنت آمنٌ علىٰ نفسك.

قال: الرجل الذي دخله الطمع حتىٰ حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض: أنت.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثانية عشرة، العددان (٧ و٨)، رمضان ـ شوال ١٣٩١هـ، كانون الثاني ١٩٧٢م.

فقال المنصور: ويحك! وكيف يَدخُلني الطمعُ والصفراء والبيضاء في يدي، والحلو والحامض في قبضتي؟؟

قال له: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين!!!

إن الله استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحَجَبَةً معهم السلاح.

ثم سجنت نفسك، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها، واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة؛ إن نسيت لم يذكروك، وإن ذكرت لم يعينوك، وقويتهم علىٰ ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، وأمرت أن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم.

ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف ولا الفقير، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق.

فلما رآك ـ هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم علىٰ رعيتك، وأمرت أن لا يحجبوا عنك ـ تجبي الأموال ولا تقسمها قالوا:

هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا؟؟

فائتمروا علىٰ أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال لينفقوا بها علىٰ ظلم رعيتك.

ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم من الرعية، فامتلأت بلاد الله في الطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في ظلمك وأنت غافل.

فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك، وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم.

فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك، وإن كان للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم

فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويقتل عليه. فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك، فيضرب ضرباً مبرحاً فما بقاء الإسلام علىٰ هذا؟؟؟

«بعد هذا التحليل العميق الرهيب. بدا المنصور كأنما غاب عن وعيه وفقد صبره. فقال للرجل في ضراعة:

كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائناً؟

فقال له: يا أمير المؤمنين، عليك بالأئمة الأعلام المرشدين.

المنصور: ومن هم؟؟. الرجل: العلماء العاملون. علماء الآخرة لا علماء الدنيا. المنصور: قد فروا مني. الرجل: هربوا منك مخافة أن تحملهم علىٰ ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك، ولكن فتّح الأبواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم، وامنع المظالم، وأنا ضامن علىٰ أن من هرب منك سيأتيك. فيعاونك علىٰ صلاح أمرك ورعيتك».

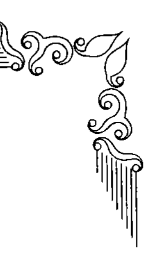
وبلغ التأثر بالمنصور حداً لم يتمالك به نفسه. فراح يبكي وينتحب حتىٰ ارتفع صوته. ورفع يديه إلىٰ السماء يجأر بالدعاء إلىٰ الله ضارعاً قائلاً:

يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً. اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل بينما مضىٰ الرجل مختفياً دون أن يعلم به أحد[1].



---

(١) انظر: «الحلية»: ٦/١٣٦ ـ ١٣٧، «تأريخ دمشق»: ٣٥/٢١٥ ـ ٢١٦.



بين الأوزاعي.. والمنصور[1]

مناصحة.. ومصارحة

حدّث الإمام الأوزاعي[2] قال: بعث إليَّ أبو جعفر أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته.

فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة، رد عليَّ واستجلسني ثم قال: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم، قلت: يا أمير المؤمنين، انظر ولا تجهل شيئاً مما أقول لك، قال: وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وقد وجهت فيه إليك وأقدمتك له؟ قلت: أن تسمعه ولا تعمل به.

قال: فصاح بي الربيع وأهوىٰ بيده إلىٰ السيف. فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام فقلت:

يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية ـ يعني ابن بسر ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه. فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة عليه من الله ليزداد بها إثماً ويزداد الله بها عليه سخطاً**»[3].

يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بسر قال: قال

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة، العدد (٦)، شعبان ١٣٨٧هـ، تشرين الثاني ١٩٦٧م.

(٢) هو الإمام القدوة المرابط عبد الرحمٰن بن عمرو بن يُحمِد الأوزاعي نسبة إلىٰ الأوزاع في دمشق، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ومناصحة أولي الأمر، ولد في بعلبك سنة ٨٨هـ ونشأ في البقاع، عُرض عليه القضاء فامتنع، وتوفي في بيروت مرابطاً في سبيل الله سنة ١٥٧هـ.

(٣) «ضعيف الجامع الصغير» عن عطية بن قيس (٢٢٤٥)، طبع المكتب الإسلامي.

رسول الله ﷺ: **«أيما وال بات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة»**[1].

يا أمير المؤمنين، من كره الحق فقد كره الله، إن الله هو الحق المبين.

يا أمير المؤمنين، إن الذي ليَّن قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمرهم لقرابتكم من النبي ﷺ فقد كان بكم رؤوفاً رحيماً، مواسياً بنفسه لهم في ذات يده وعند الناس، فحقيق أن يقوم لهم فيهم بالحق، وأن يكون القسط له فيهم قائماً، ولعوراتهم ساتراً، لم تغلق عليه دونهم الأبواب، ولم يقم عليه دونهم الحجاب، يبتهج بالنعمة عندهم، ويبتئس بما أصابهم من سوء.

يا أمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك، عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم وأسودهم، ومسلمهم وكافرهم، فكلٌّ له عليك نصيبه من العدل، فكيف إذا تبعك منهم فئام وراءهم فئام، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه؟!

يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عروة بن رويم، قال: «كانت بيد النبي ﷺ جريدة يستاك بها، ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التي كسرت بها قرون أمتك، وملأت قلوبهم رعباً؟» فكيف بمن شقق أبشارهم وسفك دماءهم، وخرب ديارهم، وأجلاهم عن بلادهم، وغيبهم الخوف منه.

يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن يزيد بن جارية عن حبيب بن مسلمة «أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدشة خدشها أعرابياً لم يتعمدها، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله لم يبعثك جباراً ولا مستكبراً، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: اقتص مني، فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي، ما كنت لأفعل ذلك أبداً، ولو أتت على نفسي، فدعا له بخير».

يا أمير المؤمنين، رُض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك،

---

(١) ينظر «صحيح البخاري» برقم (٧١٥١)، و«صحيح مسلم» برقم (١٤٢).

وارغب في جنة عرضها السماوات والأرض التي يقول فيها رسول الله ﷺ: **«لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»**[1].

يا أمير المؤمنين، إن المُلك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقىٰ لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين، تدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك؟ ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩] قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك، فكيف بما عملته الأيدي، وحدثته الألسن يا أمير المؤمنين بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن أسأل عنها، فكيف بمن حرم عدلك وهو علىٰ بساطك؟

يا أمير المؤمنين، أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك؟ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص:٢٦] قال: يا داود، إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى، فلا تمنين في نفسك أن يكون له الحق فيفلج علىٰ صاحبه، فأمحوك من نبوتي، ثم لا تكون خليفتي. يا داود، إنما جعلت رسلي إلىٰ عبادي رعاء كرعاء الإبل، لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسية، ليجبروا الكسير، ويدلوا الهزيل علىٰ الكلأ والماء.

يا أمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر عظيم لو عرض علىٰ السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه واشفقن منه.

يا أمير المؤمنين، حدثني يزيد بن مزيد عن جابر عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري: أن عمر بن الخطاب استعمل من الأنصار رجلاً علىٰ الصدقة، فرآه بعد أيام مقيماً، فقال له: ما منعك من الخروج إلىٰ عملك؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله؟ قال: لا! قال عمر: وكيف ذاك؟ قال: لأنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من وال يلي من أمور الناس**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» عن أنس، وأوله: **«الغدوة في سبيل الله...»** ٣/ ١٥٣ (١٢٥٤٠) طبع المكتب الإسلامي.

شيئاً إلا أُتي به يوم القيامة فيوقف علىٰ جسر من نار فينتفض به الجسر انتفاضاً يزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإن كان محسناً نجا بإحسانه، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فهوىٰ به في النار سبعين خريفاً».

فقال له عمر: ممن سمعت هذا؟ قال من أبي ذر، وسلمان، فأرسل إليهما فسألهما فقالا: نعم! سمعناه من رسول الله ﷺ، فقال عمر: واعمراه، من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذر: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالأرض، فأخذ أبو جعفر المنديل فوضعه علىٰ وجهه، فبكىٰ وانتحب حتىٰ أبكاني.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة علىٰ مكة أو الطائف، فقال له: «**يا عباس يا عم النبي! نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها**» هي نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، لأنه لا يغني عنه من الله شيئاً، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ فقال: «**يا عباس، يا صفيةُ عمةَ النبي، إني لست أغني عنكم من الله شيئاً، ألا لي عملي ولكم عملكم**»[1].



(١) «الحلية» لأبي نعيم الأصبهاني: ٦/ ١٣٦ ـ ١٣٩، «تاريخ ابن عساكر»: ٣٥/ ٢١٤ ـ ٢١٧.



... وبكىٰ عبد الملك

روىٰ أبو نعيم في «الحلية» بسنده عن سويد الكلبي، ومن طريق أخرىٰ عن الشعبي: أن زِرَّ بنَ حُبيش كتب إلىٰ عبد الملك بن مروان كتاباً يَعِظُه، وكان في آخره: «ولا يُطمعْك يا أمير المؤمنين في طول الحياة: ما يظهر من صحتك، فأنت أعلم بنفسك، واذكر ما تكلَّم به الأولون:

إذا الـرجـال ولَـدت أولادُهـا ... وبَـلـيـت مـن كِـبَـرٍ أجـسـادُهـا
وجـعـلـت أسـقـامـهـا تـعـتـادهـا ... تـلـك زروع قـد دنـا حـصـادهـا

فلما قرأ عبد الملك الكتاب، بكىٰ حتىٰ بلَّ طرف ثوبه، ثم قال: صدق زِرٌّ، لو كتب إلينا بغير هذا، لكان أرفق»[1].

وهذا الرجل الرباني الذي أخذت موعظته عبدَ الملك بن مروان هذا القدر من التأثير حتىٰ كان من انعكاس ذلك علىٰ قلبه ونفسه: أنه بكىٰ حتىٰ بلَّ طرف ثوبه.. هذا الرجل الرباني: هو ـ كما سنرىٰ ـ زِرُّ بن حبيش بن حباشة بنِ أوس، الإمام التابعي القدوة، مقرئ الكوفة مع أبي عبد الرحمـٰن السُّلمي؛ أبو مريم الأسديُّ الكوفيُّ، ويكنىٰ أيضاً أبا مطرِّف: أدرك أيام الجاهلية، وكان جدَّ حريص ـ وهو التابعي النابه ـ علىٰ لقاء الصحابة من المهاجرين والأنصار، وحسن التلمذة عليهم، وقد أفاد منهم الكثير الكثير في مختلف نواحي العلم النافع، وفقه العمل والسلوك، وكمال الصلة بالله ﷻ. وقد حدَّث عن: عمر بن الخطاب، وأُبي بن كعب، وعثمان، وعلي، وعبد الله، وعمار، والعباس، وعبد الرحمـٰن بن عوف، وحذيفة بن اليمان، وصفوان بن عسَّال، وقرأ علىٰ ابن مسعود وعلي وآخرين، وكان ثقة كثير الحديث، قال الحافظ في «التقريب»: ثقة جليل مخضرم ـ أي أدرك الجاهلية

---

(١) «الحلية»: ٤/ ١٨٤ رقم (٢٦٧).

والإسلام ـ. وكان رَحِمَهُ اللهُ صداعاً بالحق، راغباً في المناصحة، أوّاباً خاشعاً، قوي التأثير في الموعظة، كما كان من أعرب الناس، حتىٰ إن عبد الله بن مسعود ـ وهو من كبار علماء الصحابة ـ كان يسأله عن العربية. توفي عام ١٢٧ عن ١٢٢ سنة[١].

أما عن تنسكه وعبادته، وقيام الليل بالقرآن، فقد روىٰ أبو نعيم في «الحلية» عن حماد بن زيد عن عاصم قال: «أدركت أقواماً كانوا يتخذون من هذا الليل جملاً منهم زرُّ بن حبيش»[٢].



---

(١) وينظر: «طبقات ابن سعد»: ٦/ ١٠٥، «تهذيب التهذيب»: ١/ ٢٣٥، «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ١٦٦ (٦٠).

(٢) «الحلية»: ٤/ ١٨٤.

مع الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]

ألزم التقوى قلبك...

حدّث علي بن المديني قال: قال لي أحمد بن حنبل: إني لأحب أن أصحبك إلىٰ مكة، وما يمنعني من ذاك إلا أني أخاف أن أملّك أو تملّني. قال: فلما ودعته قلت له: يا أبا عبد الله توصيني بشيء؟ قال: «ألزم التقوىٰ قلبك وانصب الآخرة أمامك».

وفي رواية: قلت: أوصني، قال: «اجعل التقوىٰ زادك وانصب الآخرة أمامك»[2].

العالم الرباني

حدّث صالح بن أحمد بن حنبل قال: دخلت علىٰ أبي في أيام الواثق ـ والله يعلم في أي حالة نحن ـ وقد خرج لصلاة العصر، وقد كان له لبد يجلس عليها، قد أتت عليه سنون كثيرة حتىٰ قد بلي، فإذا تحته كتاب كاغد، وإذا فيه:

«بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق، وما عليك من الدَّين، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم علىٰ يدي فلان لتقضي بها دينك، وتوسع بها علىٰ عيالك، وما هي من صدقة ولا زكاة، وإنما هو شيء ورثته من أبي».

فقرأت الكتاب ووضعته. فلما دخل قلت: يا أبت ما هذا؟ فاحمر وجهه وقال: رفعته منك. ثم قال: تذهب بجوابه، فكتب إلىٰ الرجل:

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثامنة، العدد (٩)، ذو القعدة ١٣٨٧هـ، شباط ١٩٦٨م.

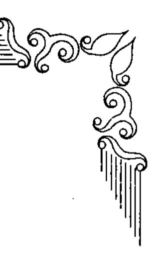
(٢) «الحلية»: ٩/ ١٧٣، «السير»: ١١/ ٣٠١.

«وصل كتابك إلي ونحن في عافية، فأما الدَّين: فإنه لرجل لا يرهقنا، وأما عيالنا: فهم في نعمة والحمد لله».

فذهبت بالكتاب إلىٰ الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل، فقال: ويحك! لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمىٰ به مثلاً في دجلة كان مأجوراً، لأن هذا رجل لا يعرف له معروف، فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك، فرد عليه الجواب بمثل ما رد، فلما مضت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها فقال: «لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت»[1].



(١) «الحلية»: ٩/١٧٨.



كلمات مضيئة[1]

ما قدَّم لنفسه..

حدّث الفضيل بن عياض عن هشام بن حسان عن الحسن البصري قال: إنكم أصبحتم في أجل منقوص، وعمل محفوظ، والموت في رقابكم، والنار بين أيديكم، وما ترون والله ذاهب، فتوقعوا قضاء الله في كل يوم وليلة، ولينظر امرؤ ما قدم لنفسه[2].

الشكر.. والاستدراج

حدّث حماد بن زيد ـ وكان قد أدرك معظم التابعين من البصريين وغيرهم ـ قال: اجتمع أيوب السختياني، ويونس بن عبيد، وابن عون، وثابت البناني في بيت.

فقال ثابت: يا هؤلاء كيف يكون العبد إذا دعا ربه فاستجاب له دعاءه؟

قال ابن عون: يكون البلاء في نفسه.

قال ثابت: فإنه يعرضه العجب بما صنع الله به.

فقال يونس بن عبيد: لا يكون العبد يعجب بصنع الله إلا وهو مستدرج.

فقال أيوب: وما علامة المستدرج؟ قال: إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة، فحفظها وأبقىٰ عليها ثم شكر الله أعطاه الله أشرف من المنزلة الأولىٰ، وإذا هو ضيَّع الشكر استدرجه الله وكان تضييعه للشكر استدراجاً من الله له، وإن العبد المستدرج يكون له فيما بينه وبين الله تيسير وحبس، فعليه ينكر

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة، العدد (٣)، جمادىٰ الأولىٰ ١٣٨٨هـ، آب ١٩٦٨م.

(٢) «الحلية»: ٦/ ٢٧١.

العجب عن معرفة الاستدراج، وأن العبد المستدرج إذا كان في قلبه شيء من الشكر حمله شكره علىٰ التفقد من أين يأتي، فإذا عرف ذلك خضع، وإذا خضع أقال الله عثرته.

قال حماد: إن ابن عمر سئل عن الاستدراج فقال: ذاك مكره بالعباد المضيعين. قال: فبكوا جميعاً، ثم رفع أيوب يده من بينهم وقال: يا عالم الغيب والشهادة لا توفيق لنا إن لم توفقنا، ولا قوة لنا إن لم تقونا.

فقال يونس: به وجدنا طعم القوة في دعائك يا أبا بكر. قال: وكان أيوب يعرفه أصحابه أن له دعوة مستجابة(١).

الربانيون... والصحابة

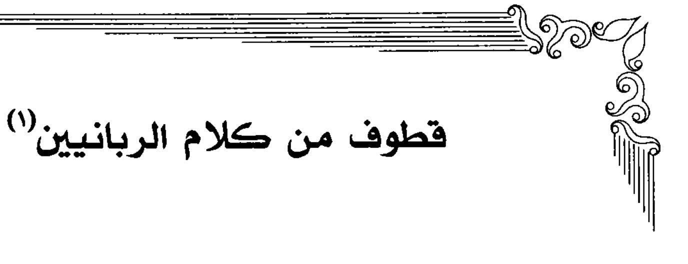
تحدث الحسن البصري عن أخلاق الصحابة فقال: «والله لقد أدركنا أقواماً وصحبنا طوائف أن كان الرجل منهم ليمسي وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله، فيقول: والله لا أجعل هذا كله في بطني حتىٰ أجعل بعضه لله، فيتصدق ببعضه، والله لقد أدركنا أقواماً وصحبنا طوائف ما كانوا يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، والله الذي لا إلـٰه غيره لهي أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه»(٢).



---

(١) «الحلية»: ٦/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق: ٦/ ٢٧٢.



قطوف من كلام الربانيين(١)

لو أنِسوا بربهم..

قال عبد الله بن خُبَيْق(٢):

«وحشة العباد عن الحق، أوحشت منهم القلوب، ولو أنسوا بربهم ولزموا الحق، لاستأنس بهم كل أحد».

أنفع الخوف..

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك الفكرة في بقية عمرك»(٣).

خير الرزق..

قال السري السقطي(٤): خير الرزق ما سلم من خمسة:

«من الآثام في الاكتساب، والمذلة والخضوع في السؤال، والغش في

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة، العدد (٨)، شوال ١٣٨٦هـ، كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٢) انظر: «الحلية»: ١٠/ ١٦٩ فما بعد. وكانت وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ أواخر القرن الثاني الهجري. ومن ثمين كلامه: «إذا دنا الرجل القارئ من معصية يقول القرآن في جوفه: ما لهذا حملتني».

(٣) «الحلية»: ١٠/ ١٦٩، «طبقات الصوفية»: ص١٤٥، «الرسالة القشيرية»: ص١٨.

(٤) انظر: «الحلية»: ١٠/ ١١٦ فما بعد، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٣٥٧، وكانت وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ٢٥٦ أو ٢٥٧هـ.

الصناعة، وأثمان آلة المعاصي، ومعاملة الظَّلَمة»[1].

الأمور ثلاثة..

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأمور ثلاثة: أمرٌ بان لك رُشْدُه فاتَّبِعه. وأمرٌ بان لك غيُّه: فاجتنبه. وأمرٌ أشكل عليك فقف عنده وكِله إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ. وليكن الله دليلك. واجعل فقرك إليه تستغنِ عمن سواه»[2].

أبرُّ وأرحم..

قال أبو الحسين النوري[3]:

وكم رمتُ أمراً خِرتَ لي في انصرافه ... فلا زلتَ بي مني أبر وأرحما
عزمت علىٰ ألا أُحسَّ بخاطر ... علىٰ القلب إلا كنتَ أنت المقدَّما
وألا تراني عندما قد كرهتَه ... لأنك في قلبي كبيراً معظماً[4]

ومن كلام ذي النون المصري[5]:

أنه سئل عن المحبة، فقال: أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة لائم.. مع العطف للمؤمنين، والغلظة علىٰ الكافرين، واتباع رسول الله ﷺ في الدين[6].

قال الله تعالىٰ: من كان لي مطيعاً كنت له ولياً، فليثق بي وليحكم علي. فوعزتي لو سألني زوال الدنيا لأزلتها له[7].

---

(١) «طبقات الصوفية»: ص٥٤. (٢) «طبقات الصوفية»: ص٥٢.

(٣) هو أحمد بن محمد المعروف بالنوري. وانظر: «الحلية»: ١٠/ ٢٤٩ فما بعد رقم (٥٧٠)، «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٧٠ رقم (٣٥). كانت وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ٢٩٥هـ.

(٤) يلاحظ أن خبر (أنَّ) في قوله: (لأنك) متعلَّق الجار والمجرور (في قلبي) فـ(كبيراً معظَّماً) حالٌ بعد حال والحال منصوب. وانظر: «السير»: ١٤/ ١٦٩.

(٥) انظر: «الحلية»: ٩/ ٣٣١ و٣٩١، «تاريخ بغداد»: ٨/ ٢٩٣، «السير»: ١١/ ٥٣٢.

(٦) «طبقات الصوفية»: ص١٨، وانظر: «الحلية»: ٩/ ٣٧٨.

(٧) «طبقات الصوفية»: ص١٩.

من علامات المحب لله: متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأمره وسننه[1].

لله عباد تركوا الذنب استحياء من كرمه، بعد أن تركوه خوفاً من عقوبته. ولو قال لك: اعمل ما شئت فلست آخذك بذنب، كان ينبغي أن يزيدك كرمه استحياء منه، وتركاً لمعصيته، إن كنت حراً كريماً، عبداً شكوراً.. فكيف وقد حذَّرك؟[2]

الصدق سيف الله في أرضه ما وضع علىٰ شيء إلا قطعه[3].

من أراد التواضع فليوجه نفسه إلىٰ عظة الله، فإنها تذوب وتضعف، ومن نظر إلىٰ سلطان الله ذهب سلطان نفسه ورأىٰ النفوس كلَّها فقيرة عند هيبته.

هذا: وتجدر الإشارة إلىٰ أن (ذو النون) في (ذو النون المصري): لقب واسمه ثوبان بن إبراهيم، وهو الزاهد شيخ الديار المصرية أبو الفيض، مات رحمه الله ـ كما يقول حيّان السهمي ـ بالجيزة، وعُدِّي به إلىٰ مصر في مركب خوفاً من زحمة الناس علىٰ الجسر لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة خمس وأربعين، أو ست وأربعين ومائتين[4].



(١) «طبقات الصوفية»: ص٢١، «الرسالة القشيرية»: ص٨.
(٢) «طبقات الصوفية»: ص٢٤.
(٣) المصدر السابق: ص٢٣، «طبقات الأولياء» لابن الملقن: ص٢٢٠.
(٤) وانظر: «السير»: ١١/٥٣٦، «الرسالة القشيرية»: ص٨.



حين ينشرح الصدر للهداية[1]

قال موفق الدين بن قدامة المقدسي في كتابه «التوابين»[2]: حُكي عن عبد الواحد بن زيد قال: كنت في مركب فطرحتنا الريح إلىٰ جزيرة، وإذا فيها رجل يعبد صنماً.

فقلنا له: يا رجل! من تعبد؟ فأومأ إلىٰ الصنم.

فقلنا: إن معنا في المركب من يَسْوىٰ مثل هذا، وليس هذا إلـٰهاً يعبد.

قال: فأنتم من تعبدون؟

قلنا: الله.

قال: وما الله؟

قلنا: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه.

فقال: كيف علمتم به؟

قلنا: وجَّه إلينا هذا الملك رسولاً كريماً فأخبر بذلك.

قال: فما فعل الرسول؟

قلنا: لما أدىٰ الرسالة قبضه الله.

قال: أفما ترك عندكم علامة؟

قلنا: بلىٰ، ترك عندنا كتاب الملك.

فقال: أروني كتاب الملك، فينبغي أن تكون كتب الملوك حساناً.

---

(١) «حضارة الإسلام» السنة الثامنة، العدد (٧)، رمضان ١٣٨٧هـ، كانون الأول ١٩٦٧م.

(٢) ص٢٨٤ ـ ٢٨٦ (١٣٠ عابد الصنم).

فأتيناه بالمصحف، فقال: ما أعرف هذا. فقرأنا عليه سورة من القرآن، فلم نزل نقرأ ويبكي حتىٰ ختمنا السورة.

فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصىٰ. ثم أسلم وحملناه معنا وعلمناه شرائع الإسلام وسوراً من القرآن. وكنا إذا جنَّنا الليل وصلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا.

قال لنا: يا قوم. هذا الإلـٰه الذي دللتموني عليه، إذا جنَّه الليل ينام؟

قلنا: لا يا عبد الله، هو عظيم قيوم لا ينام.

قال: بئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام؟ فأعجبنا كلامه فلما قدمنا عبَّادان.

قلت لأصحابي: هذا قريب عهد بالإسلام. فجمعنا له دراهم وأعطيناه.

فقال: ما هذا؟

قلنا: تنفقها.

فقال: لا إلـٰه إلا الله دللتموني علىٰ طريق ما سلكتموها. أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنماً من دونه ولم يضيعني أفيضيعني وأنا أعرفه؟

فلما كان بعد أيام...

قيل لي: إنه في الموت فأتيته فقلت له: هل من حاجة؟

فقال: قضىٰ حوائجي من جاء بكم إلىٰ جزيرتي.

قال عبد الواحد: فحملتني عيني فنمت عنده فرأيت رؤيا فيها بشارة طيبة له. فانتبهت فإذا قد فارق الدنيا. فقمت إليه فغسلته وكفنته وواريته.

فلما جن الليل نمت فرأيته يقرأ: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

* * *

وَبَعْـدُ: فأود الإشارة إلىٰ أن راوي القصة هو الزاهد القدوة، شيخ العبَّاد وأهل الصلاح: أبو عبيدة البصري عبد الواحد بن زيد، توفي بعد الخمس ومائة للهجرة رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

أما راوي القصة عنه في كتابه «التوابين»: فهو شيخ الإسلام، الإمام القدوة المجتهد الربانيُّ: موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجَمَّاعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب الكتاب الموسوعي في الفقه «المغنيٰ». كان من مقدَّمي العلماء العاملين الذين توافرت لهم مع سعة العلم علىٰ فنون شتىٰ: خشية الله تعالىٰ، والقيام بما يجب على العالِم وهو يوقِّع عن رب العالمين. ومؤلفاته كثيرة بجانب «المغني» و«التوابين».

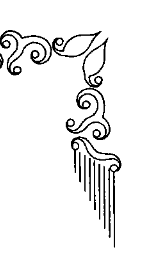
قال الإمام الذهبي: وسمعت الحافظ أبا عبد الله اليونينيَّ يقول: «أما ما علمته من أحوال شيخنا وسيدنا موفق الدين: فإنني إلىٰ الآن، ما أعتقد شخصاً ممن رأيتهم حصل له من الكمال في العلوم والصفات الحميدة التي يحصل بها الكمال سواه؛ فإنه كان كاملاً في صورته ومعناه، من حيث الحسن والإحسان، والحكم، والسؤدد، والعلوم المختلفة، والأخلاق الجميلة. رأيت منه ما يعجز عنه كبار الأولياء؛ فإن رسول الله ﷺ قال: **«ما أنعم الله علىٰ عبد نعمة أفضل من أن يُلهمه ذكره»** فقلت بهذا: إن إلهام الذكر أفضل من الكرامات، وأفضل الذكر ما يتعدَّىٰ إلىٰ العباد، وهو تعليم العلم والسنة. وأعظم من ذلك وأحسن ما كان جبلَّة وطبعاً كالحلم والكرم والعقل والحياء، وكأن الله قد جبله علىٰ خلق شريف، وأفرغ عليه المكارم إفراغاً، وأسبغ عليه النعم، ولطف به في كل حال، وذكرت له عدة كرامات(٢).



---

(١) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم: ٦/ ٢٠، «السير»: ٦/ ١٧٨ رقم (٥٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ١٦٥ رقم (١١٢). وانظر: «البداية والنهاية»: ١٣/ ٩٩ فما بعد، «الذيل» لابن رجب: ٢/ ١٣٣ فما بعد.



الإمام ابن الجوزي[1]
والتذكير بحكمة الله في خلقه

هذه شذراتٌ نيِّرات مما كتبه الإمام عبد الرحمن بن الجوزي[2] مذكراً بحكمة الله في خلقه، وعظيم قدرته في كمال عدالته وحسن تدبيره، الأمر الذي يعلم الجاهل ويوقظ الغافل، ويزيد في إيمان المؤمن وتسليمه، ويكشف زيف أولئك الجفاة الذين يعترضون ـ بصغر عقولهم ـ علىٰ كل ما لا تدركه عقولهم. فكان ـ فيما كتب ـ نعم المذكر ونعم المعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيت كثيراً من المتغفلين يظهر عليهم السخط بالأقدار.

وفيهم من قلّ إيمانه فأخذ يعترض.

وفيهم من خرج إلىٰ الكفر، ورأىٰ أن ما يجري كالعبث، وقال: ما فائدة الإعدام بعد الإيجاد، والابتلاء ممن هو غني عن أذانا!!

فقلت: لبعض من كان يرمز إلىٰ هذا؟ إن حضر عقلك وقلبك حدثتك، وإن كنت تتكلم بمجرد واقعك من غير نظر وإنصاف، فالحديث معك ضائع. ويحك أحضر عقلك واسمع ما أقول:

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثالثة عشرة، العددان (١ و٢)، ربيع الأول ـ ربيع الآخر ١٣٩٢هـ، أيار ـ حزيران ١٩٧٢م.

(٢) الإمام العلّامة شيخ الإسلام، مفخرة العراق، جمال الدين عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، له ما يزيد علىٰ ثلاث مئة وأربعين مصنفاً، ما بين المئتين مجلداً إلىٰ كراس، وله باع طويل في المنظوم والمنثور، ومع كثرة تصانيفه كان ذا حظ عظيم وصيت بعيد في الوعظ والقدرة علىٰ التأثير، ولد سنة تسع أو عشر وخمسمائة وتوفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٦٥، «البداية والنهاية»: ١٣/ ٢٨، «الأعلام»: ٣/ ٣١٦ ـ ٣١٧.

أليس قد ثبت أن الحق سبحانه مالك، وللمالك الحق أن يتصرف كيف يشاء؟

أليس قد ثبت أنه حكيم والحكيم لا يعبث؟

وأنا أعلم أن في نفسك من هذه الكلمة شيئاً؛ فإنه قد سمعنا من جالينوس أنه قال: ما أدري، أحكيم هو أم لا؟

والسبب في قوله هذا، أنه رأىٰ نقضاً بعد إحكام، فقاس الحال علىٰ أحوال الخلق؛ وهو أن من بنىٰ ثم نقض لا لمعنىٰ فليس بحكيم.

وجوابه لو كان حاضراً أن يقال: بماذا بان لك أن النقض ليس بحكمة؟ أليس بعقلك الذي وهبه الصانع لك؟

وكيف يهب لك الذهن الكامل ويفوته هو الكمال؟

وهذه هي المحنة التي جرت لإبليس؛ فإنه أخذ يعيب الحكمة بعقله، فلو تفكر علم أن واهب العقل أعلىٰ من العقل، وأن حكمته أوفىٰ من كل حكيم، لأنه بحكمته التامة أنشأ العقول.

فهذا إذا تأمله المنصف زال عنه الشك.

وقد أشار سبحانه إلىٰ نحو هذا في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور] أي أجعل لنفسه الناقصات وأعطاكم الكاملين.

فلم يبق إلا أن نضيف العجز عن فهم ما يجري إلىٰ نفسنا، ونقول: هذا فعل عالم حكيم، ولكن ما يبين لنا معناه.

وليس هذا بعجب: فإن موسىٰ عليه السلام خفي عليه الحكمة في نقض السفينة الصحيحة، وقتل الغلام الجميل، فلما بين له الخضر وجه الحكمة أذعن. فليكن المرء مع الخالق، كموسىٰ مع الخضر.

أوَلسنا نرىٰ المائدة المستحسنة بما عليها من فنون الطعام الظريف يقطع ويُمضغ، ويصير إلىٰ ما نعلم. ولسنا نملك ترك تلك الأفعال ولا ننكر الإفساد له لعلمنا بالمصلحة الباطنة فيه.

ومن أجهل الجهال: العبد المملوك إذا طلب أن يطلع علىٰ سر مولاه، فإن فرضه التسليم لا الاعتراض.

ولو لم يكن في الابتلاء بما تنكره الطباع إلا أن يقصد إذعان العقل وتسليمه لكفىٰ. ولقد تأملت حالة عجيبة، يجوز أن يكون المقصود بالموت هي، وذلك أن الخالق سبحانه غيب في غيب لا يدركه الإحساس؛ فلو أنه لم ينقض تلك البنية لتخايل للإنسان أنه صنع لا بصانع.

فإذا وقع الموت عرفت النفس نفسها التي كانت لا تعرفها لكونها في الجسد، وتدرك عجائب الأمور بعد رحيلها.

فإذا ردت إلىٰ البدن عرفت ضرورة أنها مخلوقة لمن أعادها، وتذكرت حالها في الدنيا ـ فإن الذكريات تعاد كما تعاد الأبدان ـ فيقول قائلهم: «إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين».

ومتىٰ رأت ما قد وعدت به من أمور الآخرة، أيقنت يقيناً لا شك معه. ولا يحصل هذا بإعادة ميت سواها. وإنما يحصل برؤية الأمر فيها.

فتبنىٰ بنية تقبل البقاء، وتسكن جنة لا ينقضي دوامها.

فيصلح بذلك اليقين أن تجاور الحق: لأنها آمنت بما وعدت، وصبرت بما ابتليٰ، سلمت لأقداره، فلم تعترض. ورأت في غيرها العبر، ثم في نفسها. فهذه هي التي يقال لها: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

فأما الشاك والكافر: فيحق لهما الدخول إلىٰ النار واللبث فيها، لأنهما رأيا الأدلة ولم يستفيدا، ونازعا الحكيم، واعترضا عليه، فعاد شؤم كفرهما يطمس قلوبهما، فبقيت نفوسهما علىٰ ما كانت عليه.

فلما لم تنتفع بالدليل في الدنيا، لم تنتفع بالموت والإعادة، ودليل بقاء الخبث في القلوب قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فنسأل الله ﷻ عقلاً مسلماً يقف علىٰ حده، ولا يعترض علىٰ خالقه وموجده، فما يستفيد إلا الخزي، نعوذ بالله ممن خذل»[1].

---

(١) انظر: «صيد الخاطر» لابن الجوزي: ص٢٤٤ فما بعد، فصل (١٩٧).



الوقوف علىٰ باب الله والضرع إليه(١)

من خصال الإيمان أن يكون المسلم علىٰ مراقبة دائمة لله ﷻ، والوقوف ببابه والتضرُّع إليه، فإليه المفزع عند المصيبة، وببابه ينزل أهل الحاجات حاجاتهم وهو ـ سبحانه ـ الذي يجيب المضطر إذا دعاه؛ وصدق اللجأ إليه ـ مع العمل ـ سلاح أي سلاح.

قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ:

ينبغي للعبد أن يلازم باب مولاه علىٰ كل حال. وأن يتعلق بذيل فضله إن عصىٰ وإن أطاع.

وليكن له أنس في خلوته به، فإن وقعت وحشة فليجتهد في رفع الموحش كما قال الشاعر:

أمستوحش أنت مما جنيـ ... ـت فأحسن إذا شئت واستأنس

فإن رأىٰ نفسه مائلاً إلىٰ الدنيا طلبها منه، أو إلىٰ الآخرة سأله التوفيق فإن خاف ضرر ما يرومه من الدنيا سأل الله إصلاح قلبه، وطب مرضه، فإنه إذا صلح لم يطلب ما يؤذيه.

من كان هكذا كان في العيش الرغد، غير أن من ضرورة هذه الحال ملازمة التقوىٰ فإنه لا يصلح الأنس إلا بها.

وقد كان أرباب التقوىٰ يتشاغلون عن كل شيء إلا عن اللجأ والسؤال.

وفي الحديث: أن قتيبة بن مسلم لما صافّ الترك هاله أمرهم فقال: أين

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الحادية عشرة، العدد (٢)، ربيع الآخر ١٣٩٠هـ، حزيران ١٩٧٠م.

محمد بن واسع؟ فقيل: هو في أقصىٰ الميمنة جانح علىٰ سِيَةِ قوسه[1] يومي بأصبعه نحو السماء، فقال قتيبة: «تلك الأصبع الفاردة أحبّ إليّ من مائة ألف سيفٍ شهير، وسِنان طرير ـ أو (وشابٍ طرير)، فلما فُتح عليهم قال له: ما كنت تصنع؟ قال: آخذ لك بمجامع الطرق»[2].



---

(١) سية القوس: طرفها المنحني.

(٢) «صيد الخاطر»: ص١٢٦، فصل (٧٣). وانظر: «تاريخ دمشق»: ٥٦/ ١٦٨، «السير»: ٦/ ١٢١.



النفوس العالية... والنفوس الدنيئة[1]

النفوس العالية ترىٰ التعلق بمال الدنيا وزينتها امتهاناً لها لا تقبله، والنفوس الدنيئة ترىٰ جمع المال والحرص علىٰ الجاه علواً لا تتخلىٰ عنه، وما أكثر من يدعون علوَّ النفس وهم يتصفون بصفات الأدنياء! . . . **مصطفىٰ السباعي**

مع الله...

من اعتز بغير الله ذلّ، ومن استعان بغيره خاب، ومن توكل علىٰ غيره افتقر، ومن أنس بسواه كان في عيشة موحشة ولو غمرته الأضواء وحفت به المواكب. **مصطفىٰ السباعي**

صدق الإخاء..

إني لا أعتقد إخاء الرجل في الرضا، ولكني أعتقد إخاءه في الغضب، إذا أغضبته[2].

أرزاق المتقين

أبىٰ الله إلا أن يجعل أرزاق المتقين من حيث لا يحتسبون[3].

الفضيل بن عياض

من أراد التواضع

من أراد التواضع فليوجه نفسه إلىٰ عظمة الله، فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلىٰ سلطان الله ذهب سلطان نفسه، لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته[4].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة، العدد (١٠)، ذو الحجة ١٣٨٤هـ، نيسان ١٩٦٥م.

(٢) «الحلية»: ٨/ ٩٦.

(٣) «طبقات الصوفية»: ص١٤.

(٤) «طبقات الصوفية»: ص٢٠.

قوة الصدق..

الصدق سيف الله في أرضه، ما وضع علىٰ شيء إلا قطعه[1].

ذو النون المصري

صولة الحمقى

يأتي علىٰ الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم، ويأتي عليهم زمان تكون الدولة فيه للحمقىٰ علىٰ الأكياس[2].

متى يكون الكمال؟

لا تكون كاملاً حتىٰ يأمنك عدوك، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك؟[3].

أقوام وأقوام..

بحسبك أن أقواماً موتىٰ تحيا القلوب بذكرهم، وأن قوماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم[4].

بشر الحافي



---

(١) «صفة الصفوة»: ٤/٢٨٦، «طبقات الصوفية»: ص٢٣. وقد أوردنا هذا الكلام بمناسبة أخرىٰ.

(٢) «طبقات الصوفية»: ص٤٢.

(٣) المصدر السابق: ص٤٣.

(٤) «صفة الصفوة»: ٢/١٨٨.

مساكين أهل الدنيا(1)

من الآيات الهادية في تحديد قيمة الدنيا وعظيم موقع الآخرة في تصور المؤمن وسلوكه قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد] وقوله جلّ شأنه في موطن آخر: ﴿.. فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران] وما كان من خطابه لنبيه ﷺ في سورة الضحىٰ: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ وأن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت] صيغة مبالغة علىٰ وزن (فعلان) فهي هي الحياة.

ولم يفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم من هذه الآيات وأمثالها وما ورد من أحاديث في هذا الموضوع توجيهاً لترك الدنيا، وإهمالها وعدم الالتفات إلىٰ نِعَم الله وطيباته، وما سخر للإنسان في هذا الكون، لم يفهم السلف الصالح ذلك.. ولكن فهموا أن لا تكون الدنيا في القلوب تشغلها عن مراقبة الله وذكره، أن لا تستغرق وقت المسلم بحيث تصرفه عن عبادة مولاه وطاعته، وتضعف عزيمته عن تلاوة القرآن وتدبُّره، أن لا تعظَّم وتكون هي الغاية بحيث تُتعدىٰ الحدود لجمع الحطام، وتُنتهك حرمات الله للاستزادة من المال، وتُقطع الأرحام تجاوزاً للحق وطمعاً في هذا الفاني وتنحسر البصيرة عن الاستعداد ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ

---

(1) «حضارة الإسلام»، السنة العشرون، العدد (٢) جمادىٰ الأولىٰ ١٣٩٩هـ، نيسان ١٩٧٦م.

فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور].

وهكذا رأينا السلف الصالح حتىٰ من فتحت له الدنيا مغاليقها، يعمل وفي يقينه أن الدنيا مطية الآخرة فيؤدي ما فرض الله من المال ويتجاوز ذلك إلىٰ النوافل عطاء للسائل والمحروم، وصلة للأرحام وإسهاماً في كل عمل يعود علىٰ أمة الإسلام بالخير.

ويبدو أن القضية تتجاوز القناعات العقلية إلىٰ شيء من الذوق يكرم الله به عباده الصالحين، فلذة محبة الله تعالىٰ والشوق إلىٰ لقائه تفوق كل لذة من لذائذ الدنيا الفانية. وإذا وصل المؤمن إلىٰ هذه الدرجة من الذوق اختلفت المقاييس وأصبحت الأعمال كلها لله وبالله وعلىٰ طريق الباقية يوم يقوم الناس لرب العالمين. وترىٰ أن هذا شغلهم الشاغل؛ فالدنيا جسر الآخرة، والكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

قال أبو الحسين الوراق: «حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني، الحياة مع الله تعالىٰ لا غير»[1] أين هذا من اللهاث وراء الدنيا واستغراق الوقت والفكر في جمع حطامها، والاستمتاع بلذائذها؛ وهنيئاً لهؤلاء الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وآخر من العارفين يرثي لحال أهل الدنيا وحرمانهم من ذوق أطيب ما في الدنيا فيقول:

«مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل: وما أطيب ما فيها قال: محبة الله والشوق إلىٰ لقائه والتنعُّم بذكره وطاعته» نعم إنه يرثي لحالهم.. فأين ذوق من ذوق.. وأين قيمة من قيمة، بل وأين مقياس من مقياس.. أجل أين هذا من ذاك.. لا يستويان. ولا يتقاربان.

ويحس أحدهم ـ مما أعطاه الله من ذوق بمحبته ـ وكأنه في الجنة هنا فيقول: «إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

---

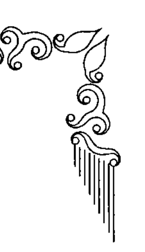
(١) انظر: «الحلية»: ١٠/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

وفي قاعدة سلوكية مستنيرة يقول بعضهم: «والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته». أرأيت إلىٰ هذه القناعة التي تحولت إلىٰ ذوق لحلاوة الإيمان. وذا يذكرنا بقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: **«ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه منه كما يكره أن يعود في النار»**[1].

ولا شكّ أن محبة الله تعالىٰ تنطوي علىٰ محبة الرسول ﷺ لأن محبة الرسول من محبة الله كيف لا وهو رحمة العالمين الذي أنقذنا الله به من الهلكة. وربما عدنا إلىٰ هذا الحديث في قادمات الأيام إن شاء الله، ونسأله تعالىٰ أن يجعلنا من الذين يحبهم ويحبونه وأن يأخذ إلىٰ الخير بناصيتنا، وأن يسلك بنا سبيل أولئك الذين كانت الآخرة مرمىٰ أبصارهم وبصائرهم إنه المتفضل الكريم والرؤوف الرحيم.



(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان رقم (٢١ و٦٩٤١)، باب حلاوة الإيمان وفي أبواب أخر. وأخرجه مسلم في الإيمان، باب خصال الإيمان رقم (٤٣)، والترمذي فيه أيضاً رقم (٢٩٢٦)، والنسائي في الباب نفسه أيضاً، باب حلاوة الإيمان: ٨/٩٦، وأخرجه ابن ماجه في الفتن، باب الصبر علىٰ البلاء رقم (٤٠٣٣).



ربانية.. وتربية(١)

روىٰ أبو نُعيم في «الحلية» بسنده عن محمد بن داود الدينوري قال: سمعت محمد بن الصلت يقول: سمعت بشر بن الحارث(٢) ـ وسئل ـ ما كان من بدء أمرك؟ لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبي؟

قال: هذا من فضل الله وما أقول لكم؛ كنت رجلاً عياراً صاحب عُصبة، فجزت يوماً فإذا أنا بقرطاس في الطريق، فرفعته فإذا فيه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. فمسحته وجعلته في جيبي. وكان عندي درهمان ما كنت أملك غيرهما، فذهبت إلىٰ العطارين فاشتريت بهما غالية ومسحته في القرطاس.

فنمت في تلك الليلة، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول: يا بشر بن الحارث! رفعت اسمنا عن الطريق وطيبتَه، لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة! ثم كان ما كان(٣).

وحكي أن بشراً كان في زمن لهوه في داره، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون. فاجتاز بهم رجل من الصالحين، فدق الباب. فخرجت إليه جارية،

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة، العدد (٦) شعبان ١٣٨٦هـ، تشرين الثاني ١٩٦٦م.

(٢) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمٰن المروزي أبو نصر المشهور والمعروف بـ«بشر الحافي»، كان من كبار العلماء الصالحين، وعلىٰ حال حسنة من الزهد والورع كما تتحدث الأخبار، وهو من ثقات رجال الحديث من أهل «مرو» كانت إقامته ووفاته ببغداد وقد توفي رحمه الله سنة ٢٢٧هـ. لإحدىٰ عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عن ست وسبعين سنة.

(٣) «الحلية»: ٨/ ٣٣٦، «تهذيب الكمال»: ٤/ ١٠٣، «صفة الصفوة»: ٢/ ١٨٣ و١٠/ ١٨١، «البداية والنهاية»: ١٤/ ٢٩١، «السير»: ١٠/ ٤٦٩ فما بعد.

فقال: صاحب هذه الدار حرّ أو عبد؟ فقالت: بل حر! فقال: صدقت لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب.

فسمع بشر محاورتهما فسارع إلىٰ الباب حافياً حاسراً وقد ولّىٰ الرجل. فقال للجارية: ويحك! من كلّمك علىٰ الباب؟ فأخبرته بما جرىٰ. فقال: أي ناحية أخذ هذا الرجل؟ فقالت: كذا. فتبعه بشر حتىٰ لحقه، فقال له: يا سيدي! أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم. قال: أعِد عليّ الكلام. فأعاده عليه. فمرَّغ بشر خديه علىٰ الأرض وقال: أنا عبد! عبد! عبد! ثم هام علىٰ وجهه حافياً حاسراً حتىٰ عُرف بالحفاء. فقيل له: لِمَ لا تلبس نعلاً، قال: لأني ما صالحني مولاي إلا وأنا حاف. فلا أزول عن هذه الحال حتىٰ الممات.

ومن كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: الدعاء ترك الذنوب، إن لم تطع فلا تعصِ، الحلال لا يحتمل السرف.

وفي رواية أخرىٰ عنه أكرم الله مثواه: الدعاء كفارة ـ أو ترك ـ الذنوب: إن لم تطع فلا تعصِ. الحلال لا يحتملُ السرف[1].

* * *

(ومن كلام ذي النون أبي الفيض أو أبي الفياض **المصري** المتوفىٰ سنة ٢٤٥هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله:

إياك أن تكون بالمعرفة مدعياً، وتكون بالزهد محترفاً، وتكون بالعبادة متعلقاً، وفسَّر التعلق بالعبادة بقوله: وإذا علقت بالعبادة قلبك، وظننت أنك تنجو من الله بالعبادة لا بالله، كنت بالعبادة متعلقاً، لا بوليِّها والمنان عليك[2].

وسئل عن المحبة، فقال: أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة

---

(١) ينظر: «الحلية»: (٤٣٥)، «مختصر ابن عساكر» لابن منظور: ٥/ ٢٠١، «طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمٰن السُّلمي: ص٤٥ ـ ٤٦.

(٢) «الحلية»: ٩/ ٣٥٠.

لائم.. مع العطف للمؤمنين، والغلظة على الكافرين، واتباع رسول الله ﷺ في الدين[1].

* * *

ومن كلام أبي علي شقيق البلخي المتوفى سنة ١٩٤هـ رحمه الله قوله:

اتق الأغنياء: فإنك متى عقدت قلبك معهم وطمعت فيهم، فقد اتخذتهم أرباباً من دون الله عز وجل.

الزاهد الذي يقيم زهده بفعله، والمتزهد الذي يقيم زهده بلسانه.

جعل الله أهل طاعته أحياء في مماتهم، وأهل المعاصي أمواتاً في حياتهم.

ليس شيء أحبّ إليّ من الضعيف، لأن رزقه ومؤونته على الله، ولي أجره[2])[3].



(١) انظر: «الحلية»: ٩/ ٣٥٠ فما بعد، «تاريخ بغداد»: ٨/ ٣٩٣. وقد ذكرت هذه الكلمات بمناسبة سبقت.

(٢) انظر: «الحلية»: ٨/ ٦٢، ٦٣، ٦٦، ٦٧، «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ٤/ ١٣٢ فما بعد، «السير»: ٩/ ٣١٤ فما بعد.

(٣) «حضارة الإسلام» السنة الخامسة، العددان (٨، ٩) شوال ـ ذو القعدة ١٣٨٤هـ، شباط ـ آذار ١٩٦٥م.



الشاب المسرف علىٰ نفسه[1]

من أخبار الرباني إبراهيم بن أدهم[2] أن شاباً أتاه فقال: يا أبا إسحاق،

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة، العدد (١)، ربيع الأول ١٣٨٥هـ، تموز ١٩٦٥م.

(٢) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، الإمام الزاهد القدوة العارف سيد الزُّهاد أبو إسحاق العجلي، وقيل: التميمي الخراساني البلخي، نزيل الشام ومحبُّها، سكنها ودخل دمشق. قال شقيق بن إبراهيم: قلت لإبراهيم بن أدهم: تركتَ خراسان؟ قال: ما تهنأت بالعيش إلا في الشام، أفرُّ بديني من شاهق إلىٰ شاهق، فمن رآني يقول: موسوس، ومن رآني يقول جمَّال ـ أو حمَّال ـ.

رویٰ الحديث عن: أبيه والأعمش ومحمد بن زياد صاحب أبي هريرة، وأبي إسحاق السبيعي وخلق. وحدث عنه خلق، منهم: بقيَّة بن الوليد، وسفيان الثوري، وأبو إسحاق الفَزاري، ومحمد بن حمير، وحكىٰ عنه الأوزاعي.

قال أبو عبد الرحمٰن السُّلمي: ومنهم إبراهيم بن أدهم أبو إسحاق، من أهل بلخ، كان من أبناء الملوك والمياسير خرج متصيداً، فهتف به هاتف أيقظه من غفلته، فترك طريقته في التزيُّن بالدنيا، ورجع إلىٰ طريقة أهل الزهد والورع، وخرج إلىٰ مكة، وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض. ودخل الشام، فكان يعمل فيه ويأكل من عمل يده، وبها مات وأسند الحديث، وقائع حياته في الزهد والورع علىٰ صعيد السلوك المتميز المنضبط بضوابط القرآن والسنّة: كثيرة ذات ألوان، ومنهجه في التربية بالقدوة، شأن الربانيين الكبار واضح كل الوضوح، حتىٰ كان أكثر دعائه كما جاء في «الحلية»: اللهم انقلني من ذل معصيتك إلىٰ عزّ طاعتك. وروىٰ أبو نعيم عن سفيان الثوري قال: كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل، ولو كان في الصحابة لكان رجلاً فاضلاً. وقال عبد الله بن المبارك: كان إبراهيم رجلاً فاضلاً، له سرائر، وما رأيته يظهر تسبيحاً ولا شيئاً من عمله، ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يده، ومن ثمين كلامه قوله ﷺ: الزهد ثلاثة؛ واجب ومستحب، وزهد سلامة؛ فالزهد في الحرام: واجب، والزهد في الشهوات الحلال: مستحب، والزهد في الشبهات: زهد سلامة. وقوله: كل سلطان لا يكون عادلاً: فهو واللص بمنزلة سواء، وكل عالِم لا يكون ورعاً: فهو والذئب بمنزلة سواء، وكل من ذل لغير الله: فهو والكلب بمنزلة سواء. ولادته في حدود المئة ووفاته سنة ١٦٢هـ. وينظر: «تهذيب =

إني مسرف علىٰ نفسي، فاعرض عليَّ ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلبي. قال: إن قبلتَ خمس خصال وقدرتَ عليها، لم تضرك معصية، ولم توبقك لذة. قال: هات، يا أبا إسحاق!

قال: أما الأولىٰ، فإذا أردتَ أن تعصيَ الله، فلا تأكل رزقه.

قال: فمن أين آكل وكل ما في الأرض رزقُه؟ قال له: يا هذا!

أفيحسن أن تأكلَ رزقَه وتعصيَه في أرضه؟ قال: لا، هات الثانية!

قال: وإذا أردت أن تعصيَهُ فلا تسكُنْ شيئاً من بلاده.

قال الرجل: هذه أعظم من الأولىٰ! يا هذا! إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟ قال: يا هذا! أفيحسنُ أن تأكلَ رزقه وتسكنَ بلاده وتعصيَه؟ قال: لا، هات الثالثة!

قال: إذا أردت أن تعصيَه وأنت تحت رزقه وفي بلاده، فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له، فاعصه فيه! قال: يا إبراهيم كيف هذا، وهو يطَّلع علىٰ ما في السرائر؟

قال: يا هذا!! أفيحسن أن تأكل رزقه، وتسكن في بلاده، وتعصيه وهو يراك ويرىٰ ما تجاهر به؟ قال: لا، هات الرابعة!

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك، فقل له: أخِّرني حتىٰ أتوبَ توبة نصوحاً، وأعمل لله صالحاً. قال: لا يقبل مني! قال: يا هذا! فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عن نفسك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟! قال: هات الخامسة!

قال: إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلىٰ النار، فلا تذهب معهم. قال: لا يدعونني ولا يقبلون مني. قال: فكيف ترجو النجاة إذاً؟! قال له: يا إبراهيم! حسبي! حسبي! أنا أستغفر الله وأتوب إليه.

= ابن عساكر»: ٢/ ١٧٠ فما بعد، «السير»: ٧/ ٣٨٧ فما بعد، «البداية والنهاية»: ١٣/ ٥١١، «حلية الأولياء»: ٧/ ٢٦٨ حتىٰ ٨/ ٥٨.

ولزمه في العبادة حتىٰ فرَّق الموت بينهما، وسبحان من إليه المرجع والمآب[١].

قلت: وهذه القصة تذكِّر بما روىٰ أبو نعيم في «الحلية» بسنده عن إبراهيم بن بشار قال: «كتب عمر بن المنهال القرشي إلىٰ إبراهيم بن أدهم وهو بالرملة: أن عظني عظةً أحفظها عنك، فكتب إليه: أما بعد: فإن الحزن علىٰ الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنفس منه في كل وقت نصيب، وللبلىٰ في جسمه دبيب؛ فبادر بالعمل قبل أن تنادىٰ بالرحيل، واجتهد في العمل في دار الممر قبل أن ترحل إلىٰ دار المقر»[٢].

وكم كان أبو إسحاق حفياً بالإفادة والتذكير بكلام أهل الصلاح والإصلاح، يقول إبراهيم بن بشار: سمعت إبراهيم يقول: «بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال لخالد بن صفوان: عظني وأوجز فقال خالد: يا أمير المؤمنين، إن أقواماً غرَّهم ستر الله وفتَنَهم حسن الثناء؛ فلا يغلبنَّ جهلُ غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مسرورين، وعما افترض الله علينا متخلفين ومقصرين، وإلىٰ الأهواء مائلين. قال: فبكىٰ ثم قال: أعاذنا الله وإيك من اتباع الهوىٰ»[٣].

وفي تنبيه ما ينبغي أن يكون عليه العالم قال إبراهيم: «كان يقال: ليس شيء أشدَّ علىٰ إبليس من عالم حليم؛ إن تكلَّم تكلَّم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، وقال إبليس: لَسُكوتُه أشدُّ عليَّ من كلامه»[٤].

وروىٰ عبد الرحمٰن بن مهدي عن طالوت: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: «ما صدق عبد أحبّ الشهرة» وكان من تعقيب الذهبي علىٰ ذلك قوله: «قلت: علامة المخلص الذي قد يحبُّ شهرة ولا يشعر بها: أنه إذا عوتب في ذلك، لا يحرد ولا يبرئ نفسه، بل يعترف ويقول: رحم الله من أهدىٰ إليَّ عيوبي، ولا يكن معجباً بنفسه، لا يشعر بعيوبها، بل لا يشعر أنه لا يشعر فإن

---

(١) وينظر: «طبقات الصوفية»: ص٢٧ ـ ٢٨. (٢) «الحلية»: ٨/ ١٧ ـ ١٨.
(٣) المصدر السابق: ٨/ ١٨.
(٤) المصدر السابق: ٨/ ٢٦، «السير»: ٧/ ٣٩٠.

هذا داء مزمن»[1]. ومن ثمين كلامه ـ بلَّغه الله منازل الأبرار ـ قوله: كل حاكم لا يكون عادلاً، فهو واللص سواء، وكل عالم لا يكون تقياً، فهو والذئب سواء، وكل من ذلَّ لغير الله، فهو والكلبُ سواء»[2].

هذا: ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن أبا إسحاق ـ وهو القدوة الربانيُّ ـ كان دائم المشاركة في الغزو والجهاد[3] في سبيل الله، وأنه مات مرابطاً بجزيرة من جزائر بحر الروم. ثم إنه لم يقصر في مخالطة المسلمين، والدعوة بالقول والعمل، حتىٰ إن الأوزاعي سئل أيهما أحب إليك؟ إبراهيم بن أدهم أو سليمان الخواص؟ قال: إبراهيم بن أدهم أحبّ إليّ لأن إبرهيم يخالط الناس وينبسط إليهم.



(١) «تاريخ دمشق»: ٦/ ٣٤٩، «سير أعلام النبلاء»: ٧/ ٣٩٣.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ٣٩٤.

(٣) وانظر: «الحلية»: ٨/ ٦ ـ ٨، وبقية المصادر.



وصايا عظيمة.. في كتاب(١)

روىٰ أبو نُعيم في «الحلية» بسنده عن أبي سهل الحسن قال: كنت جالساً عند يوسف بن أسباط(٢) فقال: اكتبوا إلىٰ حذيفة المرعشي ـ وكان علىٰ علم كبير حسن ـ:

أما بعد: فإني أوصيك بتقوىٰ الله، والعمل بما علّمك الله، والمراقبة حيث لا يراك أحد إلا الله، والاستعداد لما لا حيلة لأحد في دفعه، ولا ينتفع بالندم عند نزوله.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة العاشرة، العدد (٨)، شوال ١٣٨٩هـ، كانون الأول ـ كانون الثاني ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠م.

(٢) هو يوسف بن أسباط أبو محمد، من قرية يقال لها: سيح، من كبار الزهّاد وسادات المشايخ. قال فيه أبو نُعيم: «ومنهم ذو الجد والنشاط، والمستبق إلىٰ الصراط، يوسف بن أسباط، كان العلم والخشية شعاره، والتحلي عن فضول الدنيا دثاره». وقال السري السقطي: «أربعة كانوا في الدنيا أعملوا أنفسهم في طلب الحلال، فلم يُدخلوا أجوافهم إلا الحلال؛ فقيل له: من هم؟ فقال: وُهيب بن الورد، وشُعيب بن حرب، ويوسف بن أسباط، وسليمان الخواص». من أقواله ﷺ: اللهمّ عرّفني نفسي ولا تقطع رجاءك من قلبي. ومن ثمين كلامه: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يعصىٰ الله. ومن أخلاقه الربانية: أنه كان إذا أُتي بباكورة ثمرة غسلها ثم وضعها بين يديه وقال: إن الدنيا... إليها، وإنما خلقت لينظر بها إلىٰ الآخرة. وقال جعفر الرقي: كتبت إلىٰ يوسف في مسائل، فكتب في جوابها: «... أن العارف بالله هو المطيع لله في جميع ما عرفه، ... الذي يخاف من حسناته أن لا تقبل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ..﴾ قال: يعطون ما أعطوا وهم يخافون أن لا يتقبل منهم». فقال أكرم الله مثواه: «لأن تقطع يدي ورجلي أحبُّ إليَّ من أن آكل من ذا المال شيئاً ـ يعني: عطية الأمراء ـ». روىٰ عن: الثوري وآخرين وروىٰ عنه: المسيب بن واضح وخلق. وينظر: «الحلية»: ٨/ ٢٤٠ فما بعد، «المنتظم» لابن الجوزي: ١٠/ ٨١، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٧١، «السير»: ٩/ ١٧٠ فما بعد، «صفة الصفوة»: ٤/ ٢٣٤.

فاحسر عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الموتىٰ، وشمر للسباق غداً، فإن الدنيا ممرٌّ ـ أو ميدان ـ المتسابقين!

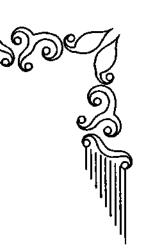
ولا تكن ممن قد أظهر الشك، وتشاغل بالوصف، وترك العمل بالموصوف له، فإن لنا ولك من الله مقاماً يسألنا فيه عن الرمق الخفي، وعن الخليل الجافي....

واعلم أن مما يوصف به منافقو هذه الأمة أنهم خالطوا أهل الدين بأبدانهم، وفارقوهم بأهوائهم، وخففوا مما سعوا من الحق، ولم ينتهوا عن خبيث فعالهم؛ إذ ذهبوا إليه فنازعوا في ظاهر أعمال البر بالمحامل والرياء، وتركوا باطن أعمال البر مع السلامة والتقىٰ، كثرت أعمالهم بلا تصحيح، فحرمهم الله من الثمن الربيح...

واعلم يا أخي أنه لا يجزينا من العمل القول.. ولا من التوقي التلاوم. وقد صرنا في زمن هذه صفة أهله، فمن يكن كذلك فقد تعرض للمهالك[1].



(١) «الحلية»: ٨/ ٢٤١.



تحذير.. يا له من تحذير!![1]

كتب محمد بن يوسف[2] إلىٰ أخيه عبد الرحمٰن بن يوسف كتاباً جاء فيه:

سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إلـٰه إلا هو.

أما بعـد: فإني أحذرك متحوَّلَك من دارِ مهلتك إلىٰ دار إقامتك وجزاءِ

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة، العدد (٩)، ذو القعدة ١٣٨٦هـ، شباط ١٩٦٧م.

(٢) ابن معدان أبو عبد الله الأصبهاني، أدرك التابعين، واشتغل ـ مع العلم ـ بالتعبُّد، وكان ابن المبارك يسميه: عروس الزهاد. وقد حملت ترجمته كثيراً من الثناء عليه والاعتراف بفضله، من كبار العلماء العاملين أمثال: عبد الرحمٰن بن المهدي ويحيىٰ بن سعيد القطان. وقد روي أن يحيىٰ بن سعيد قال: ما رأيت رجلاً قط خيراً من محمد بن يوسف ـ يعني: من طبقته وقرنائه ـ فقال أحمد بن حنبل ﷺ: يا أبا سعيد هذا الرجل الذي يكثر ذكره علماً وفضلاً؟ قال: علماً وفضلاً. وقال ابن المهدي: ما رأيت مثله، وهذا لا يغضُّ من قدر الآخرين، ولكن للفضل جوانب نيِّرات. عندما قال يحيىٰ القطان مرة: ما رأيت خيراً من محمد بن يوسف: ذكر له الثوري فقال: هذا شيء وهذا شيء. ومن كلماته الثمينة في التربية: ما روىٰ أبو نعيم أن سعيد بن الغفار قال: قلت لمحمد بن يوسف: أوصني، قال: إن استطعت أن لا يكون شيء أهمَّ إليك من ساعتك فافعل. وحدث يوسف بن زكريا قال: كان محمد بن يوسف لا يشتري زاده من خباز واحد ولا من بقّال واحد، قال: لعلهم يعرفونني فيحابونني، فأكون ممن يعيش بدينه. وقال الإمام الذهبي مثنياً علىٰ كثرة قيامه الليل، ومرابطته في سبيل الله، وكان لا يضع جنبه، وقد رابط وزار قبر أبي إسحاق الفزاري. وكان يأتيه من عند أهله في أصبهان سبعون ديناراً، فيحج ويرجع إلىٰ الثغر ﷺ. ومن التقادير الإلـٰهية في تكريمه: أنه خرج في جنازة بالمصيصة، فنظر إلىٰ قبر أبي إسحاق الفزاري ومخلد بن الحسين وبينهما موضع قبر، فقال: لو أن رجلاً مات فدفن بينهما. فما أتت عليه عشرة أيام أو نحوها حتىٰ دفن في الموضع الذي أشار إليه، توفي سنة ١٨٤هـ وهو دون الأربعين. وينظر: «الحلية»: ٨/ ٢٢٥، «المنتظم»: ٩/ ١٠٠. «السير»: ٩/ ١٢٥.

أعمالك، فتصيرَ في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها، فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك، فإن يكن الله معك: فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك: فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع، وضيق مضجع.

ثم يتبعك صيحة الحشر ونفخ الصور، وقد قام الجبار بعد فصل القضاء للخلائق، فخلت الأرض من أهلها، والسماوات من سكانها فبادرت الأسرار، وسعِّرت النار، ووضعت الموازين ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر].

فكم من مفتضح ومستور، وكم من هالك وناج، وكم من معذب ومرحوم... فيا ليت شعري: ما حالي وحالك يومئذ!!!

ففي هذا ما هذم اللذات، وسلا عن الشهوات، وقصر الأمل، واستيقظ الباغون، وحذر الغافلون، أعاننا وإياك علىٰ هذا الخطر العظيم، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعها بين قلوب المتقين، فإنما نحن به وله[١].

خوف... وأمن

روي عن محمد بن النضر قال: ذكر رجل عند الإمام الرباني التابعي الجليل الربيع بن خثيم المتوفىٰ سنة خمس وستين فقال: «ما أنا عن نفسي براض، فأتفرغ منها إلىٰ آدمي غيرها، إن العباد خافوا الله في ذنوب غيرهم، وأمنوه علىٰ ذنوب أنفسهم»[٢].



(١) «الحلية»: ٨/ ٢٣٦. وينظر: «صفة الصفوة»: ٤/ ٦٢.

(٢) وينظر: «الحلية»: ٢/ ١٠٧، «صفة الصفوة»: ٣/ ٣١.



شذرات من كلام أهل القلوب[1]

مع الرباني سفيان بن عيينة أبي محمد الذي قال فيه الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لولا مالك وسفيان بن عيينة لذهب علم الحجاز، والمتوفىٰ سنة ثمان وتسعين ومئة للهجرة.

في تحذير من البدع وأصحابها يقرر سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ استنباطاً من القرآن الكريم أن الذلة تلازم صاحب البدعة فيقول:

«ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه، قال: وهي في كتاب الله، قالوا: وأين هي من كتاب الله؟ قال: أما سمعتم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ١٥٢] قالوا: يا أبا محمد هذه لأصحاب العجل خاصة. قال: كلا، اتلوا ما بعدها ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢] فهي لكل مفتر ومبتدع إلىٰ يوم القيامة»[2].

وفي ترغيب المؤمنين بالطاعة وأن تكون استجابتهم استجابة ذاتية، بهمة عالية وعزيمة صادقة قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتىٰ يدعىٰ، ائت الصلاة قبل النداء». وقال: «إن من توقير الصلاة أن تأتيَ قبل الإقامة»[3].

وسفيان بن عيينة وهو الذي ذاق حلاوة العمل بالعلم، الأمر الذي جعله ممتلئ القلب بخشية الله عَزَّ وَجَلَّ، كان يرىٰ دائماً أن حجة الله قائمة علىٰ عباده ـ علىٰ مختلف الأحوال ـ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك: «ليس من عباد الله أحد إلا ولله الحجة عليه، إما في ذنب، وإما في نعمة هو مقصر في شكرها»[4].

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة، العدد (٩)، ذو القعدة ١٣٨٨هـ، شباط ١٩٦٩م.

(٢) «الحلية»: ٧/ ٢٨٠.

(٣) المصدر السابق: ٧/ ٢٨٥، «صفة الصفوة»: ٢/ ١٣٢.

(٤) «الحلية»: ٧/ ٢٨٥.

وفي بيان لقيمة جهاد النفس وتهذيبها وتوطينها علىٰ الاستجابة الصادقة لأوامر الله قال رَحِمَهُ اللهُ: «كان يقال: الجهاد عشرة، فجهاد العدو واحد، وجهادك نفسك تسعة»[1].

وقال في العلم والعلماء: «بلغنا عن ابن عباس أنه قال: لو أن حملة العلم أخذوه بحقه وما ينبغي؛ لأحبهم الله وملائكته والصالحون، ولهابَهم الناس، ولكن طلبوا به الدنيا، فأبغضهم الله وهانوا علىٰ الناس»[2].



(١) «الحلية»: ٧/ ٢٨٤.

(٢) «الحلية» لأبي نعيم: ٧/ ٢٨٠ و٢٨٥. وينظر: «الطبقات» لابن سعد: ٥/ ٤٩٧، «صفة الصفوة»: ٢/ ١٣٢، «السير»: ٢/ ٤٠٤ فما بعد.



مالك يعظ بعض الخلفاء[1]

جاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض: «وقال ابن نافع الصائغ: كتب مالك بن أنس إلىٰ بعض الخلفاء كتاباً جاء فيه:

«اعلم أن الله تعالىٰ قد خصك من موعظتي إياك بما نصحتك به قديماً وأتيت لك فيه ما أرجو أن يكون الله تعالىٰ جعله لك سعادة وأمراً جعل به سبيلك إلىٰ الجنة. فلتكن رحمنا الله وإياك فيما كتبت إليك مع القيام بأمر الله وما استرعاك الله في رعيته، فإنك المسؤول عنهم صغيرهم وكبيرهم. وقد قال النبي ﷺ: **«كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»**[2]. وروي في بعض الحديث: **«أنه يؤتىٰ بالوالي ويده مغلولة إلىٰ عنقه، فلا يفك عنه إلا العدل»**.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه يقول: والله إن هلكت سخلة بشط الفرات ضياعاً لكنت أرىٰ الله سائلاً عنها عمر. وحج عشر سنين، وبلغني أنه كان ما ينفق في حجه إلا اثني عشر ديناراً.

وكان ينزل في ظل الشجرة ويحمل علىٰ عنقه الدرة ويدور في الأسواق يسأل عن أحوال من حضره وغاب عنه. وبلغني أنه وقْتَ أُصيب: حضر أصحاب النبي ﷺ فأثنوا عليه، فقال: المغرور من غررتموه، لو أن ما علىٰ الأرض ذهباً لافتديت به من أهوال المطَّلع.

فعمر رحمه الله تعالىٰ كان مسدداً موفقاً مع ما قد شهد له النبي ﷺ بالجنة، ثم مع هذا خائف لما تقلد من أمور المسلمين؛ فكيف من قد علمت.

(١) «حضارة الإسلام»، السنة العاشرة، العدد (٢)، ربيع الآخر ١٣٨٩هـ، تموز ١٩٦٩م.
(٢) من حديث طويل أخرجه البخاري (٨٩٣) من رواية ابن عمر ﵄.

فعليك بما يقربك إلىٰ الله إلىٰ الله وينجيك منه غداً، واحذر يوماً لا ينجيك فيه إلا عملك. ويكون لك أسوة بما قد مضىٰ من سلفك، وعليك بتقوىٰ الله، فقدمها حيث هممت، وتطلع فيما كتبت به إليك في أوقاتك كلها وخذ به نفسك فتعاهدها في الأخذ به والتأديب عليه واسأل الله التوفيق والرشاد إن شاء الله تعالىٰ»[1].



(١) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك»: ١/٢١٦ تحقيق د. أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة.



هكذا تكلموا[1]

عزاء

كان أبو بكر الصديق ﷺ إذا عزىٰ رجلاً قال: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، الموت أشد ما قبله، وأهون ما بعده، اذكروا فقْدَ رسول الله ﷺ تهن عندكم مصيبتكم. صلىٰ الله علىٰ محمد وعظّم الله أجركم.

فتنة

عن علقمة عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كيف أنتم إذا لبستم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتتخذ سنة مبتدعة يجري عليها الناس، فإذا غيّر منها شيء قيل: قد غيّرت السنّة، قيل: متىٰ يا أبا عبد الرحمٰن؟ قال: إذا كَثُر قرّاؤكم، وقلّ فقهاؤكم، وكَثُر أمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقّه لغير العمل[2].

رغَّبك... وزهَّدك...

قال سعيد بن المسيب: مر بي صِلة بن أشيم، فما تمالكت أن نهضت إليه فقلت: يا أبا الصهباء ادع الله لي، فقال: رغَّبك الله فيما يبقىٰ، وزهَّدك فيما يفنىٰ، ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه ولا تعوِّل في الدين إلا عليه[3].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة، العدد (٩)، ذو القعدة ١٣٨٥هـ، آذار ١٩٦٦م.

(٢) «الحلية»: ١/١٣٦.

(٣) ينظر المصدر السابق: ٢/٢٤١ ـ ٢٤٢.

دعــاء

كان من دعاء إبراهيم التيميِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اللهم اعصمني بكتابك وسنّة نبيك من اختلاف الحق، ومن اتباع الهوىٰ بغير هدىً منك، ومن سبل الضلالة، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ واللبس»(١).



(١) «الحلية»: ٤/ ٢١٢.

فكيف وقد حذَّرك[1]

من كلمات ذي النون رَحِمَهُ اللهُ قوله: «لله عباد تركوا الذنب استحياءً من كرمه، بعد أن تركوه خوفاً من عقوبته. ولو قال لك: «اعمل ما شئت، فلست آخذك بذنب» كان ينبغي أن يزيدك كرمه استحياءً منه، وتركاً لمعصيته. إن كنت حراً كريماً عبداً شكوراً. فكيف وقد حذرك؟!»[2].

تناقض... والزهد

قال حاتم الأصم رَحِمَهُ اللهُ: «عجبت ممن يعمل بالطاعات، ويقول: إني أعمل ابتغاء مرضاة الله، ثم تراه أبداً ساخطاً علىٰ الله رادّاً لحكمه: أتريد أن ترضيه ولست براضٍ عنه؟! كيف يرضىٰ عنك، وأنت لم ترض عنه؟!». وجاء رجل إلىٰ حاتم فقال: يا أبا عبد الرحمٰن: أيُّ شيء رأس الزهد ووسط الزهد، وآخر الزهد؟ فقال: «رأس الزهد الثقة بالله. ووسطه الصبر، وآخره الإخلاص»[3].

أمــانـة

تكلم قوم يوماً بين يدي أبي صالح حمدون في حفظ الأمانات فقال: «قد تحمَّلت من الأمانة، ما لو اشتغلتَ به لشغلك عن كل أمانة بعدها» يعني قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة، العدد (١٠)، ذو الحجة ١٣٨٨هـ، شباط ـ آذار ١٩٦٩م.

(٢) وانظر: «الحلية»: ٩/ ٣٣٩ و٣٤٣ و٣٤٩ و٣٦٠.

(٣) «تاريخ بغداد» للخطيب ٨/ ٢٤١. وانظر: «الحلية»: ٨/ ٧٣ فما بعد.

لو سئل الطمع..

قال محمد بن حامد أبو بكر الوراق، أو الترمذي المتوفىٰ سنة ٢٤٠هـ: لو قيل للطمع: من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور. ولو قيل: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل. ولو قيل: ما غايتك؟ لقال: الحرمان[١].

السُّنَّة... وأهل المحبة

وفي بيان لأثر السُّنَّة في السلوك قال رَحِمَهُ اللهُ: «لم يجد أحد تمام الهمَّة بأوصافها إلا أهل المحبة. وإنَّما وجدوا ذلك من اتباع السنّة، ومجانبة البدعة فإن رسول الله كان أعلىٰ الخَلق همّة وأقربهم زلفة»[٢].



(١) «الحلية»: ١٠/٣٦٢.

(٢) انظر: «طبقات الصوفية» للسُّلمي: ص٢٨٢، «الحلية»: ١٠/٢٣٦، «طبقات الأولياء» لابن الملقن: ص٣٧٤.



هل كانوا يضحكون؟[1]

عن قتادة قال: سئل ابن عمر ﵄: هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون؟ قال: نعم! والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال[2].

صلاح... فتنة

قال أبو بكر بن طاهر: «احتياج الأشرار إلىٰ الأخيار صلاح الطائفتين واحتياج الأخيار إلىٰ الأشرار فتنة الطائفتين»[3].

موازين...

وقال محفوظ النيسابوري: «لا تزن الخلق بميزانك، وزِنْ نفسك بميزان المؤمنين، لتعلم فضلهم وإفلاسك».

وقال: «أكثر الناس خيراً أسلمُهم صدراً للمسلمين»[4].

إيمان... وسلوك... وخوف

وعن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل ـ يعني ابن عياض ـ يقول: «يا سفيه ما أجهلك ألا ترضىٰ أن تقول: أنا مؤمن، حتىٰ تقول: أنا مستكمل الإيمان؟ لا والله لا يستكمل العبد الإيمان حتىٰ يؤدي ما افترض الله تعالىٰ عليه ويجتنب ما حرم الله تعالىٰ عليه، ويرضىٰ بما قسم الله تعالىٰ له، ثم يخاف مع ذلك أن لا يتقبل منه»[5].

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السابعة، العدد (٧)، رمضان ١٣٨٦هـ، كانون الثاني ١٩٦٦م.

(٢) «الحلية»: ١/٣١١.

(٣) وينظر: «الحلية»: ١٠/٣٥٢.

(٤) «الحلية»: ١٠/٣٥١.

(٥) المصدر السابق: ٨/٩٥ و١٠٠. وانظر: «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ٢/١٣٦.

رباني.. يعظ الخليفة سليمان بن عبد الملك[1]

دخل سليمان بن عبد الملك المدينة، فأقام بها ثلاثاً، فقال: ما هاهنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ يحدثنا؟ فقيل له: هاهنا رجل يقال له: أبو حازم[2] ـ المتوفىٰ عام ١٤٠ أو ١٤٤هـ ـ فبعث إليه فجاء.

فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ فقال له أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين؟ فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني؟! فقال: ما جرىٰ بيني وبينك معرفة آتيك عليها قال: صدق الشيخ، يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلىٰ الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم علىٰ الله تعالىٰ؟ قال: أما المحسن: فكالغائب يقدم علىٰ أهله فرحاً مسروراً، وأما المسيء فكالآبق يقدم علىٰ مولاه خائفاً محزوناً؛ فبكىٰ سليمان وقال: ليت شعري ما لنا عند لله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: اعرض نفسك علىٰ كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله.

قال: يا أبا حازم، وأين أصيب تلك المعرفة من كتاب الله؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار] قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف] قال: يا أبا حازم، من أحمق الناس؟ قال: من حطّ نفسه في هوىٰ رجل وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره. قال: يا أبا حازم، فما أسمع الدعاء؟ قال: دعاء المخبتين. قال: فما أزكىٰ الصدقة؟ قال: جهد المقل.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الرابعة عشرة، العددان (٨ و٩)، شوال ـ ذو القعدة ١٣٩٣هـ، تشرين الثاني ـ كانون الأول ١٩٧٣م.

(٢) وهو سَلَمة بن دينار، الزاهد العابد إمام المدينة وشيخها وقاضيها.

قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن عليه؟ قال: اعفني من هذا. قال سليمان: نصيحة تلقيها. قال أبو حازم: إن ناساً أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدماء علىٰ طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائهم: بئس ما قلت يا شيخ، فقال أبو حازم: كذبت. إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال سليمان: يا أبا حازم، أصبحنا تصيب منّا ونصيب منك. قال: أعوذ بالله من ذلك. قال: وَلِمَ؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقني ضعف الحياة، وضعف الممات.

قال: فأشر عليّ. قال: اتق الله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك.

قال: يا أبا حازم، ادع لنا بخير. فقال: اللهم إن كان سليمان وليّك فيسّره للخير، وإن كان غير ذلك، فخذ إلىٰ الخير بناصيته. فقال: يا غلام هات مائة دينار، ثم قال: خذ هذا يا أبا حازم. قال: لا حاجة لي به، لي ولغيري في هذا المال أسوة، فإن واسيت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي. فكأن سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط، فقال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيتني. قال الزهري: أتشتمني؟ قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أن للجار علىٰ الجار حقاً؟

قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا علىٰ الصواب كانت الأمراء تحتاج إلىٰ العلماء وكانت العلماء تفرُّ بدينها منهم، فلما رأىٰ ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم، وأتوا به الأمراء واجتمع القوم علىٰ المعصية، فسقطوا وانتسكوا، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم لم تزل الأمراء تهابهم.

قال الزهري: كأنك إيايَ تريد وبي تعرِّض؟ قال: هو ما تسمع[١].

(١) وانظر: «الحلية»: ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧، «صفة الصفوة»: ٢/ ٨٨ ـ ٩١، «المنتظم»: ٨/ ٣٢، «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٩٦.

طائفة من أخبار أبي حازم

وَبَعْـدُ: فقد آن نقف علىٰ شيء من أخبار هذا الرجل الرباني أبي حازم صاحب هذا الحوار مع سليمان بن عبد الملك، الحوار الذي كان سداه ولحمته المناصحةَ الأمينة، والمصارحةَ الشجاعة في أدب رفيع ووضع للأمور مواضعها بالدليل؛ طاعةً لله ﷻ، وعملاً بهدي النبي عليهِ الصلاة والسلام في قوله، كما جاء في الحديث الصحيح: «**الدين النصيحة**...» الحديث.

فهو سلمة بن دينار المخزومي المديني، ويقال له: الأعرج، الإمام القدوة الواعظ، عالم المدينة النبوية الزاهد الرباني، وقاضيها، وشيخها الصدَّاع بالحق، والقاصُّ في مسجدها[1]: أبو حازم الذي أوتي الحكمة في خطاب القلب والعقل علىٰ صعيد الوعظ والتذكير، فكان هذا الخطاب بالغ الفعالية والتأثير. روىٰ أبو نعيم في «الحلية» بسنده عن سفيان بن عيينة عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم قال: «ما رأيت أحداً الحكمةُ أقربُ إلىٰ فيه من أبي حازم»[2].

وكان ـ وهو فيما يبدو من أهل الآخرة الذين لا يخافون في الله لومة لائم ـ لا يني يناصح العامة والخاصة بالكلمة والقدوة، طمعاً في مرضاة الله تعالىٰ، وأداءً لأمانة العلم في هذه السبيل.

ولد ﵀ في أيام ابن الزبير وابن عمر، وروىٰ عن: سهل بن سعد، وأبي أمامة بن سهل، وسعيد بن المسيب، وأم الدرداء، وآخرين.

وروىٰ عنه: ابن شهاب الزهري، ويزيد بن عبد الله بن الهاد، وعُمارة بن غُزيَّة، والسفيانان ابن عيينة والثوري، ومالك، وعبد العزيز بن أبي حازم، وخلق سواهم.

قال ابن سعد: كان يقص بعد الفجر وبعد العصر في مسجد المدينة، ومات في خلافة أبي جعفر، بعد سنة أربعين ومئة. قال: وكان كثير الحديث[3]. وقال

(١) انظر: «الحلية»: ٣/ ٢٢٩ فما بعد، «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٩٦، «صفة الصفوة»: ٢/ ٨٨.

(٢) ينظر: «تاريخ ابن عساكر»: ٢٢/ ٢١، «السير» ٦/ ١٠١.

(٣) «تذكرة الحفاظ» للذهبي: ١/ ١٣٣.

يحيىٰ بن معين: مات سنة أربع وأربعين ومائة[١]، ورجح ابن الجوزي وفاته سنة إحدىٰ وأربعين ومئة[٢]. وقال الإمام الذهبي: «قلت: آخر من حدث عنه: أنس بن عياض الليثي، وحديثه في الكتب الستة»[٣] وقد قدم دمشق كما يقول الحافظ ابن عساكر[٤].

من آرائه وكلماته النفيسة:

يقول: «نعمة الله فيما زُوِيَ عني من الدنيا، أعظم من نعمته فيما أعطاني منها؛ لأني رأيته أعطاها قوماً فهلكوا». وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شيئان إذا عملت بهما، أصبتَ خير الدنيا والآخرة؛ لا أُطوِّل عليك، قيل: ما هما؟ قال: تحمل ما تكره إذا أحبه الله، وتترك ما تحب إذا كرهه الله»[٥] ويقول: «من عرف الدنيا، لم يفرح برضاء، ولم يحزن علىٰ بلوىٰ»[٦]. وحدَّث ابن عيينة أن أبا حازم كان ينشد هذين البيتين:

الدهر أدّبني والصبر ربّاني ... والقوت أقنعني واليأس أغناني
وأحكمتني من الأيام تجربة ... حتىٰ نَهيت الذي قد كان ينهاني[٧]

وفي أداء لأمانة المناصحة إحقاقاً للحق: نقرأ ما روىٰ صاحب «الحلية» عن سفيان بن عيينة قال: «دخل أبو حازم علىٰ أمير المدينة، فقال له: تلكم. فقال له: انظر الناس ببابك؛ إن أدنيت أهل الخير: ذهب أهل الشر، وإن أدنيت أهل الشر: ذهب أهل الخير»[٨].

ومن كلماته العِذاب قوله: «ليس للملوك صديق، ولا للحسود راحة، والنظر في العواقب تلقيح للعقول». قال ابن عيينة: فذاكرت الزهريَّ بهذه

---

(١) «السير»: ٦/ ١٠١.
(٢) «المنتظم» لابن الجوزي: ٨/ ٣٢.
(٣) «السير»: ٦/ ١٠١. وانظر: «تاريخ ابن عساكر»: ٢٢/ ٧١.
(٤) «ابن عساكر»: ٢٢.
(٥) «الحلية»: ٣/ ٢٤١، «السير»: ٦/ ٩٨. (٦) «الحلية»: ٣/ ٢٣٩.
(٧) «تاريخ ابن عساكر»: ٢٢/ ٦٦.
(٨) «الحلية»: ٣/ ٢٤٠، «السير»: ٦/ ١٠٠.

الكلمات فقال: كان أبو حازم جاري، وما علمت أنه يحسن مثل هذه الكلمات[1].

وفي نهج تربوي لإعداد الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثىٰ: نقرأ ما روىٰ عبيد الله بن عمر عن أبي حازم قال: «لا تكون عالماً حتىٰ يكون فيك ثلاث خصال؛ لا تبغ علىٰ من فوقك، ولا تحقر من دونك، ولا تأخذ علىٰ علمك دنيا»[2].

قلت: كأني أرىٰ أنه يعني بقوله: «لا تكون عالماً» العالم الرباني!!

وروىٰ يونس بن يحيىٰ الأموي أبو نباتة عن محمد بن مطرِّف قال: «دخلنا علىٰ أبي حازم الأعرج لما حضره الموت، فقلنا: يا أبا حازم كيف تجدك؟ قال: أجدني بخير، راجياً لله حستن الظن به. ثم قال: إنه والله ما يستوي عن غدا أو راح يعمر عقد الآخرة لنفسه فيقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموت حتىٰ يقدم عليها، فيقوم لها وتقوم له، ومن غدا أوراح في عقد الدنيا يعمرها لغيره، ويرجع إلىٰ الآخرة لا حظَّ له فيها ولا نصيب»[3]!! أجل: لا يستويان.

وانظر إلىٰ تجلية هذه الحقيقة الغائبة عند الكثيرين! حدَّث ضمرة بن ربيعة عن ثوابة بن رافع قال: قال أبو حازم: «وما إبليس؟ والله لقد عُصي فما ضر، ولقد أطيع فما نفع». وعنه أيضاً قال: «ما الدنيا؟ ما مضىٰ منها فحُكُم، وما بقي منها فأماني»[4].

وفي تنبيه علىٰ سوء ما يكون من علماء السوء بابتعادهم عن العمل بالعلم يقول فيما روىٰ عنه سفيان بن عيينة: «إذا كنت في زمان ترضىٰ فيه من العلم: بالقول، ومن العمل: بالعلم: فأنت في شرِّ زمان وشرِّ أناس»[5].

وها هو ذا يذكِّرك حين يتكلم عن الدنيا ومعرفتها بقولهم: «علىٰ الخبير

---

(١) «ابن عساكر»: ٢٢/ ٦٤ ـ ٦٥، «السير»: ٦/ ٩٧.
(٢) «السير»: ٦/ ٩٨.
(٣) «ابن عساكر»: ٢٢/ ٧١، «الحلية»: ٣/ ٢٤١ ـ ٢٤٢، «السير»: ٦/ ٩٩.
(٤) وانظر: «الحلية»: ٣/ ٢٤٥، «السير»: ٦/ ٩٩.
(٥) «ابن عساكر»: ٢٢/ ٥٥.

وقعت» إذ يقول بإيجاز بديع: «من عرف الدنيا: لم يفرح فيها برخاء، ولم يحزن على بلوى» ترى هل يشك عاقل في صحة انتماء هذه الكلمات إلى نور قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران] ما أحسب ذلك! وسبحان الهادي إلى سواء السبيل[1].

(١) انظر: «الحلية»: ٣/ ٢٣٩.

طاوس بن كيسان..
والشجاعة في قول الحق(١)

ذكروا أن هشام بن عبد الملك قدم حاجاً إلىٰ بيت الله الحرام، فلما دخل الحرم قال: ايتوني برجل من الصحابة، فقيل: يا أمير المؤمنين قد ماتوا. قال: فمن التابعين، فأُتي بطاووس اليماني.

فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بإمرة المؤمنين ولم يكنه، وجلس إلىٰ جانبه بغير إذنه، وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام من ذلك غضباً شديداً حتىٰ همّ بقتله. فقيل له: أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسول الله ﷺ، لا يكون ذلك ـ أو لا يمكن ذلك ـ. فالتفت إلىٰ طاووس وقال له: ما حملك علىٰ ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟ ـ فاشتد غضبه وغيظه وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلم بإمرة المؤمنين، ولم تكنني، وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت: يا هشام كيف أنت؟!

فقال له طاووس: أما خلع نعلي بحاشية بساطك: فإني أخلعه بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات، ولا يعاتبني ولا يغضب عليّ.

وأما قولك: لم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين، فليس كل المؤمنين راضياً بإمرتك فخفت أن أكون كاذباً.

وأما قولك: لم تكنني فإن الله ﷻ سمىٰ أنبياءه فقال: يا داود، يا يحيىٰ، يا عيسىٰ، وكنىٰ أعداءه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾

وأما قولك: جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر إلىٰ رجل من أهل النار، فانظر إلىٰ رجل جالس وحوله قوم قيام. . .

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة، العدد (٢)، ربيع الآخر ١٣٨٥هـ، آب ١٩٦٥م.

فقال له: عظني، فقال له: سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته!

ثم قام فخرج، فوقف له هشام وجميع من في مجلسه[1].

* * *

وبعد: فلنأت بعد هذه القصة التي استبان فيها الجدال بالتي هي أحسن، وتجلَّت من خلالها شجاعة هذا التابعي الرباني في الجهر بكلمة الحق: فلنأت ـ بعد الذي رأينا من قبل ص٨٧ ـ علىٰ بعض من أخباره، وفضائله التي ازدانت بها حياته رَحِمَهُ اللهُ وأعلىٰ مقامه في الآخرين.

فهو الفقيه القدوة، الحافظ عالم اليمن وواحد من سادات التابعين، وكان جليل القدر، نبيه الذكر، أبو عبد الرحمـٰن الخولاني الهمداني اليمني، من أبناء الفرس، مولاه ـ كما يقول الذهبي ـ في دولة عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أو قبل ذلك، عُرف بالعلم والعمل والتنسك والصدع بالحق حتىٰ قال قيس بن سعد: «كان طاووس فينا مثل ابن سيرين فيكم» وفي رواية: هو فينا مثل ابن سيرين في أهل البصرة[2].

سمع من عدد كبير من الصحابة عليهم الرضوان؛ منهم: زيد بن ثابت، وعائشة أم المؤمنين، وأبو هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وقد لازم ابن عباس مدة غير يسيرة، وهو معدود في كبراء أصحابه.

قال سفيان بن عيينة: قلت لعبيد الله بن أبي يزيد: مع من كنت تدخل علىٰ ابن عباس؟ قال: مع عطاء وأصحابه قلت: وطاووس؟ قال: أَيْهاتَ! ذاك كان يدخل مع الخواص. وفي رواية: أن عبيد الله قال: مع عطاء والعامة، وكان طاووس يدخل مع الخاصة[3].

هذا: وقد روىٰ طاووس أيضاً عن جابر بن عبد الله، وسراقة بن مالك، وصفوان بن أميَّة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وآخرين.

---

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان: ٢/ ٥٠٩. وانظر: «المنتظم» لابن الجوزي: ٧/ ١١٦، «الحلية»: ٤/ ١٥ فما بعد.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ»: ٥/ ٥٤١، «السير»: ٥/ ٣٩.

(٣) «صفة الصفوة»: ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤، «السير»: ٥/ ٤٦، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٥٠٩.

كما روىٰ عنه من التابعين: عطاء، وعمرو بن دينار، والزهري، وأبو الزبير المكِّي، وجماعة آخرون من أقرانه وابنه عبد الله وقيس بن سعد المكي وخلق سواهم[1].

ومن فضائله: أنه مع سعة روايته وعطائه: متفق علىٰ حجِّيته. قال الإمام الذهبي: «وحديثه في دواوين الإسلام وهو حجة باتفاق» وحدث سفيان بن عيينة عن حبيب بن أبي ثابت قال: قال لي طاووس: إذا حدثتك حديثاً فقد أثبتُّه لك، فلا تسأل عنه أحداً غيري. وفي كلام للزهري عن طاووس قال: لو رأيت طاووساً علمت أنه لا يكذب[2]. وروىٰ عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إني لأظن طاووساً من أهل الجنة»[3].

ومن تلك الفضائل: مواقفه الشجاعة في الصدع بالحق؛ كما رأينا في القصة السابقة. ومن ذلك ما روىٰ أبو عاصم النبيل عن سفيان بن عيينة قال: جاء ابن لسليمان بن عبد الملك، فجلس إلىٰ جنب طاووس، فلم يلتفت إليه، فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه! قال: «أردت أن يعلم أن لله عباداً يزهدون فيما في يديه»[4] وهذا يدل ـ مع الشجاعة الإيمانية المربِّية ـ علىٰ صدق لهجته في مختلف التصرفات؛ روىٰ جعفر بن برقان عن عمرو بن دينار قال: حدثنا طاووس ـ ولا تحسبنَّ فينا أحداً أصدق لهجةً من طاووس...[5].

ولا تسل عن تنسُّكه وصلته بمولاه ﷻ عبادة وسيراً علىٰ طريق المتقين؛ ففي «الحلية» و«صفة الصفوة»: صلَّىٰ وهب بن منبه وطاووس اليماني الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة[6]. وقال ابن حبان: كان من عُبَّاد أهل اليمن، ومن سادات التابعين، مستجاب الدعوة، حجَّ أربعين حجَّة[7]. وقال ابن الجوزي

---

(١) «صفة الصفوة»: ٢/ ١٦٣، «السير»: ٥/ ٣٩.

(٢) «الطبقات»: ٥/ ٣٩، «السير»: ٥/ ٣٩، «الحلية»: ٤/ ٩.

(٣) «الحلية»: ٤/ ٩، «السير»: ٥/ ٣٩.

(٤) «صفة الصفوة»: ٢/ ١٦٢، «السير»: ٥/ ٤٢.

(٥) المصدر السابق: ٥/ ٤٦.

(٦) «صفة الصفوة»: ٢/ ١٦٣.

(٧) «السير»: ٥/ ٤٧.

في «المنتظم»: حجَّ أربعين حجة، وجالس سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ[1].

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان الداراني قال: كان طاووس يفترش فراشه ثم يضطجع ثم يتقلَّىٰ كما تتقلَّىٰ الحبة في المقلىٰ، ثم يثبت فيدرجه ـ أي الفراش ـ ويستقبل القبلة حتىٰ الصباح، ويقول: طيَّر ذِكْرُ جهنَّمَ نومَ العابدين[2]. وحدَّث ابن أبي روَّاد قال: رأيت طاووساً وأصحابه إذا صلَّوا العصر، استقبلوا القبلة، ولم يكلموا أحداً، وابتهلوا بالدعاء[3]. وفي «صفة الصفوة» عن داودَ بن إبراهيمَ أن الأسد حبس الناس ليلةً في طريق الحج، فدقَّ الناسُ بعضهم بعضاً، فلما كان في السحر، ذهب عنهم، فنزل الناس يميناً وشمالاً، فألقوا أنفسهم فناموا، وقام طاووس يصلِّي، فقال ابن طاووس: ألا تنام فقد نَصِبْتَ الليلة! فقال طاووس: ومن ينام السحر[4]؟!

أرأيت إلىٰ هذا المنهج الغالي في التربية والتعليم عند الربانيين كيف يقوم ـ أول ما يقوم ـ علىٰ انضمام القدوة العملية إلىٰ الكلمة والتوجيه؟! فهم يربون ويعلِّمون بالكلمة الحكيمة والقدوة الصالحة جميعاً جزاهم الله عن الأمة كل خير!!

ولا بدع بعد هذا: أن يقول حبيب بن أبي ثابت: اجتمع عندي خمسة لا يجتمع مثلهم عند أحد: عطاءٌ ـ يعني: ابن أبي رباح ـ وطاووس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة[5].

ومن مروياته الثمينة ـ وكلها كذلك ـ ما روىٰ معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: لقي عيسىٰ عليه السلام إبليس، فقال: أما علمتَ أنه لا يصيبك إلا ما قدِّر لك؟ قال: نعم، قال: فارق ذِروة هذا الجبل، فتردَّ منه، فانظر أتعيش أم لا؛ قال عيسىٰ: إن الله يقول: لا يَجرِّبني عبدي، فإني أفعل ما شئت[6].

ومن مواعظه الحكيمة النافعة: ما روىٰ أبو نُعيم بسنده عن ابن جُريج

---

(1) «المنتظم»: ٧/ ١١٥.
(2) «صفة الصفوة»: ٢/ ١٦٣.
(3) «السير»: ٥/ ٤٨.
(4) «صفة الصفوة»: ٢/ ١٦٣.
(5) «الحلية»: ٤/ ٩، «السير»: ٥/ ٤٣.
(6) المصدر السابق: ٥/ ٤٣.

قال: قال لي عطاء: جاءني طاووس، فقال لي: يا عطاء! إياك أن تُنزل حاجتك بمن أغلق دونك بابه، وجعل عليه دونك حجابه، ولكن أنزلها بمن بابه مفتوح لك إلىٰ يوم القيامة؛ أمرك أن تدعوه، وضمن لك أن يستجيب لك ـ أو: ووعدك الإجابة[١].

وحدّث وكيع بن الجراح، عن أبي عبد الله الشامي ـ وقيل: وكيع عن أبيه، عن أبي عبد الله الشامي ـ، قال: استأذنت علىٰ طاووس لأسأله عن مسألة، فخرج عليَّ شيخ كبير، فظننته هو، فقلت: أنت طاووس؟ فقال: لا، أنا ابنه، قلت: إن كنتَ ابنَه، فقد خرف أبوك، قال: تقول ذاك! إن العالِم لا يخرف، قال: فدخلت عليه، فقال لي طاووس: سَلْ وأوجز، قلتُ: إن أوجزتَ أوجزتُ لك، قال: إن شئتَ علمتُك في مجلسك هذا القرآن والتوراة والإنجيل؛ قلتُ: إن علَّمتنيهم لا أسألك عن شيء. قال: «خفِ الله مخافةً لا يكون شيءٌ عندك أخوفَ منه، وارجُهُ رجاءً هو أشدُّ من خوفك إياه، وأحبَّ للناس ما تُحبُّ لنفسك»[٢].

وجميل ما نقرأ من أن خامس الراشدين عمرَ بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، كتب إليه طاووس رحمهما الله: إن أردتَ أن يكون عملك خيراً كلَّه: فاستعمل أهل الخير، فقال عمر: كفىٰ بها موعظة[٣].

وقال عبد الله بن طاووس: قال لي أبي: يا بنيَّ صاحبِ العقلاءَ تُنْسَبْ إليهم وإن لم تكن منهم، ولا تصاحب الجهَّالَ فتنسبَ إليهم وإن لم تكن منهم، واعلم أنه لكل شيء غاية، وغاية المرء حُسْنُ عقله[٤].

هذا: وروىٰ ابن سعد في «الطبقات» عن سيف بن سليمان قال: مات طاووس بمكة قبل يوم التروية بيوم، وكان هشام بن عبد الملك قد حجَّ تلك السنة وهو خليفة سنة ستٍ ومائة، فصلَّىٰ علىٰ طاووس، وكان له يوم مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بضع وتسعون سنة[٥].

---

(١) «الحلية»: ٤/ ١١، «صفة الصفوة»: ٢/ ١٦٣، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٥١٠.
(٢) «الحلية»: ٤/ ١١، «السير»: ٥/ ٤٧.
(٣) «وفيات الأعيان»: ٢/ ٥٠٩، المصدر السابق: ٢/ ٥١١.
(٤) «الطبقات الكبرىٰ»: ٥/ ٥٤٢.
(٥) «الطبقات الكبرىٰ»: ٥/ ٥٤٢.

وقال الإمام الذهبي: ويقال: كانت وفاته يوم التروية من ذي الحجة، وصلىٰ عليه الخليفة هشام بن عبد الملك، اتفق له ذلك، ثم بعد أيام اتفق له الصلاة بالمدينة علىٰ سالم بن عبد الله. وقال الذهبي: لا ريب في وفاة طاووس في عام ست ومائة[1].

رحم الله طاووس بن كيسان أبا عبد الرحمـٰن وأعلىٰ مقامه في الربانيين يوم الدين.



(١) «السير»: ٥/ ٤٥ و٤٩.

يتفكرون.. فيعتبرون[1]

حين يكرم الله المسلم بتفتح البصيرة ويقظة القلب: يحس بعبوديته لله وأن صدق هذه العبودية كائن في تسخير الجوارح لطاعة الله والجهاد في سبيله، لذا تجده دائم الفكرة، ينظر فيعتبر، لا تبطره النعمة، ولا تصرفه الدنيا وملذاتها عن الجهاد في سبيل الله والعمل للآخرة التي هي خير وأبقىٰ، وتراه حين يراه، لا يفتر عن ذكر الله، والتفكر في آلائه، يذكر الموت فلا يغتر بالحياة الدنيا، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين في دار كرامته فيصغر في عينه كل ما يعظمه أولئك الذين غرهم بالله الغرور.

ولقد وصف الله أولي الألباب في سورة آل عمران فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

وللربانيين أهل الخشية من علماء هذه الأمة ورجالها كلمات تنم عن مدىٰ تذوقهم لهاتين الصفتين من صفات أولي الألباب، وصفاء إحساسهم بنعم الله ودلالتها علىٰ قدرته وحكمته جل وعلا. قال الشيخ أبو سليمان الداراني ـ نسبةً إلىٰ داريا قرب دمشق ـ: «إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري علىٰ شيء إلا رأيت لله عليَّ فيه نعمةً ولي فيه عبرة»[2] وعن الحسن البصري أنه قال: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» وروىٰ الفضيل بن عياض عن الحسن أيضاً قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك»[3] وإذن فلا بد

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة التاسعة عشرة، العدد (٦)، ربيع الآخر ١٤٠٠هـ، آذار ١٩٨٠م.

(٢) وانظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: ٢/ ٨٢٥، «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٥٨٥.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٨٢٥. وانظر: «الحلية»: ٢/ ١٧٤، «المعرفة والتاريخ» للفسوي: ٢/ ٤٥.

للمسلم من أن يجلو هذه المرآة دائماً لتريه حسناته فيزداد منها وسيئاته فيتوب إلىٰ الله ويقلع عنها، ويزداد إحساسه بالعبر التي تولدها الفكرة المنوّرة عند المؤمن.

قال سفيان بن عيينة: «الفكرة نور يدخل قلبك» وربما تمثل بهذا البيت:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة[1]

ولم يكن عمر بن عبد العزيز ﷺ بمنأى عن هذه الساحة المشرقة المباركة، فقد كانت حياته وهو يحمل مسؤولية الإمارة صورة صادقة عن هذا الصفاء الذي ارتفع به إلىٰ الإنابة الدائمة لله ﷻ فكان ـ وهو يحكم الناس ـ رجل الآخرة في عدله وجهاده وتقواه؛ فقد روي عنه قوله: «الكلام بذكر الله ﷻ حسن، والفكرة في نعم الله من أفضل العبادة».

كما روي أنه بكىٰ يوماً بين أصحابه، فسئل عن ذلك، فقال: «فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتىٰ تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادكر»[2].

رحم الله الحسن وسفيان، ورحم الله خامس الراشدين ورضي عنه، فلقد برز في تاريخ هذه الأمة أنموذجاً لمعنىٰ التقوىٰ والصلاح، وأن ذلك ليس مقصوراً علىٰ الفرد في نفسه، وإنما هو قضية عظيمة تنعكس علىٰ المجتمع، فعمر بن عبد العزيز لم يكن عابداً في صومعة، ولكن عَبَدَ الله بتحكيم شريعة الإسلام، وإقامة العدل بين الناس، وزهادته في الدنيا ـ وهي مذللة بين يديه ـ وقاد جيوش الجهاد إلىٰ ساحات القتال في سبيل الله، والتمكين لأمة الإسلام في الأرض.

أجل: لقد كان صلاح عمر بن عبد العزيز ضياء علىٰ طريق المسلمين في إعزاز دين الله، والتوطيد لكلمة الحق في المجتمع، وإقامة صروح العدل الذي جاء به الإسلام.. ذلكم هو الرجل الرباني الذي استطاع أن يحقق ـ بصدقه وإخلاصه ـ في زمن يسير ما تعجز عن تحقيقه السنون وهكذا يعلم الربانيون.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٨٢٥. (٢) المصدر السابق: ٢/ ٨٢٦.



تنبيهات ثمينة[1]

مع حجة الإسلام العالم الرباني الإمام أبي حامد الغزالي المتوفىٰ سنة ٥٠٥هـ في هذه التنبيهات عند كلامه علىٰ أصناف المغترين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وربما يحرصون علىٰ انفاق المال في الحج، فيحجون مرة بعد أخرىٰ، وربما تركوا جيرانهم جياعاً، ولذلك قال ابن مسعود: «في آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب، يهون السفر عليهم، ويبسط لهم في الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار، وجاره مأسور بجنبه لا يواسيه»[2].

وقال أبو نصر التمار: «إن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث وقال: قد عزمت علىٰ الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم. قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ تزاهداً أو اشتياقاً إلىٰ البيت أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله، قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالىٰ وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون علىٰ يقين من مرضاة الله تعالىٰ أتفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحداً فافعل فإن إدخالك السرور علىٰ قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوىٰ في قلبي فتبسم بشر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة السادسة، العدد (١٠)، ذو الحجة ١٣٨٥هـ، نيسان ١٩٦٦م.

(٢) وانظر: «إتحاف السادة المتقين» للزبيدي: ٨/ ٤٨٧ مع «الإحياء».

والشبهات، اقتضت النفس أن تقضيَ به وطراً فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلىٰ الله علىٰ نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين»[1].

وفرقة أخرىٰ من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلىٰ نفقة، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولىٰ علىٰ بواطنهم فهو يحتاج إلىٰ قمعه بإخراج المال، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف علىٰ الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء، ومن قتلته الحية متىٰ يحتاج إلىٰ السكنجبين؟ ولذلك قيل لبشر: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق علىٰ المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه ومن جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

وفرقة أخرىٰ غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم، ومن يحتاجون إليه في المستقبل لاستسخار في خدمة أو من لهم فيه علىٰ الجملة غرض، أو يسلمون ذلك إلىٰ من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته. وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور، ويظن أنه مطيع لله تعالىٰ وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضاً من غيره، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضاً لا يحصىٰ وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه علىٰ أجناس الغرور.

وفرقة أخرىٰ من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة، ويظنون أن لهم علىٰ مجرّد سماع الوعظ ـ دون العمل ودون الاتعاظ ـ أجراً، وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير فإن لم يهيج الرغبة

(١) «حلية الأولياء»: ٨/ ٣٣٩.

فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث علىٰ العمل فإن ضعفت عن الحمل علىٰ العمل فلا خير فيها، وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلىٰ ذلك الغير فلا قيمة له، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد علىٰ أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم! أو نعوذ بالله أو سبحان الله! ويظن أنه قد أتىٰ بالخير كله وهو مغرور. وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً. فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئاً، فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك حتىٰ تقبل علىٰ الله تعالىٰ إقبالاً قوياً أو ضعيفاً وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً»[1].

ونختم بكلمات عن حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله:

هو الإمام البحر حجة الإسلام والمسلمين، أعجوبة الزمان وإمام أئمة الدين، الفقيه الشافعي، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزَّالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط. ولد سنة خمسين وأربعمائة وشدا ببلده طوس شيئاً من الفقه علىٰ الإمام الرازكاني، وسمع «صحيح البخاري» من أبي عبد الله الحفصي، ثم قدم نيسابور مختلفاً إلىٰ درس إمام الحرمين، وجدَّ واجتهد حتىٰ بذَّ أقرانه، وحتىٰ كان الطلبة يستفيدون منه ويدرس لهم ويرشدهم، ومهر في الكلام والجدل حتىٰ صار عين المناظرين، وشرع في التصنيف، وبدا أنه من أذكياء العالم في كل ما تكلّم فيه من حسن الوضع والترتيب وتحقيق الكلام في مسائل الخلاف، ومما صنفه في حياة شيخه الجويني الذي كان ظهور تلميذه لا يعجبه بعض الشيء: كتاب «المنخول» إذ نظر الجويني في الكتاب، فقال له: دفنتني وأنا حيٌّ هلا صبرتَ

---

(١) «إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين» للزبيدي: ٨/ ٤٨٧، «إحياء علوم الدين»: ٣/ ٦٣٣ ـ ٦٣٥.

حتىٰ أموت؟! أراد أن كتابك قد غطَّىٰ علىٰ كتابي. ويشاء الله تعالىٰ أن يرسم له التدريس في «المدرسة النظامية» في بغداد، ولهذه المدرسة ما لها من عظيم الشأن في تاريخنا، فدخل بغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ودرَّس بها فأجاد وأحسن وسنُّه أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رؤوس العلماء في ذلك الوقت، وأعجبوا به أيَّما إعجاب، وصار بعد إمامة خراسان إمامَ العراق، وكان ممن حضر عنده ابن عقيل وأبو الخطاب من رؤوس الحنابلة، فتعجَّبوا من دقة بحوثه وبلاغته وفصاحته واطلاعه. قال ابن الجوزي: وكتبوا كلامه في مصنفاتهم. ويذكر أن أبا حامد ترك الظهور والرياسة في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعائة وسلك طريق الزهد والانقطاع والتألُّه مشتغلاً بأسباب التقوىٰ والتزود للآخرة بعيداً عن الأضواء، وقصد البيت الحرام وحجَّ، فلما رجع توجه إلىٰ الشام فأقام في دمشق وبيت المقدس مدة، والغالب أنه صنّف في تلك المدة «إحياء علوم الدين» ثم مضىٰ إلىٰ بغداد وخراسان ودرَّس مدة بطوس، ثم ترك التدريس والمناظرة واشتغل بالعبادة. ثم مضىٰ إلىٰ رحمة الله إلىٰ ربه فكانت وفاته في الرابع عشر من جمادىٰ الآخرة سنة ٥٠٥هـ. قال عبد الغافر الفارسي: «والله يخصه بأنواع الكرامة في آخرته كما خصه بقبول العلم في دنياه بمنّه، ولم يعقب إلا البنات ودفن بطوس. وكان له من الأسباب ـ إرثاً وكسباً من النسخ ـ ما يقوم بكفايته ونفقة أهله، وأولاده، فما كان يباسط أحداً في الأمور الدنيوية، وقد عرضت عليه أموال فما قَبِلها، وأعرض عنها، واكتفىٰ بالقدر الذي يصون به دينه، ولا يحتاج لسؤال ومنال من غيره»[1]. وقال ابن الجوزي منبئاً عن مرحلته الأخيرة: «ثم إنه ترك التدريس والرياسة، ولبس الخام الغليظ، ولازم الصوم، وكان لا يأكل إلا من أجرة النسخ. . . ثم ألزمه بعض الوزراء بالخروج إلىٰ نيسابور فدرَّس بنظاميَّتها، ثم عاد إلىٰ بلده طوس. . . وأقبل علىٰ تلاوة القرآن، وحفظ الأحاديث الصحاح»[2] وقد سأله بعض أصحابه وهو في سياقة الموت فقال: أوصني، فقال: عليك بالإخلاص، فلم يزل يكررها حتىٰ مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأعلىٰ

---

(١) «تاريخ دمشق»: ٥٥/٢٠٢ ـ ٢٠٤. (٢) «المنتظم»: ١٧/١٢٥.

مقامه في الآخرين[1]. ومن مصنفاته: «البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز» و«الخلاصة» و«الإحياء» كما ألف «المستصفىٰ» في أصول الفقه و«المنخول» و«شفاء الغليل» و«التبصرة» و«اللباب» و«المنتحل» في الجدل و«تهافت الفلاسفة» و«محكّ النظر» و«معيار العلم» و«مشكاة الأنوار» و«المنقذ من الضلال» و«حقيقة القولين» وأشياء[2].

هذا: ومعلوم أن مما أخذ عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن بضاعته مزجاة في الحديث، الأمر الذي جعلنا نقع علىٰ عدد غير قليل من الأحاديث الضعيفة أو شديدة الضعف أحياناً في كتابه «الإحياء» وقد رأينا أنه عكف أخيراً ـ مع الصلة بالقرآن ـ علىٰ حفظ الأحاديث الصحاح. ورحم الله الحافظ الزين العراقي الذي أحسن في تخريج أحاديث وآثار الإحياء، ولئن خولف الغزالي في بعض أمور جاءت في «الإحياء» فقد ختمت العصمة بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وما من أحد بعده إلا له وعليه. قال الإمام الذهبي في بعض تعليقاته: «الغزالي إمام كبير، وما من شرط العالم أنه لا يخطئ» وقال أيضاً: «فرحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندّعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول»[3] رحم الله حجة الإسلام أبا حامد رحمة واسعة ونفعنا بعلماء الأمة المحمدية الربانيين، وأعلىٰ مقامه ـ بما قدَّم ـ في الآخرين.



(١) «البداية والنهاية»: ١٦/ ٢١٥.

(٢) وانظر: «السير»: ١٩/ ٣٣٤.

(٣) المصدر السابق: ١٩/ ٣٣٩، ٣٤٦.



المواجهة مع قازان[1] وأخلاق الربانيين

من أعلام الزهد والورع والنسك علىٰ صدق ومعرفة وحسن اتباع: أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح عمر بن السيد. وكان شيخاً جليلاً بشوش الوجه حسن السمت، كثير الوقار، عليه سيما العبادة والخير، يروىٰ أنه كان مع شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في جملة من كان يوم قازان المشهور حيث ظهرت شجاعة ابن تيمية وجرأته في الحق ومحض خوفه من الله تعالىٰ وحده.

وفي حديث أبي عبد الله عن ذلك قال: «وجرتْ له مع قازان وقطلوشاه وبولاي ـ وهم ممن يهاب الناس بطشهم وسلطانهم ـ أمور ونُوب قام ابن تيمية فيها كلها لله، وقال الحق، ولم يخش إلا الله ﷻ. قال: وقرب قازان إلى الجماعة طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس، وقال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه: «اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لله فانصره وأيده وملّكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره». قال: وقازان يؤمِّن علىٰ دعائه، ويرفع يديه، قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله، قال أبو محمد: فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم. قال:

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الثانية عشرة، ربيع الأول وربيع الآخر ١٣٩١هـ، أيار وحزيران ١٩٧١م.

فانطلقنا عصبة، وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان، فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر إلىٰ دمشق، وينظرون إليه، قال: والله ما وصل إلىٰ دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، أما أولئك الذين أبَوْ أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فأوقعوا بهم نهباً عن آخرهم.

قلت: هكذا فليكن العلماء، ولمثل هذا فليعمل العاملون. ولقد وضح هذا الأمر للعارف بالله أبي محمد فتحدث عنه بأمانة، ولا يعرف الفضل إلا ذووه.

* * *

ولنعرج علىٰ ما قاله المؤرخون وفيهم الحافظ ابن كثير في شأن الشيخ محمد العالم الرباني وصديقه شيخ الإسلام ابن تيمية وموقفه الإيماني الشجاع من قازان. قال ابن كثير: وممَّن تُوفِّي فيها ـ أي سنة ٧١٨هـ ـ من الأعيان:

الشيخُ الصالحُ العابدُ الناسكُ الورِعُ الزاهدُ القُدْوَةُ بقيةُ السلفِ وقُدْوَةُ الخلفِ، أبو عبدِ اللهِ محمدُ ابنُ الشيخ الصالحِ عمرَ بنِ السيدِ القُدْوَةِ الناسِكِ الكبيرِ العارفِ أبي بكرِ بنِ قَوَامِ بن عليِّ بنِ قَوَامٍ[١] البالِسِيُّ، وُلِدَ سنةَ خمسينَ وستِّمائةٍ ببالِسَ، وسمع من أصْحاب ابنِ طَبَرْزد، وكان شيخاً جليلاً بشوشَ الوَجْهِ، حسنَ السَّمتِ، مَقْصِداً لكلِّ أحْدٍ، كثيرَ الوَقارِ، عليه سِيمَا العِبادةِ والخيرِ، وكان يومَ قازان في جُملةِ مَن كان مع الشيخِ تقيِّ الدِّينِ ابنِ تَيْمِيَّةَ لمَّا تكلَّمَ مع قازان، فحكىٰ عن كلامِ شيخ الإسلام تقيِّ الدينِ لقازان وشجاعتِه وجُرْأتِه عليه، وأنَّه قال لتَرْجُمانِهِ: قل للقان: أنتَ تَزْعُمُ أنَّكَ مُسلمٌ ومعك مُؤَذِّنُونَ وقاضٍ وإمامٌ وشيْخٌ علىٰ ما بَلغَنا، فغزَوْتَنا ودَخلْتَ[٢] بلادَنا علىٰ ماذَا؟ وأبوكَ وجَدُّك هولاكو كانا كافرَيْنِ، وما غزَوَا بلادَ الإسلامِ، بل عاهَدا فوفَّيَا[٣]، وأنتَ عاهدْتَ فغدرْتَ، وقُلْتَ فما وَفَّيْتَ. قال: وجرَتْ له مع

(١) وتنظر ترجمته في: «ذيول العبر»: ص٩٦، و«الوافي بالوفيات»: ٤/ ٢٨٤، و«تذكرة النبيه»: ٢/ ٩٦، و«الدرر الكامنة»: ٤/ ٢٤٢، و«شذرات الذهب»: ٦/ ٧٩.

(٢) في (م): «بلغت».

(٣) في (م): «قومنا».

قازان وقُطْلُوشَاه وبُولاي[1] أمورٌ ونُوَبٌ، قام ابنُ تَيْمِيَّةَ فيها كلِّها لله، وقال الحقَّ، ولم يخْشَ إلا الله ﷻ. قال: وقُرِّب إلىٰ الجماعة طعامٌ فأكَلُوا منه إلا ابنَ تَيْمِيَّةَ، فقيلَ له: ألا تأكُلُ؟ فقال: كيفَ آكُلُ مِن طعامِكم وكلُّه ممَّا نَهَبْتُم مِن أَغْنام الناسِ، وطبخْتُموه بما قَطَعْتُم مِن أشجار الناس؟ قال: ثم إنَّ قازان طلَب منه الدُّعاءَ، فقال في دُعائه: اللَّهُمَّ إنْ كانَ عبدُك هذا محمودٌ إنَّما يُقاتِلُ لتكونَ كَلِمتُكَ هي العُلْيا، وليكون الدِّينُ كلُّه لك، فانْصُرْه وأيِّدْه، ومَلِّكْه البِلادَ والعِبادَ، وإنْ كان إنَّما قام رِياءً وسُمْعَةً وطَلباً للدنْيا، ولتَكُونَ كَلِمتُه هي العُليا، ولِيُذِلَّ الإسلامَ وأهلَه، فَاخذُلْه، وزَلزله، ودَمِّرْه، واقْطَعْ دَابِرَه. قال: وقازَان يُؤَمِّنُ علىٰ دُعائه، ويرْفَعُ يديْه. قال: فجعلنا نجمَعُ ثِيابَنا خوفاً مِن أنْ تتلوَّثَ بدَمِه إذا أَمَر بقَتْلِه. قالَ: فلمَّا خرَجْنا مِن عندِه قال له قاضي القُضاةِ نَجْمُ الدِّينِ بنُ صَصْرَىٰ وغيرُه: كِدْتَ أن تُهْلِكَنا، وتُهْلِكَ نفْسَك، واللهِ لا نَصْحَبُكَ مِن هنا. فقال: وأنا واللهِ لا أصْحَبُكم. قال: فانْطَلقنا عُصْبَةً، وتأخَّرَ هو في خاصَّةِ نفسِه، ومعه جماعةٌ مِن أصْحابِه، فتَسامَعَتْ به الخَواتِينُ[2] والأُمراءُ مِن أصحابِ قازان، فأتَوْه يتبرَّكُونَ بدُعائه، وهو سائرٌ إلىٰ دِمَشْقَ، ويَنْظُرون إليه، قال: واللهِ ما وصل إلىٰ دِمَشقَ إلَّا في نَحْوِ ثَلاثِمائةِ فارِسٍ في رِكابِه، وكنتُ أنا مِن جُملةِ مَن كان معه، وأمَّا أولئك الذين أبَوا أنْ يصْحَبُوه، فخرَج عليهم جماعةٌ من التَّتَرِ فشلَّحُوهم[3] عن آخرِهم. هذا الكلامُ أو نحوُه. وقد سمِعْتُ هذه الحِكايةَ مِن جماعةٍ غيرِه، وقد تقدَّمَ ذلك[4].

تُوفِّي الشيخُ محمدُ بنُ قَوامٍ ليلةَ الاثنين الثاني والعِشْرينَ مِن صَفَرٍ بالزَّاوِيَةِ المعروفةِ بهم غَرْبيّ الصالحِيَّةِ والناصِريَّةِ والعادِلِيَّةِ، وصُلِّي عليه بها، ودُفِنَ فيها، وحضَر جِنازَتَه ودَفْنَه خَلقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غَفِيرٌ، وكان في جملةِ الجَمْعِ الشيخُ تقيُّ الدِّينِ ابنُ تَيْمِيَّةَ؛ لأنَّه كان يُحِبُّه كثيراً، ولم يكنْ للشيخِ محمدٍ مُرَتَّبٌ علىٰ

---

(١) في الأصل: «بولادي».
(٢) في (م): «الخواقين».
(٣) شُلِّح فلان: إذا خرج عليه قطاع الطريق، فسلبوه ثيابه وعرَّوه. قال الأزهري: وأحسبها نبطية. «تهذيب اللغة»: ٤/ ١٨٣.
(٤) انظر ما تقدم في أحداث سنة تسع وتسعين وستمائة.

الدولةِ، ولا لزاوِيَتِه مرتبٌ ولا وَقْفٌ، وقد عُرِضَ عليه ذلك غيرَ مَرَّةٍ فلم يقْبَلْ، وكان يُزارُ، وكان لدَيْه علمٌ وفضائلُ جَمَّةٌ، وكان فَهْمُه صحيحاً، وكانت له معْرِفَةٌ تامَّةٌ، وكان حسنَ العَقِيدَةِ، وطوِيَّتُه صحِيحَةٌ، وكان مُحِبّاً للحديثِ وآثارِ السَّلَفِ، كثيرَ التِّلاوَةِ والجَمعِيَّةِ[1] علىٰ اللهِ ﷻ، وقد صنَّفَ جُزْءاً فيه أخْبارٌ جيِّدَةٌ، رَحِمَهُ اللهُ، وبَلَّ ثراه بوابِلِ الرَّحمةِ، آمِينَ.

هذا: وكانت وفاة ربانيِّنا الشيخ محمد عام ٧١٨ للهجرة، كما كانت وفاة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية عام ٧٢٨هـ، أجزل الله مثوبتهما وبوّأهما في دار كرامته منازل الأبرار المقربين[2].



---

(١) الجمعية: عند الصوفية اجتماع الهمم في التوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ، والاشتغال به عما سواه، وبإزائها التفرقة. «جامع العلوم في اصطلاحات الفنون»: ١/ ٤١٠.

(٢) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير: ١٨/ ١٨٢ ـ ١٨٤، «شذرات الذهب» لابن العماد: ٦/ ٤٩، «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٢٨٤.

من روائع كلمات

العلامة الرباني المجاهد الدكتور مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

نقتطف هذه المواعظ والحكم[2]

• خلوة ساعة بينك وبين ربك، قد تفتح لك من آفاق المعرفة، ما لا تفتحه العبادة في أيام معدودات.

• كل عسير إذا استعنت بالله فهو يسير، وكل يسير إذا اعتمدت فيه علىٰ نفسك أو أحد من خلقه، فهو عسير.

• ثلاثة احرص علىٰ صحبتهم: عالم متخلق بأخلاق النبوة، وحكيم بيضت فَوديه[3] ليالي التجربة، وشهم له من مروءته ما يحمله علىٰ نصحك إذا أخطأت، وإقالتك إذا عثرت، وجبرك إذا انكسرت، والدفاع عنك إذا غبت، والإكرام لك إذا حضرت.

• لا يقع التواضع موضعه إلا بثلاث: أن يكون من تتواضع إليه مستحقاً لهذا التواضع، وأن يكون عارفاً بقيمته، وأن لا يلتبس التواضع بالذلة عند من يشاهدونه.

• لا ثواب للعبادة إلا بثلاث: إخلاص لله، وحضور مع الله، ووقوف عند حدود الله.

• لا تكمل الرجولة إلا بثلاث: ترفع عن الصغائر، وتسامح مع المقصرين، ورحمة بالمستضعفين.

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة، الأعداد (٤ و٥ و٦)، جمادىٰ الآخرة ورجب وشعبان ١٣٨٤هـ - تشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول ١٩٦٤م. وقد توفي أعزَّه الله في دار المقامة سنة ١٩٦٤م.

(٢) من كتاب «هكذا علمتني الحياة»، الصفحات: ٣٧، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٦٢.

(٣) الفَود: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن.

• من عرف الحق لذت عنده التضحيات.

• إذا همّت نفسك بالمعصية فذكّرها بالله، فإذا لم ترجع فذكّرها بأخلاق الرجال، فإذا لم ترجع فذكّرها بالفضيحة إذا علم بها الناس، فإذا لم ترجع فاعلم أنك تلك الساعة قد انقلبت إلىٰ حيوان.

• إذا مدّك الله بالنعم وأنت علىٰ معاصيه فاعلم بأنك مستدرج، وإذا سترك فلم يفضحك فاعلم أنه أراد منك الإسراع في العودة إليه.

• احذر الحقود إذا تسلّط، والجاهل إذا قضىٰ، واللئيم إذا حكم، والجائع إذا يئس، والواعظ المتزهد (الذي يتظاهر بالزهد) إذا كثر مستمعوه.

• إذا فهمت عن الله في الضرّاء كما تفهم عنه في السرّاء فقد صدقت في حبه.

• احذر أن تظلم الضعفاء، فيظلمك من هو أقوىٰ منك.

• لأن تحسن الظن فتندم، خير من أن تسيء الظن فتندم!

* * *

• (الحياء من أهم دواعي الألفة بين الناس، فلولاه لأكل الناس بعضهم بعضاً، ومن ثمّة كان الحياء من الإيمان، ومن لا حياء فيه لا خير منه.

• إياك والكذب، فإن من تكذب عليه إما أن يكون واعياً فيحتقرك، أو خبيثاً فيكذب عليك، أو ساذجاً فيخدع بك، ثم ما تلبث الحقيقة أن تنكشف له فيكفر بك، هذا كله عدا عقوبة الله وعذابه.

• العالِم الذي يخاف الله لا يجاري أهواء الناس تملقاً لهم، ولا يعطل مصالحهم المشروعة إعناتاً لهم، ولكنما يقول الحق برفق تستسيغه عقولهم، ويدافع عن مصالحهم بقوة تدفع صولة الظالمين عنهم، وكذلك كان الأنبياء والمرسلون.

• صولة الحق في ساعات، تقضي علىٰ انتصار الباطل في سنوات.

ومن كلام الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله[1]:

- خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم، ولا دنياهم عن آخرتهم.
- لا ينبغي أن يطلب العبد الورع بتضييع الواجب.
- حسن الخلق احتمال الأذىٰ، وقلة الغضب، وبسط الوجه، وطيب الكلام.

ومن كلام أبي الحسن سري السقطي أستاذ الجنيد وخاله قوله[2]:

- أربعة أشياء لا يسكن في القلب معها غيرها: الخوف من الله وحده، والرجاء لله وحده، والحب لله وحده، والأنس بالله وحده.
- أحسن الأشياء خمسة: البكاء علىٰ الذنوب، وإصلاح العيوب، وطاعة علّام الغيوب، وجلاء الزيف من القلوب، وألا تكون لكل ما تهوىٰ بركوب.
- من تزيّن للناس بما ليس فيه سقط من عين الله عَزَّ وَجَلَّ.
- خير الرزق ما سلم من خمسة: من الآثام في الاكتساب، والمذلة والخضوع في السؤال، والغش في الصناعة، وأثمان آلة المعاصي ومعاملة الظلمة.
- لن يكمل رجل حتىٰ يؤثر دينه علىٰ شهوته، ولن يهلك حتىٰ يؤثر شهوته علىٰ دينه)[3].

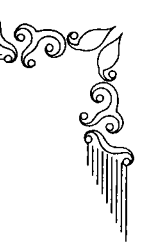


---

(١) المتوفىٰ سنة ٢٤٣هـ. «حلية الأولياء»: ١٠/ ٧٥، «طبقات الصوفية» للسلمي: ٥٨.

(٢) المتوفىٰ سنة ٢٥٣هـ. «طبقات الصوفية» للسلمي: ٥٤.

(٣) «حضارة الإسلام»، السنة الخامسة، العدد (٧)، رمضان ١٣٨٤هـ، كانون الثاني ١٩٦٥م.



مع الرجل الرباني العلّامة الشيخ محمد الحامد رَحِمَهُ اللهُ[1]

لقد اختار الله إلىٰ جواره خلال الأيام القريبة الماضية الشيخ محمد الحامد أجزل الله له المثوبة، ويلاحظ - ولله الفضل والمنّة - أنه سبحانه قد أكرم هذا العلم من أعلام الإسلام، بأن جمع له بين العلم النافع، والعمل بهذا العلم، والاستقامة علىٰ العبادة والورع في الدين، فهو عالم عامل عابد زاهد، مجاهد، يخشىٰ الله واليوم الآخر، وإذا كان فضل العالم علىٰ العابد كفضل رسول الله ﷺ علىٰ أدنىٰ أصحابه، فما بالك بمن أكرمه الله بالعلم والعمل والعبادة والصدّع بالحق والزهد في الدنيا والخشية الصادقة لله عَزَّ وَجَلَّ؟؟

عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ذُكِرَ لرسولِ اللهِ ﷺ رجلان: أحدهما عابدٌ، والآخر عالمٌ، فقال عليه أفضل الصلاة والسَّلام: «**فضلُ العالِم علىٰ العابد كفضلي علىٰ أدناكُم**». ثم قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ وملائكتهُ وأهلَ السَّماواتِ والأرضِ، حتىٰ النَّمْلةَ في جُحرها، وحتىٰ الحوتَ ليصلُّونَ علىٰ معلِّم الناسِ الخيرَ**»[2].

يبعث أمةً وحده

إنا لا نتألّىٰ علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكننا بما عرفنا بيقين لا يعتوره شك، نحتسب أن يكون رَحِمَهُ اللهُ في عداد أولئك الذين عناهم قول النبي ﷺ فيما رواه أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ألَا أخبركم عن الأجودِ الأجود؟ الله هو الأجود، وأنا**

---

(١) «حضارة الإسلام»، السنة العاشرة، العدد (١)، ربيع الأول ١٣٨٩هـ، أيار - حزيران ١٩٦٩م، وقد توفي الشيخ الحامد أكرم الله مثواه في الآخرين يوم الاثنين الواقع في ١٨ من صفر ١٣٨٩هـ الموافق لـ٥ من أيار ١٩٦٩م.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حديث حسن صحيح.

أجودُ ولد آدم: وأجودكم من بعدي رجلٌ عَلَمَ علماً فنشرَ علمهُ، يبعثُ يومَ القيامةِ أمة وحده، ورجلٌ جادَ بنفسِهِ للهِ ﷻ حتَّىٰ يقتلَ»[1].

مصاب الأمة ورفع العِلم..

لقد ذُعرت الأمة بوفاة هذا الرجل الذي قضىٰ في سبيل الإسلام ـ وأعني هنا أولئك الذين يدركون معنىٰ المصاب بموت العالِم العامل الزاهد في الدنيا المجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله ـ لقد ذُعرت الأمة وحقَّ لها ذلك في وقت يعز فيه العاملون الزاهدون المستعلون علىٰ الحطام، الذين يخشون الله فيما يحملون من أمانة العلم، وتبليغها للناس عن بصيرة وتحقيق وتقوىٰ لله ﷻ، أفلا يسوغ لجيلنا الحاضر أن يخاف أن يصدق فيه ما بيَّن رسول الله ﷺ من رفع العلم بقبض العلماء؟؟

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷻ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعهُ منَ الناس، ولكن يقبضُ العلم بقبضِ العلماءِ. حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ النَّاسُ رُؤوساً جُهَّالاً فسئلوا فأفتوا بغيرِ علمٍ فضلُّوا وأضلُّوا»**[2].

نعم يحق لنا أن نخاف.. وإن كان الشيخ ـ رحمه الله تعالىٰ وجزاه عن المسلمين خير الجزاء ـ بما أدَّىٰ من أمانة نشر العلم بأمانة وإخلاص يقل نظيرهما وبسلوكه الذي كان مثلاً كريماً يحتذىٰ قد ترك ـ والحمد لله ـ من نأمل أن تفيد الأمة من علمهم وعملهم وخشيتهم لله بما رباهم عليه من التحقيق والورع والعمل الجاد إن شاء الله.

أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه

إن كل الذين صحبوا الشيخ الحامد رحمه الله بصدق، يعلمون أنه كان في مرضه الذي عانىٰ منه سنين حيث أرهقه الجهد الدائب علماً وتعليماً وخطابة وتدريساً وتأليفاً ومنافحة عن الإسلام، فأخذ منه الإعياء مأخذاً، وحيث تقرَّحت

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٢٧٩٠) وفي سنده للعلماء مقال.

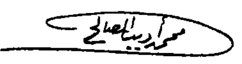
(٢) أخرجه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣) والترمذي (٢٦٥٢) وابن ماجه (٥٢).

كبده حرقة علىٰ المسلمين، وقلقاً علىٰ ما يصيب الأمة في دينها وبعدها عن شريعة الله. . يعلمون أنه لم يكن يجزع من الموت، وإنما كان يرىٰ في المرض جسراً يوصله إلىٰ لقاء الله ﷻ. فلقد أحبَّ لقاء الله فأحب الله لقاءه.

جاء في الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه»**. فقالت عائشة ﵂: إنَّا لنكرهُ الموتَ. قال: **«ليسَ ذلك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضره الموتُ بشِّرَ برضوانِ اللهِ وكرامته، فليسَ شيءٌ أحبَّ إليهِ ممَّا أمامه، فأحبَّ لقاء الله وأحبَّ اللهُ لقاءه، وإنَّ الكافرَ إذا حضرهُ الموتُ بشِّرَ بعذابِ اللهِ وعقوبته، فليسَ شيءٌ أكره إليه ممَّا أمامه فكره لقاء اللهِ، وكرهَ اللهُ لقَاءه»**[(١)].

رحم الله الشيخ الكبير رحمة واسعة، وبوَّأه الفردوس الأعلىٰ في دار كرامته وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الحديد].

هذا وبالله التوفيق، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ الشاهد المبشر النذير نبي الهدىٰ والرحمة والعرفان سيدنا محمد بن عبد الله وعلىٰ آله الأخيار وصحابته الأبرار أجمعين، وجزىٰ الله كريمتيَّ الموفقتين أم عبد الله وأم معتصم علىٰ ما قدماه من معاونة جادة من كل الوجوه والله يتولاهما وأسرتيهما بفضله وعونه. وشكر الله للأخ الأديب الأستاذ عبد الله الطنطاوي ما بذل من جهد خيِّر وللمكتب الإسلامي علىٰ عنايته الفائقة وجودة الإخراج خالص الشكر والتقدير. وأسأل الله تعالىٰ مزيداً من فضله وعونه، وعفواً عما يكون من تقصير، وهو المحمود علىٰ كل حال.



٢٢ من ذي القعدة سنة ١٤٢٧هـ

١٣/١٢/٢٠٠٦م

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٥٠٧)، ومسلم: (٢٦٨٤) والترمذي: (١٠٦٧) والنسائي: (١٨٣٤ و١٨٣٨) وابن ماجه (٤٢٦٤).

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأعلام المترجم لهم

الاسم	الصفحة
عمر بن عبد العزيز	٢٩٧ ـ ٣٠٨، ٣٧١
عمرو بن العاص	٢٨٤ ـ ٢٨٥
عمرو بن عتبة	٩٦ ـ ١٠٣
عمير بن سعد	٤٩ ـ ٥٣
عون بن عبد الله بن عتبة	١٠٤ ـ ١٠٦
الفضيل بن عياض	١٧٣ ـ ١٩٩
مالك بن أنس	٣٥١ ـ ٣٥٢
مالك بن دينار	١٠٧ ـ ١١٠
محمد الحامد	٣٨٤ ـ ٣٨٦
محمد بن حامد، أبو بكر الوراق	٣٥٦
محمد بن عمر بن السيد، أبو عبد الله	٣٧٧ ـ ٣٨٠
محمد بن كعب القرظي، أبو حمزة	٣٠٤ ـ ٣٠٨
محمد بن يوسف بن معدان	٣٤٧ ـ ٣٤٨
مصطفى السباعي	٣٨١ ـ ٣٨٢
مصعب بن عمير	٤٠ ـ ٤٨
معاوية بن أبي سفيان	٢٧١
منذر بن سعيد	٢٣٠ ـ ٢٣٤
موفق الدين ابن قدامة المقدسي	٢٣٨ ـ ٢٤١، ٣٢٥ ـ ٣٢٧
نور الدين الشهيد، محمود زنكي	٢٣٥ ـ ٢٣٧
هارون الرشيد	١٢٢ ـ ١٢٤، ١٧٥ ـ ١٧٦
هشام بن عبد الملك	٣٦٤
يوسف بن أسباط	٢٠٠ ـ ٢٠٢، ٣٤٥ ـ ٣٤٦

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

القسم الثاني

الموضوع	الصفحة